

AL-SHAYBI

AL-SILAH BAYNA AL-TASAWWUF
V.1

2274
.87656
.375
v.

2274.876563.375

v.1

al-Shaybi

al-Silah bayna al-tasaw-
wuf

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
SEP 23 1971	JUN 15 1971		
DUE JUN 15 1991			
DUE JUN 15, 1996			
DUE JUN 15 1991			

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

PAIR>



32101 019684453

ساعات جامعة بغداد على نشره

الضيق والتصوم والتشيع

(رسالة الترتيبية)

الجزء الاول

التشيع والزهد

تأليف

الدكتور كاظم مصطفى الشيلبي
دكتوراه في الفلسفة (مبتدع)
لسانين في اللغة العربية (الاسكندرية)

مطبعة الزهور - بغداد

١٩٦٣/١٣٨٢

ساعات جامعة بغداد على نشره

الضيق والتشويق

(رسالة التجميعة)

al-Şilah bayna al-taşawwuf

الجزء الأول

التشويق والزهد

تأليف

الدكتور كافي الشيلوني

دكتوراه في الفلسفة (كبريتج)

إسناد في الفقه الصوفي (الأسكندرية)

مطبعة الزهراء - بغداد

١٩٦٣/١٣٨٢

مكتبة جامعة القاهرة

كتاب الصلاة

(كتاب الصلاة)

كتاب الصلاة
كتاب الصلاة

كتاب الصلاة

كتاب الصلاة
كتاب الصلاة
كتاب الصلاة

كتاب الصلاة
كتاب الصلاة

تقديم

اصل هذا الكتاب رسالة جامعية كتبت تحت اشراف الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، وناقشتها لجنة مؤلفة منه ومن المرحوم الاستاذ محمود الخضيرى والاستاذ الدكتور على سامى النشار ، فالت درجة الماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى آب ١٩٥٨ •

وغرض الكاتب من هذه الاشارة هو ان هذا البحث ، وان استغرق الفراغ منه خمسة اعوام كاملة ، كان أول رياضة عقلية له فى فترة من غرور الشباب وحماسه وتسرعه • وكان لابد ان يظهر فى البحث آيات على هذه الاوصاف • على انى رجعت الى البحث من جديد فاعملت فيه يد التؤدة والتهديب بقدر الاستطاعة واضفت اليه الكثير خلال اعدادى رسالة الدكتوراه فى كمبردج غير انه بقى يحمل طابعه البارز •

ويحسن ان انبه الى ان هذا العمل قد قام على اساس من الاكثار من النصوص بغية جمع ما تفرق منها فى مكان واحد فيتاح للباحثين تدبرها من جديد واستخلاص النتائج التى يمكن استخلاصها منها ان بالنفى او بالاثبات او بالملاعقة • ومسألة أخرى يهمنى ان اؤكد هنا هى انى تناولت بدايات الاسلام وتطوراتها على نحو موضوعى خالص لاثموبه شائبة من عاطفة او محاباة ولا تقيه او رياء وتركت للحقائق وحدها ان تتمخض عن الاحكام وتؤسس للآراء • ويتعين على ان أقرن بهذه الحقيقة أمرا آخر هو انى لم اصدر عن تحيز او نعة وأن ما قد يبدو كذلك يتوجب ان يوجه الى الاعتزاز بموضوع البحث والتعلق يتبعه واستكناحه لا الحرص على تأييد العقيدة نفسها على نحو كلامى ، وقد لاحظ ذلك كله الدكتور ابو العلا عفيفى فى اثناء مناقشة هذه الرسالة وافصح عنه جهارا •

(أ)

2274
876563
375

v.1

ومما يريح ضميري ان اعترف للقارىء بأننى لا اعتبر هذا البحث مرضيا لغرور الباحث ، على انى اصارحه ايضا بأننى لم ادخر وسعا فى سد الثغرات التى عرضت لى فى اثناء البحث وأنى لم أفر امام صعوبة . لقد كان رائدى الاخلاص ، واحسبى لايسعبنى التواضع على اغفال هذه الخلة فى هذه الرسالة .

ولا يتم هذا التقديم دون التوجه بالشكر الى من يستحقه من الاساتذة والباحثين الذين كانت مشورتهم عنصرا مهما فى اعداء هذا البحث . واول هؤلاء الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، الرئيس السابق لقسم الفلسفة بجامعة الاسكندرية ، الذى اشرف على اصل هذه الرسالة وراجع كل كلمة فيها وبذل وقته وجهده خالصين للعلم شهورا طويلا حرصا على ابراز اصالتها وغناها . وينبغى ان اذكر بالشكر الاستاذ الدكتور على سامى النشار ، الرئيس الحالى لقسم الفلسفة بجامعة الاسكندرية ، فلقد كان من حظى ان اشرف على رسالتى هذه فترة قصيرة حفلت بالفائدة واقتربت بالمودة والاخلاص . ومن الوفاء ان اكلل بأكاليل الشكر من اساتذتنا وشيوخنا العراقيين السيد هبة الدين الشهرستانى لاسهامه برأيه ومشورته فى بعض موضوعات هذه الرسالة وبخاصة فيما يتعلق بجابر بن حيان واشتقاق كلمة «صوفى» ، والاستاذ توفيق وهبى لالقائه الى الكثير مما تعلمته منه عن البكناشية ونظمها ، والدكتور مصطفى جواد لاعارته اياى بحثه فى الفتوة قبل نشره .

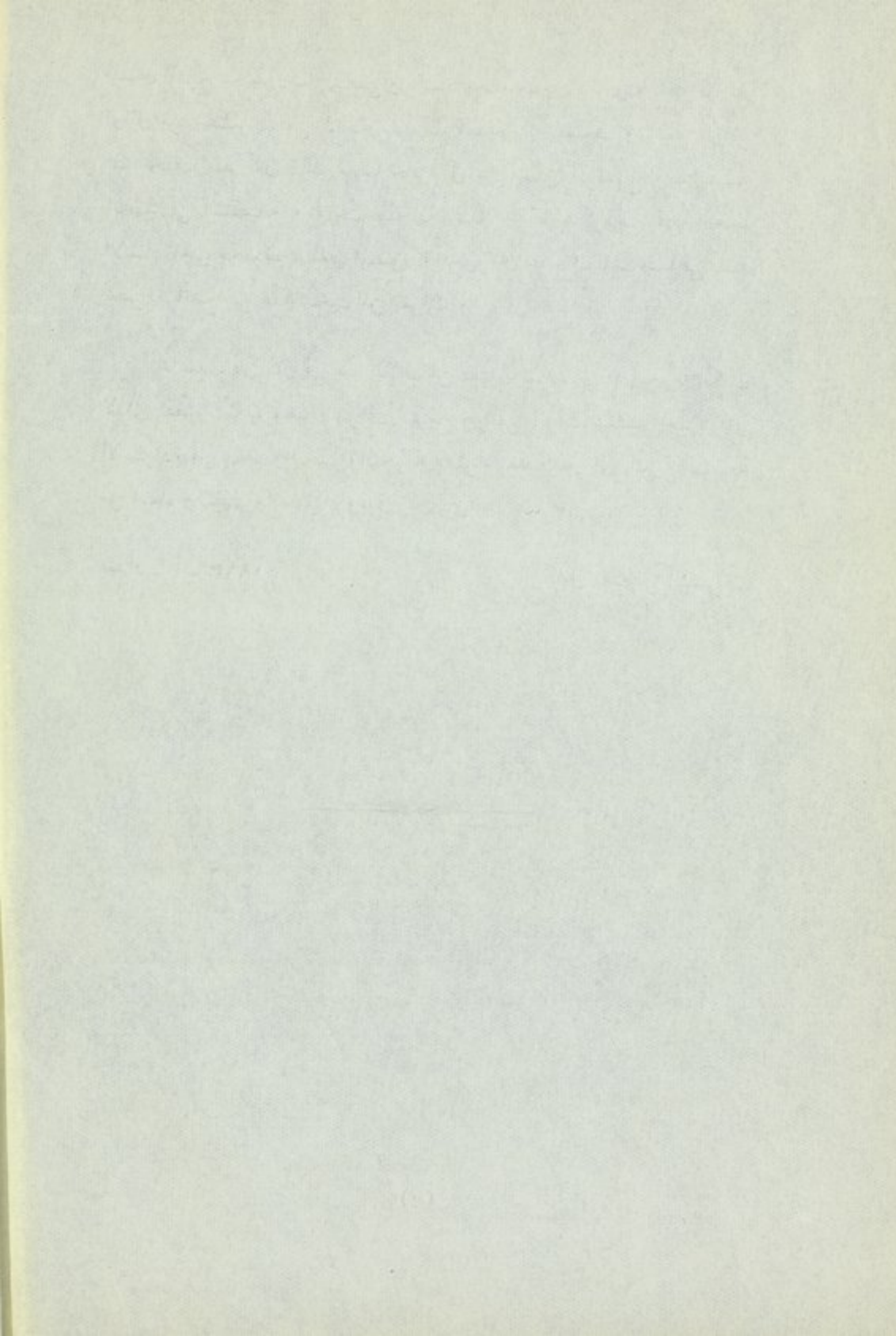
ويسرنى ان اقرن بالشكر اسم صديقى الدكتور حسين على محفوظ لنيابته عنى فى الاتصال بالباحثين الايرانيين حول موضوع رسالتى ولتعريفى بالشيخ محمد باقر ألفت ، من متصوفة ايران المعروفين علما وعملا ، وللخير جزيل الشكر على ما سدد به خطاى فيما يتصل بمعروف الكرخى ودوره فى التصوف فى ضوء صلته بالامام على بن موسى الرضا . ولا بد لى من الاشادة

بفضل الشيخ محمد رضا الشيبى والاساذ محمد بهجة الاثرى ، فلقد كانا من
اوائل من استشرتهم من الباحثين فى قيام الصلة بين التصوف والتشيع ، ولئن
نفيا تحققها لقد كان ذلك منهما حافظا لى على تعمق الموضوع ومضاعفة
الجهد فى استقصائه • واختم صحيفة الشكر هذه بذكر صديقى الحميم
الاساذ ناجى محفوظ ، المعين المستور ، الذى كان عون الصامت سببا فى سد
بعض ما انفتح فى هذا البحث من ثغرات •

اما بعد ، فان كان فى هذا الكتاب من قصور فمرده الى قلة تجربة الكاتب
لا الى تقصير منه ، وهذا اعتراف صريح هو فى الوقت عينه حافظ الى
الاستزادة من العلم والبحث والتجربة والتزام بغد السير الى الغاية المنشودة
من التعلم والفهم والتعمق ، وفوق كل ذى علم عليم •

كامل مصطفى الشيبى

بغداد - آب ١٩٦٣



تمهيد

يدور موضوع هذه الرسالة حول الصلة بين التصوف والتشيع • وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لان امورا قد جددت على كل منهما منذ بدأ في الاسلام حتى صار مستقلا مستقيا عن الاخر • ومن الغريب انه قد ظهر في الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات مازال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب • ومن الملاحظ ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سننيا ، ويستطيع كل من السني والشيعي ان يحيا حياة اسلامية دون ان يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته • غير ان المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن احد هذين الاتجاهين الاسلاميين • فلا بد ان تتصل الطرق الصوفية - وهي في حكم المذاهب الاسلامية من حيث تنظيمها لمجتمعها عقيدة واجتماعا - باتجاه من هذين الاتجاهين الاسلاميين • فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى في فرق اهل السنة واثنائية في فرق الشيعة ، وان كان المتصوفة انفسهم قد حاولوا ان يجعلوا من الصوفية فرقة اسلامية مستقلة عن كلا هذين الاتجاهين على نحو ما ينقل جولد تسبير عن حافظ الشيرازي انه قال : « لاتلم الاثنتين والسبعين فرقة على منازعاتها لانها لاترى الحقيقة وانما تطرق باب الخرافة^(١) ، فيجعل الفرقة الناجية هي فرقة المتصوفة التي هو من رجالها ويلقى بالاثنتين والسبعين في الهاوية • وعلى هذا فان المتصوفة - ممن يعتبرون انفسهم فرقة اسلامية - يستطيعون هم ايضا ان يحيا حياة اسلامية دون ان تكون بهم حاجة الى النظر الشيعي او السني • فكان الاسلام قد اتسق منه

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ١٥٣ •

ثلاثة فروع هي هذه الاتجاهات التي ذكرناها بالإضافة الى اتجاهي الخوارج
 والمعتزلة اللذين عفى عليهما الزمان الا في مواطن محدودة جدا .
 وقد بين كثير من الباحثين انقضاء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة
 والجماعة : فقد قال القشيري في رسالته التي وجهها الى المتصوفة سنة
 ٤٣٠/١٠٣٨-٩ هـ : « اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة بنوا
 قواعد امرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع
 ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل
 ولا تعطيل ^(٢) » . وروى القشيري ايضا ان الجنيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠-١١
 « كان فقيها على مذهب ابي ثور ^(٣) » ، وكان العباس بن سريج الشافعي
 يقول باخذه عن ابي القاسم الجنيد ^(٤) ، وكان الجنيد نفسه يقول : « مذهبنا
 هذا مقيد باصول الكتاب والسنة ^(٥) » ، والشيخ عبدالقادر الجيلي « كان من
 الخابطة ^(٦) » ، وكان سهل بن عبدالله التستري يفسر الآية : يا اهل الكتاب
 لاتعلوا في دينكم ^(٧) بقوله : « لاتجاوزوا دينكم بالبدع وتعلوا عن الحق
 - وهو الكتاب والسنة الاجماع - ميلا الى هوى انفسكم ^(٨) » ، وكان
 النصراباذي يقول : « اصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الاهواء
 والبدع وتعظيم حرمان المشايخ ورؤية اعداء الخلق والمداومة على الاوزاد
 وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ^(٩) » ، ويقول ابو بكر الطمستاني :

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢١ .

(٤) وفيات الاعيان ١/٣٢٣ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٢٢ .

(٦) انظر مثلا شذرات الذهب ٤/٢٠٠ ، طبقات الشعرا في ١/١٠٩ الخ .

(٧) النساء ١٧٨ .

(٨) تفسير التستري ص ٢٤ .

(٩) الرسالة القشيرية ٣٩ .

• الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائمان بين اظهرنا وفضل الصحابة
معلوم لسبقهم الى الهجرة وسحبهم • فمن سحب الكتاب والسنة وتغرب
عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه الى الله فهو الصادق المصيب^(١٠) ، وهكذا
كان شأن زملائهم من رجال التصوف الذين رأى معظمهم انه ثمره اسلامية
لها اللون السني دون الشيعي • وقد نشأ في الشيعة المتأخرين متصوفة
واضحوا الاتجاه كحيدر بن علي الآملي المتوفى بعد سنة
١٣٩٢/٧٩٤ وأبن فهد الحلبي المتوفى سنة ١٤٣٨/٨٤١ وأبناء صفى الدين
الاردبيلي المتوفى سنة ١٣٣٤/٧٣٥ الذين مهدوا لقيام الدولة الصفوية سنة
١٤٩٩/٩٠٥ والمحسن الفيض المتوفى سنة ١٦٧٩/١٠٩٠ وغيرهم ، ولكن
احدا لم يلتفت الى علاقة التصوف - في بدئه - بالتشيع ، وهذه الرسالة تدرس
هذا الموضوع • ولهذا يحسن بنا ان ندخل مبحث التشيع لتعرف الى معناه
ومثله ورجاله وتطوره ليكون ذلك اساسا نعرض عليه افكار التصوف وعندئذ
يتبين لنا مدى العلاقة بين المشريين •

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٨ •

مبشرين في فلسطين

في فلسطين الحديثة

هذا الكتاب يتناول تاريخ التبشير في فلسطين الحديثة منذ عام 1840 حتى عام 1948. ويتناول الكتاب دور المبشرين في الحياة الاجتماعية والثقافية في فلسطين، وكذلك دورهم في التعليم والرعاية الصحية. ويذكر الكتاب أيضًا التحديات التي واجهها المبشرون في فلسطين، مثل مقاومة السكان المحليين والتحديات السياسية.

الباب الاول

التشريح

التشريح هو العلم الذي يدرس البنية التشريحية للكائنات الحية، وخاصة الإنسان. ويتناول التشريح دراسة الأعضاء الداخلية والخارجية للكائنات الحية، وكذلك دراسة العلاقات بينها. ويشمل التشريح أيضًا دراسة وظائف الأعضاء وكيفية تفاعلها مع بعضها البعض. ويتطلب التشريح معرفة عميقة بالبيولوجيا والكيمياء والفيزياء.

أولئك الذين يدرسون التشريح في فلسطين الحديثة، يجب أن يكونوا على دراية بالثقافة والتاريخ المحليين، وكذلك بالتحديات التي تواجهها فلسطين الحديثة.

- ١٤١) تشريح الإنسان
- ١٤٢) تشريح الإنسان
- ١٤٣) تشريح الإنسان
- ١٤٤) تشريح الإنسان

الفصل الاول

مقدمات فى التشيع

التشيع لفظا واصطلاحا :

التشيع لفظ يتصل بلفظ : شيعة ، و شيعة الرجل - بالكسر - : اتباعه وانصاره والفرقة على حدة ، ويقع على الواحد والاثين والجمع والمذكر والمؤنث . وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار أسما خاصا لهم ، وجمعها اشيعاء وشيع ، (١) . « والتشيع - فى اصل اللغة - هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبع على الاخلاص ، . قال الله عز وجل : فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، (٢) ، ففرق بينهما فى الاسم بما اخبر به من فرق ما بينهما فى الولاية والمداوة وجعل موجب التشيع لاحدهما هو الولاء بصريح الذكر له فى الكلام . وقال الله تعالى : وان من شيعة لابراهيم (٣) ، ففضى بالسمة بالاتباع منه لنوح عليه السلام على سبيل الولاء ، ومنه قولهم : فلان تكلم كذا وكذا فتشيع فلان لكلامه اى صدق فيه واتبعه فى معانيه ، (٤) . فالتشيع اذن يتضمن فى معناه الاتباع والنصرة من جماعة لرجل عموما . ولكن كلمة (شيعة) - مجردة - لاتعنى العموم وانما تصرف الى دلالة خاصة هى الجماعة التى ناصرته عليا وشايسته والتفت حوله وجعلت منه اماما لها : تقتدى به وتجعل له مقاما يسمو على مقام معاصريه فيما عدا الرسول (ص) .

وذكر أبو الحسن الأشعري أنهم « انما قيل لهم : الشيعة لانهم شيعوا

(١) القاموس المحيط ٤٧/٣ .

(٢) القصص ١٥ .

(٣) الصافات ٨٣ .

(٤) اوائل المقالات ٣٢ .

(شايعوا) عليا - رضوان الله عليه - ويقدمونه على سائر اصحاب رسول الله (ﷺ) .
وقد ذكر ابن حزم ذلك في وضوح ورأى أن * من وافق الشيعة في
أن عليا - رضى الله عنه - أفضل الناس بعد رسول الله فهو شيعي وان خالفهم
فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون * فان خالفهم فيما ذكرنا فليس
شيعيا .^(٦) وابن حزم متعصب على الشيعة - كما هو معروف - ولكنه هنا
يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث .

وهكذا يتبين المعنى الذي ينصرف اليه مدلول شيعة وتشيع * ويضيف
الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤٤٣/١٠٢٢ (من اعظام الشيعة الامامية) قيادا
جديدا الى هذين اللفظين وذلك بربط التشيع بالاعتقاد بكون علي اماما
للمسلمين بوصية من الرسول وبارادة من الله * اما نصا كما يرى الامامية او
وصفا كما يرى الجارودية من الزيدية،^(٧) الذين قالوا بالنص من النبي على
امامة علي وصفا لتسمية^(٨) . وهكذا يخرج الشيخ المفيد ثلثي الزيدية من
الشيعة ويدخل الثلث الذي يستغرق الجارودية فقط ، لان من رأى الزيدية
السلمانية - وهم اتباع سليمان بن جرير الزيدى - ان الامامة شورى متى
ما عقدها اثنان من اخيار الامة لمن يصلح لها : فهو امام في الحقيقة * وكان
يقر بامامة ابي بكر وعمر ويجوز امامة المفضول ، وكان يقول : ان الصحابة
تركوا الاصلح بتركهم بيعة علي فانه كان اولي بها^(٧) وهذا هو اعتقاد
البرية^(٨) التي اخرجها تعريف الشيخ المفيد من التشيع مع انها فرقة زيدية .
والحقيقة ان هذا الاعتقاد من فرقتي الزيدية انما هو تطور لعقائدهم عموما
ولا شك ان الاصل يرجع الى تفضيلهم جميعا لعلي وجعلهم الخلق له في

(٥) مقالات الاسلاميين ص ٥ .

(٦) الفصل ٢/١١٣ .

(٧) التبصير في الدين ١٦ - ١٧ .

(٨) الملل والنحل ١/٢٢٥ .

الخلافة • ولو اخذنا برأى الشيخ المفيد لكان علينا ان نخرج الكيسانية من الشيعة ايضا مع انهم اول من قال بفكرة المهدي وطبقها ، وتلك فكرة تعتبر من مبادئ الشيعة الرئيسية • ورأى الشيخ المفيد يمنع انطباق التشيع على الغلاة ايضا لانهم خرجوا عن حد الامامة الى الالوهية •

والرأى عندنا ان ذلك غير عملي ، لان التشيع - وهو اسباغ الحق الالهي او الاسلامي على امامة علي - هو الذي يجمع فرق الشيعة التي انبثقت من اصل واحد ثم تشعبت بها الطرق وتقطعت ببعضها الاسباب ونحن في هذه البداية نعني بالتشيع في جوهره وليس من شأن هذا الفصل التعرض لشعبه وفرقه فالاساس في تحديد التشيع هو هذا الذي ذكرناه مما يستغرق كل الفرق الشيعية التي تؤمن بحق علي في الامامة وفضليته على زملائه من الصحابة •

ولعله ليس من الاطالة الاشارة الى ان الاسلام ادخل عبارات اصطلاحية من هذا القبيل ، فالانصار عبارة توازي معنى «الشيعة» بل ترادفها ولكنها تنصرف الى من نصرروا النبي من اهل المدينة ، فهي خاصة بفريق يتصل سببه بالنبي ، وصارت عبارة «الشيعة» مختصة بمشايخي علي وناصره • ولعل الاصل في دلالة عبارة «شيعة» صادر من هذه الدلالة ومحدد بهذا الحد • ثم تبدو عبارة «الصحابة» متصلة بهذه الدلالة ايضا على نحو آخر ، وكذلك عبارة «التابعين» و «المهاجرين» • وبهذا تتبين اصالة عبارة «الشيعة» وصدورها عن روح الاسلام وطابعه الجديد في اطلاق الاوصاف على الجماعات التي يجمعها جامع معين ، وتلك روح عربية تعكس من طابع العرب وطراز تفكيرهم • ولا ريب ان عبارة «الاسلام» نابعة من هذا المنبع ايضا وآية ذلك الآية التي ذكرت ابراهيم وأنه «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما»^(٩) • وقد ورد في فرعون قوله تعالى : «حتى اذا أدركه

(٩) آل عمران ٣ - ٦٧ •

الفرق ، قال : آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين^(١٠) ، فالمسلمون هم المتقادون لله ، والانصار من نصرنا النبي والمهاجرون من هجروا الاوطان لنصرة النبي والصحابة من صحبوه والتابعون من تبعوه ، والشيعه من شايعوا عليا وكل ذلك جار على أسلوب العرب وطابعهم .
متى ظهر التشيع :

اختلف الباحثون - قدماء ومحدثين - في تحديد الوقت الذي ظهر فيه التشيع في الاسلام . والزمن الذي حددوه لظهور هذه الفكرة يتفاوت بين بداية الاسلام وبعد مقتل علي ، ويرى المرحومان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء - من ابرز جتهدي الشيعة المتأخرين - والاساذ أحمد أمين ان التشيع قد ظهر في حياة النبي نفسه^(١١) اما النوبختي - وهو من اعلام القرن الثالث الهجري ومن اوائل مؤلفي الشيعة - فيرى ان ذلك قد حدث بعد وفاة الرسول (ص)^(١٢) . وكذلك فعل ابن خلدون^(١٣) . ثم يطالغنا رأي آخر لولها وزن يحدد فيه ظهور الشيعة في عهد عثمان معاصرا ومرافقا لحركة الخوارج^(١٤) . ويشارك ابن النديم في هذه المعصمة برأي غريب وذلك انه قد جعل التشيع لقباً اطلقه على نفسه على أصحابه عند خروجه بجيشه لحرب طلحة والزبير^(١٥) . ثم يأتي الدكتور طه حين فيرى ان ذلك قد حدث بعد قتل علي ويدلل على ذلك بان لفظ (شيعة) قد اطلق على العراقيين والشاميين مما في صحيفة التحكيم^(١٦) . ويختم الدكتور عبدالعزيز

(١٠) يونس ١٠ - ٩٠ .

(١١) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .

ضحى الاسلام ٢٠٩/٣ .

(١٢) فرق الشيعة ٢ - ٣ .

(١٣) العبر ١٧١/٣ .

(١٤) الدولة العربية وسقوطها ٥٦ .

(١٥) الفهرست ٢٤٩ .

(١٦) علي وبنوه ١٩٢ .

الدورى هذه الآراء بتفريقه بين التشيع باعتباره عقيدة روحية وباعتباره حزبا سياسيا فيؤيد رأى كاشف الغطاء فيما يتعلق بالتشيع الروحى وينحاز الى رأى طه حسين فيما يتعلق بالتشيع السياسى (١٧) . على اننا نرى ان التشيع السياسى ، وان كان ظهر فى الفترة التى افترضها الباحثون السابقون ، الا ان دلالة الاصطلاح «شيعة» على الكتلة التى ندرسها من المسلمين وانصرافه اليهم دون غيرهم قد بدأ بحركة التوايين التى ظهرت سنة ٦١ هـ وانتهت بالفشل سنة ٦٥ ، وكان قائد الحركة يلقب بشيخ الشيعة (١٨) دون ان تحدد الجهة التى تضاف اليها هذه الجماعة ، فلم يقل : شيعة على ولا شيعة الحسين وإنما استقل هذا اللفظ لوضوح مدلوله ورسوخه فى الميدان السياسى .

والواقع ان علينا ان ننظر الى التشيع من هذه الزاوية بالذات لان الشيعة الاوائل كما سنرى عما قليل كانوا يرون صفات روحية يميز بها على عن باقى المسلمين ولم يحاولوا مع ذلك ان يثوروا ثورة الشيعة حين عاضدوا عليا على معاوية واستماتوا فى نصرته . والرأى عندنا ان التشيع بمعناه الذى حددناه من نصرة على والتشيع له قد كان قديما قدم الاسلام وظهر على شكل دعوة سياسية فى اول لحظة بدا من المناسب ان يظهر للناس ، وقد كان الاربعة الاوائل من شيعة على وهم سلمان الفارسى وابو ذر وعمار بن ياسر والمقداد بن اسود يتصرفون فى حياة النبى باعتبارهم شيعة تصرفهم فى نهاية الامر حين انكشف تشيعهم واضحا ، وكان ذلك يعرف عنهم . وهذا ابن حجر يذكر فى الصواعق المحرقة ان النبى خاطب عليا بقوله : يا على انت واصحابك فى الجنة (١٩) . واخرج ابن عساكر قول النبى : «والذى نفسى

(١٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٧٢ .

(١٨) انساب الاشراف للبلاذرى ، القدس ١٩٣٦ ، ٢٠٦/٥ ، وعن حركة

التوايين انظر ص ٢٠٤-٢١٣ ، وعن فشلها انظر ص ٢٠٨ .

(١٩) الصواعق المحرقة ، مصر ١٣٧٥ ، ص ١٥٩ .

بيده ان هذا (يضى عليا) وشيعته لهم الفائزون يوم القياسمة (٢٠) ثم يذكر
 اليعقوبى انه تخلف عن بيعة ابي بكر قوم من المهاجرين ومالوا مع علي بن
 ابي طالب : منهم العباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام
 وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وابو ذر الغفاري وعمار بن
 ياسر والبراء بن العازب وأبى بن كعب (٢١) ، وقد كان سلمان معروفا بكونه
 من شيعة علي ويزكيه حديث مشهور يقول : سلمان منا اهل البيت (٢٢) ، اما
 عمار بن ياسر فانه اشهر من ان تخفى شيعته فى جميع ادوار حياته وهو القاتل
 بعد انتخاب عثمان : « يا معشر قريش ، اما اذا صرفتم هذا الامر عن اهل بيت
 نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما انا باءن من ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم
 كما نزعتموه من امله ووضعتموه فى غير امله » (٢٣) ، واما المقداد بن اسود
 فقد قال فى نفس المجلس : « ما رأيت مثل ما اودى به اهل هذا البيت بعد
 نبينهم فقال له عبدالرحمن بن عوف : ما انت وذاك يا مقداد ؟ فقال : انى والله
 لاجهم بحب رسول الله (ص) وان الحق معهم وفيهم . . . اما وايم الله يا
 عبدالرحمن ، لو أجد على قريش انصارا لقتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله
 يوم بدر » (٢٤) ، اما ابو ذر فصلته بعلى ايام عثمان معروفة وهو المعارض
 العنيف لسياسة عثمان حتى لقد نفاه الى الشام مرة والى الربذة مرة اخرى
 بل انه هو الذى أثار الاساس العقيدى الذى حارب عمار بن ياسر والشيعه
 الاوائل من أجله معاوية حين قال فى صفين واليوم نضربكم على تأويله (٢٥)
 وذلك ان معاوية كان يرى ان الآية : والذين يكتزون الذهب والنفضة

(٢٠) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .

(٢١) تاريخ اليعقوبى ١٠٣/٢ .

(٢٢) صفة الصفوة ١/٢١٥ .

(٢٣) مروج الذهب ١/٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢٤) مروج الذهب ١/٤٤٠ .

(٢٥) مروج الذهب ٢/٢١ .

ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم بعباد أليم ، (٢٦) قد نزلت في أهل الكتاب وأنه لأضير على المسلم من ان يكثر الذهب والفضة (٢٧) اما ابو ذر فكان يقول : «نزلت فينا وفيهم» وهذه اول اشارة الى بداية التأويل ومنها توضح حقيقة غريبة وهى ان التأويل الشيعى لم يظهر الا معارضة لتأويل خاص يخدم مصلحة سياسية . والمهم ان ابا ذر قد نسب اليه قوله : «... والعرة الهادية الذرية الطاهرة من محمد ، والصديق الاكبر على بن ابي طالب» (٢٨) . وهكذا كانت صلة هؤلاء بالتشيع سابقة على ظهوره السياسى الرسمى ، بل لقد توفى سلمان وابو ذر قبل تولى على للخلافة .

وتأتى علة تشيع هؤلاء من اناحية الاجتماعية والاقتصادية يعكسها الاسلام عليهم ويجذبهم الى اتخاذ جانب على لانه مكروه من قريش بحكم كونه ريب النبى وبأنه قد تشرب مبادئ الاسلام وبأنه يمثل امتداد سيطرة روحية من جنس سيطرة النبى وسياسته ومحاربتة لهم . اما سلمان فقد كان فارسيا فاسلم فكان يحس بانه غريب فى هذه البيئة الجديدة وبان مقامه لا يكون الا مع النبى وأقرب الناس اليه وكان عمار يقول فى على : « فجعلك لاترزا من الدنيا شيئا ولا ترزا الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما » (٢٩) . اما ابو ذر فهو الزاهد الذى يريد ان يكون توزيع الثروة عادلا وان تتحقق العدالة الاجتماعية فى العالم الاسلامى . وكان على من صنفهم زهدا وعفة وقوة ايمان وشدة فى الحق ، فكان الحزب العلوى . ولكنه لم يكن حزبا بالمعنى المفهوم له مبادئ ومناهج وله فروع وانصار وسياسته وخطط ، بل كان حزبا همه ان يسير

-
- (٢٦) التوبة ٣٤ .
(٢٧) صفة الصفوة ١/٢٢٣ .
(٢٨) طرائق الحقائق ٩/٢ .
(٢٩) حلية الاولياء ١/٧١ .

الاسلام سيره الطبيعي انذى اراده الله ورسونه ولهذا وجدناهم يعارضون مع معارضة على ويوافقون مع موافقته وكيف يكون الولاء اذا لم يكن كذلك . وقوم مثل هؤلاء ليست لهم عصبية ولا يطمعون فى جاه ولا سلطان ما الذى يحدوهم الى هذه المعارضة وهذه المغامرة الا ان يكون لهم رأى فى مسن ينصرونه وهذا هو الذى حدث بالفعل مما تقتضيه طبيعة الاشياء .

ونستطيع ان نزعج - اذا شئنا - ان عليا نفسه قد نفى قيام التشيع زمن النبى بل حتى فى خلافته ، ولكن ذلك لايعنى انه الحقيقة المطلقة وانما يظهر وجها منها ولكن الحقيقة تكمن فى هذا الذى اتضح وظهر . فعلى قد كتب الى اهل الانصار يقص ما جرى بينه وبين اهل صفين « وكان بدء امرنا اننا التقينا والقوم من أهل الشام والظاهر ان ربنا واحد وديننا واحد ودعوتنا فى الاسلام واحدة ولا نستزيدهم فى الايمان بالله والتصديق برسونه ولا يستزيدوننا ، الامر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء » (٣٠) ، ولكن هذا القول - على صحته - لاينفى قيام التشيع قبل صفين وقبل عثمان وقبل عذر بل وقبل ابى بكر رضى الله عنهم ، وليس من الصدق ان نجد هؤلاء الاربعة : عليا وسلمان و ابا ذر وعمارا على نسق واحد رجالا زاهدين مؤمنين اعلم الايمان متحلين بنفس الخلق متعلقين بذات المبادئ ، بل كانوا قوما يغلب عليهم الجانب الروحى ، فسلمان قد طاف بلاد الشرق يبحث عن النبى الجديد (٣١) وكان يعلم بظهوره وقد فاسى الامرين من الالم والعبودية فى سبيل هذا الهدف ، وكان يبحث عن علامات فى النبى تنبىء بنبوته (٣٢) ، وكان على يقول فيه : « من لكم بمثل لقمان الحكيم ، ذلك امرؤ منا والينا أهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب

(٣٠) نهج البلاغة ٣/١٢٥-١٢٦ .

(٣١) طبقات ابن سعد ٤/٥٣-٥٧ .

(٣٢) حلية الاولياء ١/١٩١ .

الآخر ، بحر لايتزف ، (٣٣) وقد قال سلمان في علي : « فلو حدثكم بكل ما أعلم من فضائل امير المؤمنين عليه السلام لقاتل طائفة منكم : هو مجنون ، وقالت اخرى : اللهم اغفر لقاتل سلمان (٣٤) وكان يقول غير ذلك ممن الاقوال التي تبين الصلة الوثيقة بينه وبين علي . اما ابو ذر فقد صلى قبل ان يلقى الرسول ثلاث سنين وكان يتوجه حيث وجهه الله ، (٣٥) ، واما حذيفة بن اليمان فقد كان صاحب سر رسول الله (٣٦) وكان يقول : « كان الناس يسألون رسول الله (ص) عن الخير وكنت اسأله عن الشر » (٣٧) وكان علي يقول له « لاتحدث الناس بما لايعرفون فيطفغوا ويكفروا » (٣٨) وكان عمار اول من عذب في الاسلام وقتل امه وابوه معذبين رمى اخوه من فوق جدار فمات ، وكان في صفين يقول : « والله لو هزمونا حتى يلبغوا بنا سمات هجر نكنا على الحق وكانوا على الباطل (٣٩) وقد رأينا فيما مضى انه كان يقاتل في صفين وردد قوله : نحن ضربناكم على تنزيله ، واليوم نضربكم على تأويله » (٤٠) فيبين انه انما قاتل في صفين تحقيقا للهدف الذي قاتل من أجله يوم بدر ، وهكذا كان عمار مثالا رائعا للعقيدة الراسخة والايمان العميق . وسوف نرى ان هؤلاء الشيعة الأوائل هم انفسهم أوائل الزهاد في الاسلام وان الزهد قد اخذ عنهم حتى بلغ مرحلة التصوف . ويكفي ان تشير هنا الى ان ابا ذر كان من اظهر الزهاد زمن النبي (ص) وبعده

-
- (٣٣) صفة الصفوة ١/ ٢١٩ .
(٣٤) طرائق الحقائق ١/ ٢١١ .
(٣٥) صفة الصفوة ١/ ٢٣٨ .
(٣٦) قوت القلوب ١/ ٢٣ .
(٣٧) حلية الاولياء ١/ ٢٧٢ .
(٣٨) الطبري ٣/ ٣٧٥ .
(٣٩) مروج الذهب ٢/ ٢١ .
(٤٠) مروج الذهب ٢/ ٢١ .

وان عمار بن ياسر كان من اهل الصفة (٤١) وكذلك سلمان (٤٢) وهكذا مضى اصحاب على في حياتهم على الاخلاص لفكرة الاسلام الاولى التي نبتت في ارواحهم وفاضت على السننهم وخلقهم وطرأز معيشتهم • ويتضح لنا في ختام هذا الفصل ان التشيع في معدنه هو التيار المعارض لصب الاسلام في قوالب سياسية واجتماعية مصدحية تخلف عن قوالبه الاولى وان الشيعة الاوائل قد قاوموا سياسة المصالح واقتناص الفرص التي طبقها المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي مباشرة حتى بلغت في حياتهم اسوأ ما رأوا أيام معاوية ، ويتضح بعد ذلك ان التشيع قد عاصر بدء الاسلام باعتباره جوهره له وأنه ظهر كحركة سياسية بعد ان نازع معاوية على الامارة وتدير شؤون المسلمين عليا الخليفة الشرعي • ويتبين بعد ذلك ان تبلور الحركة السياسية تحت اسم « الشيعة » كان بعد قتل الحسين مباشرة وان كانت الحركة سبقت الاصطلاح ، وبذلك يمكننا ان نلخص هذا الفصل في كلمة بيانها ان التشيع كان تكسلا اسلاميا ظهرت نزغته ايام النبي وتبلور اتجاهه السياسي بعد قتل عثمان واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين •

(٤١) خطط الكوفة ٣٦ هامش المترجم •

(٤٢) شخصيات قلقة في الاسلام ٣٤ •

الشيعة الاولون

قبل ان نعرض للكلام على الشيعة البارزين يحسن بنا ان نحدددهم ونحاول ان نعلل تشيعهم ومولاتهم لعلى بن ابي طالب . وقد سبقنا الى ذلك باحثون من الشيعة المتأخرين منهم الحاج معصوم على والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والسيد محسن الامين العالمى والشيخ محمد حسين الزين وغيرهم . ويخبرنا الحاج معصوم على ان منهم : « سلمان وابا ذر وعمار والمقداد وغالب اصحاب الصفة ^(٤٣) » وذلك يوحى بأن فقراء المسلمين ومن لا مصلحة لهم فى الحكم والسلطان هم الذين والوا عليا ونصروه اتباعا لوصايا النبى الكريمة التى يورد منها احمد امين عن البخارى ومسلم قول النبى (ص) فى حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وحديث « لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فتناول الناس فقال : ادعوا عليا » وحديث : اما ترضى ان تكون ابنى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى» وكقول على بن ابي طالب نفسه : فوالذى برأ النسمة انه لعهد النبى الى انه لا يجنبى الا مؤمن ولا يبغضنى الا منافق» ^(٤٤) وكقول ابى سعيد الخدرى : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله الا ببغض على بن ابي طالب» ^(٤٥) واذا عرفنا ان المنافقين هم سراة قريش وغيرهم من الارستقراطيين القدماء ادر كنا لماذا التف الضعفاء والفقراء حول على بن ابي طالب وكانوا هم انفسهم الذين آمنوا بالاسلام والتفوا حول النبى ونصروه فى بدء الدعوة الاسلامية . وقد ورد عن النبى حديث يقرن فيه اسم على باسم ثلاثة من شيعته المقربين فقال (ص) : «تستاق الجنة الى لقاء اربعة وهم على وعمار وسلمان والمقداد» ^(٤٦) ويرد حديث آخر نصه : ان الله أمرنى بحب اربعة وأخبرنى بأنه يحبهم ، قيل :

(٤٣) طرائق الحقائق ٢/٢ .

(٤٤) ضحى الاسلام ١٢٢/٢ .

(٤٥) الشيعة فى التاريخ ٢٦ .

(٤٦) حلية الاولياء ١/١٣٩ .

يا رسول الله عسى ان تسميهم لنا قال : على منهم ، ويقول ذلك ، وابو ذر والمقداد وسلمان^(٤٧) ويتضح بذلك من هم اوائل من والوا عليا زمن النبي واستمروا على ذلك بعد وفاته . اما ابن خلدون فيسجل تشيع الزبير وعمار ابن ياسر والمقداد بن الاسود منذ قصة الثورى ويضيف الى ذلك عبارة « وغيرهم » مما يوحى باضافة عدد آخر الى هذا الفريق من المسلمين^(٤٨) . ثم يورد صاحب طرائق الحقائق خبرا باسناده عن منتهى المقال يدخل فيه حذيفة بن اليمان مع من تقدم ويجعل معهم سهل بن حنيف و ابا الهيثم مالك ابن التيهان و خالد بن سعيد وعبادة بن الصامت و ابا أيوب الانصارى وغيرهم ويسميهم رواية عن الرضا : الامام الثامن : « الذين مضوا على منهاج رسول الله ولم يبدلوا ولم يغيروا بعد نبينهم »^(٤٩) وقد اورد الشيخ كاشف الغطاء ثبنا باسماء الشيعة من الصحابة يتضمن السابقين ومعهم الزبير والفضل بن العباس وأخوه عبدالله وينص على انه قد جمع من كتب تراجم الصحابة كالاصابة وأسد الغابة والاستيعاب ونظائرها زهاء ثلاثمائة رجل من عظماء رجال النبي كلهم من شيعة على^(٥٠) اما الشيخ محمد حسين الزين فيخبرنا الى ذلك ان جميع الهاشميين كانوا ايام النبي من الشيعة^(٥١) . والمهم بعد هذا ان الشيعة انفسهم قد اختاروا اربعة من المقربين الى على ودعوهم بالقباء اولا كما يسميهم على بن ابراهيم من اوائل مفسرى الشيعة^(٥٢) ثم دعوا

(٤٧) طرائق الحقائق ٧/٢ .

(٤٨) العبر ١٧١/٣ .

(٤٩) طرائق الحقائق ٧/٢ .

(٥٠) اصل الشيعة واصولها ٦٨ .

(٥١) الشيعة فى التاريخ ٢٦ .

(٥٢) تفسير على بن ابراهيم ٢٧٨ .

يصف السيد محسن الفيض تفسير على بن ابراهيم بقوله : « المنسوب الى اهل البيت انظر كلمات مكنونة من علوم اهل الحكمة : مخطوط فى المتحف البريطانى بلندن برقم Add. 16832) وقد ذكره الشيخ الطوسى فى فهرسته (طبع كلكتا ١٨٥٣ - ٥٥ ، ص ٢٠٩) ولم يذكر ابن النديم التفسير مع كتب على بن ابراهيم وانما ادرج ثلاثة غيره منها اختيار القرآن (الفهرست لايبزج ١٨٧١ ، ٢٢٢/٢) فلعل ذلك لايعنى ان التفسير ليس له ، .

بالاركان فى زمن متأخر وهؤلاء الاركان هم سلمان وابو ذر وعمار والمقداد وحذيفة يسقط منهم واحد ويوضع مكانه آخر ولكنهم يذكرون رباع • وبعد هذا العرض الطويل لاوائل الشيعة نخرج بان الصحابة الذين يتردد ذكرهم كثيرا بوصفهم اخلاص الناس لعلى واصدقهم ولاء له - ما عدا الهاشميين واولاد على نفسه - انما هم : سلمان الفارسى وابو ذر الغفارى وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وحذيفة بن اليمان وكل اولئك من المستضعفين والعييد والغرباء الذين والوا عليا لا لطمع فى مادة او جاه وانما اتباعا لوصايا النبي وتوسما الخير والايمان فى على وسنرى مصداق ذلك كله فى الفصل الاينى •

سلمان الفارسى

اختلف الباحثون فى اسم سلمان الاصلى وفى موطنه وفى عمره وفى كل شىء يتصل به حتى ان كليمان هيوار وهوروفتس انكرا تاريخيته^(٥٣) ولكن ما سينيون يرد ذلك ويثبت وجوده بأن اسمه « يدخل فى الاطار التاريخى للمشاجرات بين الصحابة »^(٥٤) ، ومهما يكن من شىء فقد كان سلمان من ابناء الدهاقين^(٥٥) وكان سائحا مسيحيا بعد ان ترك المزدكية وجعل يبحث عن النبي الجديد الذى اخبره الرهبان الذين تلقى عنهم انه سيظهر فى ارض تيماء وتفصيل ذلك وارد فى طبقات ابن سعد^(٥٦) • فنستطيع بادىء ذى بدء ان نعتبره سلفا للزهاد السائحين من امثال ابراهيم بن ادهم • وقد عانى سلمان الفارسى الاصفهانى الاصل العبودية فى سبيل اسلامه وكان اسمه روزبة بن خشنود او مابه^(٥٧) ثم صار من موالى النبي قبل ان يعق^(٥٨) • والمهم فى سلمان انه « كان يدرى ان الرسول سيظهر فكان

(٥٣) شخصيات قلقة فى الاسلام ٨

(٥٤) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٠

(٥٥) طرائق الحقائق ٢/٢

(٥٦) طبقات ابن سعد ٥٣/٤ - ٥٧

(٥٧) طرائق الحقائق ٢/٢

(٥٨) طرائق الحقائق ٢/٢

يبحث عنه ويسأل حتى رأى النبي (٥٩) ورأى فيه علامات النبوة ومنها خاتم النبوة وهو قطعة لحم ناثته على غضروف الكتف الايمن (٦٠) وستكون هذه العلامة نفسها دليلا على مهديّة محمد بن عبدالله بن الحسن النائر الزيدى فى المدينة سنة ١٤٥/٧٦٢ • وقد كان من اهمية سلمان فى الاسلام انه عنى بالآية : لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين (٦١) التى صرفها المؤرخون الى بحيرا سرجيوس الذى ايد ماسينيون انه شخصية مشكوك فيها • وهذا كله يعنى ان سلمان قد اتجه الى الاسلام بكلية وانه كان يبحث عن حقيقة ينشدها فوجدها فى محمد والاسلام فاعتق الدعوة الجديدة وخدمها من بدء دخوله فيها باشارته بحفر الخندق • ورجل مثل سلمان فى جهده الذى بذله عقليا وروحيا وجسديا وماديا بتركه وطنه وسياحته الطويلة فى فارس ودمشق والموصل ونصيبين وعمورية ثم رحلته الى مكة (٦٢) وتركه الراحة والرفاهية عند اسرته فى اصفهان لابد ان يكون مسلما مخلص الايمان لاتزعزعه الانواء ولا تؤثر فى عقيدته مؤثرات مادية • ويبدو ان الصلة بينه وبين على كانت قوية فاننا نجده يقود بغلة النبى الشهاب التى كانت تركبها فاطمة فى زفافها الى على (٦٣) وقد كان سلمان من الاربعة الذين تتساق اليهم الجنة وعلى اولهم كما رأينا ، وروى ابن الجوزى وابن سعد ان عليا قال فيه : ذلك امرؤ منا والينا اهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب الاخر (٦٤) وقد مر بنا ما قاله سلمان فى على الى حد انه خشى ان يفصح عن حقيقة مركزه خوف تعرضه للقتل والتكفير (٦٥) ويبين حدود علم سلمان السرى خبر يرد عن على بن الحسين زين العابدين

(٥٩) حلية الاوليا، ١/١٩١ •

(٦٠) شخصيات قلقة ١٠ •

(٦١) طرائق الحقائق ٢/٢ •

(٦٢) طبقات ابن سعد ٤/٥٧ •

(٦٣) من لا يحضره الفقيه الجزء الثالث •

(٦٤) صفة الصفوة ١/٢٢٠ ابن سعد ٤/٨١ •

(٦٥) طرائق الحقائق ١/٢١١ •

نصه : « لو علم ابو ذر مافى قلب سلمان لقتله وقد آخى رسول الله بينهما ، فما ظنكم بسائر الخلق » (٦٦) وهذا الخبر وسابقه تكمل صلة سلمان بعلى وتحدد معنى الامامة والوصية والعلم اللذنى الذى وهبه على تعلمنا من النبى ، والمعرفة التى توجب قتل مسلم هى الاشراك بالله ، فيفهم من هذه الاخبار ان المقصود بفضايا امير المؤمنين على صفاته الالهية والعلوم السرية التى يعرفها ، والخبر الاخير يمثل طبيعة المعرفة التى يشتمل عليها سلمان الذى خبر الاديان وتنقل فيها ولعله يشير ايضا الى الاصل الذى ربما اعتمد عليه الاسماعيليون فى مذهبهم المستند الى طبقات المعرفة التى تدق بزيادة ايمان المرید بالمذهب ، ولعله المصدر الذى قبس منه الصوفية مراحل السلوك . وهذا الحديث على كل حال يبين الى اى مدى كان سلمان مطلعا على العلوم السرية وغيباتها وطبيعة النبوة ، ويستتبع ذلك الوصية التى هى من خصائص الاديان السابقة . ولهذا فانه ليس من العيب ان يذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٦ : « وفيها مات سلمان فى قول بعضهم ، وكان عمره ٢٥٠ سنة - هذا اقل ما قيل فيه - وقيل ٣٥٠ سنة ، وكان قد ادرك بعض اصحاب المسيح (ع) » لان ذلك يربطه بالنبوة التى تؤثر عن المسيح بظهور نبى بعده اسمه احمد كما يرد ذلك فى القرآن . وقد كان سلمان معاصرا لاصحاب المسيح فيكون سلمان الواسطة بين المسيحية والاسلام والمبشر الخبير بظهور النبى الجديد . ليس هنا فقط بل ان عمر سلمان الطويل يجعله موصولا بالنبؤات السابقة التى يعتمد عليها الشيعة فى الوصية ومنها الحديث : « انت منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى » (٦٧) وبهذا تتم سلسلة السند الذى يثبت الوصية والامامة لعلى فيكون وارث علم النبى كما ورث اوصياء الانبياء الاسرائيليين علومهم . وقد التفت ماسينيون الى هذه المحاولة ايضا ولكنه لم يلتفت الى صلتها بالوصية . ومع ذلك فقد لاحظ انه قد كان سلمان داعية شيعيا قديما فى

(٦٦) طرائق الحقائق ٢٣٢/١

(٦٧) مروج الذهب ٤٩/٢

الكوفة و «عقد حلقا مع بنى عبد القيس . . . واستطاع ان يضمهم هم وحلفاءهم من الحمراء (الجنود الفرس السابقين) الى آرائه الخاصة باحقية على» (٦٨) ويضيف ماسينيون الى ذلك ان تلميذا لسلمان هو الذى قام بهذا العمل .

وإذا اتضح لنا مقام سلمان من بداية التشيع واسباغه الولاية على على واعتبارها مصداقا لارادة الله ونبؤات الرسل ، فإن من الواضح من سيرته ان يكون زاهدا قديما بل سائحا مسيحيا سابقا قطع المسافات الطويلة بحثا عن الحقيقة . واذن نستطيع ان نربط الزهد بالتشيع منذ نشأته الاولى ونجعل المقدمات التى ذكرناها من زهد سلمان شيئا روحيا يتصل بالنفس البشرية التى تطمح الى السمو الروحى لا زهدا قائما على الاحداث السياسية والثورات الاجتماعية والاسباب المادية . فيكون سلمان بدء للزهد الذى اوصل الى التصوف أو ابلغ الى الغاية التى يطمح اليها المتصوفة ، بل نستطيع ان نجعل من عقيدة سلمان السرية التى كان يخشى البوح بها من فضائل على بن ابي طالب خوف القتل اعتقادا قائما على الحلول الذى قال به غلاة الشيعة بعدئذ ثم دخل التصوف فى شخص الحلاج وابى يزيد البسطامى . وليس عجيبا اذن ان يركب سلمان الزاهد حمارا (٦٩) كما فعل السيد المسيح الذى اخذ عنه تعاليمه من الرهبان قبل اسلامه ومن حياته الاسطورية التى امتدت الى معاصرتة لاصحاب المسيح الاوائل . وكان سلمان من اهل الصفة « وله المقام الثانى فى ثبت الاربعة والثلاثين الذين ذكرهم وجمعهم السلمى مؤرخ الصوفية ، فهو من الفقراء الذين انقطعوا للعبادة فى مسجد رسول الله وكانوا اسلاف المتصوفة » (٧٠) وكان كلام سلمان مزيجا غريبا عجيبا من الفاظ القرآن ومعانيه مختلطين بالافكار الجديدة ذوات الاسرار والزهد الذى طلع بهما على الاسلام اخذا عن الزهد الرهبانى ، فقد افتخرت قريش عند

(٦٨) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩ .

(٦٩) حلية الاولياء ١/١٩٥ .

(٧٠) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٤ .

سلمان فقال ولكنى خلقت من نطفة قدرة ثم اعود جيفة متنة ، ثم يؤتى بى
 الى الميزان : فان ثقلت فانا كريم وان خففت فانا لثيم ، (٧١) وهذا معنى عبر
 عنه على عبارته المشهورة : ما لابن آدم والفخر ، واوله نطفة وآخره
 جيفة (٧٢) . ويروى عن سلمان تصرف سيخاده زهاد البصرة فى أواخر
 القرن الثانى وذلك انه لما نزلت آية : وان جهنم لموعدهم اجمعين (٧٣) ،
 صاح صيحة ووضع يده على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة ايام . (٧٤) وقد فسر
 السراج هذه الصيحة بانها مصداق قول الرسول (ص) : لو تعلمون ما اعلم
 لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء ولا تقاررتن على فرشكم ،
 ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى (٧٥) ، فقد كان سلمان
 - اذا صح ما تقدم - مطلقا على العلوم والاسرار التى لا يعرفها الا الانبياء .
 وقد استغل مؤلفو كتب الصوفية مركز سلمان فى الزهد وانقسموا فريقين :
 فريق تحاشى ذكره مع كونه احد مشاهير الزهاد من الصحابة لصلته بالتشيع
 ولخوفهم من ان يتم ذكرهم له - بجعله من مؤسسى الزهد - على صلته
 هم بالتشيع ، وكان القرن الثالث والرابع اللذان ظهر فى اولهما التصوف
 ونضج فى ثانيهما يتسمان باضطهاد الشيعة ومن يتصل بهم ، وفريق حاولوا
 ان يصلوا سلمان بالتصوف باخذهم عنه من طريق رجال نسبهم على الاقل
 من غير الشيعة . يقول ماسينيون « فنجد اسناد سلمان لدى بعض الفرق
 الدينية السنية القادرية والبكتاشية والتشبيدية ، ليس الا ظاهرة عرضية ،
 فهى ترجع الى ما قبل القرن السادس ، وقد نشأت عن استعارة - يتفاوت
 التصريح بوجودها - من الاسناد النسبى الصوفى للسهروردية الذين زعم
 رأسهم ابن عمويه السهروردى المتوفى حوالى سنة ١١٥٥/٥٥٠ تلميذ الزنجاني

- (٧١) صفة الصفوة ١/ ٢١٩ .
 (٧٢) الكواكب الدرية ١/ ٠٤٠ .
 (٧٣) الحجر ٤٣ .
 (٧٤) اللمع ١٣٤ .
 (٧٥) اللمع ٣٨٧ .

انه بكرى ، وذلك انه السبط السابع لعبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٦/٧٤٤)
 بن القاسم بن محمد بن ابي بكر ، وابوه القاسم (المتوفى سنة ١٠٨/٧٢٦)
 يقال : انه كان تلميذا لسلمان وهذا كان تلميذا لابي بكر (هكذا) ،
 ويضيف ماسينيون الى ذلك قوله : « فاذا عرفنا الى اى مدى شارك ابوه محمد
 - المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧ - فى قتل عثمان لم نفهم لماذا تعلقت هذه الطريقة
 السنية بمثل هذا الاسناد الذى لم ينسب اليها الا نادرا (٧٦) . والحق ان
 ذلك ليس عجيبا وان السبب فى جعل القاسم بن محمد بن ابي بكر تلميذا
 لسلمان وجعل سلمان تلميذا لابي بكر واضح فى محاولة أخذ التصوف من
 طريق غير شيعى لان كل السلاسل الصوفية متصل بالامام على ، ووصل
 سلسلة من السلاسل بابي بكر عن طريق القاسم وسلمان يخفف من حدة
 الصلة الشيعية بالسند الصوفى مع ان القاسم نفسه «راوية معترف به من السنة
 والشيعية» : اى هو شيعى الميل . ويحسن أن نلتفت الى ان لنسب السهروردي
 البكرى مدخلا الى ذلك ، ولعله ملاك الامر كله .

ثم ان البكتاشية الذين ذكرهم ماسينيون على انهم من اهل السنة انما هم
 امامية اثنا عشرية ليس فى صحة ذلك شك مطلقا ، ووصل سلسلتهم بابي بكر
 عن طريق سلمان الذى عرفت صلته يعلى بالاضافة الى طرق اخرى علوية
 شيعية تسبغ على طريقتهم شيئا من التسامح والبعد عن التعصب .

وعقدت سلمان - من حيث صلته بمؤلفى كتب التصوف الذين حاولوا
 جهد الامكان ان يخفوا الاثر الشيعى فيه - انه قد قيل فيه : سلمان منا أهل
 البيت (٧٧) ، وانه شيعى لامراء فى شيعيته لقول على فيه «سلمان منا والينا أهل
 البيت» (٧٨) ، فاولوا هذا الحديث بحديث اخر رفعوه عن انس الى النبى
 (صلعم) قيل : « يا نبى الله ، من آل محمد ؟ قال : كل تقى » (٧٩) وارادوا

(٧٦) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٠ .

(٧٧) الفتوحات المكية ١٦٧/٢ وطبقات ابن سعد ٥٩/٤ .

(٧٨) صفة الصفوة ٢١٩/١ .

(٧٩) الرسالة القشيرية ٦٨ .

بذلك ان يخففوا من أثر ذلك الحديث الذى اضاف الى سلمان كونه من أهل البيت ولاء و إخلاصا و علما بأسرار الدين و الوصية و العلم الدنى . و كان مقصدهم بالاضافة الى ذلك تفتيت الاثر الشيعى فى سلمان و كونه واحدا من أهل البيت ف جعلوا الامة الاسلامية كلها - و تقاها امر بديهى - أهل البيت بكل ما كان فى الامة من خصومة و منافضة فى حياة الرسول و بعد موته . و لكن ابا نعيم يصحح هذه النتائج و يصل الزهاد و المتصوفة بالشيعه بل و يجعلهم من خصوص الشيعة ، و يثبت بذلك الصلة الوثيقة بين الزهد و التشيع ، فيورد عن حذيفة عن النبي (ص) انه قال : « من سره ان يحيا حياتى و يعوت ميتى و يتمسك بالقصبة الياقوتة التى خلقها الله بيده ثم قال لها كونى فكانت ، فليتول على بن ابي طالب » (٨٠) . و يبين ابو نعيم من هم اولئك الشيعة فيقول : « حدثنا احمد بن على عن ابيه عن جده عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : شيعة على الحلماة العلماء الذبل الشفاه الاخير الذين يعرفون بالرهبانية من اثر العبادة ، و عن على بن الحسين : شيعتنا الذبل الشفاه و الامام منا من دعا الى طاعة ربه » (٨١) ثم يعقب على ذلك بقوله : « فالمحققون بموالاتة العترة الطيبة هم الذبل الشفاه المقترشوا الجباه ، الاذلاء فى نفوسهم العتاة ، المفارقون لمؤثرى الدنيا من الطغاة . هم الذين خلعوا الراحة و زهدوا فى لذىذ الشهوات و انواع الاطعمة و الوان الاشربة فدرجوا على منهاج المرسلين و الاولياء من الصديقين و رفضوا الزائل الفانى و رغبوا فى الزائد الباقي فى جوار المنعم المفضل و مولى الايادى و النوال » (٨٢) و هكذا يتبين الاثر الشيعى فى الاتجاه الذى تركه سلمان منذ بدء الاسلام .

ولكن دور سلمان فى الاسلام لم ينته بكونه من الشيعة الاولين على اساس المعرفة و العلوم السرية ولا بكونه من اوائل الزهاد الذين شقوا

(٨٠) حلية الاولياء ١ / ٨٦ .

(٨١) حلية الاولياء ١ / ١١٦ .

(٨٢) حلية الاولياء ١ / ١١٦ .

للتصوف طريقه المرسوم بل جعل - بسيرته تلك وبحياته الحافلة بالتجربة والثقافة والعلم السرى - زعيم فرقة دينية غالية هي السينية على اعتبار انه « الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلى » (٨٣) و « هذا الدور العالى : دور السين اى دور النقيب الموحى اليه ، هو الذى ادعاه ابو الخطاب وكان لقبه فى البدء : مولى بنى هاشم (٨٤) فى سنة ١٣٨ بالكوفة قائلاً : ان الامام جعفر (الصادق) اعترف له به متخذاً صيغة اخرى مدشنة له - غنوصية - يزعم ان محمداً استخدمها متحدثاً عن سلمان (٨٥) .

وينقل الحاج معصوم على عن مجمع البيان ان « الغلاة هم الذين يغالون فى على ويجعلونه ربا . والتخميس - عندهم - هو ان : سلمان الفارسى والمقداد و ابا ذر وعمارا وعمرو بن امية الضمرى هم الموكلون بمصالح العالم عن على ، وهو رب » (٨٦) . وكذلك يورد ماسينيون (٨٧) .

وسلمان شخصية شعبية اخرى لا علاقة لها بالعقائد - وان كان اصلها اسماعيليا - وهى انه قد اختير حامياً للنقابات فى بغداد « تجتمع عند قبره وتقيم الولائم والحفلات فى النصف من شعبان كل سنة » (٨٨) وانتهت حياة سلمان اسطورية كما بدأت ، فقد روى الراوون انه « لما حضر سلمان الموت دعانى (المتكلم زوجه بقيرة) وهو فى عليّة لها اربعة ابواب فقال : افتحى هذه الابواب يا بقيرة ، فان لى اليوم زوارا لا ادرى من اى هذه الابواب يدخلون على . ثم دعا بمسك له ثم قال : اديفية فى تنور ففعلت . ثم قال : انضحيه حول فراشى ثم انزلى فامكئى ، فسوف تتعلمين فتريننى على فراشى .

(٨٣) شخصيات قلقة ٣٧ .

(٨٤) ميزان الاعتدال للذهبي ٦٤/٣ .

(٨٥) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٩ .

(٨٦) طرائق الحقائق ١٠٩/٢ .

(٨٧) شخصيات قلقة ٤٨ .

(٨٨) شخصيات قلقة .

فاطلعت فإذا هو قد اخذ روحه فكأنه نائم على فراشه» (٨٩) .
 ويضيف الحاج معصوم على : « قال السيد الشهيد القاضى نور الله فى
 المجلد الثالث من مجالس المؤمنين : ٠٠٠ ويروى ان امير المؤمنين رحل من
 المدينة الى المدائن ذات ليلة وغسل سلمان ورجع الى المدينة فى نفس
 الليلة ٠٠٠ » (٩٠) .

ابو ذر الغفارى

أحد الاركان ، يتميز بطابع خاص ولكنه من طراز سلمان فى السبق الى
 التوحيد قبل ظهور الاسلام (٩١) وقد جهر باسلامه فى مكة وتعرض للضرب
 فيها ولم يشفع له الا كونه من غفار محطة القوافل القاصدة الى الشام (٩٢)
 فرسخت هذه الحادثة فى ذهنه وطبعت زهده يطابعها فرأيناها يدور حول
 محاربة خزن الاموال والاكتثار منها . وكان ابو ذر رابع المسلمين وذلك مدعاة
 للفخر حقا وبخاصة انه بدوى ، والبداوة والايمان العميق لا يتفقان . وقد
 مر بنا تحقيق شيعة ابى ذر ونضيف الان انه قد كان له مقام رفيع فى التشيع
 الاول الى حد انه قد روى عنه ثلاثة من الائمة : على بن ابى طالب (٩٣)
 والحسين بن على (٩٤) وجمفر الصادق ، وذلك شرف لم يحظ به أحد من
 اصحاب رسول الله . وكان الى ذلك يقول : « ان بنى أمية تهددنى بالفقر
 والقتل ، ولبطن الارض احب الى من ظهرها ، وللفقر احب الى من الغنى » (٩٥)
 وكان عثمان يقول له - بعد ان بدت معارضته له - : « كن عندى تقود عليك
 وتروح اللقاح » (٩٦) فاجابه ابو ذر : « لا حاجة لى فى دنياكم » (٩٦) وتلك

- (٨٩) حلية الاولياء ابن سعد ٦٢/٤ .
 (٩٠) طرائق الحقائق ٥/٢ .
 (٩١) طبقات ابن سعد ١٦٣/٤ .
 (٩٢) حلية الاولياء ١٥٧/١ .
 (٩٣) طرائق الحقائق ٩/٢ .
 (٩٤) روضات الجنات ٢٢٩ .
 (٩٥) حلية الاولياء ١٦٢/١ .
 (٩٦) صفة الصفوة ٢٢٣/١ .

سمة اخرى للزهد انذى عكسه ابو ذر المسلم القديم الذى دخل الاسلام وهو يعلم انه دين الضعفاء ومنتقد المستضعفين من سطوة التجار القرشيين يعارض عثمان فى المدينة لانه جعل يتصرف فى اموال المسلمين تصرفاً قصد به خلق طبقة من الاغنياء الارستقراطيين صارت فيما بعد السبب فى الثورة على عثمان . وجرت الثورة على عثمان الى عودة القرشيين الذين تغلب عليهم محمد بانصاره من الضعفاء والعييد السابقين والمستضعفين ، الى سابق مجدهم بحيث صار خصم الثائرين على عثمان ، وهم جل الامة الاسلامية ، معاوية بن ابي سفيان ولى عهد رئيس مكة الذى كانت هزيمته فى بدر بداية لتولد الاسلام القوى . وكان من تشيع ابي ذر وقربه من على انه خرج لوداعه «صحبته ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن اخيه عيد الله بن جعفر» (٩٧) حين نفاه عثمان الى الربذة - قرية قرب المدينة - وأمر الايودعه احد (٩٧) . وكانت سياسة ابي ذر من جنس سياسة على تكمن فى المعارضة الايجابية دون خروج على السلطان ودون نكول عن البيعة التى فى العنق ، فقد كان ابو ذر يعارض عثمان معارضة شديدة لتصرفه فى اموال المسلمين وكأنها امواله (٩٨) ، ولكنه لم يحرك يده وانما كان لسانه هو سلاحه الوحيد فكان يقول - للتدليل على ذلك - : « لو أمر على حبشى لسمعت وأطعت » (٩٩) . وقال للذين طلبوا اليه ان يكون قائدهم فى الثورة : « نوصلبني عثمان على اطول جذع من جذوع النخل لما غضبت » (١٠٠) ، وتلك سياسة على بعينها حين بايع لابي بكر وعمر ثم عثمان وكان لهم ناصحاً ومستشاراً مرشداً وكان ايام الفتنة يقول : « لو امرنى عثمان ان اخرج من بينى لخرجت » (١٠١) . وكان ابو ذر - الى ذلك - مع على حين امتنع عن بيعه ابي بكر فى بداية الصراع على الخلافة (١٠٢) ،

(٩٧) اهل البيت لعبد الحميد جودة السحار ٦٨ .

(٩٨) الفتنة الكبرى ١٩٣ .

(٩٩) الفتنة الكبرى ١٩٣ .

(١٠٠) الفتنة الكبرى ٦٤ .

(١٠١) الفتنة الكبرى ٦٤ .

(١٠٢) تاريخ يعقوبى ١٠٢/٢ .

وهكذا يتبين لنا تشيع ابي ذر .

اما مثله فقد نبعت من جوهر الاسلام الذي فهمه ابو ذر على انه محق
لارستقراطي قريش الذين رجعوا عن ضربه وكفوا عن ايدائه - يوم اسلم-
لمجرد كونه من غفار التي تتحكم في طريق القوافل الى الشام ، فادرك منذ
ذلك الوقت ان المال هو المبكى عليه وان المال هو الهدف وهو المصدر والمورد
وان معارضتهم لدعوة محمد انما كانت لخوفهم من زوال هذا المال ، ومن هنا
برز ابو ذر بوصفه اول اشتراكي في الاسلام . والنواقع انه كان حارسا
للاسلام ومراقبا لتطبيق مثله ومبادئه هو وزملاؤه من المسلمين الاولين .
ويبدأ زهد ابي ذر - وكان منصبا في الدرجة الاولى على ايتار الفقر والنهي
عن كثر المال - يوم نفاه عثمان الى الشام ، فقد ادعته تفسير معاوية للآية :
والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بـعذاب
اليوم^(١٠٣) بانها : « نزلت في اهل الكتاب »^(١٠٤) وكان ابو ذر يرى انها
« نزلت فينا وفيهم »^(١٠٥) وبذلك اخذ ابو ذر على معاوية تأويل القرآن
على هواه فشنع ابو ذر : حارس المثل الاسلامية الاسلامية ان واجبه يدعوه الى
ايضاح الحقيقة للناس ففعل وحققت عليه كلمة النفي والتشريد وقد قبلهما
ابو ذر راضيا . ويدعوننا اعتراض ابي ذر وثورته على تأويل معاوية للقرآن
الى التذكير بان التأويل الشيعي لم يكن من بدايته كذلك وانما كان رد فعل
لما صدر من معاوية واعوانه - وبخاصة بعد قتل عثمان - فقابله الشيعة
بتأويل حاولوا ان يضعوا به الامور في نصابها ولكن الظروف حكمت بان

(١٠٣) التوبة : ٣٤ .

(١٠٤) حلية الاولياء ٢١٢/١ . كان معاوية - كما يبدو من روايات
اليقوي - مغرما بالذهب والفضة ، ذلك انه روى ان زيادا كتب الى
الحكم بن عمرو الغفاري عامله على خراسان ابان فتح كورها « ان أمير
المؤمنين معاوية كتب الى ان اصطفى له البيضاء والصفراء ، فلا تقسمن
شيئا من الذهب والفضة ، فلم يلتفت الحكم الى كتابة ٠٠٠٠ » (البلدان
لاليقوي ص ٢٩٦-٧) وهذا هو الاصل في هذا الجدل الذي يبدو لاول
وهلة شكليا ولكن الحوادث والتحليل يبديان جنوره وأصوله .

(١٠٥) طبقات ابن سعد ١٦٦/٤ ، قوت القلوب ١١٦/١ .

تقطع به السبل حين استولى الغلاة على اذهان العامة وساروا بالتأويل المتحكم الى نهاية الشوط • ويكفينا دلالة على صحة ماسقناه ان عمار بن ياسر علل حربه لمعاوية وانصاره بردهم عن التأويل كما حارب أباه لانكاره التنزيل^(١٠٦) •

لقد كان ابو ذر زاهدا يصدر عن المثل الاسلامية التي طبقتها ابو بكر وعمر حين وليا أمر المسلمين فقيرين بعد غنى حتى ان عمر (ع) خطب وهو خليفة « وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة »^(١٠٧) وتبناها ابو ذر مصداقا لقول علي : « ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى الناس ليقسدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقر فقره »^(١٠٨) اما عثمان فقد كان « عند خازنه - يوم قتل - ثلاثون الف الف درهم وخمسائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار فاتتهب وذهبت ... »^(١٠٩) ومن هنا قال ابو ذر « لقد اصبحت وان الفقر احب الى من الغنى ، والسقم احب الى من الصحة ، والموت احب الى من الحياة »^(١١٠) وكان يقول « جزى الله الدنيا عنى مذمة بعد رغبين من الشعر اتعدى باحدهما واتعشى بالآخر ، وبعد شملتى الصوف انزر باحدهما وارتدى بالآخرى »^(١١١) وهكذا رأينا اقتران الزهد العملى منذ التقديم بلبس الصوف واعتباره متمما لمظهر الفقر الذى كان السلاح الماضى الذى ثبت به الاسلام نفسه وتغلب على دسائس القرشيين الارستقراطيين •

ومن الامثلة على زهد ابى ذر ما يرويه عنه سفيان الثورى : « قام ابو ذر عند الكعبة فقال : يا ايها الناس انا جندب الغفارى ، هلم الى الاخ الناصح الشفيق ، فاكتفه الناس فقال : ارأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، اليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ؟ قالوا : بلى ، قال : فسفر طريق القيامة ابعدا ما تريدون ، فخذوا منه ما يصلحكم • قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم

(١٠٦) مروج الذهب ٢١/٢ •

(١٠٧) حلية الاولياء ٥١/١ •

(١٠٨) قوت القلوب ٨٠/٢ ، احياء العلوم ٢٢٢/٤ •

(١٠٩) ابن سعد ٥٣/٣ •

(١١٠) البيان والتبيين ١٣٧/٣ •

(١١١) اصول الكافي ١٨٦ •

الامور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين في سواد الليل لو حشة القبور . . . ثم قال : يا ايها الناس قد قتلكم حرص لاتدركونه ابداء (١١٢) وابو ذر يصدر - في تشبيهه الموت بالسفر - عن قول علي يا ايها الناس كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الذين تشيعون من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون ، نبوئهم اجداثهم وناكل ترائهم كأننا مخلدون بغيرهم (١١٣) وقال ابو ذر « في المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمر ان يذهب بخيرها وشرها من هلاك او موت ، والوارث ينتظر ان تضع رأسك ثم يستاقها وانت ذميم ، وانت الثالث . فان استطعت الا تكون اعجز الثلاثة فلا تكونه ، ان الله يقول : لن تالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (١١٤) ، وان هذا الحمل مما كنت احب من مالي فاحببت ان اقدمه لنفسي (١١٥) وهكذا يتكرر ورود المال وحبه في كلام ابي ذر .

وقد اغرت بساطة ابي ذر وزهده وصراحته واخلاصه اصحاب كتب التصوف بان يجعلوه رأسا من رؤوس هذا المشرب وان يضعوا على لسانه مالم يقله وان يصفوه بما لم يتصف به كرواية السراج عنه قوله : « ان قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقا ، وان خوفي من يوم الحساب ماترك علي بدني لحما ، وان يقيني بثواب الله ماترك في بيتي شيئا » (١١٦) فهذا الخبر يجعل من ابي ذر رجلا من اصحاب المواجيد وكذلك الخبر الذي يورده الكشي - كما ينقل عنه الحاج معصوم علي - عن ابي ذر انه « بكى من خشية الله حتى اشتكى عينيه . . . » (١١٧) فهو هنا بكاء ، وتلك صفة لم تؤثر عنه . وأضاف ابو نعيم الى ابي ذر صفة صوفية محضة فزعم انه « أول من تكلم في علم الفناء والبقاء » (١١٨) وذلك ادعاء يحمل جرثومة تهافته .

-
- (١١٢) حلية الاولياء ١٦٥/١ .
 (١١٣) نهج البلاغة ٨٢/٢ .
 (١١٤) آل عمران : ٩٢ .
 (١١٥) صفة الصفوة ٢٤١/١ .
 (١١٦) اللمع ١٣٥ .

ومثل ذلك في التهافت ما يورده ابن الجوزي ان رجلا دخل على ابي
 ذر «فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا ابا ذر ، انه لا يد لك مسن متاع
 ما دمت ها هنا . قال : ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه» (١١٩) ويأتى تهافته من
 ركة اسلوبه ومن ايراده اصطلاح : صاحب المنزل ، الذي يبعد استعماله في
 القرن الاول . وقد استغل الشيعة ابا ذر في اسباغ الروحانية على الائمة
 فرووا انه قال في تفسير قوله تعالى : ان الله اصطفى آدم ونوحا . . . فلما
 النورية فمن نوح والال ن ابراهيم والسلالة من اسماعيل والعترة الهادية
 الطاهرة من محمد والصديق الاكبر على بن ابي طالب . . .» (١٢٠) .
 وقد انتهت حياة ابي ذر في الربذة بسيطة عميقة كبدايتها في الاسلام ،
 وكانت مصداقا لنبوة القاها النبي باخباره له : « . . . ليموتن رجل بفلاة من
 الارض تشهد عصابة من المؤمنين » (١٢١) وكان هو هذا الميت بالفلاة غربيا
 الربذة ، وقد مر به المؤمنون الموعودون فطلب اليهم « لا يكفنى رجل منكم كان
 اميرا او عريفا او بربدا او نقيبا . . .» (١٢٢) وهكذا ضرب ابو ذر مثلا عاليا
 من سلامة الايمان والاصرار على العقيدة والمعارضة الايجابية حتى في موته .
 عمار بن ياسر

ركن آخر من اركان التشيع وصورة جديدة للشخصيات الشيعية
 الاولى ، وكان يمثل الاصرار المنقطع النظر على ما يراه حقا والاندفاع الى
 اقصى غايات الاندفاع وتضحية النفس - اذا اقتضى الامر - في سبيل المبدأ .
 والجديد في أمر عمار أنه قد كتب له ان يعيش الى بيعة الامام على فمكس
 لنا ما كان سيفعله سلمان وابو ذر لو قدر لهما ان يحيا الى ذلك اليوم .

-
- (١١٧) طرائق الحقائق ٩/٢ .
 (١١٨) الوسائل الى مسامرة الاوائل (عن ابي نعيم في كتابه « معرفة
 الصحابة ») ص ١٢٩ .
 (١١٩) صفة الصفوة ١/٢٤٤ .
 (١٢٠) طرائق الحقائق ١١٢/٢ .
 (١٢١) صفة الصفوة ١/٢٤٣ .
 (١٢٢) حليه الاولياء ١/١٦٩ .

لقد قال معاوية لمناسبة قتل الأشتر : « لقد كان لعلي يمينان ، فقطعت احدهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم » (١٢٣) وبذلك تبدو شيعية عمار على لسان من قاتله الشيعة . وكان عمار ممن اودى في اسلامه وعذب ابوه وامه واخوه بيد القرشين لسببهم الى الاسلام في مكة (١٢٤) ، وعاد اليه الاذى ايام عثمان (١٢٥) . لانه عارض سياسته في الانعام على الامويين من اعداء الاسلام السابقين الذين لقي هو واهله منهم مالتوا ودخل الاسلام ليستظل به من عبوديته لهم في الجاهلية حتى لقد زعم قاتله في صفين انه انما فعل ذلك لانه كان « يقع في عثمان ويشتمه بالمدينة » (١٢٦) .

وقد كان عمار - لهذا - اشد حراس الاسلام مراسا واكثرهم عنادا في الحفاظ على مثله ومبادئه ، وهذا يفسر لنا نصرته لعلي وموالاته الشديدة له ، فقد كان يراه عمار ملك المساكين وأمير المستضعفين الذي يحفظ للمسلمين الحقيقيين مكائهم وكرامتهم ولهذا قال عمار في علي : « ... ووهب لك حب المساكين ، فجملك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما » (١٢٧) . وكان عمار - الى ذلك - محوطا بهالة من الاحاديث النبوية التي ترفع من شأنه وتعوضه عن العذاب الذي لقيه وتجعله من عظماء المسلمين وتغطي على عبوديته فقال (ص) فيه : « ان ابن سمية لم يخير بين امرين الا اختار ارشدهما » (١٢٨) . وقال : « ويحك يا ابن عمار تقتلك الفئة الباغية » (١٢٩) فاقر له (ص) بلزوم

(١٢٣) طرائق الحقائق ١٧/٢ .

(١٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ١٧٨/١ .

(١٢٥) الفتنة الكبرى ١٩٨ .

(١٢٦) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٦/١ .

(١٢٧) حلية الاولياء ٧١/١ . وينبغي ان نقرن تلقيب علي بابي تراب بهذا

المعنى ايضا ، وذلك ان الفقراء عند العرب كانوا يسمون بني غبراء أى بنى تراب (انظر معلقة طرفة) ومن هنا كان علي حتى في لقبه هذا ملكا للمساكين .

(١٢٨) وقعة صفين ٣٨٧ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٤٢٤٩) بنص آخر .

(١٢٩) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٠/١ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٦٤٩٩)

بنص آخر ، وانظر البخارى صلاة : ٦٣ ، فتن : ٧٠ ، ٧٢ . الترمذى =

سمت الحق طول حياته وجعل خصومه الفئة الباغية واوصى النبي (ص) المسلمين بان يكونوا مع الفريق الذي فيه عمار فقال (ص) : « فالزموا سمته » (١٣٠) وقال : « يدور الحق مع عمار حيثما دار » (١٣١) فكان النبي الاكرم اراد ان يقرر ان عمار بن ياسر واشباهه لا مصلحة لهم الا في الاسلام وبقائه على ما كان يريد له الرسول وانهم هم حراس هذه المبادئ لان الاسلام قد رفعهم من ضعة وامنهم من خوف فمصلحتهم هي مصلحة الاسلام وكل تغيير يمسه انما يمسه بقول عمار حين سمي جيش معاوية في صفين بالاحزاب اعداء النبي » (١٣٢) وكان يقول : « ان مراكزنا على مراكز رايات رسول الله (ص) عليهم يوم بدر ويوم احد ويوم حنين ، وان هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الاحزاب » (١٣٣) . وقد اعترف عمار بقتل عثمان صراحة (١٣٤) لانه اعاد بني عبد شمس الى سابق مجدهم وساعد - ان قصدا او عفوا - على نشوء طبقة ارسقراطية اسلامية تضم سراة مكة السابقين .

وقد صار عمار واشباهه من العبيد السابقين والمستضعفين عظماء الاسلام ورجاله شاء القرشيون أم ابوا ، وكان هوى عمار مع على اقرب الناس الى مثل الاسلام الصحيحة ، وكان القرشيون خصومه . وكان معاوية قد شرع سب على وجعله سنة فقابله عمار واصحابه بأن جعلوا يرفعون من شأن على ويحطون من شأن القرشيين فكان ان احس اعداء على بان أثر عمار ابقى في نفوس المسلمين ولم يستطيعوا ان يعادوه صراحة ولا ان ينقضوا اقواله مواجهة ، فالتجؤوا الى حيلة قديمة وحرب خفية هي الاشاعات والذس فنعثوا عليا بأبي

= مناقب : ٣٤ ، ابن حنبل ١٦١/٢ ، ١٦٤ ، ٢٠٦ ، ٥/٣ ، ٢٢ ، ٢٨ ،
٩١ ، ١٩٧/٤ ، ١٩٩ ، ٢١٥/٥ ، ٣٠٦ .

(١٣٠) وقعة صفين ٣٨٧ .

(١٣١) طرائق الحقائق ١٢/٢ .

(١٣٢) وقعة صفين ٢١٢ .

(١٣٣) وقعة صفين ٣٦٤ .

(١٣٤) الطبرى ١٨٧/٥ .

تراب وجعلوا يسبونه في الشام دون ان يعلم كثير من الناس من هو ابو تراب هذا (١٣٥) وظنوه مبتدعا خارجا على الاسلام . ويحسن بنا ان ننبه الى الرأى الصائب الذى طلع به علينا الدكتور على الوردى الباحث العراقى فى اثبات كون عمار هو ابن سبأ وهذا هو نص الأدلة :

ومن غرائب التاريخ ان نرى ان كثيرا من الامور التى تنسب الى ابن سبأ موجودة فى سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه :

١ - كان ابن سبأ يعرف بابن السوداء ، وقد رأينا كيف كان عمار يكنى بابن السوداء ايضا . . .

٢ - وكان من أب يمان ، ومعنى هذا انه كان من ابناء سبأ ، فكل يمان يصح ان يقال عنه : انه ابن سبأ فأهل اليمن كلهم ينتسبون الى سبأ بن يشجب بن قحطان ، وفى القرآن : قال الهدهد لسليمان انه جاء من سبأ ، وقصد بذلك اليمن (النمل : ٢٢) (سبأ : ١٤) .

٣ - وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلى بن ابى طالب (ع) يدعو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل .

٤ - وقد ذهب عمار فى ايام عثمان الى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة فضح الوالى منه وهم بالبطش به وهذا الخبر يشابه ما نسب الى ابن سبأ من انه استقر فى مصر واتخذ الفسطاط . مركزا لدعوته وشرع يرسل انصاره منها (١٣٦) .

٥ - وينسب الى ابن سبأ قوله : ان عثمان اخذ الخلافة بغير حق وان

(١٣٥) مروج الذهب ٧٢/٢ .

ومن اوضح ما يتعلق بهذه الخطة مارواه مسلم فى صحيحه من ان رجلا من آل مروان استعمل على المدينة فدعا سهيل بن سعد فأمره ان يشتد عليه فأبى ، فقال اما اذا أبيت فقل : لعن الله ابا تراب (صحيح مسلم ، مصر ١٣٤٩ ، ٢/٣٢٦) .

(١٣٦) نيكلسون

صاحبها الشرعى هو على بن ابي طالب . والواقع ان هذا هو كلام عمار بن ياسر بالذات ، فقد سمع ذات يوم يصيح فى المسجد - اثر بيعة عثمان - : يا معشر قريش ، اما اذا حرفتم هذا الامر عن بيت نبيكم ها هنا مرة وها هنا مرة ، فما أنا بآمن عليكم من ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتوه فى غير اهله (١٣٧) .

٦ - ويعزى الى ابن سبأ انه هو الذى عرفل مساعى الصلح بين على وعائشة ابان معركة البصرة ، فلولا لثم الصلح بينهما حسب ما يقول الرواة . ومن يدرس تفاصيل واقعة معركة البصرة يجد عمارا يقوم بدور فعال فيها ، فهو الذى ذهب مع الحسن ومالك الاشرى الى الكوفة يحرض الناس على الانتماء الى جيش على ، وكان وقوف عمار بجانب على اثناء المعركة سببا من اسباب ندم الزبير وخروجه منها .

٧ - وقالوا عن ابن سبأ : انه هو الذى حرك ابا ذر فى دعوته الاشتراكية ، ولو درسنا صلة عمار بابى ذر لوجدناها وثيقة جدا ، فكلاهما من مدرسة واحدة هى مدرسة على بن ابي طالب ، وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون ويتشاورون ويتعاونون معا .

نستخلص من هذا ان ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر ، فلقد كانت قريش تعتبر عمارا رأس الثورة على عثمان ، ولكنها لم تشأ - فى اول الامر - ان تصرح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ او ابن السوداء ، وتناقل الرواة هذا الامر غافلين وهم لا يعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار (١٣٨) .

وهذه الادلة مقنعة ومنطقية ولكنها فى حاجة الى نصوص تسند تسمية عمار بن ياسر بابن السوداء وابن سبأ ، فاما كون عمار بن ياسر ابن السوداء فقد ورد فى نص رواه على بن ابراهيم القمى صاحب التفسير الشيعى القديم

(١٣٧) اهل البيت ٦٦ .

(١٣٨) وعاظ السلاطين ٢٧٤-٨ .

لمناسبة الآية : يمينون عليك ان اسلموا (١٣٩) ، فقال : « نزلت في عثكن بن معاوية يوم الخندق ، وذلك انه مر بعمار يحفر الخندق وقد ارتفع الغبار من الحفر ، فوضع عثكن كفه على أنفه ومر ، فقال عمار :

لايستوى من يبنى المساجدا يظل فيها راكعا وساجدا
ومن يمر بالغبار حايدا يعرض عنه جايدا معاندا

فالتفت اليه عثكن فقال : يا ابن السوداء ، اياي تعنى . ثم اتى رسول الله فقال له : لم ندخل معك لسب اعراضنا . فقال له الرسول : قد اقلتك اسلامك فاذهب ، فانزل الله عز وجل : يمينون عليك ان اسلموا . . . (١٤٠) .
وأما كونه ابن سبأ فقد ورد في نسب عمار في طبقات ابن سعد فقال : « هو عمار بن ياسر بن مالك ابن عوف بن حارثة بن عامر بن يام بن عنس ، وهو زيد بن مالك بن ادد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » (١٤١) وكذلك في طرائق الحقائق (١٤٢) نقلا عن الكامل بمناسبة عنس بن مذحج جد عمار وكذلك في تاريخ ابن خلدون برواية الحاج معصوم على ايضا . ويرد في فتوح البلدان نسب عنس ايضا فيقول : « هو زيد بن مالك بن ادد بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ وعنس اخو مراد » (١٤٣) .

(١٣٩) الحجرات ٤٩ : ١٧ .

(١٤٠) تفسير علي بن ابراهيم ٦٤٢ .

روى ابن سعد الشطر الاول من هذه الارجوزة مصحفا على هذه الصورة :

« نحن المسلمون نبتني المساجدا » وذكر انه قيل لما بنى مسجد رسول الله (ص) (الطبقات ٣ : ١٧٩/١) وقد كان عمار يومئذ يجهد نفسه في العمل حتى خيل الى زملائه انه سيموت . ونقل عن ابي سعيد الخدري ان زملاء عمار كانوا يحملون لبنة لبنة « وجعل هو يحمل لبنتين لبنتين » (الطبقات ٣ : ١٨٠/١) .

(١٤١) طبقات ابن سعد ٣/١٨٦ .

(١٤٢) طرائق الحقائق ٢/١١ .

(١٤٣) فتوح البلدان ١١٣ .

وأما كونه عبد الله فكل المسلمين كذلك وهو لقب عام لهم جميعاً ، وكانت كل الكتب التي تصدر عن الخلفاء والامراء والتي ترد اليهم تبدأ بعبارة : « من عبد الله فلان » أو « الى عبدالله فلان » وقد سمي على نفسه في السقيفة بعبد الله (١٤٤) وسمى المنصور نفسه بذلك ، وكذلك محمد بن عبد الله بن الحسن (١٤٥) وعبد الملك بن مروان (١٤٦) ، فالتسمية لعمار بهذا الاسم كسميته بابن سبأ قصد بها التلميح فكان قائلهم يقول : فلان أو الرجل الشفق عليه (١٤٧) ، وذلك امر تقتضيه سرية التلميح . يضاف الى هذه الأدلة كلها دليل لم يلتفت اليه الدكتور الوردى وذلك ان الطبرى فى تطرقه الى حرب الجمل قد عرض لانصار على فيها فكان اذا عددهم وذكر اسم عمار فى جملتهم اغفل ذكر ابن السوداء ، واذا ذكر ابن السوداء تحامى ذكر اسم عمار مما يرجح أن الرجلين شخص واحد . وهكذا نخرج من هذا الاستطراد بان عمار بن ياسر كان نائراً على عثمان وانه استطاع ان يحقق ماصبا اليه من اعادة الاسلام الى قلبه الاصيل وارجاع الامرة الى على بحسب وصية النبي التي كان عمار يؤمن بها . وجليه الامر فى معارضة عمار لعثمان انه كان يرى بان الاسلام قد جاء لازالة الفرق بين الطبقات ، وبمعنى آخر لنشر العدالة الاجتماعية بالاضافة الى الاصلاح الروحى والعقلى ، وقد طبق ابو بكر وعمر خطة الرسول فرأينا عمارا ساكناً عن معارضتهما مع على وابى

(١٤٤) الامامة والسياسة ١٢ .

(١٤٥) الطبرى ٢١٠/٩ .

(١٤٦) العقد الفريد ٢٦١/٥ .

(١٤٧) من طريق ما يذكر ان التقيية الشيعية اضطرت احمد بن طاووس الحلى (المتوفى حوالى سنة ٦٧٣/١٢٣٥-٦) الى تصنيف كتاب لم يشأ ان يقرنه باسمه فنسبته الى عبدالله بن اسماعيل . وقد علق الشهيد الثانى (زين الدين العاملى المقتول سنة ٩٦٦/١٥٥٨-٩) على ذلك بانة فعل ذلك « لان كل العالم عباد الله ولانه من ولد اسماعيل الذبيح » وتلك اعادة لقصة تسمية عمار بعبدالله بن سبأ على صورة شيعية (انظر روضات الجنات ص١٩) .

ذر وغيرهما من المتمسكين بجوهر الاسلام . وقد اتاحت هذه العدالة والمساواة للبيد السابقين والمستضعفين ان يرتفعوا باخلاصهم وايمانهم الى المراكز العليا فى الاسلام ، فكان سلمان اميرا على المدائن وعمار امير الحِرب فى الكوفة وكان غيرهما فى مثل مركزهما . فلما افضت الخلافة الى عثمان تنفس الملائكة المكي القديم الصعداء وحاولوا ان يعيدوا الامور الى نصابها القديم فكانت الثورة التى ادت الى التضحية بعثمان ، ولم يستفد من الملحمة كلها الا معاوية : ولى عهد ابى سفيان الذى ثار عليه النبى وقاتله فزحزحه ، وهكذا عاد معاوية الى عرش ابيه من جديد . وكانت مهمة عمار واشباهه ان يحرسوا النظام الجديد باشاعة الزهد فى المسلمين بحيث يصير طابعا للدين الجديد ويقطع الطريق على الاغنياء والارستقراطيين ان يهدموا الاسلام بمآلهم وجاههم ولهذا وجدنا عمارا يحتفل بعلى لانه كان زاهدا ويجعل الزهد زينة الابرار كما كان المال زينة الملائكة المكي الذى حاربه الاسلام فروى عمار عن النبى (ص) انه قال فى على : « يا على ان الله تبارك وتعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة احب الى الله تعالى منها : هى زينة الابرار عند الله عز وجل ، فجعلك لاترزا من الدنيا شيئا ولا ترزا الدنيا منك شيئا . . . » (١٤٨) . ومادام زعيم عمار وقوته زاهدا فاحر بعمار ان يكون كذلك وهو من اهل الصفة ايضا (١٤٩) .

وشىء اخر يجب ان يذكر فى سيرة عمار وذلك انه كان السابقة الشيعية للقبّة وذلك ان القرشيين عذبوا اياه وامه حتى قتلوهما وعمار ينظر ، فلما حل عليه الدور فى التعذيب « لم يتركوه حتى سب رسول الله (ص) وذكر آلهتهم بخير » (١٥٠) . ولم يصنع عمار الا ان جعل للمقدرة البشرية على تحمل الالام حدودا ، ولكنه ندم فيما بعد اشد الندم وعذبه ضميره غاية التعذيب

(١٤٨) حلية الاولياء ١/٧٨ .

(١٤٩) خطط الكوفة ٣٦ هامش .

(١٥٠) حلية الاولياء ١/١٤٠ .

« فلما اتى رسول الله قال : ما وراءك ؟ قال : شر يا رسول الله ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، فقال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال : اجد قلبي مطمئنا بالايمان . قال : فان عادوا فعد » (١٥١) وهكذا يقرر الرسول نفسه مبدأ التقية التي بدأت بعمار وصارت تقليدا للشيعية فيما بعد ، وعمار من الاربعة الذين تشتاق اليهم الجنة (١٥٢) .

وانتهت حياة عمار في صيفين طافحة بالاخلاص والايمان بالمثل العليا ، فتذكر قبل قتله نبوة النبي بانه تقتله الفئة الباغية فعزم ان يضحي بنفسه في صيفين ليديم مركز علي بن ابي طالب قدوته ورئيسه ، على أمل ان يكون قتله قضية تعطف على الانصار وتنبه الناس الى حقه . فلما استسقى اتته امرأة من بنى شيان بعسل فيه لبن فدفعته اليه (١٥٣) فتذكر نبوة اخرى للنبي اسرها اليه بقونه (ص) : « وآخر شربة تشربها ضياح من لبن » (١٥٤) ، فشاع الرضا على وجهه وملاً الايمان قلبه من جديد ورأى ان ما عزم عليه يحظى بالقبول من الله والنبي ورأى كل ذلك الشقاء قد اجتمع في لحظة من السعادة الابدية فقال : « الله اكبر اليوم القى الاحبة تحت الاسنة ، صدق الصادق وبذلك خبر الناطق وهو اليوم الذي وعدت فيه » (١٥٥) . وهكذا انطوت صفحة ثالث الارقان ضاربة للآتين بعده امثالا عظيمة في التضحية والزهد والفداء .

(١٥١) حلية الاولياء ١/١٤٠

(١٥٢) حلية الاولياء ١/١٣٩

(١٥٣) مروج الذهب ٢/٢١

(١٥٤) وقعة صيفين ٣٨٧

(١٥٥) مروج الذهب ٢/٢١

(١٥١) حلية الاولياء ١/١٤٠

(١٥٢) حلية الاولياء ١/١٣٩

(١٥٣) مروج الذهب ٢/٢١

(١٥٤) وقعة صيفين ٣٨٧

(١٥٥) مروج الذهب ٢/٢١

حذيفة بن اليمان

أحد الذين يتردد اسمهم ضمن الأركان الشيعية الأربعة ، وهو المقصود بالآية : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » (١٥٦) كما يقصد بها زملاؤه : أبو ذر والمقداد وسلمان وعمار (١٥٦) . وكان حذيفة من الطبقة الأولى المخلصة للإسلام لذاته ومن المتمسكين بمثل الإسلام على صورته الجوهرية لان في ذلك استمرارا للحرية التي شعر بها الفقراء والعييد والضعفاء الذين رفعهم الإسلام وصاروا - بنصرتهم له قبل غيرهم - مادته الأساسية والطبقة الأولى فيه . ومن هنا لم يذكر الذاكرون ان اسمه حذيفة بن حسل بن جرو (١٥٧) وانما اقتصروا على نسبته الى اليمان على غير قياس (١٥٨) فانعكس مقام حذيفة من هذه الإشارة البسيطة وبدت مكاتته والاحترام الذي خيف ان يمس بذكر نسبه الذي قد يدعو الى ذهاب المهابة .

وتأتى شيعية حذيفة من ذكره مع الأركان ومن مؤاخاة النبي بينه وبين عمار بن ياسر (١٥٩) اوضح الأركان شيعية وادخلهم فيها ومن ذكر الطوسي المتوفى سنة ١٠٦٨/٤٦٠ له في اصحاب على بن ابي طالب (١٦٠) ومن الصلة الواضحة بين علم على السرى وعلم حذيفة الذي ستتعرض له في هذا الفصل .

و اول ما يتميز به حذيفة انه كان يلقب بصاحب السر او صاحب سر رسول الله (١٦١) ، فتبدأ بذلك مسألة طبيعة العلم في الإسلام هل هو علم أحد

-
- اعيان الشيعة ٢/٢٤٨
 - اعيان الشيعة ٢/٢٤٨
 - اعيان الشيعة ٢/٢٤٨
 - اعيان الشيعة ٢/٢٥٥
 - اعيان الشيعة ٢/٢٥٦
 - البخارى : الاستئذان ٣٨

ام علمان : ظاهر وباطن ؟ لقد تبنى الشيعة ازدواج العلم كما فعل المتصوفة وهذا السراج يقول : « لاخلاف بين اهل العلم ان فى اصحاب رسول الله (ص) من كان مخصوصا بنوع من العلم كما كان حذيفة مخصوصا بعلم اسماء المنافقين ، كان اسره اليه رسول الله (ص) » (١٦٢) واذا وضعنا بازاء هذا ان بعض الصحابة كان يقول : « ما كنا نعرف المنافقين ايام رسول الله الا ببغض على بن ابي طالب » (١٦٣) ادركنا الى اى مدى كان اتصال حذيفة بالشيعة الاول . وعلم حذيفة الخاص جزء من العلم الذى قال على بن ابي طالب فيه - برواية السراج - : « علمنى رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيرى » . وقد عرض ابو طالب المكى لعلم حذيفة فقال فيه : « قد خص بعلم المنافقين وافرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان - من اكابر اصحاب رسول الله - يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى حظى به ويسألونه عن المنافقين . . . فكان يخبر باعدادهم ولا يذكر اسماءهم » (١٦٤) ويجب ان نلاحظ امتناع ان يقصد بهذا العلم مجرد اسماء حفظها حذيفة والالم يكن فى الامر علم ولم تكن لحذيفة ميزة ، ولعل المراد بعلمه ان الرسول قد وجد فيه قوة من الكشف او بعثها فيه وهداه اليها ليستطيع بها ان ينفذ بها الى مستودع سر الرجل بنظره اليه فيعرف هواه ويعرف سر نجواه ولعل مصداق ذلك ما يرويه ابو طالب المكى من انه « كان عمر يستكشفه عن نفسه : هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه منه » (١٦٤) واذا كان المقصود بعلم حذيفة هذا الذى اشرنا اليه ، استحق ان يكون موصولا بالكشف الصوفى الذى سيأتى بعدئذ ويكون مرتبطا بقول الله تعالى : « ان فى ذلك لآيات

(١٦٢) اللمع ١٩ .

(١٦٣) الصواعق المحرقة ١٢٠ عن الترمذى ، الشيعة فى التاريخ ٢٢٦ .

ضحى الاسلام ١٢٢/٢ عن مسلم .

(١٦٤) قوت القلوب ٢٣/١ .

للمتوسمين» (١٦٥) • وبذلك نستطيع ان نعلل سبب استكشاف عمر له عن نفسه ويستقيم الامر على هذا الاساس •

لقد فتح علم حذيفة بن اليمان وكونه صاحب السر بابا لن يوصد في طبيعة العلم ، فأخذ المتصوفة الاساس وبنوا عليه نظريتهم في المعرفة وانواعها وفي الرجال ودرجاتهم ، فقسّمهم السراج الى ثلاثة : « علم بين للخاصة والعامّة وهو علم الحدود والامر والنهي وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذي كان يعلم حذيفة بن اليمان ٥٥٥ وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد ، (١٦٦) وهذا التقسيم الثلاثي للعلم وحامله قد اورده ابو طالب المكي عن الامام على أنه قال : « ٥٥ الناس ثلاثة : عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح » (١٦٧) ، والصلة بين حديث على وتقسيم السراج ان عليا قد ادمج العلم المخصوص وعلم النبي في علم واحد وافرد السراج للنبي علما وللصحابية المخصوصين بالسر علما وكلا التقسيمين واحد في الجوهر غير ان السراج يخشى ان يتهم بالتشيع لان الشيعة يعتبرون علم النبي وعلم على واحدا هو علم الانبياء والاصياء اى العلم اللدني • وقد التفت ابو طالب المكي الى هذه الحقيقة ولكنه تحامى ان يصرح بها وان كان اقرب من رأى الشيعة في قوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصص لا يصلح الا للخصوص والخصوص قليل ولم يكونوا ينطقون به الا عند اهله ٥٥٥ كما وصفهم على كرم الله وجهه في قوله : حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه في قلوب اشكالهم » (١٦٨) • وقد

(١٦٥) الحجر : ٧٥

(١٦٦) اللمع ٣٧٨

(١٦٧) قوت القلوب ٣١/١

(١٦٨) قوت القلوب ٣١/١

تطورت هذه النظرية في المعرفة وانواعها وعادت الى قالبها الشيعي القديم الذي يجعل من الناس طائفتين : طائفة اخصت بعلم الهى خاص وهم طبقة الانبياء ويلحق بهم الائمة عند الشيعة ، وطائفة تمثلهم عامة الناس لم يختصوا بهذا العلم . وهكذا صار شيعي آخر سببا فى اتجاه جديد دخل الاسلام واتسع فيه حتى صار قائما بذاته .

والواقع ان صلة حذيفة بالتصوف وثيقة لانه السابقة الخطيرة فى امكان اطلاع غير الرسل وغير اوصيائهم - كما عند الشيعة - على اسرار لايتاح الاطلاع عليها الا لذوى الاستعداد الروحي الخاص . وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم فى طريقهم وسرعان ما صنعوا حديثا رفعوه الى الله عز وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فكان بذلك اول شيعي يأخذ منه الصوفية نظرية المعرفة عندهم : النظرية التى تقوم على الذوق والكشف والاستعداد الشخصى والفراسة ، ويتأتى كل ذلك بالمجاهدة والعبادات ، والحديث : « عن عبدالواحد بن زياد قال : سألت الحسن (البحرى) عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عن علم الباطن فقال : هو سر من سرى اجعله فى قلب عبدى لايقف عليه احد من خلتي (١٦٩) ، والمهم فى هذا الحديث القدسى انه يستند الى رواية حذيفة عن النبي مباشرة وبين حد العلم الباطن الذى كان حذيفة نفسه مشتملا عليه .

ويبدأ زهد حذيفة من حديث يروييه عن النبي (ص) انه قال : يا حذيفة ، ان فى كل طائفة من امتى قوما شعثا غربا اياى يريدون واياى يتبعون وكتاب الله يقيمون ، اولئك منى وانا منهم وان لم يرونى (١٧٠) ، ورائحة النحل

(١٦٩) التعرف ٥٩ .

(١٧٠) حلية الاولياء ٩/١ .

فأثمة من هذا الحديث لان طوائف الامة قد تشعبت فيما بعد ولان الشعب
الغبر لم يكونوا يحتلون مركزا خاصا فى الاسلام الاول لمجرد انهم كذلك ،
ولكن هذا الحديث يبين تمسك الزهاد ، اسلاف المتصوفة ، بهذه الصفة الروحية
التي تتسم بها شخصية حذيفة فجعلوا منه راوية لاحاديث عن النبى تستخدم
طريقتهم . ومما يوثق اتصال زهد حذيفة بالكشف على عمومته انه تنبأ للكوفيين
يوم طردوا سعيد بن العاص عامل عثمان عليهم انه « والله لتردن على عقبيها
ولا يكون فيها محجمة من دم . وما اعلم منها اليوم شيئا الا وقد علمته ومحمد
(ص) حى » (١٧١) . وكان حذيفة يحذر الناس - بعد - من الفتنة والشر
الذين سيحدثان بعد ذلك وينقل الى الكوفيين نصيحة الرسول له : « فلأن
تعصد على جذع شجرة خير لك من ان تتبع احدا منهم » (١٧٢) والمهم - بعد
ذلك - ان عليا كان يعلم سر حذيفة فكان يقول له : « يا حذيفة لاتحدث الناس
بما لا يعرفون فيظفوا ويكفروا » (١٧٣) وهذا قول يذكرنا بما فاه به الشبلى
بمناسبة قتل الحلاج : « كنت انا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا انه
اظهر وكتمت » (١٧٤) ووقف الشبلى على الحلاج وقال نفس مقالة على بن
ابى طالب لحذيفة بن اليمان - ولكن بعد ان سبق السيف العذل - : « السم
نهك عن العالمين » (١٧٥) وذلك يذكرنا ايضا بالنص الذى اوردناه عن على
ابن الحسين بن على بن ابى طالب متضمنا قوله : « لو علم ابو ذر بما فى قلب
سلمان لقتله » (١٧٦) وهكذا يبدو التصوف مرتبطا بالتشيع برباط وثيق ولكنه
شفاف اخفاء المتصوفة لسبب وجيه اوردناه فى اول هذه الرسالة .

-
- (١٧١) الطبرى ٣/٣٧٥ .
(١٧٢) حلية الاولياء ١/٢٧٢ .
(١٧٣) الغيبة لابن زينب ٧٥ .
(١٧٤) اربعة نصوص تتعلق بالحلاج ١٩/٢ .
(١٧٥) اربعة نصوص ١٩/٢ .
(١٧٦) طرائق الحقائق ١/٢٣٢ .

وقد كان حذيفة يحب الفقر ويألفه كما كان زملاؤه يفعلون وكان حذيفة يحبه لنفسه ولأهله فقال : « ان أقر يوم لعيني ليوم اذا رجعت فيه الى اهلي فيشكون الى الحاجة » (١٧٧) فكان بذلك كأبي ذر وسلمان عمار وغيرهم ممن وعوا رسالة الاسلام على حقيقتها . وقال حذيفة في آخر ساعة من حياته : « لولا ارى ان هذا اليوم آخر يوم من الدنيا واول يوم من الآخرة لم اتكلم به . اللهم انك تعلم اني كنت احب الفقر على الغنى واحب الذل على العز واحب الموت على الحياة ، حبيب جاء على فاقة . . . » (١٧٨) وفي ذلك شبه ايضا بما صدر عن الشيعة الاولين في ساعات موتهم ، وانه لغريب ان يجمعوا على حب الموت وعلى حب الله على صورة واحدة ، ولكن مدرسة الاسلام الاصيله هي السبب في كل ذلك وهي - لذلك - تزيل هذا العجب . ونختم فصل حذيفة بانه قال لما اتاه قتل عثمان وبيعة على وكان عليلا بالكوفة : « أخرجوني وادعوا : الصلاة جامعة ، فوضع على المنبر فحمد الله واتى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال : ايها الناس ، ان الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا وآزروه ، فوالله انه لعلى الحق اولا وآخرا . انه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى الى يوم القيامة . الحمد لله الذى ابقانى الى هذا اليوم » (١٧٩) ثم تنبأ لولديه صفوان وسعد بانه « سيكون لعلى حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا ان تستشهدا معه فانه والله على الحق ومن خالفه على الباطل » (١٧٩) واخبرنا المسعودى بانهما قد فعلا (١٧٩) .

ومات حذيفة في المدائن فدفن بعيدا عن سلمان « ولكن قبره كان قريبا من الشط فخيف طغيان الماء عليه فنقل ترابه الى مشهد سلمان في زماننا

-
- (١٧٧) اللمع ١٣٧
 - (١٧٨) حلية الاولياء ١٧٢/١
 - (١٧٩) مروج الذهب ٢٣/٢

هذا ، (١٨٠) • وهكذا جمع الموت بين الركنين كما جمعتهم الحياة ومن يدرى فلعل في اجتماعهما في مشهد واحد سرا كان يعلمه حذيفة ولم يطلع عليه احدا • وكانت وفاته سنة ٣٦ •

المقداد بن أسود

شخصية اخرى من الشيعة الاوائل وكان من طراز الاربعة السابقين من حيث انه لا ينتمى الى عصبية او ارستقراطية قرشية فهو مولى الاسود بن عبد يغوث وقد كان تنبأ في الجاهلية ، فلما اسلم عاد الى نسبه القديم المقداد بن عمرو اتباعا للآية : ادعوهم لآبائهم (١٨١) ، وكان من السابقين الى الاسلام وينصرف اليه الحديث : « ان الله أمرني بحب أربعة واخبرني انه يحبهم وانك يا على منهم والمقداد وابو ذر وسلمان » (١٨٢) وهو الى ذلك يلقب « بصاحب رسول الله » (١٨٣) وقد كان ختن الزبير وذلك دليل على مكانة السابقين الى الاسلام وان كانوا من مستوى اجتماعى ادنى من القرشيين وذلك ان المقداد بن عمرو خطب الى رجل من قريش فابى ان يزوجه ، فقال له النبى : لكنى ازوجك صياغة ابنة الزبير بن عبدالمطلب • ويأتى مقام المقداد فى الاسلام من موقف وقفه من رسول الله (ص) يرويه ابن سعد «عن عبدالله قال : شهدت من المقداد مشهدا لان اكون انا صاحبه احب الى مما عدل به • انه اتى النبى وهو يدعو على المشركين فقال : يا رسول الله انا - والله - لانقول لك كما قال قوم موسى : اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون» (١٨٤) ، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك •

-
- (١٨٠) اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ •
 - (١٨١) صفة الصفوة ١/١٦٧ •
 - (١٨٢) حلية الاولياء ١/١٣٩ •
 - (١٨٣) ابن الاثير ٣/٧١ •
 - (١٨٤) المائدة : ٢٧ •

فرأيت النبي يشرق لذلك ويسره ذلك ، (١٨٥) . والمقداد هو القائل - بعد انتخاب عثمان - : « ما رأيت مثل ما اودى به أهل هذا البيت بعد نبيهم . اما وأيم الله يا عبدالرحمن (بن عوف) لو اجد على قریش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر » (١٨٦) .

والمقداد زاهد كزملائه السابقين الاولين ، وزهده آت عن تجربة عاناها فكاد يفتن عن دينه ، فانه يقول : « استعملنى رسول الله (ص) على عمل ، فلما رجعت قال : كيف وجدت الامارة ؟ قلت : يا رسول الله ما ظننت الا ان الناس خول لى . والله لا ألى على عمل ما دمت حيا » (١٨٧) .

ويبدو ان المقداد كان ممن اودى ايام عثمان لمعارضته لسياسته فعلى زملائه فى الجهاد ، ولعل هذا هو الذى جعله من الاركان ، فانه لا يتميز بميزة معينة شأن زملائه السابقين الاولين اللهم الا هذا الذى نجده من اخلاصه وايمانه الشديد . وهو لم يشارك عليا حروبه لانه توفى فى خلافة عثمان . ويروى عن الزبير خبر يدل على هذه المعارضة التى ابداهها المقداد لعثمان حتى احفظه عليه ، فانه يروى ان عثمان قد ترحم على المقداد بعد موته (سنة ٣٣) وجعل يثنى عليه ، وعندئذ قال الزبير : (١٨٨)

لا ألفينك بعد الموت تسدبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

الشيعة الاخرون

وكان خباب بن الارت من هذا الطراز ايضا وهو « احد المستضعفين الذين عذبوا بمكة ليرجع عن دينه » (١٨٩) . ويروى خباب الاهوال التى قاساها فى مكة بقوله : « فلقد رأيتنى يوما اخذونى واوقدوا لى نارا ثم سلقونى

(١٨٥) طبقات ابن سعد ٣/١١٤-١١٥ .

(١٨٦) مروج الذهب ١/٤٤٠ .

(١٨٧) حلية الاولياء ١/١٧٤ .

(١٨٨) طبقات ابن سعد ٣/١١٥-١١٦ .

(١٨٩) ابن سعد ٣/١١٦ .

فيها ثم وضع رجل رجله على صدرى فما اتقيت الارض - وقال : برد الارض -
 الا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فاذا هو برص» (١٩٠) وكان خباب
 من اصحاب على وشيعته وهو « اول من قبره على بالكوفة وصلى عليه منصرفه
 من صفين» (١٩١) . وهكذا كان البراء بن عازب وصهيب وبلال وغيرهم ،
 وهؤلاء كلهم يمتنون طائفة ممن جعلت من على هاديا لها ومرشدا ومرجعا
 بعد النبي ، وكانت تنظر اليه ايام النبي على انه المرشح الوحيد لتولى هذا
 المنصب لقربته القرية وعلمه الوافر وامتلائه بمعاني الاسلام ومقوماته الاخرى ،
 وتلك ناحية تمثل الاتجاه الاجتماعى المرتبط بالمستضعفين الذين كان الاسلام
 لهم درعا وحاميا ، فكان مكانهم مع على لانه يمثل امتداد الاسلام وحسب
 فريش والتيار الاسلامى الاصيل ، ثم ان عليا فقير مثلهم ولعلنا نذكر كيف
 كفله النبي (ص) ليخفف عن ابي طالب شيئا من عبء عياله الذى كان يثقله .
 وكان فى الشيعة فريق اخر ينصر عليا هو الفريق الذى يمثل العصية القبلية
 النابعة من طبيعة العربى فلقد رأينا بنى هاشم يمتنعون عن البيعة مع على فى
 السقيفة ، ومن هنا وجدنا الاركان الاربعة منحصرة فى الفريق الاول الذى
 تولى عليا بوصفه الرجل الذى يستطيع ان يدير عجلة الاسلام على منهج رسول
 الله دون خلل او زلل . ولم نجد الاركان تستغرق الهاشميين لان ايمانهم
 بعلى كان ايمان قرابة ودم اكثر منه ايمان مبدأ وقلب ، فقد ترك عبدالله بن
 العباس عليا وهو فى اشد الحاجة اليه وذهب الى مكة بما اخذه مسن مال ،
 ووجدنا الزبير ثائرا على على بعد مبايعته له وقد كان يعد نفسه من الهاشميين
 بامه صفية بنت عبدالمطلب (١٩٢) وكان على يقول فيه : « مازال الزبير منا حتى
 نشأ بنوه فصرفوه عنا» (١٩٣) . ونجد - بازاء هذين الهاشميين الخارجين عن

(١٩٠) ابن سعد ٣/ ١١٦ .

(١٩١) ابن سعد ٣/ ١١٨ .

(١٩٢) الامامة والسياسة ١١ .

(١٩٣) الامامة والسياسة ١١ .

على - شيعيين غريبين هم الاخوان الامويان : خالد وعمرو ابنا سعيد بن العاص وقضية خالد مشهورة يرويها ابن سعد في طبقاته (١٩٤) وذلك انه خامس من اسلم واول من هاجر الى الحبشة وكان عامل النبي على اليمن حتى توفي (ص) وقد امتنع عن البيعة لابي بكر كما مر بنا ، وكان ابوه ابو احيحة من عتاة اصحاب الاموال في مكة ، فلما سمع باسلام ابنه لم يستطع المقام فيها « فاعتزل في ماله بالظريية نحو الطائف » (١٩٥) .

وهناك فريق شيعي ثالث هم الانتصار الذين نصرروا النبي ونصروا آله فيما بعد ، والعلة مفهومة من حربهم للقرشيين مع النبي ثم حربهم الامويين الذين هم خلف ذلك السلف فيما بعد ، وكان الامويون - لذلك - من اعدى اعدائهم بما نصرروا محمدا في الوقعة الفاصلة التي ثبت بعدها الاسلام ، ولذلك روى المسعودي انه كان ممن شهد صفين مع علي من اصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الانتصار . . . (١٩٦) ويروى ايضا انه كان مع علي في الجمل ابو ايوب الانتصارى صاحب رسول الله . . . وخزيمة بن ثابت الانتصارى ذو الشهادتين وقاتدة بن ربيع وعمار ابن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة . . . (١٩٧) . ويخبرنا الطبرى في عرضه لصفين انه « عظم من معه من اهل المدينة والانتصار » (١٩٨) . وهكذا يتبين لنا ان حركة التشيع انما هي حركة المحافظة على الاسلام ومراقبة تطبيق مبادئه على الوجه الصحيح ، ورأينا ان اكثر الذين التزموا بالعقيدة والمبدأ هم اصحاب المصلحة في بقاء الاسلام على ما اراد الله والرسول ، فلمهم في ذلك مصلحة تتعلق بحريتهم والمحافظة عليها من عبث من حاربوهم ، ولهم مصلحة

(١٩٤) طبقات ابن سعد ٦٨/٤ .

(١٩٥) طبقات ابن سعد ٧٢/٤ .

(١٩٦) مروج الذهب ٣/٢ .

(١٩٧) مروج الذهب ٨/٢ .

(١٩٨) الطبرى ١٠/٣ .

في بقاء الاسلام على حقيقته دينا يصلح السرائر ويشير بالمساواة بين الناس .
 وكان المستضعفون والعبيد السابقون وابناء الاغنياء المؤمنون برسالة محمد (ص)
 كالامويين السابقين هم الذين يمثلون الفريق المؤمن بالاسلام نفسه وبهمه ان
 يبقى كذلك . يضاف الى هؤلاء الانصار الذين تبنا سياسة النبي في خلق
 مركز تجمع ينافس مركز مكة القرشية فكانوا انصار على ايماننا بالاسلام
 ومثله وتطلبا لمصلحة مادية ومعنوية في وقت واحد . اما الهاشميون فقد مزجوا
 العقيدة الاسلامية بنظرهم الى الحق الذي اسبغه الاسلام على على في
 استحقاقه للقيادة وجدارته بها ووضعوا ذلك بازاء كون على واحدا منهم عليهم
 ان ينصروه لان في ذلك نصرا لهم وليبتهم الهاشمي ، ثم من يدرى فلعل
 الظروف في ثقلها تتيح لهم املا في الامارة ، وقد حدث ذلك فعلا كما في
 حركة ابن الزبير بعد قتل الحسين وحركة العباسيين بعد قتل زيد فان فيهما
 ابلغ شاهدين على ذلك . وهكذا ينتهي بنا التشيع الاول الى ما رأينا ولكنه
 سيتغير ويتطور وقد يجيد وسرى كل ذلك في موضعه .

وقبل ان تنتقل الى الفصل التالي لابد ان نقرر ما يراه الدكتور على
 النوردي من ان البلدان التي سكنها هؤلاء الثلاثة (من الاركاز : عمار وسلمان
 وابو ذر) اصبحت فيما بعد مراكز التشيع لعلى بن ابي طالب . فعمار
 سكن الكوفة يوم كان واليا عليها في عهد عمر . اما سلمان فقد تولى امر
 المدائن ، ثم صارت المدائن فيما بعد موطناً للتشيع كما اشار اليه البروفسور
 ماسينيون^(١٩٩) ، وربما انتقل التشيع الى الفرس من هناك . اما ابو ذر فقد
 نفاه معاوية الى جبل عامل ، ولا يزال ذلك الجبل حتى يومنا هذا موطن
 المتأولة اى الذين يتولون عليا ، (٢٠٠) .

(١٩٩) شخصيات قلقة في الاسلام ٤٣-٤٤ .

(٢٠٠) وعاظ السلاطين ٢٩٧ .

الامام على

قبل ان ندخل في تفاصيل جوانب الامام على الروحية والشخصية ،
يحسن بنا ان نلفت الاذهان الى حقيقة قد تكون خافية : ذلك ان الامام عليا
شخص له جانبان : جانب تاريخي يعرفه الناس وتعرض الكتب العامة له ،
وجانب روحي دخلت فيه اضافات قد تكون اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند
الشيعة اولاً ثم عند المتصوفة . ونستطيع ان نسمى الجانب الاول بالجانب
العام والثاني بالجانب الخاص .

اما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام قد ولد بعد النبي بثلاثين
سنة أى (٦٠١م) ^(١) ، واسلم وعمره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة
النبي وبعد خديجة مباشرة وانه لم يعبد الاصنام قط لصغره ^(٢) ، وانه « كان
اقرب الناس اليه (ص) وكان ربيبه وكان خليفته على ودائمه وكان ختته وابا
عقبة وكان صاحب لوائه وكان خليفته فى اهله وكانت منزلته منه بمنزلة هرون
من موسى بنص الحديث عن النبي نفسه » ^(٣) ومن المعروف ايضا ان النبي
آخى بينه وبين على ^(٤) وقال فيه : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وآل من
والاه وعاد من عاداه ^(٥) وان الشيعة قد رأوا فى هذا الحديث ترشيحا له
لتولى الامر بعد النبي (ص) وان بقية المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين
الى حديث آخر القاه النبي فى آخر لحظة من حياته وكان متسورا لان
الحاضرين حالوا دون اتمامه ، وذلك هو حديث الخميس ^(٦) وان النبي (ص)
قال فى على : انا مدينة العلم وعلى بابها ^(٧) . وانه كان مغاليا فى الزهد والعدل ^(٨)

- (١) ابطال الاسلام ١٧ .
- (٢) طبقات ابن سعد ١٣/٣ .
- (٣) الفتنة الكبرى ١٥١ .
- (٤) طبقات ابن سعد ١٤/٣ .
- (٥) تاريخ يعقوبى ٩٣/٢ .
- (٦) صحيح البخارى ٥/٤ .
- (٧) اصول الكافي ٢١٠ .
- (٨) تاريخ التمدن الاسلامى ١٧/٢ .

الى حد انه قسم رغيفا سبعة اسهم^(٩) ، وروى ابو طالب المكي انه كان « ازهد الصحابة »^(١٠) ، وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد ان يشتري بها خادما لاهله^(١١) .

اما الجانب الخاص من على(ع) فهو الذى يعيننا فى هذه الرسالة ويندمج على المثل والاصناف وانجواب الروحية التى اضافها اليه الشيعة اولاً ثم المتصوفة حين جعلوا علياً مرجعهم ورأسهم فى التصوف والزهد ، وتلك أمور يحسن بنا ان نقسمها ونفصلها • ويجب ان نقرر - الان - ان الشيعة - كغيرهم من المسلمين - يرون فى على ما يراه غيرهم ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه من زملائه من الصحابة • ويجب ان تنبه الى حقيقة اخرى وهى اننا فى عرضنا لعلى سنين الافكار التى انتهى اليها التفكير الشيعى وستترك امر أصولها وبداياتها الى مواضعها المناسبة •

يرى الشيعة انه « لا يقاس بأل محمد من هذه الامة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه ابدا • هم اساس الدين وعماد اليقين • اليهم يفتى الغالى وبهم يلحق اتالى ، ولهم خصائص حق الولاية والوراثة »^(١٢) • بل بل اننا نلمح اعتقاد الشيعة قدم نفوس الائمة واولهم على - فى التفسير المنسوب الى الحسن العسكري الامام الحادى عشر المتوفى سنة ٢٦٠ - « ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شىء وعرضه على الملائكة جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين اشباحاً خمسة فى ظهر آدم وكانت انوارهم تضىء فى الآفاق من السموات والحجب والجنان والكرسى والعرش • فامروا مع الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً له لانه قد فضله بان جعله وعاء لتلك الاشباح

(٩) ابن الاثير ٢٠٢/٣ •

(١٠) قوت القلوب ١٩٥/٢ •

(١١) مروج الذهب ٤٢/٢ •

(١٢) نهج البلاغة ٥-٢٤/١ •

التي قد عم أنوارها الأفاق فسجدوا الا ابليس» (١٣) • ويروى الشيعة ايضا عن النبي (ص) ما يفيد خلود الائمة من ابناء علي كقدمهم ، فان في نهج البلاغة انه (ص) قال : « ايها الناس خذوها من خاتم النبيين: انه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلى منا وليس ببال» (١٤) • وسيمر بنا ان فكرة النور هذه بدأت سنة ٧٤٦/١٢٨ من عبدالله بن الحارث واسبغت على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب النائر بالكوفة والمتوفى بفارس سنة ١٣٠ ويرد في هذا التفسير ايضا ان موسى انما فرق البحر بمصاه بعد ان قال : « اللهم بجاه محمد وآله الطيبين الافلقتة» (١٥) ، ويذكر ان « كل فرقة نجت فقد نجت من العذاب بتوسلهم الى الله باسم محمد وآله» (١٦) ، ويرد في التفسير نفسه « ان الشجرة المحرمة في الجنة هي شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه» (١٧) • بل ان الحاج معصوم علي يروى ان النبي (ص) قال : « اول ما خلق الله نوري واول ما خلق الله روحى ، وقال : انا وعلى من نور واحد ، وقال كلنا واحد وامرنا واحد وسرنا واحد ونحن شيء واحد» (١٨) • ويورد الكليني « ان الامام ينطق عن الله في الكتاب وانه اوضح بأئمة الهدى من اهل بيت نبينا (ص) عن دينه وابلج بهم عن سبيل مناهجه وفتح بهم عن باطن يتابع علمه وجعلهم مسالك معرفته ومعالم لدينه وحجابا بينه وبين خلقه والباب المؤدى الى معرفة حقه اطلعهم على المكنون من غيب سره ...» (١٩) ، وذلك لان الكليني نفسه يورد عن علي بن ابي طالب (ع) « ان الله عز وجل خلق النبيين على النبوة فلا يكونون الا انبياء ، وخلق الله الاوصياء على الوصية فلا يكونون الا اوصياء» (٢٠) ولهذا وجدنا

(١٣) تفسير الحسن العسكري ١٦٢ •

(١٤) نهج البلاغة ١/١٥٣ •

(١٥-١٧) تفسير الحسن العسكري ١٦٢-٣ •

(١٨) طرائق الحقائق ١/٤٣ •

(١٩) اصول الكافي ١ •

(٢٠) اصول الكافي ٢ •

عليًا برواية الشيعة يقول : « انا آدم وانا نوح وانا ابراهيم وانا موسى وانا عيسى انتقل في الصور كيف اشاء من رأيتي فقد رأهم » (٢١) وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة .

فإذا ابصرته ابصرتني وإذا ابصرتني ابصرتنا

ويوضح الامام ذلك بقوله : « ولو ظهرت للناس في صورة واحدة لهلك في الناس وقالوا : هو لا يزول ولا يتغير ، وانما انا عبد من عباد الله . لا تسمونا اربابا وقولوا في فضلنا ما شئتم فانكم لن تبلغوا كنه ما جعله الله لنا الا معشار العشر لانا آيات الله ودلائله وحجج الله وخلفاؤه وامناء الله ووجهه الله وعين الله ولسان الله .. » (٢٢) . وهذه امور تتصل بتناسخ النور الالهي الذي قال به عبدالله بن الحارث او هي افكار متأخرة جاءت من الغلو الذي شكل الاسماعيلية بلونه ، وسنرى كل ذلك في موضعه . ويرد في (من لا يحضره الفقيه) - وهو ثاني مراجع الشيعة الرئيسية - في باب صلاة الاستسقاء عن سلمان الفارسي - الذي مر بنا تشييعه - عن النبي (ص) انه قال : « اجريت الحكمة على لسان اهل بيتي » (٢٣) ، ولفظ اهل البيت كما يورد الشيعة على لسان مفسرهم علي بن ابراهيم المنصوص عليهم في الآية : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » ، يراد به رسول الله (ص) وعلي (ع) وفاطمة والحسن والحسين برواية ابي الجارود عن ابي جعفر محمد الباقر المتوفى سنة ١١٩/٧٣٧ ، وذلك ان الرسول (ص) دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين ثم البسهم كساء خيريا ودخل معهم فيه ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتي الذين وعدتني بهم ما وعدتني اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت ام سلمة - التي جرت هذه الواقعة في دارها - وانا

(٢١ ، ٢٢) طرائق الحقائق ١/٤٣ .

(٢٣) من لا يحضره الفقيه ، والآية في سورة الاحزاب : ٣١ .

معهم يا رسول الله؟ قال: ابشرى يا ام سلمة انت الى خير» (٢٤) . وقد ورد في الصواعق المحرقة تأييد لهذا التفسير فذكر ابن حجر « ان اكثر المفسرين على ما ذكرنا ويروى عن مسلم انه اورد رواية الكساء بكاملها » (٢٥) . وهذه الآية اساس من اساس العقيدة الشيعية توثقها آية المباهلة: «قل تصالوا ندع ابنانا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين» (٢٦) برواية ابن حجر ايضا . وذلك انها لما نزلت غدا (ص) محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلى خلفها ، وهؤلاء هم اهل الكساء ، فهم المراد في آية المباهلة (٢٧) . وبذلك يتضح لنا لماذا يعتبر على من اهل البيت ولا يعتبر كذلك العباس عم النبي (ص) . فملاك الامر اذا ان لدى على استعدادا روحيا وانه صنو لاي نبي فالتسمية هنا تعين الوظيفة ولا تؤثر في مقام الشخص . ولم يقصد الشيعة بذلك ان عليا احق بالرسالة من النبي وان الرسالة لو لم تكن في محمد (ص) لكانت في على : انهم لا يفكرون في المسألة على هذا النحو كما قد يخيل الى غيرهم ، وانما يوجهون المسألة الى سمو روحى حظى به على من الله نفسه بحكم وجوده فى مهبط الوحي وكونه اخا شخصيا وروحيا للرسول (ص) . وقد ورد ذلك فى اصول الكافي الكتاب الشيعي الاول الذى يجمع اقوال الائمة . قال على : « انا قسيم الله بين الجنة والنار وانا الفاروق الاكبر وانا صاحب العصا والميتم وبهذا اقرت لى جميع الملائكة والروح بمثل ما اقرت لمحمد (ص) . . . » (٢٨) ، وشرح الباقر - الامام الخامس - ذلك بان عليا « جرى له من الطاعة بعد رسول الله والفضل ما لرسول الله . . . فان رسول الله باب الله الذى لا يؤتى الا منه وسبيله الذى من سلكه وصل الى الله عز وجل ، وكذلك كان امير المؤمنين من بعده وجرى للائمة واحدا بعد واحد» (٢٨) . ويدل على سمو

(٢٤) تفسير على بن ابراهيم ٥٣١ .

(٢٥) الصواعق المحرقة ١٤١ .

(٢٦) آل عمران : ٥٤ .

(٢٧) الصواعق المحرقة ١٤٣ .

(٢٨) اصول الكافي ٣٦ .

مقام على الروحي ما يرد في تفسير علي بن ابراهيم من ان الرسول قال لعلي :
 « ان الله اشهدك معي في سبعة مواطن هي : الاسراء الاول والثاني وفي بعثي
 الى الجن وفي ليلة القدر ودعوة النبي لله في علي ان يعطى كل شيء فاعطاه الا
 النبوة وكان مثال علي مع الرسول في صلواته بالانبياء في اسرته الى السماء ،
 وكان علي معه في هلاك الاحزاب» (٢٩) وقد ورد في نص الاسراء انه «اما اول
 ذلك فليلة اسرى بي الى السماء ، قال لي جبرائيل اين اخوك فقلت : خلفته
 ورائي قال ادع الله لعله يأتيك به ، فدعوت الله واذا مثالك معي واذا الملائكة
 وقوف صفوف ، فقلت يا جبرائيل من هؤلاء قال : هم الذين يباهيهم الله بك
 يوم القيامة ، والثاني حين اسرى بي المرة الثانية فقال جبرائيل اين أخوك
 قلت : خلفته ورائي قال ادع الله فليأت بك فدعوت الله فاذا مثالك معي فكشط
 لي عن سبع سموات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها» (٢٩-)
 وسيرد مثل ذلك عند ابن قضيبة الباب (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ) الذي عرج
 الى السماء بنفسه (٣٠) واذن فعلى هو رأس البيت بعد النبي وهو اول الائمة
 وقد اورد اليعقوبي حديثا يبدو وكأن فيه رسما للامام علي وصيا واخا روحيا
 حقا : « قال (ص) لعلي بن ابي طالب (ع) : عليك بالصدق فلا تخرجن من
 فيك كذبة ابدا والورع فلا تجترى على خيانة ابدا ، والخوف من الله كأنك
 تراه ، والبكاء من خشية الله بين لك بكل دمعة بيتا في الجنة ، والاخذ
 بمستى (٣١) ولهذا فانه ليس من الغريب ان نجد في كتاب الغيبة للطوسي
 المتوفى سنة ١٠٦٨/٤٦٠ بعد تبيان فضل النبي(ص) وشرفه ومقامه عبارة
 تتم عن مقام علي نفسه ، « وعلى اخيه امير المؤمنين تاليه في الفضل ومؤازره في
 الأواء والازل وسيف الله على اهل الكفر والجهل ... والخازن علمه
 والمستودع سره والظاهر على مكنون أمره (٣٢) ، ومن هذا يتبين مدى ما

- (٢٩) تفسير علي بن ابراهيم ٦٥٢ .
 (٣٠) الانسان الكامل في الاسلام ١٣٥ .
 (٣١) تاريخ اليعقوبي ٧٦/٢ .
 (٣٢) الغيبة للطوسي ٣ .

للإمام علي من سمو روحى ومقام رفيع عند الشيعة الذين يقولون فى زيارة قبره : « السلام على ذات الله العليا السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، اسلام على المن والسلوى » (٣٣) .

وقد تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخذوا افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهن ومثالا للنسج على منواله . والواقع ان نصوصا مثل هذه تجسم الهدف الذى يرمى اليه المتصوفة من السلوك والمجاهدة وقد دار كل ذلك فى الاصل حول على وهنا نشعر بالتألية وبالحلول . واقل ما يمكن ان يقال فى مدلول هذه النصوص - ولعل ذلك مقصد واضعها - ان عليا يشبه المسيح (ع) روح الله والامر كذلك فعلا ، وهذا سلمان الفارسى الخبير فى الروحانيات والنبوات يروى لنا لمناسبة تفسير الآية : « ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون » (٣٤) بينا رسول الله جالس فى اصحابه اذ قال : يدخل عليكم الساعة شبيه عيسى بن مريم . . . فدخل على بن ابي طالب » (٣٥) ، وقد تشبه آدم متر الى هذه الحقيقة فقال : وكثيرا ما نجد فى العراق عام ٩١٣/٣٠٠ من يقول : ان اللاهوتية اجتمعت فى على كما اجتمعت فى عيسى (ع) من قبل ، وكان احد خطباء الشيعة فى بغداد فى عام ١٠٢٩/٤٢٠ يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى (ص) فيقول : « وعلى اخيه امير المؤمنين على بن ابي طالب مكلم الجمجمة ومحيى الاموات ، البشرى الآلهى مكلم فتية اهل الكهف وغير ذلك من الغلو » (٣٦) . وسرى بعد قليل ان الصوفية قالوا فيه مقالة الشيعة ايضا ، بل ان الشيعة يوردون لعلى ما ورد للمسيح فى الزانية . فان على بن ابراهيم يروى بصريح العبارة انه « اقام على (ع) الحد على رجل اعترف بزناه وقال مقالة عيسى : ايها الناس هذه حقوق الله لا يطلبها الا من كان

(٣٣) طرائق الحقائق ٢١١/١ .

(٣٤) الزخرف : ٥٧ .

(٣٥) تفسير على بن ابراهيم ٦١١ .

(٣٦) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم متر وترجمة محمد عبدالهادى ابو ريده ٨٢/١ .

عنده لله حق مثله فانه لا يقيم الحد من كان لله عليه الحد فانصرف الناس ، (٣٧)
ثم رماه على والحسين والحسين (ع) . وقد ادت هذه المثل فيما بعد الى نشوء
الفرق المؤهلة لعلى بحيث قال قائلهم :

اذا قيل المسيح هو الاله واحمد مبتداه ومنتهاه
فمولانا على روح احمد احق من المسيح ومن سواه (٣٨)

فاذا ما اغفلنا كل ما ذكرناه وافرغنا منه ذهننا وتوجهنا الى نقطة جديدة
فاننا سنجد ان الشيعة قد حاولوا ان يسندوا الامامة والائمة بسند من آيات
القرآن نفسه . فان تفسير الآية : الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة
كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن
ربها (٣٩) ، كما ورد عن الامام محمد الباقر : « الشجرة رسول الله ، ونسبه
ثابت في بني هاشم وفرع الشجرة على بن ابي طالب . وغصن الشجرة
فاطمة عليها السلام . وثمرتها الائمة من ولد على وفاطمة عليهم السلام
وشيعتهم سلام الله عليهم ورقها . . . » (٤٠) ، يضاف الى ذلك ان على بن
ابراهيم روى كذلك ان آل محمد هم النجوم (٤١) ،

(٣٧) تفسير على بن ابراهيم ٤٥١ .

(٣٨) من مخطوط عند الاستاذ توفيق وهبي .

(٣٩) سورة ابراهيم ٢٤ .

(٤٠) تفسير على بن ابراهيم ٣٤٥ .

مما يذكر هنا ان المجوس كانوا يرون مثل هذا الرأي في زرادشت .
ويحسن ان نثبت النص الذي اورده الشهرستاني دفعا للبس . قال :
« وزعموا ان الله - عز وجل - خلق - خلق ، من وقت ما في الصحف الاولى
والكتاب الاعلى من ملكوته ، خلقا روحانيا . فلما مضت ثلاثة آلاف سنة انفذ
مسيئة في صورة من نور يتلأأ على تركيب صورة الانسان وأحف به
سبعين من الملائكة المكرمين . وخلق الشمس والقمر والكواكب : أنشأها
في أعلى عليين وغرسها في قلعة جبل من جبال اذربيجان يعرف بأسمو
يزخر ، ثم مازج شبح زرادشت بقرة فشربه ابو زرادشت فصار نطفة
ثم مضغه في رحم امه ، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر ، ونشأ
بعد ذلك الى ان بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبيا ورسولا الى الخلق
الملل والنحل ٦٨/٢ .

التي تتضمنها الآية : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر (٤٢) . ويفسر على بن ابراهيم التين بانه رسول الله والزيتون على بن ابي طالب وطور سينين الحسن والحسين وهذا البلد الامين الائمة عليهم السلام (٤٣) ، وكذلك يفسر جعفر الصادق (ع) الامة الوسط الواردة في الآية « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (٤٤) ، فيقول نحن الامة الوسط ونحن شهداء الله على الناس (٤٤) ، والرجال المذكورون في الآية : وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، هم الائمة والاعراف كنان بين الجنة والنار (٤٥) .

هذا قليل من كثير مما يراه اثنيعة دالا على الائمة من آيات القرآن ، أما على بن ابي طالب ابو الائمة فله قسمه من الآيات ، فعلى هو النبا العظيم في رأى الرضا - الامام الثامن - (٤٦) وعلى هو النور (٤٧) ، الذى تشير اليه الآية : فامنوا بالله ورسوله والنور انزلنا (٤٨) ، وهو المؤذن الذى تعنيه الآية : فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الكافرين (٤٩) ، وهو الغمام الذى تدور حوله الآية : يوم تشقق السماء بالغمام (٥٠) وكذلك الامام الذى تعنيه الآية : اجعلنا للمتقين اماما (٥١) ويشير ابن حجر الى ان عليا سئل وهو على المنبر عن قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فقال : اللهم غفرا هذه الآية

- (٤١) تفسير على بن ابراهيم ١٩٩ .
 (٤٢) الانعام ٩٧ .
 (٤٣) تفسير على بن ابراهيم ٧٣٠ .
 (٤٤) اصول الكافي ٤٣ ، والآية فى سورة البقرة : ١٣٧ .
 (٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ .
 (٤٦) تفسير على بن ابراهيم ٧١ .
 (٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٦٨٣ .
 (٤٨) التغابن ٨ .
 (٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ ، والآية فى الاعراف : ٤٣ .
 (٥٠) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٥ ، الفرقان : ٢٥ .
 (٥١) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٧ ، الفرقان : ٧٤ .

نزلت في وفي عمى حمزة وفي ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب .
واما انا فانتظر اشقاها يخضب هذه من هذه و اشار بيده الى لحيته ورأسه ،
وقال في ذلك انه عهد عهده الى حبيبي ابو القاسم ^(٥٢) ، وسنرى ان المتصوفة
يرون بعض ذلك دالا على علي ويرون البعض الآخر مما يدل على الائمة عموما
دالا عليهم ، وذلك مجال كبير للمناقشة . واذا عرضنا للنصوص التي تروى
عن علي نفسه وجدناه يقول : « لا يكمل للمؤمن ايمانه حتى يعرفني
بالنورانية ، فاذا عرفني بذلك فهو مؤمن ممتحن امتحن الله قلبه بالايمان
وشرح صدره للاسلام . . . » ^(٥٣) ، وهو انذى يقول : « بل اندمجت على
مكون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوى البعيدة » ^(٥٤) ،
وترد عن علي احاديث غنوصية مليئة بالمصطلحات الصوفية كهذا الحديث الذي
يدور بين كميل بن زياد الزاهد الشيعي المشهور المقتول سنة ٨٣ وعلى بن
ابي طالب قال علي : « الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة ، قال كميل
زدني بيانا قال : محو الموهوم وصحو المعلوم . فقال : زدني بيانا قال : هتك
الستر لغلبة السر . فقال : زدني بيانا ، قال : نور يشرق من صبح الازل
فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره فقال : زدني بيانا ، فقال : اطفئوا السراج
فقد طلع الصبح » ^(٥٥) . ويتضح منهج الامام علي في المعرفة بقوله : « العقل
لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية » ^(٥٦) ، وذلك يعني ان عليا - كما
يوحي هذا النص - يرى ان الذوق هو المنهج الذي يصل به الانسان - ولم
لا نقول السالك هنا - في الوصول الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذي
يستعمل في ادراك الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها . وقد

(٥٢) الصواعق المحرقة ١٣٣ ، الاحزاب : ٢٢ .

(٥٣) طرائق الحقائق ٢١٧/١ .

(٥٤) نهج البلاغة ٣٦/١ .

(٥٥) روضات الجنات ٥٣٧ .

(٥٦) طرائق الحقائق .

اشتهر عن علي قوله : « ان هاهنا لعلمنا جما - وأشار بيده الى صدره - لو اصبحت له حملة • بل اصبحت لقنا غير مأمون عليه مستعملا الة الدين للدنيا ••• (٥٧) ، وكان يقول « سلونى قبل ان تفقدونى ، فلأنا بطرق السماء اعلم منى بطرق الارض » (٥٨) • وورد عنه ما يجعل مركزه مغرقا فى السرية ومن جنس المعرفة التى لا يمكن الاطلاع عليها ، وذلك انه يقول : ان امرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور امينة واحلام رزينة » (٥٩) •

و اذا ما اتجهنا بالنصوص الواردة عن علي وجهة اخرى لمخنا فى سهولة ويسر تلمذه على النبى واخذه عنه وتشبعه بشخصيته وصدوره عن العلم الذى اخذه منه • فان عليا فى حياته التى عاصرت انقلاب الاسلام من فكرة مثالية الى صراع عملى سياسى قد اعاد الى اذهاننا الاسلام الاول الذى كانت ترد فيه الآيات المخوفة من النار المحذرة من العذاب المنذرة الناس بقرب القيامة وقد مست الحاجة الى هذه التحذيرات من علي لان من واجبه ان يسدد الخطا وان يدل على الحق ويخوف من المزالق فيها هو يقول : « الا وان بليتكم قد عادت قبل هيتها يوم بعث الله نبيكم (ص) » (٦٠) ، و اوضح قصده قائلا : « فالله الله عباد الله ، فان الدنيا ماضية بكم على سنن ، وانتم والساعة فى قرن ، وكأنها قد جاءت بأشراتها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها ، وكأنها قد اشرفت بزلازلها واناخت بكلاكلها وانصرفت الدنيا بآهلها ••• » (٦١) •

وكان على يتنبأ للمحيطين به كما كان الرسول يفعل ، وتلك صفة لصقت به من تشربه بخلق النبوة ولهذا لم يكن من العبث ولا من التلاعب بالانفاظ قول

(٥٧) نهج البلاغة ١٨٧/٢ ، رسائل ابن عربى : كتاب الفناء ص ٣ •

(٥٨) نهج البلاغة ١٥٢/٢ •

(٥٩) النهج ١٥٣/٣ •

(٦٠) النهج ٤٣/١ •

(٦١) النهج ١٥٣/٣ •

ضرار الليل وهو يصف علياً في مجلس معاوية « يتفجر العلم من جوانبه ، تنطف الحكمة من نواحيه » (٦٢) ، ولقد كان على يقول : « سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لاسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة الا انباتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رجالها ومن يقتل من اهلها قتلا ويموت منها موتا » (٦٣) ، وقد تنبأ لعثمان بالقتل ، وتنبأ لمروان بن الحكم يوم وقع اسيرا يوم الجمل فاطلقه بشفاعته الحسن والحسين بأنه « ستلقى الامة منه يوماً أحمر » (٦٤) ، وتنبأ للاسلام بما سيحل به بقوله « ايها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه » (٦٥) وتنبأ بأنه سيطلب الى شيعته سبه والبراءة منه فقال : « اما السب فسيبوني فانه لي زكاة ولكم نجاة ، واما البراءة فلا تبرؤا مني فاني ولدت على الفطرة وسبقت الى الايمان والهجرة » (٦٦) ، بل لقد عرف يوم مقتله ان الموت ينتظره ، ويروى لنا المسعودي انه « لم ينم تلك الليلة وأنه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت وانها الليلة التي وعدت ... » (٦٧) . بل يروى ابو الفرج الاصفهاني انه كان يقول : « ما يجبس اشقاها ؟ فوالذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه » (٦٨) . ولقد كان من اثر ذلك ان كان لعلی ما كان للنبي من اصحاب يلتفون حوله ويأخذون عنه ويدعون الى امامته . بل كان لعلی رجال يحملون سره فكما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله (ص) كان رشيد الهجري « قد اتقى عليه علم البلايا والمنايا فكان يلقي الرجل ويقول له :

-
- (٦٢) حلية الاولياء ١/ ٨٤ .
 - (٦٣) نهج البلاغة ١/ ١٨٣ .
 - (٦٤) نهج البلاغة ١/ ١٢٠ .
 - (٦٥) نهج البلاغة ١/ ١٨٨ .
 - (٦٦) نهج البلاغة ١/ ١٠١ .
 - (٦٧) مروج الذهب ٢/ ٤٢ .
 - (٦٨) مقاتل الطالبين ٣١ .

يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا . . . الخ» (٦٩) وذلك ان حذيفة كان ايام النفاق يعرف المنافقين ويدل عليهم ، اما رشيد فقد كان في ايام الاضطهاد يعرف الشهداء في سبيل المبدأ الشيعي .

وقد كان من تشرب على بخلق النبي وعلمه ان كلام علي بن ابي طالب تداخل مع كلام النبي ، كما رأينا من قوله : ان امرنا صعب مستصعب لمن كرهه ، ميسر لمن تبعه» (٧٠) ، والتداخل واضح في اللفظ والمعنى ، غير ان القرآن والحديث قد اختصرا في مقالة علي في كلمة واحدة هي : امرنا .

وهذا حديث نبوي يرد باكملة منسوباً الى علي (٧١) ، فقد روى عن النبي (ص) - برواية عبدالله بن عمر - انه كان يقول : « عبدالله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك» (٧٢) ، وقد ردد على هذا القول ايضا حين سئل : «هل نرى ربنا فقال : وكيف نعبد من لم نره» (٧٣) . والرؤية هنا قلبية بالطبع كما يورد السراج « وقد روى عن النبي (ص) انه قال : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وينسب هذا القول الى الامام علي كذلك ، (٧٤) . ويرى دي بوران هذا النص انما هو تصرف في عبارة سقراط : اعرف نفسك ، وقد وردت في نوب من المذهب الافلاطوني الجديد» (٧٥) ، ويرد عن النبي (ص) انه قال : من اصبح وهو على الدنيا حزين ، اصبح على الله ساخطا ، ومن شكك مصيبة نزلت به فانما يشكو ربه ، ومن اتى ذا ميسرة وخشع له لينال من دنياه ذهب ثلثا دينه (٧٦) ، وهذا النص الى عبارة (يشكو ربه) يرد مسندا الى علي

-
- (٦٩) تاريخ الكوفة ٢٩١ .
 (٧٠) صون المنطق والكلام ٤٧ .
 (٧١) نهج البلاغة ١٠/٢٠ .
 (٧٢) نهج البلاغة ١٨٣/١ .
 (٧٣) اللمع ١١٧ .
 (٧٤) اللمع ٣٥٠ .
 (٧٥) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٢٧ .
 (٧٦) تاريخ اليعقوبي ٧٨/٢ .

باجمعه ، (٧٧) . والغريب ان هذا النص الذى يشارك فى قوله النبى (ص) وعلى (ع) يورده فرقد بن يعقوب السبخى المتوفى سنة ١٣١ منقولا عن التوراة ، والحديث الذى يورده فرقد هو نص حديث النبى كله (٧٨) . واذا ما التفقتا الى زهد على الذى كان اكبر نصير للضعفاء والفقراء والذى التف حوله المساكين كما مر بنا فاننا نجد نصوصا كثيرة تعبر عن روح الاسلام الزهديه التى اريد بها مقاومة التيار المكى الارستقراطى الذى كان النبى يقاومه وكان المكيون يحاولون القضاء عليه باموالهم وارستقراطيتهم . لقد كان على يقول ردا على سؤال من قال له : كيف تجدك يا امير المؤمنين ؟ قال : كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحته ويؤتى من مأمته؟ (٧٩) ، وكان يقول : المال مادة الشهوات (٨٠) وافضل الزهد اخفاء الزهد (٨١) ، وكان يقول : نوم على يقين خير من صلاة فى شك (٨٢) ، وكان يقول : اهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام (٨٣) . وقد اورد ابو نعيم مجموعة من النصوص الزهديه عن على تبين الى اى حد كان يصدر عن نفس تعاف الراحة والشبع والنوم ، قال : احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتهم الابل فى طلبهن لانضيتموهن قبل ان تدركوهن : لا يرج عبد الارب ، ولا يخف الا ذنبه ولا يستحى جاهل ان يسأل عما لا يعلم والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له (٨٤) . وكان على يرسم للزهاد مستقبل الزهد حين قال : « ان الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وان ضحكوا ويشند حزنهم

(٧٧) نهج البلاغة ١/٢٠٣ .

(٧٨) صفة الصفوة ٥/١٩٦ .

(٧٩) نهج البلاغة ٣/١٧٨ .

(٨٠) نهج البلاغة ٣/١٦٤ .

(٨١) نهج البلاغة ٣/١٥٦ .

(٨٢) نهج البلاغة ٣/١٧٢ .

(٨٣) نهج البلاغة ٣/١٦٤ .

(٨٤) حلية الاولياء ١/٧٦ .

وان فرحوا ، ويكثر مقتهم انفسهم وان اغتبطوا بما رزقوا» (٨٥) . وروى عنه انه قال «واعلموا انه ليس من شيء الا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله الا الحياة» (٨٦) ، وتلك حكمة بالغة تندمج على حقيقة رائعة حاول الزهاد والمتصوفة ان يطبقوها بتعذيبهم انفسهم واهانتها واتخاذ سلاح المجاهدة . ويروى عن الامام نص زهدى هو الى التصوف اقرب لانه يتضمن مصطلحات صوفية مرصوفة في خبر يروى عن الامام قال : « اللهم من على بالتوكل عليك والتفويض اليك والرضا بقدرك ، والتسليم لامرك ، حتى لا احب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت يارب العالمين » (٨٧) . وهذا دعاء في ظاهره ولكنه مجموعة من المصطلحات الصوفية . فالتوكل والتفويض والرضا والتسليم كلها مصطلحات ليس من المعقول ان تتوالى في نص واحد على سبيل الصدفة . بل وصل على بالتصوف حتى انطقه الحاج معصوم على بتشقيق لفظ التصوف وتعريفه ، فانه يروى انه « سئل على عليه السلام عن معنى التصوف فقال : التصوف مشتق من الصوف وهو ثلاثة احرف : صاد وواو وفاء الصاد صبر وصدق وصفاء والواو ود وورد ووفاء والفاء فقر وفرد وفناء » (٨٨) ومن نافلة القول ان تنفى ورود هذا القول عن على بن ابي طالب لانه ظاهر بين ، ولكننا سنجمله مدخلنا الى تعرض الصوفية لعلى بن ابي طالب واتخاذهم شيخا لهم وبخاصة اصحاب الفتوة الذين سنتطرق اليهم في فصل خاص من هذه الرسالة .

وأول ما نلاحظه في صلة التصوف بعلى ان كلامه يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد ، وسنجده يتداخل مع كلام الصوفية انفسهم . وأول نص نورده في هذا المقام ما ذكر عن عامر بن عبدالله بن عبيد قيس

(٨٥) نهج البلاغة ١/ ٢٣٠ .

(٨٦) نهج البلاغة ٢/ ٢٣ .

(٨٧) اصول الكافي ٢٧ .

(٨٨) نهج البلاغة ٢/ ٢٣ .

الزاهد البصرى القديم (المتوفى فى خلافة معاوية) أنه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت الا يقينا » (٨٩) ، وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن ابي طالب (٩٠) ، وهى مأخوذة من الآية : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (سورة ق آية ٢١) .

٢ - وورد عن عون بن عبدالله بن عتبة الهذلى الزاهد الكوفى (المتوفى قريبا سنة ١١٠/٧٢٨-٩) انه قال : ويحى من خطيئة ذهب شهوتها وبقيت تبعثها عندى ، (٩١) ، وذلك مدار قول على بن ابي طالب : « شان ما بين عمليين : عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤوته ويبقى أجره » (٩٢) .

٣ - أما الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠/٧٢٨-٩) فقد قال فيه الشريف الرضى (المتوفى سنة ٤٣٦/١٠٤٤) : « وجميع كلامه من الوعظ وذم الدنيا او جلّه مأخوذ لفظا ومعنى او معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين على بن ابي طالب ، (٩٣) وضرب لذلك امثلة عديدة (٩٤) .

٤ - وقد روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨) ، والذى سيكون شيخا للزهاد الكوفيين ، انه قال : « الزهد فى الدنيا قصر الامل : ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء » . (٩٥) وذلك متصل بقول

(٨٩) اللمع ٧١ ، فتح الرحمن : ورقة ٦ .

(٩٠) رسائل اخوان الصفا ٣/٣١٨ ، الفتوحات المكية ٣/١٧٤ ، وقد نسب

البونى هذه العبارة الى ابي بكر الصديق (شمس المعارف الكبرى ،

مصر ١٣١٨ ، ١٠/٢) .

(٩١) صفة الصفوة ٣/٥٦ .

(٩٢) نهج البلاغة ٣/١٧٩ .

(٩٣) أمالى المرتضى ١/١٠٦ .

(٩٤) المصدر نفسه ١/١٠٦-١٠٨ .

(٩٥) الرسالة القشيرية ص ٧٣ .

على بن ابي طالب : « ان أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الامل » (٩٦) .
 وقد عبر معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥) عن هذا المعنى ايضا بقوله :
 « نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل » (٩٧) . وقد سمع سفيان يقول :
 « سلوني عن التفاسير والمناسك فاني بهما عالم » (٩٨) ، وذلك مدار عبارة على
 المشهورة : « سلوني قبل ان تفقدوني » (٩٩) .

٥ - وروى عن عبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣) انه قال :
 « مثل المؤمن كالولد في الرحم لا يجب الخروج ، فاذا خرج لا يجب ان يرجع ،
 فكذا المؤمن في الدنيا » (١٠٠) ، وذلك تعبير ضعيف عن المعنى الذي أداه
 على بن ابي طالب في عبارته : « واعلموا انه مامن شيء الا ويكاد صاحبه ان
 يشبع منه ويمله الا الحياة » (١٠١)

٦ - وترد لرابعة العدوية انزاهدة البصرية المشهورة (المتوفاة سنة
 ١٨٠/٧٩٦) اقوال متعددة فيها هذا التداخل ، ومن ذلك ما اخذه عون الهذلي - المار
 الذكر - عن علي في قوله : « شتان ما بين عمليين ... » فقد روى عن رابعة أنها
 قالت : « كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها عندي » (١٠٢) ، والتطابق
 بين العبارتين ظاهر . وروى عن رابعة انها قالت ايضا : « ما عبدته خوفا من ناره
 ولا طمعا في جنته - فأكون كالاجير السوء - عبدته حبا له وشوقا اليه » (١٠٣) .
 وقد وردت هذه المعاني في عبارة على بن ابي طالب المشهورة - التي تنسب

-
- (٩٦) حلية الاولياء ١/٧٦ ، كذلك يرد نص مضطرب في هذا المعنى لعلي
 في « الرعاية لحقوق الله » للحاسبى ص ٧٥ .
 (٩٧) المصدر نفسه ٨/٣٦١ .
 (٩٨) المصدر نفسه ٧/٥٨ .
 (٩٩) نهج البلاغة ١/١٨٣ .
 (١٠٠) الكواكب الدرية ١/٧٦ .
 (١٠١) نهج البلاغة ٢/٢٣ .
 (١٠٢ ، ١٠٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ ، قوت القلوب ، مصر ١٣٤٠ ،
 ٥٧/٢ بنص مقارب .

ايضا الى حفيده على بن الحسين زين العابدين (المتوفى سنة ٧١٢/٩٤-٣) - :
« ان قوما عبدوا الله رغبة ، فتلک عبادة التجار • وان قوما عبدوا الله رهبة ،
فتلك عبادة العبيد • وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار » (١٠٤) •

٧ - أما مالك بن دينار الواعظ الزاهد البصرى (المتوفى سنة
٧٩٧/١٨١) فان بين كلامه وكلام على بن ابي طالب تداخلا ملحوظا ولعل ذلك
وارد من طبيعة الوعظ والتذكير اللذين كان مالك يأخذ نفسه بهما ويلتزمهما
فى المجتمع المتفسخ الذى كان يعيش فيه • فمن ذلك ما جابه به الى البصرة
فى أبيته بقوله : « من أعرف بك منى : أما اولك فنطفة مذرة ، واما آخرك
فجيفة قدرة ••••• » (١٠٥) • وهو معنى يتصل بما قاله على بن ابي طالب :
« ما لابن آدم والفخر وأوله نطفة وآخره جيفة !؟ » (١٠٦) • وقال مالك بن
دينار أيضا : « اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ، فانها تسحر قلوب العلماء » (١٠٧) ،
(يعنى الدنيا) ، وذلك بنفسه ما عبّر عنه على فى قوله - مخاطبا الدينسا -
« يا دنيا ، يا دنيا ••• هيهات هيهات ، غرّى غرّى » (١٠٨) ، وقال : يا صفراء
ويا بيضاء غرّى غرّى » (١٠٩) •

٨ - وكان عتبة الغلام - المعاصر لابن دينار - ينظر الى قول على
المشهور للدنيا : « قد بتتک ثلاثا لا رجعة لى فيك » (١١٠) فى خطابه لحوورية
تخيّلها : « طلقت الدنيا ثلاثا ، لا رجعة لى فيها حتى القاك » (١١١) •

-
- (١٠٤) نهج البلاغة ٢/٢٠٦ ، شذرات الذهب ١/١١٥ •
 - (١٠٥) صفة الصفوة ٣/١٩٩ •
 - (١٠٦) الكواكب الدرية ١/٤٠ •
 - (١٠٧) حلية الاولياء ٦/٢٨٧ •
 - (١٠٨) صفة الصفوة ١/١٢٢ •
 - (١٠٩) اللمع ص ١٣١ •
 - (١١٠) صفة الصفوة ١/١٢٢ •
 - (١١١) الكواكب الدرية ١/١٣٧ •

٩ - وقال شقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤/٨١٠) : « اذا كان العالم

طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور بالفقر
راغبا في الدنيا والتعم بملابسها ومناكحها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن
رغبته؟ واذا كان الراعي هو الذئب فمن يرعى الغنم» (١١٢) وتلك عبارة
طويلة تدخل في ضرب الامثال على جدوى الزهد ، ليقننى به المريدون
والسالكون في هذا السبيل . وقد جاء هذا المعنى في عبارة بسيطة اسندت الى
على بن ابي طالب في قوله : « ان الله أخذ على أئمة الهدى ان يكونوا في مثل
أدنى الناس ليقننى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره » (١١٣) .

١٠ - ولم يقتصر التداخل في البيان عن الزهد بين اقوال على والزهاد

فقط وانما تعداه الى بناء التصوف ومؤسسيه ايضا : فقد مرّ ما قاله معروف
الكرخي : نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل وها هو ذو النون
المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥/٨٥٩) يعبر عن معان سبقت نسبتها الى على
كقوله : « من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تدوب وتصفو ،
ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند
هيئته» (١١٤) . وذلك هو ما أشار به على بن ابي طالب على الاشتهر التخمى
حين ولّاه مصر وتضمنه عهده المشهور اليه ، ومنه : « . . . واذا احدث لك ما
انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة ، فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته
منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك ويكفّ عنك
غربك ويفي . اليك بما عذب عنك من عقلك » (١١٥) . وقال ذو النون : « ان
الله تعالى انطق اللسان بالبيان وامتحنه بالكلام وجمل القلوب أوعية

(١١٢) طبقات الشعرائى ٦٥/١ .

(١١٣) احياء العلوم ٢٣٢/٤ ويرد نص مقارب في تلبيس ابليس لابن

الجوزى ، مصر ١٩٢٨ ، ص ٢٠١ .

(١١٤) طبقات الصوفية ص ٢٠ .

(١١٥) نهج البلاغة ٩٤/٣ .

للعلم ، (١١٦) ، وهو فى ذلك ينظر الى قول على بن ابي طالب : « القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها » (١١٧) وقد أخذ منصور بن عمار - من وعاظ الزهاد السابقين - هذا التشبيه ايضا فى قوله : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضى ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع » (١١٨) .

ولذى النون قول آخر يطابق كلاما لعلى سنجمله خاتمة لهذه المجموعة ومدخلا الى مكانة على فى التصوف .

١١ - وقد أخذ ابو يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١/٥-٨٧٤) بنصيه من معانى الامام على ايضا ونظر اليها فى البيان عن مشاعره الروحية ، ومن ذلك قوله : « طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى فيها وصرت الى ربى وحدى » (١١٩) وذلك هو قول على السابق للدنيا .

١٢ - وروى ابو عبدالرحمن السلمى (المتوفى سنة ٤١٢/٢-١٠٢١) عن السبلى (المتوفى سنة ٣٣٤/٦-٩٤٥) انه وقف رجل على حلقة « فسأله هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم ، نور يزهر مقارنا النيران فتلوح على الهياكل آثارها » (١٢٠) وتلك صورة أخرى من عبارة لعلى وردت فى محاورته الماضية لكميل وهى تقول : « نور يشرق من صبح الازل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره » .

ثم يرد قول ظاهر النحل على على ، فقد روى عنه انه قال : « الصوفى

(١١٦) طبقات الشعرائى ١/٦٠ .

(١١٧) حلية الاولياء ١/٧٩-٨٠ ، صفة الصفوة ١/١٢٧ ، قوت القلوب ، مصر ١٣١٠ ، ١/١٣٤ ، الكواكب الدرية ١/٤٣ .

(١١٨) كشف المحجوب للهجوبرى ص ١٥٨ .

(١١٩) صفة الصفوة ٤/٩٢ .

(١٢٠) الرسالة القشيرية ٣٥ .

من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على الفقا ، واستوى عنده الذهب والحجر والفضة والمدر ، والا فالكلب الكوفى خير من ألف صوفى » (١٢١) وهو قول يعترف ناقله بنسبته الى الجنيد البغدادي (المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠) مع تفسير طفيف ، وان كان الكلاباذى يورده مسندا الى على الروذبارى ، ونصه : « الصوفى من لبس الصوف على الصفا ، واطعم الهوى طعم الجفا وكانت الدنيا منه على الفقا ، وسلك طريق المصطفى » (١٢٢) . ولعل مما لا يحتاج الى دليل نسبة هذه العبارة الى غير على بن ابي طالب .

ونعود فى الختام الى ذى النون فنورد قوله الذى أجتناه الى هذا الموضوع ، وهو متصل بالفكرة الصوفية الدائرة حول درجات العارفين واختلاف معرفتهم ، فورد عنه تقسيم المعرفة الى ثلاثة اقسام : « الاول حظ مشترك بين عامة المسلمين ، والثانى معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالث خاص بالاولياء الذين يرون الله بقلوبهم » (١٢٣) ، ويقابله قول الامام على فى تقسيم الناس - من حيث علمهم - الى ثلاثة بقوله : « الناس ثلاثة ، فمال ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاته ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » (١٢٤) ، وتطابق هذين التقسيمين ظاهر بين ، وكل ما بينهما من اختلاف يقوم فى الاصطلاح لا اكثر ولا اقل (١٢٥) ، ولعل هذا التداخل يعكس روح الامام الزهيدية

- (١٢١) روضات الجنات ٢٣١ .
 (١٢٢) التعرف ٩ .
 (١٢٣) تذكرة الاولياء ١٣١/١ ترجمة .
 (١٢٤) حلية الاولياء ٧٩/١ وقوت القلوب (مصر ١٣١٠) ١٣٤/١ .
 (١٢٥) ذكر التسترى هذا التقسيم على صورة اخرى اوصلها بالفتن فقسماها الى «فتنة العامة من اضاءة العلم وفتنة الخاصة من الرخص والتاويلات وفتنة اهل المعرفة من أن ملزمهم حق فى وقت فيؤخروه الى وقت ثان» وذلك يعنى قسمة الناس الى اهل المعرفة (فعال ربانى) والخاصة (متعلم على سبيل نجاته) والعامة (همج رعاع) (طبقات الصوفية ٢١٠) .

ونظراته العميقة الى الامور بحيث يعبر عنها باعمق مما يقوى عليه الانسان العادى ، او لعلها روح المتصوفة التى تبحث عن اساس لطريقتهم فوجدت فى اقوال ازهد الصحابة وافصحهم واورعهم ذخيرة يعتمد عليها فى توثيق اسس الطريقة فوضعت على لسانه اقوالا لم ينطق بها على امل ان تجوز على الناس لما اشتهر به الامام من زهد عملى وبيان بليغ يعبر به عن احداث حياته ومثل الاسلام التى صدر عنها . وهذا الذى قلناه مدخل الى تناول المتصوفة لشخص الامام على مما سنعرض له فى الصفحات التالية . ولا بد ان نشد فى ايراد مقام الامام على عند المتصوفة لثلا يجرفنا سيل هذا البحث الى استطراد مكانه فى التصوف لا فى التشيع .

ولا بد لنا ان نفتح هذا الفصل ببادرة صوفية تصف الامام عليا ، فهذا ابو نعيم يعرض له فى الحلية بقوله : «سيد القوم ، مجد المشهود ومحبوب المعبود باب مدينة العلم والعلوم ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات ، راية المهتدين ونور المطيعين وولى المتقين وامام العادلين ، اقدمهم اجابة وايماننا واقومهم قضية واتقاننا واعظمتهم حلما واوفرهم علما : على بن ابي طالب كرم الله وجهه قدوة المتقين وزينة العارفين ، النبى . عن حقائق التوحيد المشير الى لوامع علم التفريد ، صاحب القلب العقول واللسان السؤول والاذن الواعى ، والمهدى الوافى ، فقاء عيون الفتن ، ووقى من فنون المحن » (١٢٦) . ونستطيع ان نستخلص من رأى ابي نعيم فى على انه مؤمن بحبه الله وعالم بعلم الرسول مطلع على سائر العلوم متصف بصفة الزهاد وخلقهم وعلومهم ، عالم بالظاهر والباطن . وستكون هذه الاشارة الى علمه بالظاهر والباطن امتن صلة تصل الشيعة - ممثلين فى تبنيهم لعلم على - بالمتصوفة . وقد كان على هو الوحيد من بين الصحابة - اذا استثنينا علم حذيفة الجزئى - الذى اخص بحمل هذا العلم ، فلم يقل فى احد غير على : انا مدينة العلم وعلى بابها . وقد تنبه

(١٢٦) حلية الاولياء ١/٦١ .

السراج المتوفى سنة ٣٧٨ الى هذه الصفة وعرفها لعلى وذكر ان « لا مير المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع اصحاب رسول الله (ص) بمعانى جليلة واشارات لطيفة والفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والايمان والعلم وغير ذلك » (١٢٧) ، وبين الكلاباذى ذلك فى قصة ينقلها عن ابي بكر محمد بن على الكنانى قال : « رأيت رسول الله فى عادتي - وكانت العادة قد جرت له انه كان يرى النبى كل ليلة اثنى وخميس فى الحلم فيسأله مسائل فيجيبه (ص) عنها - قال : « فرأيت قد اقبل ومعه اربعة نفر ، فقال : يا ابا بكر ، اتعرف من هذا ؟ قلت نعم ، هو ابو بكر . ثم قال لى : اتعرف هذا ؟ قلت نعم ، هذا عمر . ثم قال : اتعرف هذا ؟ قلت : نعم ، هو عثمان . ثم قال لى : اتعرف هذا الرابع ؟ فتوقفت ولم اجب . فاعاد على ثانيا ، فتوقفت . واعاد على ثالثا فتوقفت - وكان فى قلبى منه غيرة - قال : فجمع كفه و اشار بها الى ثم بسطها وضرب بها صدرى وقال لى : يا ابا بكر ، قل : هذا على بن ابى طالب ، فقلت : يا رسول الله ، هذا على بن ابى طالب . قال : فأخى - عليه السلام - بينى وبين على رضى الله عنه ، ، ، ، (١٢٨) . وتشير القصة الى اخوة على للنبي وقربه منه الى حد ان الكنانى قد ثارت غيرته حتى توقف عن الكلام ، ثم رأينا النبى (ص) - كما يقول الكنانى - قد ازال عن قلبه الحزن والحسد بمساواته بعلى وبمؤاخاته له ، وفى ذلك الدليل الناصع على مكانة على عند المتصوفة .

ويجب الا تغفل جوهر وصل على بالتصوف ، وذلك ان له علما خاصا اشار اليه ابو طالب المكى بقوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصوص لا يصلح الا للخصوص . . . » (١٢٩) ويستشهد بقول على بن ابى طالب : « حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه فى قلوب اشكالهم » (١٢٩) ، وقد تبني

(١٢٧) - (١٢٨)

(١٢٨) - (١٢٩)

(١٢٩) - (١٣٠)

(١٣٠) - (١٣١)

- (١٢٧) اللمع ١٢٩ .
(١٢٨) التعرف ١١٩ .
(١٢٩) قوت القلوب ٣١/١ ، ١٣٤/١ .

السراج التقسيم الثلاثي للعلم الذي روينا عن الامام علي ، فقد رأى السراج ان « الاول علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود والامر والنهي ، وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذي كان يعلم به حذيفة ابن اليمان وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احده » (١٣٠) ، وقد وضع عليا في المنزلة التي كانت لحذيفة وروى عنه انه قال : « علمني رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيري » (١٣١) . وهكذا يفصل السراج بين علم علي وعلم الرسول وذلك لانه ليس شيعيا ، ولكنه - مع ذلك - جعل علم علي في مقام لايدانيه فيه علم معاصريه ولا حذيفة بن اليمان نفسه وهذا العلم بالباطن قد نسب الى الامام علي حتى ان السلمي (المتوفى سنة ٤١٠/١٠١٩-٢٠) افتتح كتابه في التفسير بايراد تقسيم رباعي لدلالات الايات يسنده الى علي ويروى عنه انه قال : « ما من آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » (١٣٢) . ويجدر بنا ان نذكر ان هذا التقسيم نفسه قد ورد في تفسير التستري المتوفى سنة ٢٧٥/٨٨٨ ولكنه لم يسنده الى الامام علي (١٣٣) . ويصحح الجنيدهذه النقط ويضيف الى الامام علي انه قد اعطى العلم اللدني ، وقد كان الجنيده المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠-١١ يقول برواية ابي علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢/٩٤٣ : « رضوان الله على أمير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروب لافادنا من علمنا هذا معاني كثيرة ، ثم يقارن بين علي والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين ان هذا العلم اللدني « كان الخضر حظي به بقول الله : وعلمناه من لدنا علما » (١٣٤) فكان الجنيده يرى ان علم علي لم يات تملما وانما هو توفيق آلهي حظي به ، وقد

-
- (١٣٠ - ١٣١) اللع ٣٧٨
 - (١٣٢) حقائق التفسير ٣
 - (١٣٣) تفسير التستري ٣
 - (١٣٤) اللع ١٢٩

رأينا الجنيد يعترف بان علينا كان يمكن ان يفيد معاني كثيرة في علم
التصوف ، فعلم على من جنس علم الصوفية وعلى - بذلك - رأس من رؤوس
التصوف باعتراف الجنيد ولكن انشغاله بالحروب لم يجعل رئاسته كاملة فهي
رئاسة مقترنة بالقدم الزمنى على كل حال • وينبها نيكلسون الى ان التصوف
ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه على بن ابي طالب عن النبي (١٣٥) ،
ويرد في تذكرة الاولياء تزكية اخرى لصوفية على ومشيخته لهم وصدوره عن
مشر بهم ، فان الجنيد قد خاطب احد العلويين بقوله : «لقد حارب ابوك (على
ابن ابي طالب) بسيفين : حارب الكفار بالاول ونفسه بالثاني» (١٣٦) • واذا
تبينا ان ابا طالب المكي قال : «على ازهد الصحابة» (١٣٧) ، وان الغزالي جعله
زاهدا مثاليا وقدوة للزهاد بنقله عنه انه قال : «ان الله اخذ على ائمة الهدى
ان يكونوا في مثل ادنى الناس ليقنطروا بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره» (١٣٨) ،
وانه جعل الزهد بتكليف من الله عرفنا الى اى حد كان لعلى يد على التصوف
واسسه العملية والمنوية • وبعد ان دخل على في التصوف اخذ المتصوفة في
ايراد اخباره وكأنه واحد منهم كما روى رويم البغدادي المتوفى سنة ٣٠٣
انه (ع) «سمع صوت ناقوس فقال لاصحابه : اتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا :
لا ، قال انه يقول : سبحان الله حقا حقا ان المولى صمد يقي» (١٣٩) ، بل اننا
نجد عند الحلاج حين كبست اوراقه «صورة فيها اسم الله مكتوب على تعويج
وفي داخل التعويج مكتوب : «على عليه السلام» كتابة لا يقف عليها الا من
تأملها» (١٤٠) ، ووجدنا ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ يعود بنا الى العلم
الباطن والتأويل فيقول في تائيته الكبرى :

-
- (١٣٥) في التصوف الاسلامي ٧٦ •
(١٣٦) تذكرة الاولياء ١٩/٢ (ترجمة) •
(١٣٧) قوت القلوب ١٩٥/٢ •
(١٣٨) احياء العلوم ٢٢٢/٤ •
(١٣٩) الرسالة القشيرية ٢٠٤ •
(١٤٠) اربعة نصوص غير منشورة تتعلق بالحلاج ٦ •

واوضح بالتأويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية (١٤١)

ونجد ابن عربي يفسر النبأ العظيم في آية : عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . بأن «النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل في أمير المؤمنين علي : هو النبأ العظيم وفلك نوح ، اي الجمع والتفصيل - باعتبار الحقيقة والشريعة - لكونه جامعا لهما» (١٤٢) .

ولم يقتصر ابن عربي على ذلك بل أخذ حديث « انت مني بمنزلة هرون من موسى » الوارد في علي ورجع به القهقري الى هرون - وصلا له بعلي وتأكيذا لهذا الصدور - فسمى هرون بالسيد (١٤٣) كما يفعل المسلمون مع العلويين . واذا تعرض لهرون « في نقش الفصوص » سماه بالامام كسمية علي وسمى الفصل الخاص بمقام هرون «حكمة امامية في كلمة هرونية» (١٤٤) ، ثم يقول : «هرون لموسى بمنزلة نواب محمد بعد انفصاله الى ربه ، فليُنظر الوارث من ورث وفيما استتيب» (١٤٥) وتلك اشارة صريحة الى هذا الاتصال وان كانت مبطنة بتكثير النواب . ويتأكد هذا الوصل لعلي بهرون في «رسالة الاسراء الى مقام الاسرى» حين يسمى سماه هرون - في اسراء ابن عربي - بسماه الشرطة (١٤٦) وصلا بشرطة الخميس (١٤٧) وهم جماعة على الذين عاهدوه يوم الجمل على الموت في سبيل ما يروونه حقا له . ويوضح

(١٤١) ديوان ابن الفارض ٦٠ .

(١٤٢) تفسير ابن عربي ١٨٤/٢ .

(١٤٣) الفتوحات المكية ، الباب ٣٦٩ ، رسائل ابن عربي : رسالة الاسراء الى مقام الاسرى ٢٣ .

(١٤٤ ، ١٤٥) رسائل ابن عربي : كتاب نقش الفصوص ١١٠ .

(١٤٦) المصدر نفسه كتاب الاسراء الى مقام الاسرى ٢٣ .

(١٤٧) الفهرست لابن النديم ٢٤٩ ، معرفة اخبار الرجال للكشي ، طبع

بمبي ٦٨ ، بحار الانوار للمجلسي ، ، ايران ١٣٠٧ ، ٩/٦٣٦ ، ٦٤٣ ،

٧٢٧ ، ٧٢٥/٨ .

ابن عربي ذلك باشارته الى هرون بأنه « الخليفة العلي المنيع » ثم اشارته الى النور المحمدي وكون محمد وعلى من نور واحد بقوله : « فسوى بينهما في النور والضياء » (١٤٨) . ثم لم يكتف بذلك وانما نص في عرضه للمؤاخاة ذلك : « وقد آخى رسول الله (ص) بين اصحابه بدار الخيزران وأخذ بيد

علي وقال : هذا أخي » . ثم ربط ابن عربي هذا الحادث بما كان بين موسى وهرون فذكر أن موسى قال لربه حين بعثه الى فرعون : « رب اشرح لي صدري ، الآية ، واشركه في أمري فاتاه الله سؤاله » (١٤٩) وهذا كله يقطع الشك باليقين ويبين الى اي عمق غاص ابن عربي مع الشيعة والى اي مدى استفاد منهم .

ونجد جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢/١٢٣٤-٣٥ يقول

في علي :

منذ كانت صورة تركيب العالم كان علي

منذ نقشت الارض وكان الزمان كان علي

ذلك الفاتح الذي انتزع باب خيبر
بحملة واحدة .

كان علي

كلما تأملت في الآفاق ونظرت فيها

كان علي

ايقتت بانه في الموجودات

ان من كان هو الوجود ، ولولاه لسرى

كانه علي

العدم في العالم الموجود .

(١٤٨) رسائل ابن عربي : كتاب الاسرا الى مقام الاسرى ٢٣ .

(١٤٩) الفتوحات المكية ٣/١٧٤ .

ان سر العالمين الظاهر والباطن

الذى بدا فى شمس تبريز كانه على (١٤٩-)

ولعلنا لاحظنا اننا كلما اوغلنا فى الزمان وتقدمنا فيه ، تطورت افكار الصوفية فى على واقتربت مما رآه الغلاة فى الائمة ، فالبكتاشية يعتقدون بان الحق ومحمدا وعليا اوجه لحقيقة واحدة هي «حق محمد على» (١٥٠) . ثم نجد الشعرانى يروى عن الولي على وقا انه كان يقول : « ان على بن ابى طالب رضى الله عنه رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما نزل عيسى » (١٥١) واورد الشعرانى كذلك ان عليا الخواص كان يقول : « ان نوحا عليه السلام ابقى من السفينة لوحا على اسم على بن ابى طالب يرفع الى السماء . فلم يزل محفوظا فى صيانة القدرة حتى رفع على بن ابى طالب رضى الله عنه (١٥١) ، بل لقد وجدنا بعد القرن السادس والسابع متصوفة يزيد من مقامهم انهم علويون كعبدالقادر الجيلى المتوفى سنة ١١٦٤/٥٦٠-٦٢ (١٥٢) والسيد احمد الرفاعى المتوفى سنة ١١٧٤/٥٧٠-٧٥ (١٥٣) والسيد احمد البدوى المتوفى سنة ١٢٤٠/٦٣٨-٤١ (١٥٤) وأبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ١٢٥٨/٦٥٦ (١٥٥) وابراهيم الدسوقي المتوفى سنة ١٢٧٦/١٢٧٧ (١٥٦) وعبدالوهاب الشعرانى المتوفى سنة ١٥٦٥/٩٧٣ (١٥٧) والشيخ على الخواص

(١٤٩) غزليات شمس تبريزى ، طهران ١٣٣٨/١٩٤٩ ، ابيات مختارة

٢٥٩ - ٢٦٣ (ترجمة) .

(١٥٠) بحث الاستاذ توفيق وهبى .

(١٥١) طبقات الشعرانى ٥٩/٢ .

(١٥٢) طبقات الشعرانى ١٠٨/١ .

(١٥٣، ١٥٤) طبقات الشعرانى ١٥٧/١ .

(١٥٥) كتاب القصد للشاذلى (مخطوط) ورقة ٩٤ ب .

(١٥٦) طبقات الشعرانى ١٥٨/١ .

(١٥٧) الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ١٦٦ . ويقول عبدالرؤوف

المنابى فى الكواكب الدرية (المخطوط) : الشعرانى من ذرية الامام محمد

بن الحنفية (ورقة ٣٣٦ ب) .

- استاذ الشعراىى - (١٥٨) وابن قضيب البان الموصلى (المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٢٨) (١٥٥) وغيرهم كثير ، ومن المعروف ان عبدالكريم الجبلى من نسل الشيخ عبدالقادر فهو علوى مثله •

بل لقد جعل عبدالقادر الجبلى المشيخة وراثية كالامامة فورث شأنه وطريقته ابناؤه : عبدالوهاب وعبدالعزيز وعبدالجبّار (١٦٠) ، وان كان القفطى يورد له نسبا فرسيا حين يعرض لابنه عبدالسلام فيقول : عبدالسلام بن عبدالقادر بن ابى صالح بن جنكى دوست بن ابى عبدالله الجبلى ، فيسح بذلك - جده جنكى دوست - فى رأى القفطى - فى نسبه العلوى (١٦١) •

وهكذا دخل على التصوف حتى صار اساسا من اسسه لايمارى فيه احد وقد رسخ ذلك حتى وجدنا ابن خلدون - فى معرض تناوله موضوع تأثير الشيعة فى التصوف - يقول : « حتى جعلوا مستند طريقتهم فى لبس الخرقة ان عليا رضى الله عنه البسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة ، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم » (١٦٢) • ويقول شيعى متأخر اسلم بعد يهودية : « وقد عرفت ان ارباب هذا الفن فى جميع بلاد الاسلام اليه (يعنى عليا) ينتهون وعليه يقفون • وقد خرج بذلك الشبلى والجنيد والسرى

(١٥٨) خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر ٤١٦/٢ •

(١٥٩) المصدر نفسه ٤٦٥/٢ •

(١٦٠) روضات الجنات ٤٤٢ •

(١٦١) ورد فى المخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن

• هذه القطعة منسوبة الى الشيخ عبدالقادر (الورقة ١٧٧ ب) •

شربتى أعلى المشارب	رتبتى أعلى المراتب
لم أزل قطبا مكرم	كنيتى أعلى المناسب
قد سموا بالجوود عندى	خطوتى الدنيا ، وجندى
أشرف الخلق المعظم	والتهامى صار جدى

(١٦٢) مقدمة ابن خلدون ٣٢٣ •

وابو يزيد البسطامي وابو محفوظ الكرخي وغيرهم • ويكفيك دلالة على ذلك الخرقه التي هي شعارهم يسندونها باسناد يفيض اليه» (١٦٣) • وينتهي الحاج معصوم على - وهو نفسه متصوف - الى الغاية حين يقول: «لابد لكل سلسلة من سلاسل التصوف من الازل الى الابد ، ومن آدم الى انقرض الدنيا ان تكون متصلة بسيد العالمين وامير المؤمنين او بواحد من ائمة الانام عليه وعليهم السلام» (١٦٤) • ولئن ندخل في هذه التفاصيل لان لها موقعا في التصوف سيأتي اوانه ومكانه ، ولكن يجب ان نذكر ايضا ان عليا - وهو الفارس الزاهد العالم - قد كان مثلا اعلى للفتوة والفتيان الذين هم في جوهرهم نوع من المتصوفة لهم مشرب آخر • وقد جاء في المنشور الذي اصدره الخليفة العباسي الناصر لدين الله - حين اهدر الفتوة وجعل نفسه رأسها في سنة ٦٠٤/١٢٠٧-٨ - : « بسم الله الرحمن الرحيم : من المعلوم ان الذي لا يتبارى في صحته ولا يرتاب في براهينه ان امير المؤمنين (ك) هو اصل الفتوة ومنبعها ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره تنتسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرققاء والاخوان» (١٦٥) •

اما بعد فهذا مقام على بن ابي طالب (ع) من التصوف والصوفية ، وكان مرده الى زهده الظاهر التابع من ارادة له وفهم للحياة على انها معنى يجب ان يعبر عنه على هذا النحو • ويرجع مقام على في التصوف الى علمه الواسع والروايات الكثيرة الدائرة حول اشتماله على العلم اللدني الباطن • وكان لمؤاخاته النبوية اثر فعال في تأثر التصوف بشخص الامام فانهم قد ارتفعوا بهذه الاخوة المادية الى اخوة روحية اسبقوا عليها مثلهم العليا •

(١٦٣) رسالة يوحنا بن اسراييل ٨ •

(١٦٤) طرائق الحقائق ١/٢٥١ •

(١٦٥) الجامع المختصر ٩/٢٣٤ •

ولم يدخل على التصوف وحده وانما كان لاولاده ادوارهم فيه مما سيتبين حين نعرض لكل واحد منهم • ويجب الا ننسى - ونحن في ختام بحثنا عن علي - انه كان كأصحابه الشيعة الاوائل في حرصه على صب الاسلام في القلب الذي اراده الله له والنبي ، وانه نذر نفسه للاسلام والمسلمين وضحي بالدينا وبالجاه وبالمال ، بل لقد ضحي بزعامته الظاهرة للمسلمين وقدرته على الوصول الى كرسي الحكم - ان شاء - في سبيل ان يرى الاسلام على حقيقته فاتجه بالنصيحة للخلفاء والمسلمين لادراك بغيته السامية • والسيد امير علي يحدثنا بأنه « فيما كان الاسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الامصار كان علي بن ابي طالب يصرف جهوده في المدينة لتوجيه النشاط في العنصر الناشئ الى الناحية العلمية ، فشرع - مع ابن عمه عبدالله بن عباس - في القاء محاضرات اسبوعية في المسجد الجامع (يقصد مسجد الكوفة) » (١٦٦) ، « وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترعرعت وزهت بعد حين في بغداد عاصمة العباسيين » (١٦٧) وقد ورث هذه المهمة ولده فيما بعد كما سنرى •

وكان علي بن ابي طالب محبا للناس محبا لزملائه من الخلفاء على عكس ما آل الامر بالشيعة من بعده حين تسلحوا بسلاح الكره والحقد حفاظا على حياتهم • وابطس دليل على ذلك ان عليا سمي ابناؤه بعد الحسن والحسين بأحب الاسماء اليه : محمد ، ثم رأينا الاسماء تترى : العباس ، ابا بكر ، عمر ، عثمان وهكذا » (١٦٨) •

وقتل علي في النهاية سنة • ٤٠ في سبيل عقيدته ، فصار موته كحياته موتين : موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا خاصا ، فقيل في موته الاسطوري الذي يتسق مع حياته التي تناولها بحثنا انه « حمل في تابوت علي جمل وان

(١٦٦ ، ١٦٧) مختصر تاريخ الاسلام ٤٣ •

(١٦٨) مقاتل الطالبين ٨٣ •

الجميل تاه ووقع الى وادي طيء (١٦٩) ، ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله . فبينما هم في مسيرهم ليلا اذ ند الجميل الذي هو عليه ، فلم يدر اين ذهب ، ولم يقدر عليه . فلذلك يقول اهل اهل العراق : هو في السحاب ، وقال غيرهم : ان البعير وقع في بلاد طيء فأخذوه ودفنوه (١٧٠) . ثم تلقف البكتاشية - وهم متصوفة شيعة - هذه الاسطورة وصاغوها صياغة جديدة تناسب مقام علي في التصوف فقالوا : انه نشر من جديد وظهر ملثما على جبل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها (١٧١) .

-
- (١٦٩) مروج الذهب ٢/٢ .
 (١٧٠) الصواعق المحرقة ١٣٢ .
 (١٧١) خطط الكوفة ٣٣ (هامش) .

الفصل الثاني

تميز التشيع وتطوره

الشيعة بعد علي

بدأ بقتل علي دور جديد صب التشيع في قلبه ، فبعد ان كان التشيع ايجابيا لم ينكر احد صلته الوثقى بالمثل الاسلامية التي كان الشيعة الاوائل قدوة الناس فيها ، دخل التشيع في دور الخوف والانكماش والفرع والسلبية بعد ان انتصر معاوية : ممثل التيار المقابل على علي في صفين ثم ساعدته الظروف فقتل علي واستتب له الامر . لقد لمس علي قبل قتله انحدار المثل الاسلامية الى المصلحية والامر الواقع فقال في مرارة قاتلة : «الا ان بليتكم قد عادت قبل هيتها يوم بعث الله نبيكم»^(١) وهذا المعنى قاس حقا ومثير وداع الى التأمل . فان عليا يعني انه قد تبدد كل ما بناه المسلمون الاولون وذهب كل ما سعى الاسلام لاقراره في العرب وغيرهم وعاد الاسلام وقد صار قناعا ممزقا لم يبق منه الا رسومه اما الجوهر فقد دفن مع من مات من المسلمين الاولين . وزاد الشيعة شقاء تنازل الحسن لمعاوية سنة ٤١/٦٦١-٦٦٢ ، فصاروا في حاجة الى الشفاعة والضراعة لانهم وقعوا في قبضة عدوهم ، وكانت حجة الحسن في تنازله قوله : «... كرهت ان اقتلكم على الملك»^(٢) واراد من ذلك في الواقع ان يبقى اهل البيت - بعد قلة ناصرهم - قدوة للاسلام ومثابة ومرجعا وفي مكان مستقل عن الطمع والمادة وكان يرى ان هذا هو السبيل الوحيد الى اعادة الامور الى نصابها : بالحسنى والموعظة الحسنة . ولكن معاوية قد

(١) نهج البلاغة ١/٤٢-٤٣ .

(٢) الصواعق المحرقة ١٣٥ .

اختط خطة اخرى اراد بها ان يعنى على آثار على واولاده الذين هم بقية النبي
 خصمه القديم وخصم ابيه وخصم الارستقراطية المكية القديمة ، فأمر عماله
 الا يجيزوا لاحد من شيعة على واهل بيته شهادة» (٣) و امر بحرمان كل
 من عرف منه موالة على من العطاء واسقاطه من الديوان والتشكيل به وهدم
 داره» (٤) ، وكان المغيرة « يأتى ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن
 لهم» وقد تعاطم الناس هذا اللعن حتى سألوا معاوية ان يكف عنه وكانوا
 يظنون الامر مجرد غيظ يريد اطفاءه وفاتهم انه كان يرى عليا امتدادا لشخص
 محمد وكان يريد من سب على سب مثل محمد - التي لا يستطيع التعرض
 لها - فسار في الشوط الى نهايته مستهدفا من هذه الحال ان « يربو عليها
 الصغير ويهرم الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلا» (٦) وقد نجح معاوية في ذلك
 نجاحا باهرا ولكن في محيطه الشامي فقط حتى لقد رفض اهل حران ان
 يكفوا عن لعن على حين منعهم عمر بن عبدالعزيز وقالوا : « لا صلاة الا بلعن
 ابي تراب» (٧) وكان من اهل الشام قوم يرون ان ابا تراب هذا « لص من
 لصوص الفتن» (٨) . ولم يقتصر الامر على هذا بل تمداه الى الحرب
 بالتأويل الذي احس خطره عمار بن ياسر في صفين وحارب معاوية ليرده
 عن ذلك وقد رأينا ابا ذر يلاحظ ذلك ايضا ايام عثمان فجعل معاوية يبذل
 الاموال في هذا السبيل الى حد انه اعطى سمرة بن جندب نائب زياد على
 البصرة اربعمائة الف درهم ليروى ان عليا هو المقصود بالاية : ومن الناس من
 يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو الد الخصام ،

(٣) الطبرى ١٤٢/٦ .

(٤) ابن ابى الحديد ١٦/٣ .

(٥) الطبرى ١٤٢/٦ .

(٦) نهج البلاغة (لابن ابى الحديد) ٣٥٦/١ .

(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢ .

(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢ ، فى كتاب المناقب من صحيح البخارى ان النبي
 هو الذى نعت عليا بابى تراب .

وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل» (٩) ، وان قاتل على هو المقصود بالاية : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله (١٠) ، وكان من اعوان معاوية على تحقيق هذا الهدف ابو هريرة وعمرو بن العاص وعروة بن الزبير (١١) . وقد ظهر اتجاه معاوية المضاد حين اختار القدس (التي كان يتجه اليها المسلمون في صلاتهم قبل مكة) مكانا لاختذ البيعة له «فصعد الى الجبلجة (حيث صلب المسيح) وقعد فيها وصلى ثم تقدم الى الجسمانية ثم انحدر الى قبر القديسة مريم حيث صلى ايضا» (١٢) وهكذا التنقل في المقامات المسيحية بين ان معاوية قد جعل القدس مقابل مكة التي خرج منها ابوه وخرج سلطانها من يد قومه الى محمد . فلما عاد اليه السلطان ورأى انه لا يستطيع العودة اليها من جديد اختار مكانا آخر يوازي مكة في القدسية والحرمة تدليلا على ان كفاحه قد اثمر وانه قد استعاد السلطان القديم واعاد النظام القديم ، ولعل من اطرف ما يقال في هذا المجال ان الشاعر المسيحي الاخطل هو الذي يعلمنا ناحية خافية من اعمال معاوية بقوله :

وطدت لنا دين النبي محمد بحلمك اذ هرت سفاها كلابها» (١٣)

ومن عجب ان ابن خلدون قد غض النظر عن كل ذلك وقال في استخلاف معاوية ليزيد «... فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من

(٩) البقرة : ٢٠٤ .

(١٠) نهج البلاغة (لابن ابي الحديد) ١/ ٣٦١ ، والاية في سورة البقرة : ٢٠٧ ويروى في كتب الفرق ان الخوارج هم الذين قالوا بذلك ، ويذكر الاشعري أنهم اتباع حفص بن ابي المقدم من الاباضية (مقالات الاسلاميين ١/ ١٠٢) .

(١١) المصدر نفسه ١/ ٣٥٨ .

(١٢) الدولة العربية وسقوطها ٨٥ .

(١٣) وعاط السلاطين ٣٤١ نقلا عن « معاوية بن ابي سفيان » لانيس النصولى ٦١ (اقتباسا من كتاب الاغاني ١٣-٤٥ ، ٣) ولم نجد البيت المذكور في ديوان الاخطل .

الفسق حاشا لمعاوية من ذلك . . . ، (١٤) .

وبدأ الاضطهاد في العراق بقتل حجر بن عدى الكندي صنو الاشعث بن قيس (١٥) وعمرو بن الحمق الخزاعي اللذين اشتركا في التوقيع على صلح التحكيم بوصفهما من عظماء اصحاب علي (١٦) وقتل معهما ستة من اعوان حجر وكان من حظ احدهم ان يدفن حيا وهو عبدالرحمن بن حسان (١٧)

وقد اثار هذا الارهاب الهلع والفرع وطير الشائعات وركب في النفوس الخوف من القدر وجعلت الخرافات والتطيرات تملآن الجوف في الكوفة ، وغدا من في الكوفة وقد ذهبت منتهم وخارت قوتهم وسالت نفوسهم ، وكان لم يكن منهم ذلك الجهاد والجلاد وصارت مقاومتهم لزيادة عامل معاوية عليهم امانى يتمنونها واحلاما تدور في اذهانهم الى حد ان موت زياد صار مصداقا لاسطورة رسمها الهلع واحلام اليقظة من ان شيئا طويلا يسمى بالقناد ذى الرقبة دخل على زياد في قصره « فما كان مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فان الامير عنكم مشغول ، واذا به قد اصابه ما ذكرنا من البلاء (الفاليج) » (١٧) . واستمر القتل واتخذ بالنسبة للضحايا شكلا روحيا معنويا فرأينا ميثما التمار وهو عبد اعنقه على يقول قبل قتله : ان عليا قال له « تؤخذ بعدى فتصلب وتطعن بحربة . . . وتصلب عاشر عشرة . . . » (١٨) فيكون الامام قد تنبأ للتسعة المقتولين قبله بمصائرهم ايضا . وكان الشهيد الاخر من

(١٤) مقدمة ابن خلدون ٣٠٦ . من العجيب حقا ان الغزالي كان يرى ان عليا « هو الذي جر العساكر والجنود في زمان معاوية حتى قتل من ابطال الاسلام في تلك المعارك الوف ولم يكثر بقتلهم . . . » كل ذلك ارضاء للعباسيين خصوم معاصريهم ومنافسيهم الفاطميين (فضائح الباطنية ، تحقيق جولد تسيهر ، لندن ١٩١٦ ، ص ٦٣) .

(١٥) مروج الذهب ٦٧/٢ .

(١٦) الاخبار الطوال ١٨٢ .

(١٧) مروج الذهب ٦٩/٢ .

(١٨) الاصابة ٢١٧ .

طراز حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فهذا صاحب سر النبي ورشيد الهجري صاحب سر علي وتلك ناحية تعكس الصلة بين التشيع الاول والاسلام الاول .
 لقد كان رشيد يسمى « رشيد البلايا » . . . وكان قد القى عليه علم البلايا والمنايا ، فكان يلقي الرجل ويقول له : يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا ، وانت يا فلان تقتل قتلة كذا فيكون الامر كما قاله راشد رحمه الله^(١٩) وقد قال له علي : « يا رشيد انت معي في الدنيا والاخرة » . ونعود الى أمر حجر واصحابه المقتولين ، وهذه الجماعة مهمة جدا في تاريخ التشيع وتاريخ الاسلام كما سنرى الان .

لقد كانت هذه الانتفاضة اول حركة يصاد بها الشيعة الامويين بعد قمعهم وقتل زعيمهم بعشر سنين وقد جاء في كتاب الاتهام الذي ارسله زياد الى معاوية عند توجيههم الى الشام : « . . . ان طواغيت من هذه الترابية (نسبة الى ابي تراب : علي) السبئية رأسهم حجر بن عدى خالفوا امير المؤمنين وارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لنا الحرب »^(٢٠) ، ومن تسمية زياد لحجر بن عدى واصحابه بالترابية السبئية بدأ الكلام على هذه الفرقة التي خلقت صدى كبيرا في العالم الاسلامي واعتبرها الباحثون اساسا للتشيع كما اعتبروا ابن سبأ اول من وضع لبنة الافكار الشيعة الخاصة بالامامة . وقد رأينا فيما سبق ان ابن سبأ هو عمار بن ياسر نفسه وبيننا السبب في ذلك . والسبئية على هذا الاساس فرقة قادها عمار الذي اطلقت عليه قريش ذلك اللقب الرمزي وازادت الى ارائه في علي مبالغات وازاليل لتضيف الى افكار عمار ما يخرج بها عن المعقول ويسلبها قوة الاقتناع ويقنعها بقناع الشك والبطلان فينصرف الناس عنه وعن ارائه وعن مبدئه في احقية علي وفضله على سائر المسلمين من معاصريه

(١٩) تاريخ الكوفة ٢٩١ .

(٢٠) الطبري ١٥٢/٦ .

زمن عثمان • وقد رأينا عمارا صريحا في صفيين ثم وجدنا الافكار السبئية أو
العمارية على الصحيح حية لم تمت بموته وانما ظهرت بعد صفيين وبعد مقتل
على •

لقد اصاب السبئية وابن سبأ خلط كبير صار من العسير معه ان نحدد
العقائد والافكار التي نادوا بها •

فقد روى الطبرى عن سيف ان ابن السوداء اسلم فى السنة السابعة من
خلافة عثمان بعد ان اتخذ « رجال من قريش أموالا فى الامصار وانقطع
الناس اليهم » • (٢١) ووقت ابن خلدون ظهور ابن سبأ بايام عثمان « لما فتى
التكبر على عثمان والظعن فى الآفاق » (٢٢) وحدد مكانه بالبصرة •

والنوبختى - من رجال نهاية القرن الثالث - يرى فى السبئية جماعة
كانت تظهر الظعن على ابي بكر وعمر وعثمان والصحابه وتبرأ منهم (٢٣) •
ويكون ابن سبأ داعية شيعيا على صورة مبالغ فيها بحيث تعدى غضبه على
عثمان الى سابقه • ويرى ماسينيون ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمداني
وانه نفى بأمر على الى المدائن (٢٤) فهو هنا عربى مسلم وعند النوبختى
والطبرى يهودى اسلم (٢٥) • اما ولها وزن فيرى انه من قبائل عربية سكنت
الكوفة وخالطت الموالي فيها ويرى ان السبئية - كما قال سيف بن عمر -
« هم قتلة عثمان فتحوا باب الحرب الاهلية واسسوا فرقة الخوارج الثورية
وتولد عنهم انهيار الاسلام » (٢٦) • فهو من رأى الطبرى والنوبختى • وذكر
السيوطى انه اظهر الرفض فى ايام على (٢٧) • ويرى ابن ابى الحديد ان ابن

(٢١) الطبرى - اوربا ١/٣٠٢٧ •

(٢٢) العبر ٣/١٧٠ •

(٢٣) فرق الشيعة ٢٢ •

(٢٤) شخصيات قلقة فى الاسلام (٢٤) •

(٢٥) فرق الشيعة ٢٢ •

(٢٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٦ •

(٢٧) الوسائل الى مسامرة الاوائل ١٣٥ •

سبأ قد ظهر بعد ان احرق على جماعة كانت تعبده ووقت ظهور عقيدته بعد قتل على ويكون بذلك قد اظهر السبئية قبل ابن سبأ ويرى الاسفراينى هذا الرأى ايضا (٢٨) وقد اضيف الى السبئية ايضا القول بمهدية على وانه يجيء فى السحاب وان صوته الرعد وسوطه البرق (٢٩) .

ومن ادل هذه الاجتهادات على الاختراع وألصقها بالمعنى الذى قصد من ورائها ما اورده الشعرانى الصوفى (المتوفى سنة ٩٧٣) من أنه «عبدالله ابن سبأ العجلى» (٣٠) وهو يعنى بذلك انه من قبيلة عجل الغالية التى سيمر بنا دورها المهم من اقرار الغلو فى الكوفة وغيرها . وهكذا تعدد الاسباب والنتيجة واحدة هى تهافت تاريخية ابن سبأ على هذه الصورة الاسطورية المهزوزة .

اما قضية احراق على المزعوم للسبئية (٣١) فانه خبر مخلوق من اساسه ولم يرد على صورة فيها ثقة فى كتاب معتبر من كتب التاريخ . ولعل أصل هذا الحادث يتصل باحراق خالد بن عبدالله القسرى بيانا وخمسة عشر من اتباعه الغلاة (٣٢) ، ثم لما تقدم بها الزمن زحزحت الحادثة الى الامام قليلا حتى اتصلت بعلى .

وبعد كل هذا قيل : ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمداني (٣٣) ، من زملاء حجر بن عدى وعمر بن الحمق الخزاعى ايام على (٣٤) . والمضحك

(٢٨) شرح نهج البلاغة ٢/٣٠٩ ، التبصير فى الدين ١٣ .

(٢٩) الفرق بين الفرق ١٤٣ .

(٣٠) مقدمة نافعة لمن يخوض فى العقائد (مخطوط) ورقة ٢

(٣١) الفرق بين الفرق ١٤٣ ، الفصل لابن حزم ٢/١٥٥ ، ٤/١٨٦ .

(٣٢) فرق الشيعة ٢٤ .

(٣٣ ، ٣٤) المرجع السابق ، وانظر مجلة الدراسات الشرقية (الاطالية) ،

السنة السادسة المجلد السادس ص ٤٩٥ وهو مقال عن الجزء الثانى من انساب

الاشراف للبلاذرى .

ان عبدالله هذا قد قتلته المختار سنة ٦٧ مع من قتل من قلة الحسين (٣٥) ، فكان مؤسس التشيع كان أول من ارتد عنه . ولو كان الامر كذلك لما بقيت للتشيع باقية ولاشار الى ذلك خصومهم على الأقل . وتحقيق كل هذا الخلط يؤدي بنا الى ان نقرر بان السبئية انما هي اضافات اتقى بها اصحاب الاهواء كل حسب ما يريد ان يضيفه الى التشيع . ويهنا بعد ان نقرر ان السبئية هم اصحاب حجر بن عدى الذين كانوا يسبون عثمان مقابلة لسب معاوية لعلى وقد روى المقرئ والدينورى صراحة ان حجر بن عدى وعمرو بن الحمق كانا يظهران شتم معاوية وان عليا كان يقول لهما : « كرهت لكم ان تكونوا شتامين » (٣٦) فيحتمل ان تكون السبئية عقيدة سياسية تزعمها حجر بن عدى الذى قتلته معاوية لتشييعه الظاهر والاصراره على ان قتل عثمان كان حقا وان سب على باطل - وقد مر بنا انه حضر وقعة صفين مع عمار بن ياسر - ولمقاومته اتجاه الدولة الجديدة فى التعفية على آثار على . وقد كان اكثر زملاء حجر يمانين (٣٧) اى سبئين ، وقد سماهم ابن زياد بالترابية اى العلوية . وبهذا تكون السبئية هى الحجرية وتكون افكارها اقطار ابن سبأ الذى هو عمار بن ياسر . وبذلك نعود الى ان السبئية هى آراء اليمانين الذين والوا عليا فى الكوفة وكانوا اغلبية سكانها . وهكذا لايبقى من نخيل السبئية الا انها جماعة متعصبة لعلى متعصبة على عثمان واوليائه وانهم اعوان عمار بن ياسر انذى قتل قبلهم فى وقعة صفين ، وينتهى بنا المطاف الى فائدة عظيمة هى ان السبئية ركام من التهم القيت على جماعة - ان عن قصد او عن غير قصد - اريد بها الاتهام مرة كما يبدو من اشاعات الاعداء ، والبراءة مرة اخرى كما يبدو ذلك من الاخبار التى ينقلها الشيعة انفسهم عن خروج السبئية عن التشيع بعبادتهم الباطلة لعلى ويجب ان نذكر هنا ان توقيت ظهور السبئية يتحدد بالوقت الذى سبق خروج

(٣٥) انساب الاشراف ٥/٢٤٠ ، وراجع ٢٣٠-٢٤٠ .

(٣٦) وقعة صفين ١١ ، الاخبار الطوال ١٥٥ .

(٣٧) الطبرى ٦/١٥٢ .

الحسين لان ما اضيف اليها من عقائد باطلة لم تتضمن اى اشارة الى الحسين ولم تجعل له مكانا فيها مع انه قام باجراً عمل وادعاه الى فخرهم والاشادة به منهم وبذلك يضاف دليل جديد الى ان اصحاب حجرهم السبئية لانهم قد قتلوا قبل خروج الحسين بن علي ويدل توقيع حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعي ذلك التحكيم بوصفهما من اشراف اتباع علي على ان السبئية قد نشأت في ذلك الوقت وانها تعبر عن رأى من يوافق عمارة على رأيه في احقية علي .

وأهمية السبئية - على هذه الصورة - تنحصر في انها مهدت السبيل للفرق الشيعية الاخرى لان تبدأ مما انتهت اليه عقيدتها او - على الصحيح - اتجاهاها المتضمن للغلو في كره الفاصين - في رأيهم - والحب للمسلويين اصحاب الحق الشرعى . وقد انبت السبئية نباتا لم يزل ينمو حتى كاد يصنع التشيع بصبغة قائمة من الكره والحقد والمرارة جعلته يطرق سبلا لم يعرفها في سبيل انفاذ امره وتنفيذ مشيئته ، وصارت السبئية بداية للغلو وسنرى ان للغلو اثرا كبيرا في مبادئ التصوف .

الحسين وحركته

خرج الحسين استجابة لدعوة الكوفيين ولم يستمع الى نصيح ابى بكر ابن الحارث بن هاشم^(٣٨) ولا نصيحة محمد بن الحنفية بالبقاء في مكة^(٣٩) ، ولا اشارة عبدالله بن عباس بالخروج الى اليمن وبث الدعاة منها^(٤٠) ، بل لم يستمع الحسين الى نصيحة ابن عباس في ابقاء نسائه وولده في المدينة^(٤١) . وكان خروج الحسين ، تعديلا لخطة علي بن ابى طالب نفسه حين رضى

(٣٨) مروج الذهب ٢/ ٨٧ .

(٣٩) الطبرى ٦/ ١٩٠ .

(٤٠) مروج الذهب ٢/ ٨٦ .

(٤١) مروج الذهب ٢/ ٨٦ .

بالتحكيم في صفين محافظة على نسل النبي (٤٢) . وقتل الحسين ، وقتل معه ولده علي بن الحسين الأكبر وثلاثة من ابناء الحسن وخمسة من اخوته واثان من ولد جعفر بن ابي طالب واثان من اولاد عقيل بن ابي طالب (٤٣) ، وقتل مسلم بن عقيل داعيته الى الكوفة وقتل معه هاني بن عروة الزعيم الكوفي دون ان يجد من انصاره واتباعه الا « شللا وخذلانا » (٤٤) . واهم مافي حركة الحسين ان كل من حاربه وتولى قتله كان من اهل الكوفة « لم يحضره شامي واحد » (٤٥) ، وقد اثر ذلك في النفوس تأثيرا بالغا وصار من اسباب زهد الناس وانصرافهم عن الدنيا ، غير ان قتله وقتل ابناؤه واخوانه واثان عمومه قد اوشك ان يقطع نسل رسول الله الذي حرص على ان يحفظه ولا يفرط فيه ، ولولا الظروف المواتية ما بقي على بن الحسين الذي شفيع له مرضه بعد ان كاد عبيدالله بن زياد ان يقتله .

نقد كان الحسين محاطا بهالة من الاحاديث النبوية ، وقد اورد الاستاذ أحمد امين مجموعة منها في ضحى الاسلام منها : « قال رسول الله - برواية ابن عمر - : هما ريحانتي من الدنيا (يعني الحسن والحسين) ، وعن ابي سعيد : الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ، وقد ايد الترمذي صحته » (٤٦) . ويرد في اخبار الدول عن الترمذي ايضا : ان الرسول (ص) قال : حسين مني وانا من حسين احب الله من احب حسيناً » (٤٧) . ويورد الكليني عن ابي عبدالله (جعفر الصادق) ان قوله تعالى : فنظر نظرة في النجوم فقال : اني سقيم ، ينصرف الى الحسين ، فرأى ما يحل بالحسين فقال : اني

-
- (٤٢) الطبرى ٤٤/٣ .
(٤٣) مروج الذهب ٩١/٢ .
(٤٤) مروج الذهب ٨٨/٢ .
(٤٥) مروج الذهب ٩١/٢ .
(٤٦) ضحى الاسلام ٣٢١/١ .
(٤٧) اخبار الدول ١٠٧ .

سقيم^(٤٨) . وعنه ايضا : « ما كان من امر الحسين ما كان ضجت الملائكة الى الله بالبكاء وقالت : يفعل هذا بالحسين : صفيك وابن نبيك ؟ قال : فاقام الله لهم ظل القائم (المهدي) وقال : بهذا انتقم لهذا^(٤٩) . ومن ذلك يتبين ان الحسين قد كان - في رأى الشيعة انسانا روحانيا قدر له الله منذ الازل ان يفدى الاسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه ، فقرن الشيعة دوره بدور المسيح المخلص وجاء ذكر المسيح موصولا بالحسين بمناسبة ولادته الشاذة لسته اشهر فروى الكليني عن جعفر الصادق قوله : « ولم يولد لسته اشهر الا عيسى بن مريم والحسين بن علي^(٥٠) . وتؤكد هذه النظرة من الروايات الشيعة التي تقول : « لما حملت فاطمة بالحسين جاء جبريل الى رسول الله فقال : ان فاطمة ستلد غلاما تقتله امك من بعدك . فلما حملت فاطمة بالحسين كرهت حمله ، وحين وضعته كرهت وضعه ، ثم قال ابو عبدالله (جعفر الصادق) : لم تر في الدنيا ام تلد غلاما تكرهه ، ولكنها كرهته لما علمت انه سيقتل . قال : وفيه نزلت هذه الآية : ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، حملته امه كرها ووضعته كرها وفصاله ثلاثون شهرا^(٥١) . بل لقد زعم الشيعة ان الحسين لم يقتل وانما شبه للناس كعيسى بن مريم^(٥٢) . ويروى الشيعة انه لم يرضع كسائر الاطفال وانما كان «يؤتى النبي فيلقمه لسانه فيمصه فيجتزى به ، ولم يرضع من انثى^(٥٣) ، وهذا هو الغذاء الروحي ومثله العلم الموروث وهو روح النبوة التي هي من عند الله كما ارادها الشيعة لائمتهم .

-
- (٤٨) اصول الكافي ١٢٤ والآية في سورة الصافات : ٨٨ .
 (٤٩) اصول الكافي ١٢٤ .
 (٥٠) اصول الكافي ١٢٣-١٢٤ ، الاعلاق النفيسة ٢٢٧ .
 (٥١) اصول الكافي ١٢٣ العنكبوت ٨ .
 (٥٢) العقيدة والشريعة في الاسلام ٨٢ .
 عن مخطوطة العلل لابن بابويه ٩٩ .
 (٥٣) اصول الكافي ١٢٤ .

وقد صار الحسين المثل الاعلى للبطولة الاسلامية في سبيل الحق ودفعت بطولته واباؤه وامتناعه عن التسليم مصعب بن الزبير - الذي قتل الاخذين بشأر الحسين - الى ان يصبر للموت وهو يقول :

فان الالى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا (٥٤)

وصار قتل الحسين سببا في ذل المسلمين وهذا سليمان بن قتة يقول :

فان قتل الطف من آل ل هاشم اذل رقاب المسلمين فذلت (٥٥)

(٥٤) الاخبار الطوال ٢٧١ .

(٥٥) مقاتل الطالبين ١٢١

وفي مقالات الاسلاميين بنسب الاشعري القطعة الى ابن ابي رمح الخزاعي مع تغيير « اذل رقاب المسلمين » بعبارة « اذل رقابا من قريش » ص ٧٦ . وراجع تعليق رتر في الهامش . وكذلك ذكر السيوطي في الوسائل الى مسامرة الاوائل أن « اول ذل دخل على العرب قتل الحسين وادعاء يزيد » ٥١ .

وبقطع النظر عن ذلك قد يرى البعض ان قتل الحسين لم يكن له اثر في العالم الاسلامي والا دخل له في ذل المسلمين وربما دلل على ذلك بان الدولة الاموية قد نمت بعد قتل الحسين حتى اتسعت شرقا وغربا وان عز الاسلام الحقيقي انما كان من ثمرات الفتوح الاموية . الحق اننا نرعى الى اعرق من مجرد الظاهر السطحي : أن الاسلام الحقيقي كان فكرة تنبع من اشاعة العدالة الاجتماعية مقترنة بالاصلاح الروحي واعتبار المجتمع الانساني عالما يؤكد الاسلام الاخوة فيه . وقد كان قتل الحسين استهتارا بأعز ما في قلب المسلمين من عاطفة تمتد وشائجها الى النبي . وكان قتل الحسين - وهو ابن بنت النبي وافضل المسلمين في النصف الثاني من القرن الاول الهجري - المدى الذي يهون دونه كل عمل اخر . ورأينا - لذلك - ان الكعبة نفسها قد ضربت بالمنجنيق وان القتل استمر في العالم الاسلامي وان الاسلام غدا شيئا ثانويا الى الحد الذي لم يبال معه الحجاج في تخيير المنهزمين من جيش ابن الاشعث بين القتل والبراءة من الاسلام والايمان . وكان قتل الحسين الكبيرة التي هونت على عمال الامويين أن يقاوموا اندفاع الايرانيين الى الدخول في الاسلام وزينت لهم جبايتهم الجزية مع اسلامهم . هذا هو الذل الذي اورثه قتل الحسين . اما الفتوح وأما الاتساع واما امتلاء الخزائن بالذهب واما التسلط وامتلاك الرقاب والاستهتار بالمثل وبالناس فأمور لم يهدف اليها الاسلام وانما جاء لمحقها .

ودفعهم هذا الذل الى الهرب من الدنيا وتكب طريق الجهاد والعمل الايجابي فروى لنا عمر بن زياد الهذلي عن رجل من خراسان كتب الى محمد ابن الحنفية فقرن المصائب التي نزلت بالناس بالزهد والياس من رجوع الامر الى آل محمد : « فما زال بنا الشين في حكم حتى ضربت عليه الاعناق وابطلت الشهادات وشردنا في البلاد واوذينا ، حتى لقد هممت ان اذهب في الارض قفرا فاعبد الله حتى القاه . . . » (٥٦) ، وقال عبدالرحمن بن ابي نعيم من زهاد البصرة : « يا اهل العراق تسألونني عن المحرم : يقتل ؟ وقد قتلتم ابن بنت رسول الله ، وقد قال رسول الله فيه : هما ريحانتي من الدنيا » (٥٧) وترك ابو عثمان النهدي الكوفة الى البصرة وقال : « لا اسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله » (٥٨) .

وقد صار مقتل الحسين ملحمة كبرى تذكر الشيعة بذلك البطل الذي انقذ الاسلام وحماه ، وجعل الشيعة يكررون في كل عام تذكير الناس بكل تفاصيل الواقعة واعتبروا ذلك نذيرا ينبه الى الخطر المحدق وصار البكاء - بعد اشهار السيف - الرابطة بين الشيعة وآمالهم في اعادة الحق الى اصحابه حتى لقد قيل في الامثال :

ارق من دمة شيعة تبكي على بن ابي طالب (٥٩)

وصارت مجالس العزاء تعقد في ايام الواقعة وفي غيرها لان الشيعة يقتضون كل مناسبة ليشهدوا هذه المجالس ، ويجمع شملهم ويوحد صفوفهم الحب الزائد لال البيت والبكاء المحرق عليهم . وقد تنبه جولد تسيهر الى

(٥٦) طبقات ابن سعد ٢٩/٥ - ٧٠ .

(٥٧) حلية الاولياء ٦٨/٥ .

(٥٨) صفة الصفوة ١٢٤/٤ .

(٥٩) امثال الميداني ٣٢٩ .

هذه الحقيقة فقال : « ونجد ان تاريخهم (الشيعة) منذ كارثة كربلاء عبارة عن سلسلة لاتقطع من التعذيب والاضطهاد . وروى الشيعة اخبارهم شعرا ونثرا فى مؤلفات كثيرة زاخرة بتراجم هؤلاء الشهداء ، وكتب المقاتل هذه احدى خصائص الشيعة ، وقد جعلوا من رواياتها واسطة عقد اجتماعاتهم فى الثلث الاول من شهر المحرم » (٦٠) . وقد عقد جولد تسيهر مقارنة جديدة بين المسيح والحسين فى هذه المناسبة فروى انه « سرى كثير مما كان يقال لاثارة العواطف فى يوم جمعة الالام عند المسيحيين الى يوم عاشوراء » (٦١) . ونقل عن بادشاه حسين فى كتابه : الحسين فى فلسفة التاريخ انه اورد « ان الحزن على الحسين لهو العلامة الصحيحة الدالة على الاسلام . ومن المحال الا يذرف الشيعى الدموع لانه جعل من قلبه قبرا حيا ومثوى حقيقيا للامام الشهيد الذى احتز رأسه » (٦٢) ويؤكد ذلك الاستاذ محمد جواد مغنية - من الشيعة المعاصرين - بقوله : « ليس يوم عاشوراء للشيعة فحسب ولا للسنة ، وانما هو للناس اجمعين لانه جهاد وتضحية وحق وصراحة ونور وحكمة . وليس لهذه الفضائل دين خاص ولا مذهب خاص ولا وطن خاص ولا لغة خاصة » (٦٣) . ولهذا فانه ليس من البعيد ان تكون فكرة الذكر الصوفية قد اتصلت بمجالس العزاء الحسينية التى يرتفع فيها البكاء وتذرف الدموع وبخاصة ان صح ان هذه المجالس كانت تقام علنا ايام المأمون فى نهاية القرن الثانى وبداية الثالث (٦٤) اى فى بداية ظهور الذكر الصوفى بل فى بداية تحول الزهد الى التصوف . وليس من البعيد كذلك ان تكون فكرة الحب الصوفية متصلة بالحب الشيعى للائمة ثم تطور بها الزهاد وجردوا هذه

(٦٠) العقيدة والشريعة ١٧٨ .

(٦١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٨٢ .

(٦٢) نفس المصدر ١٦٩ .

(٦٣) الشيعة فى التاريخ ١٦٦ .

(٦٤) الشيعة فى التاريخ ٦٨ .

العاطفة من ارتباطها بانسان معين وارتفعوا بها الى الله والمثل الاعلى . وقد كان هذا التبادل بين الانسان والمثل الاعلى الذى اتصل حب الصوفية به موجودا فى منتصف القرن الثانى الهجرى حين اخذ المنصور على طريق الشاعر قوله للوليد بن يزيد :

لوقلت للسيل دع طريقك والنو ج على الهضب يعتلج
لساخ وارتد او لكان له فى سائر الارض عنك منصرف

فقال طريق : قد علم الله عز وجل انى قلت ذلك ويدي ممدودة اليه عز وجل واياه تبارك وتعالى عنيت^(٦٥) وسيمر بنا ان تأليه الائمة بدأ فى نهاية القرن الاول ، فليس من البعيد اذن ان يكون مقام الحب شيعى الاصل مادام الزهد - فى جوهره - كان حركة اعتزال للعمل الايجابى القائم على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كان العالم الاسلامى - يومئذ - نهبا بين المعروف والمنكر ، وكان كل فريق يرى انه مع المعروف . وقد تنبه الامويون الى خطر هذه الذكرى فحاولوا ان يقابلوها بالفرح بها فجعلوا منها عيدا سنة الحجاج لاهل الشام فى ايام عبدالملك واسته صلاح الدين وملوك بنى ايوب بعد سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر^(٦٦) ، بل لقد كان قبر الحسين مثابة للناس ومقصدا لزيارتهم تأكيدا لهذه الصلة حتى لقد سماه بعض الجهلاء حجا وكان من ذلك ان هدم المتوكل قبر الحسين^(٦٧) سنة ٢٣٦ / ٨٥٠ - ٥١ لمنع الناس من زيارته كما سيأتى ذكره . وهذه صلة اخرى تجمع بين التشيع والتصوف : فان زيارة قبور الاولياء عرف مشترك بينهما ، وزيارة قبر الحسين اقدم وصلتها بالتشيع واضحة والهدف منها صريح ، وقد اخذها المتصوفة من

(٦٥) الاغانى ١٧/٤ (دار الثقافة بيروت ١٩٥٥) .

(٦٦) خطط المقرئى ٣/٣٨٥ .

(٦٧) مقاتل الطالبين ٥٩٧ .

الشيعة ليؤكدوا ترابطهم وتعاضدهم كما فعل اولئك ويفعلون . ومما له دلالة الكبرى مقارنة قتل الحلاج بقتل الحسين (٦٨) .

أما كون الحسين زاهدا فلا يرد فيه إلا أخبار طفيفة منها ما روى عنه انه ناقش قول ابي ذر : الفقر احب الى من الغنى فقال : رحم الله ابا ذر ، اما انا فاقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اخاره الله (٦٩) . وبدو التوكل في اصنع مظهره في هذا الخبر ، والتوكل - بتحليل حركة الحسين تحليلا زهديا - هو الذي دفعه الى المقاومة . فآثر الحسين في الزهد والتصوف آت من تضحيته بنفسه من اجل المثل الاعلى وقد كان هو مثلا اعلى للتضحية والفداء . وسنجد الحركات الشيعة الاتية تعتمد اعتمادا كبيرا وجزئيا على حركة الحسين وتوجه دعوتها الى الانتصاف من قتله . بل لقد ارتبطت فكرة المهدي الشيعة بالانتصاف من بنى امية مع انهم قد ذهبوا ولم يعد لهم دولة ولا سلطان . وسنجد ان الشيعة قد تغلبوا على هذه الفكرة ايضا فربطوها بالرجعة التي تقول بان الشهداء منهم والمظلومين سيعودون مع المهدي كما يعود الظالمون لهم فيدين المظلومون الظالمين ، وليس ذلك موضوع هذا الفصل . فكل ما يعنيننا من الحسين وصلته بالتشيع انه قد سلح الشيعة بفكرة الانتقام وهيا لهم حادما محددنا لاريب في مشروعية التوجه اليه . وقد تشعبت من الحركة افكار جانبية اتصلت بها افكار الزهاد والتصوفة حتى صارت عرفا عرضيا كما هي عند الشيعة ، ولكن لهذا العرف تأثيرا عاطفيا يوجب الحركة ويزيد من الحماس والترابط .

(٦٨) ماسينيون : نصوص تتعلق بتاريخ التصوف ٦٠ (عن طبقات المناوي)

(٦٩) الرسالة القشيرية ٢٢٩ .

خلف قتل الحسين هزة عنيقة في الكوفة ولاسيما لدى المخلصين الذين دعوه اليها وتهدوا بنصرته : وكان من زعمائهم خمسة : سليمان بن سرد الخزاعي والمسيب بن نجب الفرزاري وعبدالله بن سعيد بن نفييل الازدي وعبدالله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي (٧٠) . وكان سليمان بن سرد صحابيا (٧١) وعلى رجالة اليمنة في جيش علي في صفين (٧٢) ، اما الآخرون فكانوا من خيرة اصحاب علي (٧٣) . وكان التوابون يستندون - في حركتهم - الى نص من القرآن هو الآية : فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم انه اتواب الرحيم (٧٤) . وكان مع التوابين الكوفيين اخوان لهم من اهل البصرة والمدائن وكانوا يقولون : . أفلنا - ربنا - تفريطنا فقد تبنا (٧٥) . وتبين حركة التوابين مدى ما اثر قتل الحسين في نفوس المسلمين حتى وجدنا هذه الطائفة تخرج - دون قيادة ودون طمع في ملك ودون تنظيم - لمجرد الانتحار والتكفير ببذل النفس . وقد كان الناس ينظرون اليهم نظرة اكبار واجلال ، فان اهل الشام تركوهم يرتحلون بعد انهزامهم وصبرهم على قتلهم ، فلاحق اهل الكوفة بمصرهم واهل المدائن والبصرة ببلادهم (٧٦) وقد حدث كل ذلك في اثناء محاولة المختار تكوين جيش له يخرج به على الامويين ، وقد حاول ان يضم التوابين اليه فلم يستطع لانهم لم يكونوا يطلبون شيئا الا شفاء النمل والموت تكفيرا عن سماحهم بقتل ابن بنت رسول الله .

(٧٠) تاريخ الكوفة ٢٩٣ .

(٧١) الشيعة في التاريخ ٤٧ هامش .

(٧٢) الاخبار الطوال ١٦٠ .

(٧٣) تاريخ الكوفة ٢٩٤ .

(٧٤) تاريخ اليعقوبي ٤/٣ ، البقرة : ٥١ .

(٧٥) مروج الذهب ١١٠/٢ .

(٧٦) مروج الذهب ١١٠/٢ .

لقد دخل المختار حياة الكوفة بعد ان انسحب على بن الحسين مسن الحياة العامة واخط محمد بن الحنفية : الابن الثالث لعلى بن ابي طالب البعد عن الدعوة لنفسه والامتناع عن مبايعة احد الا اذا اجمع العالم الاسلامى على بيعته . وكان عبدالله بن الزبير قد اخذ البيعة لنفسه من مكة والمدينة وكان عبدالملك بن مروان يجمع حوله الانصار بعد ان ترك معاوية بن يزيد امر الخلافة للمسلمين يولون عليهم من يشاؤون . وتأتى اهمية حركة المختار من كونه اول شيعى يجعل من نفسه منتصفا للشيعه وآخذا بثأر الحسين وهذا يعنى - على الصحيح ان المختار أول رجل اتخذ من التشيع وسيلة لغايته وهو اول من تجرأ على ذلك فكان قدوة سيئة للغلاة الذين ساروا فى طريقه الذى شقه لهم وادخلوا فى التشيع امورا لم تكن فيه - والغريب ان كل عقائد الغلاة قد انصبت فى التصوف فيما بعد وذلك امر سيأتى بيانه .

لقد بدأت المهديّة فى الاسلام ايام المختار وبدأ فى التشيع اتجاه جديد هو فى الحقيقة تفريط فى العقيدة الشيعية وذلك ان المختار دعا الى امامة محمد ابن الحنفية وهو ابن على من غير فاطمة ، فكان اتجاهها ادى الى اجتراف غير العلويين على المطالبة بالامامة فرأينا الكيسانية - وهم فرقة المختار او فرقة خليفته كما سنرى - يتجهون بعد ابن الحنفية الى ابنه مرة والى عمه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر مرة اخرى والى محمد بن على بن عبدالله بن عباس بعد ذلك . ثم اذا تخرج الى ابي مسلم الخراسانى وبيان بن سمرعان ، وكانت البداية خروجها من بيت على الفاطمى .

لقد التفت السبئية - خلفاء جماعة حجر بن عدى المغالين فى حب على وكره اعدائه - الى حركة المختار وظن الناس ان المختار هو مبتدع افكارهم . والواقع انه كان يقوم بدور المشجع فقط واراد من ذلك ان يترجم اتجاهها محددًا من التشيع له طابع يميزه من غيره فيستطيع ان يسيطر ويحكم . وقد بعث

عقيدة العلم السرى واضيفت الى الائمة فاندفع ابن الحنفية يقول : « انا والله ما ورتنا من رسول الله الاماين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، (٧٧) ، وكتب يحذر شيعة الكوفة من الغلاة : « اما بعد فاخرجوا الى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرا ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة . فان خشيتم على انفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين واكثروا الصلاة والصيام والدعاء فانه ليس احد من الخلق يملك لاحد ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ، (٧٨) ، وقد اضيف الى المختار انه ادعى النبوة (٧٩) ، والواقع ان ذلك بعيد لانه كان يدعوه الى امامة محمد بن الحنفية بل لقد كان يدعوه بالمهدى (٨٠) وذلك يناقض ادعاء النبوة كما لا يخفى . وقد استعان المختار بالموالى لاول مرة فى تاريخ التشيع وكان ذلك من اسباب فشل حركته وانفضاض العرب عنه (٨١) ويجب ان نلاحظ هنا ان دور الفرس فى التشيع المبكر كان موقتا ، فقد انصرفوا من بعد المختار الى موالة العباسيين وعادوا الى التشيع من جديد بعد ان نزلت بهم ضربة السفاح اولا ثم المنصور ثم الرشيد بل لقد وجدناهم ينعون العلويين من تسلط السلطان حين تسلط البويهيون ازمة الحكم من العباسيين وبهذا يتبين لنا ان دور الفرس فى التشيع بل فى الاسلام كان مجرد وسيلة لاستعادة المجد القديم واثاء التسلط العربى عن كواهلهم ، وسرى ذلك فيما يأتى وسنجد ان التصوف نفسه محاولة اخرى من طراز مختلف لتحقيق هذا الغرض .

لقد رافقت حركة المختار افكار اسطورية تعكس ما كان يعاينه المجتمع العراقى من قلق فى عقيدته ومن ذلك ان انصار المختار كانوا يشيعون ان

(٧٧) طبقات ابن سعد ٧٧/٥ .

(٧٨) الطبرى ١٥٣/٧ .

(٧٩) مختصر الفرق بين الفرق ٤٤ .

(٨٠) طبقات ابن سعد ٨٦/٥ .

(٨١) الطبرى ١٤٧/٧ .

الملائكة تنزل على صورة الحمامات البيض لتصرهم (٨٢) ، وقد رأينا ان هذه الفكرة نفسها قد دخلت مجتمع الزهاد فروى - بمناسبة موت عمر بن قيس الملائى - ان البرية كلها امتلأت من طير لم ير على خلقها وحسنها . فجعل الناس يعجبون من حسنها وكثرتها ، فقال ابو حيان (البيهقي) : من اى شئ تعجبون؟ هذه الملائكة جاءت فشهدت عمراء (٨٣) .

ويضيف المؤرخون البدء الى المختار ايضا وهو عقيدة مهمة دخلت التشيع وما زالت معمولاً بها حتى الان . وقبل ان ندخل فى التفصيل علينا ان نلاحظ ان البدء - فى لفظه - قد يكون مؤسسا على مدلول الآية . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٨٤) وقد قرن البغدادي (٨٥) والشهرستاني (٨٦) والاسفراينى (٨٧) هذه الفكرة بعقائد جماعة المختار ومجمل ما ذكر اصحاب كتب الفرق فى ذلك ان المختار كان يعد اصحابه بالنصر ، فاذا اتصروا كان ذلك دليلا على صدق دعواه وان غلبوا قال لهم : ان الله تعالى قد وعدنى بذلك ولكنه بداله ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب (٨٨) . ومما يضيف هذا الزعم اظهار من تبناه للمختار بمظهر النبى مما رأينا تهافته فيما مضى . وقد حدثنا الطبرى فى حوادث سنة ٦٧ وهى فى ايام المختار - ان عبدالله بن نوف قد قال بهذه الفكرة واستشهد بنفس الآية عند هزيمة اصحابه فى قتال مصعب بن

(٨٢) الملل والنحل ٢/٢٤٠ .

(٨٣) صفة الصفوة ٣/٧٠ .

(٨٤) الزمر : ٤٨ .

(٨٥) مختصر الفرق بين الفرق ٣٥ .

(٨٦) الملل والنحل ١/٢٣٧ .

(٨٧) التبصير فى الدين ١٨ .

(٨٨) مختصر الفرق بين الفرق ٤٧ الرعد : ٣٩ .

الزبير (٨٩) • ثم يرد رأى آخر يسند به الدكتور محمد جابر عبدالعال نظرية
البداء الى ابي الخطاب الذي قتل سنة ١٣٨/٧٥٥-٥٦ في الكوفة (٩٠) • اما
التويختي فيرى نفس الرأى ويسمى جماعة ابي الخطاب بالاسماعيلية (٩١)
وبذلك يتبين ان البداء محمول على المختار خطأ وانه ظهر من فرقة غالبية
متأخرة • وجلية أمر البداء الشيعي في اسماعيل ان جعفر الصادق كان قد
اعد ولده اسماعيل لتولى الامامة من بعده ولكنه مات في حياته فقال جعفر
الصادق - كما يروى الشيعة - : « ان الله عز وجل قد بدا له في امامة
اسماعيل » (٩٢) • وجلية معنى البداء - بعد هذا الذي ذكرناه هو - اطلاع الامام
على امر لم يكن ظاهرا له وان كانت ظواهره تدل على غير ذلك من نحو نشأة
ولد للامام على انه خليفته من بعده ثم يتضح للامام على صورة ما ان الله لم يختر
هذا الولد للامامة وانما اختار اخاه فيموت المرشح الاول في حياة الامام
ليقوم المرشح المختار مكانه • وقد وسع الشيخ المفيد هذا المعنى في التسخ
وامثاله من الافقار بعد الاعفاء والامراض بعد الاعفاء والامامة بعد الاحياء (٩٣) ثم قال:
« وانما خالف من خالفهم في اللفظ دون سواه » (٩٤) ويختم الشيخ كاشف
الغطاء هذه الآراء بقوله : « ولولا البداء لم يكن وجه للصدقة ولا للدعاء ولا
للسفاعة ولا لبكاء الانبياء والاولياء وشدة خوفهم وحذرهم من الله مع انهم لم
يخالفوه طرفة عين • انما خوفهم من ذلك العلم المصون المخزون الذي لم يطلع
عليه احد ومنه يكون البداء » (٩٥) • على أنه يحسن بنا ان نجلو هذا كله

- (٨٩) الطبرى ١٥٣/٧ •
(٩٠) حركات الشيعة المتطرفين ٧٨-٧٩ •
(٩١) فرق الشيعة ٦٩ •
(٩٢) فرق الشيعة ٦٥ •
(٩٣) اوائل المقالات ٤٥ •
(٩٤) اوائل المقالات ٤٥ •
(٩٥) أصل الشيعة واصولها ١٩٢ •

بانخبر الذى يورده الازواعى عن محمد الباقر بن على بن الحسين بن ابي طالب انه سأله عن قوله عز وجل «يمحو الله ويثبت وعنده ام الكتاب» - وهو محمول البداء - فقال ، رواية عن النبي ص : «الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد فى العمر وتقى مصارع السوء» (٩٦) . ويتضح بذلك ان عقيدة البداء امر اسلامى عادى لا يدخل فى الغلو ولا فى ادعاء النبوة وليس خاصا بالشيعة ، ولكننا لو القينا نظرة شاملة على مقدماته لرأينا صلته ببداء ابي نوف الذى نسب الى المختار . وبداء ابي نوف ينصب على وعد من الله بالنصر اى امر مقرر معروف ثم امتنع حدوثه لامر اراده الله ، وصلة هذا البداء بالنسخ واضحة وكذلك باختيار خلف الامام . وبهذا نستطيع ان نجعل اصل البداء على الصورة التى شرحها الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ / ١٠٢٢-٢٣ والشيخ كاشف الغطاء آتيا من عقائد الغلاة الاولى كغيرها من عقائد اخرى كانت فى اصلها من عقائد الغلاة ايضا وانذخها الشيعة المعتدلون وهذبوا حواشيها قووها بالمنطق والكلام ، وبذلك يتبين ان الغلاة - وان كانوا مفضوبا عليهم من الشيعة المعتدلين وأئمتهم - قد اسسوا العقائد الاصلية للتشيع من بداء ورجعة وعصمة وعلم لدنى بحيث صارت مبادئ رسمية للتشيع فيما بعد ولكن على صورة ملطفة . وسرى فيما نعرض له من فصول كيف صار الغلو الشيعى اصلا من اصول العقائد الصوفية الاساسية ايضا .

وهكذا نعود من صحبتنا للمختار فنقرر انه شجع الاراء الاسطورية عند غلاة الشيعة - وهم الان السبئية - وسمح بتكوين عقيدة جديدة تقوم على محاولة اسباغ علم سرى الى الامام واحاطة المثل الاسلامية بهالة مسن القدسية تبعت من مقام الامام . وقد مات المختار ولكن الاراء التى شجعها لم

(٩٦) محاسن المساعى ١٣٩-١٤٠ .

تمت بل عاشت في المجتمع الكوفي حتى تبه الائمة الى خطر السكوت عليها
فغامر محمد الباقر وابوه على زين العابدين باستنكارها ولعن معتقيها ولكنها
كانت قد مدت جذورها في التشيع المعتدل نفسه بحيث صارت من اصوله كما
سنرى في الفصول الالية .

محمد بن الحنفية :

قتل الحسين فاتجهت الانظار كلها الى اخيه محمد ، ولم يحاول على بن
الحسين ان ينازعه الامامة واتخذ لنفسه منهجا في الزهد لا يحدد عنه وترك
الدنيا لاهل الدنيا . اما محمد بن الحنفية فقد كان يقول : « لو اجتمع الناس
على كلهم الا انسانا واحدا لما قاتلته » (٩٧) ، وكان عبدالله بن الزبير قد حصره
في الشعب الذي حوصر فيه بنو هاشم في اول الاسلام خشية ان يدعوا الى
نفسه فكان محمد بن الحنفية يقول : « لو ان ابي عليا ادرك هذا الامر لكان هذا
موضع رحله » (٩٨) ، وذلك يعني انه رأى ان يسالم ولا يخاصم حتى تنجلي
الامور كما فعل ابوه على بعد التفاف القرشين والامة حول ابي بكر وعمر .
ويبدو ان رأى محمد بن الحنفية كان ينصرف الى ان للعلويين رسالة اوسع
من مجرد الحكم والسلطان ولذلك كان - على كونه صاحب راية ابيه في
الجميل - يقول : « هذه والله الفتنة المظلمة العمياء » (٩٩) فكان رد على :
« اتكون فتنة ابوك قائدها وسائقها ؟! » (٩٩) .

ومحمد ، بعد ، ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن
ومحمد (بعد) ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن
الجوزي (١٠٠) وكذلك الطبري (١٠١) وقد رويت اخبار تنبي بان امه امة

-
- طبقات ابن سعد ٧٨/٥ (٩٧)
 - طبقات ابن سعد ٦٨/٥ (٩٨)
 - قوت القلوب ٣/٢ (٩٩)
 - صفة الصفوة ٤٢/٢ (١٠٠)
 - الطبري ٨٩/٦ (١٠١)

حنفية سوداء وليست حرة وكلها تنتهي الى اسماء بنت ابي بكرام عبدالله بن الزبير منافس محمد ابن الحنفية على زعامة المسلمين وقيادتهم ، ومن ذلك يتضح تهافت هذا الادعاء .

وقد عاصر ابن الحنفية اتجاه الشيعة الكوفيين الى الخروج بالائمة من حد الانسانية الى القداسة والالوهية فكان ان هبط ابن الحنفية بيت النبي الى مرتبة الناس هبوطا كان الناس يمجون له ، فقد كان يقول : « ما اشهد على احد بالنجاة ولا انه من اهل الجنة بعد رسول الله ولا على ابي الذي ولدني » (١٠٢) ، وقد عجب ابو طالب المكي ايضا (١٠٣) . ولكن ابن الحنفية اوضح علة اتجاهه هذا بقوله : « اهل بيتين يتخذهما العرب اندادا من دون الله : نحن وبنو عمنا هؤلاء ، يعنى بنى امية » (١٠٤) فظهر لنا انه انما فعل ذلك ليخفف من اندفاع الناس الى اسباغ القداسة على اهل البيت فى المحيط الشيعى وغيرهم فى البيئات الاخرى . ولكنه مع ذلك لم يستطع ان يخفى قوله : « من احبنا نفعه الله وان كان فى الديلم » (١٠٥) .

وتأتى اهمية دور محمد بن الحنفية فى العقائد الشيعية من كونه المهدي الرسمى الاول فى الاسلام وان لم يكن الاول على الاطلاق ، وتلك ناحية اخرى تعود بنا الى ان المبادئ الشيعية التى جددت على الاسلام انما كانت - فى جوهرها - رد فعل واصلاحا لاتجاهات كانت من غير الشيعة كما مر بنا من امر التقية والتأويل وغيرهما ، وهذا يعنى ان المهديية كانت اتجاها غير شيعى تلقاه الشيعة بالاصلاح وافرغوه فى قالب يناسب مشربهم . وحقيقة الامر ان

(١٠١) الطبرى ٨٩/٦ .

(١٠٢) طبقات ابن سعد ٦٨/٥ .

(١٠٣) قوت القلوب ٣٩/٢ .

(١٠٤) طبقات ابن سعد ٦٨/٥ .

(١٠٥) طبقات ابن سعد ٧/٥ .

النبي محمدا (ص) كان اول مهدي في الاسلام ، دعا الى مهديته عمر بن الخطاب (ر) وروى يعقوبى هذا الخبر بقوله : «ولما توفي (ص) قال الناس : ما كنا نظن ان رسول الله يموت حتى يظهر على الارض • وخرج عمر فقال : والله ما مات ولا يموت وانما تغيب كما غاب موسى بن عمران اربعين ليلة ثم يعود • والله ليقطن ايدى قوم وارجلهم » (١٠٦) • ويروى الشهرستاني ان عمر كان يرى ان محمدا رفع الى السماء كما رفع عيسى (١٠٧) • وقد اقتنع عمر بموت النبي بعد ان انتهى اليه ابو بكر (ر) بان الله قد نعى النبي في القرآن بقوله : انك ميت وانهم ميتون ، فصحا عمر من ذهوله وقال : والله لكأني ما قرأتها قط • وعلل ابو بكر لعمر ذلك الظن فقال : ... ولكن الذى ابدى الذى قلته الجزع (١٠٨) • وروى يعقوبى انه قد حيك حول على مثل هذا الظن لنفس السبب الذى بينه ابو بكر لعمر • فمهدية محمد وعلى او رجعتهما او قيامهما انما ارتبطت بهما بعد موتها ، اما مهديّة ابن الحنفية فقد ارتبطت به في حياته وقد كان مهديا لان اسمه محمد وكنيته ابو القاسم وقد رخص النبي لعلى في هذه التسمية والكنية ومنع غيره من تقلدهما (١٠٩) • وقبل ان نعرض لمعنى المهديّة وتفصيلها يحسن بنا ان نلاحظ انها قد اقترنت بالسيف او القوة على الاقل منذ يومها الاول ، ونحن بهذا نشير الى خبر مهديّة النبي التي قال بها عمر وشفعها بقوله : ثم يعود فليقطن ايدى قوم وارجلهم •

(١٠٦) تاريخ يعقوبى ٩٥/٢ •

(١٠٧) الملل والنحل ١٥/١ •

(١٠٨) تاريخ يعقوبى ٩٥/٢ •

وقد قال عمرو الضبي يصف النبي بالمهدية يوم الجمل ويرتجز :

يا امنا يا زوجة النبي يا زوجة المبارك المهدي

(الطبرى - ريدين - ٣١٩٨/١ • حوادث سنة ٣٦ هـ) •

(١٠٩) طبقات ابن سعد ٦٦/٥ •

اما اصل كلمة « مهدي » فان الدكتور على الوردى يكفيننا مؤوتها بقوله :
• اما كلمة المهدي فهي في الواقع تعريب للفظه المسيح الموجودة في التوراة .
فالمسيح معناه المسوح اي انه ذلك البطل المنتقد الذي يمسخه الاله ، والمسح
في التوراة معناه الهداية والارسال والتأييد الرباني •

يقول اشعيا : الرب مسحني لابشر المساكين ، ارسلني لاعصب منكسري
القلب لانادي للمسيين بالعق وللمأسورين بالاطلاق ، لانادي بسنة مقبولة
للرب وبيوم انتقام لالهنا ، لاعزى كل النائحين (اصحاح ٦١ سفر اشعيا) •
وتصف التوراة هذا المسوح الذي يرسله الرب ليشر المساكين فتقول :
ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة روح
المعرفة ومخافة الرب • ولذته تكون في مخافة الرب ، فلا يقضى بحسب نظر
عينيه ولا يحكم بحسب سمع اذنيه ، بل يقضى للمساكين ويحكم لبائسي
الارض فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى (اصحاح ١١
اشعيا) •

ومن يقرأ شعر اشعيا في التوراة يجد تشابها غريبا بينه وبين ما يؤمن به
الشيعة في شأن الامام والمهدي (١١٠) •

فالمهدي اذن - وهو اسم مفعول من هدى يهدى - يعنى المسيح الذى
هو صفة مشبهة بمعنى اسم المفعول : المسوح • وقد رأينا المسح يعنى الهداية
في النص السابق ويجب ان نلاحظ هنا ان المسيح نفسه قائم بالسيف بدليل
ان يومه هو يوم انتقام للرب •

وهذا الذى تعب في تتبعه الدكتور الوردى قد تنبه اليه احد الغلاة ممن
دعوا الى فكرة المهديّة وهو ابو منصور العجلي (المقتول سنة ١٢١) الذى زعم

(١١٠) وعاط السلاطين ٣٨٧ •

انه عرج به الى السماء وان الله «مسح» رأسه بيده وقال له : «بلغ عنى» (١١١) .
ويؤيد هذا ان المسيح كان يحتل مكانة مرموقة من عقيدته بحيث ان ابا منصور
كان يرى ان «عيسى اول من خلق الله من خلقه» (١١٢) وان اصحابه كانوا
يقولون في حلفهم «الا والكلمة» (١١٣) . فالمسح الذي يعنى الهداية واضح من
هذه المظاهر ولعل ذلك كله يغلب الرأى الذى يرجح كون المصدر القريب
للمذاهب الجديدة انما كان التوراة وما يتصل بها . ويلاحظ. دونالدسون ان
لفظ المهدي لم يرد فى القرآن وليس فيه ما يؤيد هذه الفكرة ويلاحظ ايضا ان
معتقيا قد اسندوها بالحديث بدل القرآن ويرى ان لقب
المهدي اطلق على محمد بن الحنفية سنة ٦٦/٦٨٥-٨٦ وسمى :
المهدي بن الوصي» (١١٤) . والواقع ان الشيعة قد استندوا فى فكرة المهدي
الى كثير من الايات تأويلا ، فيورد على بن ابراهيم القمي فى تفسيره الشيعي
القديم ان الاية : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى
الصالحون» (١١٥) تصرف الى القائم اى المهدي (١١٦) وكذلك الاية : «ولئن
اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن : ما يحبسهم؟» (١١٧) والاية : ان
نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين (١١٨) وقد
فسرها جعفر الصادق بالصيحة من السماء باسم صاحب الامر وان الخاضعين

-
- (١١١) مقالات الاسلاميين ٩/١ ، الملل والنحل ٢٩٩/١ ، فرق الشيعة
٣٨ ، الفرق بين الفرق ٢٣٤ ، التبصير فى الدين ٧٣ .
(١١٢) مقالات الاسلاميين ٧/١ .
(١١٣) المصدر نفسه ٩/١ .
(١١٤) عقيدة الشيعة ٢٣١ .
(١١٥) الانبياء : ١٠٥ .
(١١٦) تفسير على بن ابراهيم ٤٣٤ .
(١١٧) هود : ٨ .
(١١٨) الشعراء : ٤

هم بنوا امة (١١٩) ، والآية « سأل سائل بعذاب واقع » (١٢٠) . ويورد الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ بان علي بن ابي طالب يفسر الآية : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم امة ونجعلهم الوارثين » (١٢١) . بان الوارثين هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جردهم (١٢٢) . ومع هذا الوضوح في الصلة بين الاسلام والمسيحية في عقيدة المهدي حاول ماسينيون - ومن قبله ابن حزم - ان يصل هذه الفكرة بالمانوية استنادا الى ان اول من قال بها هم الموالي من انصار المختار (١٢٣) . اما الاحاديث فكثيرة يروى منها الطوسي عن عبدالله بن عمرو بن العاص وهو احد الزهاد المشهورين ان النبي قال : « انا اول هذه الامة والمهدي اوسطها وعيسى اخرها وبين ذلك شريح اعوج » (١٢٤) ويرد في « الكنى والاسماء » ان رسول الله قال : « لا تقضى الدنيا حتى يخرج رجل من امتي يواطىء اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي فيملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » (١٢٥) . وينصرف رأى الاستاذ أحمد أمين الى ان الاحاديث في المهدي موضوعة بدليل اغفال البخارى ومسلم لها و « انما ذكرها الترمذى وابو داود وابن ماجه وغيرهم » ١٢٦ . وهذا الذى يقوله الاستاذ احمد امين يرد من ان كل فرقة من الشيعة وغيرهم تحاول المطابقة بين مهديها والحديث الوارد . ففى هذا الحديث الاخير تنعكس

-
- (١١٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٩٨ .
 (١٢٠) تفسير على بن ابراهيم ٦٩٥ .
 (١٢١) انقصوص : ٥ ، (المعارج : ١) .
 (١٢٢) الغيبة للطوسي ١١٩ .
 (١٢٣) الانسان الكامل فى الاسلام ٨٨ . الفصل ١١٥/٢ . ولم يعين ابن حزم فرقة قالت بها اولاً .
 (١٢٤) الغيبة للطوسي ١٢٢-١٢٣ . فرقة قالت بها اولاً .
 (١٢٥) الكنى والاسماء ١٠٧ .
 (١٢٦) ضحى الاسلام ٢٣٧/٣ .

دعوى الزيدية فى مهديه محمد بن عبدالله بن الحسن ودعوى المنصور فى معارضة مهديه بن الحسن بمهديه ابنه الذى ولى الخلافة بعده • اما ابن الحنفية الذى لقب فى حياته بالمهدى فان التطابق بين اسم النبى واسمه يقتصر على الاسم واللقب وكذلك بالنسبة لمهدى الاثنا عشرية محمد بن الحسن وحاول الشيعة الاثنا عشرية توجيه الاحاديث المروية عن النبى فى فكرة المهدي وجهة تخدم عدد أئمتهم كالحديث الذى اورده مسلم : « لا ينقض هذا الامر حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » (١٢٧) • ويؤول الشيخ سليمان الحنفى النقشبندى ذلك بانّه يحمل على الائمة الاثني عشر وبه يستشهد الشيخ محمد حسين الزين ليسند عقيدته برأى سنى حنفى (١٢٨) والواقع ان السنية لا دخل لها فى هذا التوثيق وانما هى الصوفية التى ينتمى اليها النقشبندى ، وقد اخذت المهديه عن التشيع ومضت بها الى غايتها كما سئرى • وقد نقل الكنجى فى الغيبة ان ابا نعيم قد روى كون المهديه من نسل الحسن والحسين (١٢٩) وذلك يدل على ارتباط واضح بين التصوف والتشيع فى مسألة المهدي •

فاذا لم يصرح النبى بفكرة المهدي بدليل خلو صحيحى البخارى ومسلم - كما لاحظ الاستاذ احمد امين - من الاشارة اليها فكيف ساغ للمسلمين ان يهضموا فكرة المهدي فى القرن الاول الهجرى وبعد وفاة النبى بثلاث واربعين سنة فقط حين دارت حول محمد بن الحنفية ؟

الرأى عندنا ان الاصل فى فكرة المهدي اتصالها بالمسيحية واليهودية ، واطاراة عمر الى ان محمدا (ص) قد رفع الى السماء كما رفع عيسى تؤيد ذلك •

(١٢٧) صحيح مسلم ٧٩/٢ •

(١٢٨) الشيعة فى التاريخ ٩٢ •

(١٢٩) البيان فى اخبار صاحب الزمان ٣٠٥ •

ثم يرد الحديث الذي يرويه البغدادي في مختصر « الفرق بين الفرق » ،
ويسنده الى انس بن مالك وابي هريرة وابي الدرداء وجابر وابي سعيد
الخدري وابي بن كعب وعبدالله بن عمرو بن العاص وابي امامة ووائله بن
الاسقع وغيرهم ، ونص الحديث كما يرويه عبدالله بن عمرو بن العاص :
« ليأتين على امتي ما اتى على بني اسرائيل : تفرق بنو اسرائيل على اثنتين
وسبعين ملة ، وستفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة واحدة .
كلهم في النار الامة واحدة » (١٣٠) . والذي يهمنا من هذا الحديث هو
المقدمة التي تجعل الاسلام موازيا للاديان السابقة اى ان فيه ما في اليهودية
والمسيحية ومنها فكرة المسيح المنتظر . ويرد في تفسير علي بن ابراهيم
مصادق لهذه الفكرة على صورة حديث نصه : « لم يكن في بني اسرائيل
شيء الا وفي امتي مثله » (١٣١) ، واورد ابن بابويه القمي حديث اخر فيه
هذا المعنى : « يكون في هذه الامة ما يكون في الامم السابقة حذو النعل
بالنعل والقذة بالقذة » (١٣٢) . ويجب ان نلتفت الى الخبرين اللذين
نقلناهما عن ايمان عمر بن الخطاب بمهدية النبي فقد وجدنا خبرا منهما يشير
الى صلة رجعة محمد برجعة موسى والاخر يشير الى صلة موت محمد برفع
عيسى الى السماء ، وأنه سيعود عيسى الى الارض من جديد وسيعود موسى
مهديا بنفسه . وقد حاول الاسلام ان يجعل من محمد (ص) مهديا كما رأينا
ولكن التيار التطوري جرف هذه العقيدة وخنقها في مهدها ، ومن هنا اتجهت
هذه العقيدة الى محمد آخر لئيم التناسق بينها وبين الفكرة المسيحية واليهودية .
وهكذا نشأت هذه الاحاديث التي تعين اسم المهدي وتجعله مطابقا لاسم النبي
اسما وكنية مرة واسما واسم اب مرة اخرى . ولو كان الاصل في الاحاديث

-
- (١٣٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٤ ، ينكر الغزالي مثل هذه الاحاديث
على اساس انها من اخبار الاحاد (فضائح الباطنية ص ٣٤) .
(١٣١) تفسير علي بن ابراهيم ٢٢ .
(١٣٢) اعتقادات الصدوق ٢٠ .

التي تذكر المهدي الاسم نفسه ما رأينا مهديين من كل صنف ليس لاسمهم صلة بالنبي ، بل لقد وجدنا كثيرا من المهديين لا يهتم اتباعهم بالشبه بين اسمائهم واسم النبي . وهذا يعود بنا من جديد الى ان فكرة المهدي الاسلامية آتية من ذلك الحديث الذي يجعل الاسلام دينا موازيا لليهودية والمسيحية وان الاحاديث التي تعين الاسم بانه مطابق لاسم النبي قد كانت موضوعة على اساس الاستنتاج الذي ذكرناه من مهدي موسى نفسه وعودة عيسى بشخصه وان محمدا لم تثبت مهديته في عقائد الاسلام فانقل بها المحدثون الى محمد آخر يكون شخصا غير النبي ولكنه يتصف باوصافه . ومع ذلك فان وجود المهدي عند المانوية لا يمنع ان يعتقدوا الفرس ويتسلحوا بها في اقناع الناس ، من امتهم وغيرها ، بشرعية حركتهم اذا اتخذوا المهدي ذريعة لها .

الرجعة :

اقرنت الرجعة - من حيث هي عقيدة - بمحمد بن الحنفية كما اقرنت به المهدي ولكنها اتصلت به ميتا وقد رأينا من قبل اتصال المهدي به جبا ، وجلية الامر ان الناس كانوا ينتظرون منه ان يظهر بالسيف ويدعو العالم الاسلامي الى بيعته دون عبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ولكنه لم يفعل وظل ينتقل من بلد الى آخر متفاديا قتال منافسيه حتى نزل المدينة فمات بها سنة ٧٠٠/٨١ (١٣٣) وروى انه مات في ايلة (١٣٤) وهكذا بدأت الرجعة ، ولكن اصحاب ابن الحنفية لم يروا انه مات وانما اعتقدوا انه مازال يتحين الفرص لظهوره بالسيف باعتباره مهديا وقد ذكر ذلك سائر اصحاب كتب الفرق ويكفي ان نورد قول السيد الحميري الشاعر الكيسانى المتوفى سنة ٧٨٩/١٧٣ - ٩٠ .

(١٣٣) طبقات ابن سعد ٨٠/٥ .

(١٣٤) الاخبار الطوال ٢٦٨ .

لو غاب عنا عمر نوح ايقنت منا النفوس بانه سيؤوب (١٣٥)

ثم تطورت هذه الرجعة من دورانها حول عودة شخص معين كما رأينا في فكرة رجعة ابن الحنفية - الان - والنبي (ص) وعلى (ع) وموسى (ع) ، ويخبرنا جولد تسيهر ان ايليا هو « النموذج الاول لائمة الشيعة المختفين القائمين للذين يحيون لايراهم احد والذين سيعودون يوما كمهديين منقذين للعالم » (١٣٦) تطورت الرجعة من ذلك فدارت حول جماعة بأكملها هم اربعون شخصا من اصحاب محمد بن الحنفية يرجعون معه في قيامه (١٣٧) ولعل لهذه الفكرة صلة بالفكرة الاسرائيلية التي تدور حول عودة دولة حمير من بطن الصحراء كما يروي ذلك الدكتور اسراييل ولفنسون (١٣٨) . وكان اصحاب كرب وصائد النهدي واصحاب بيان وهم رؤساء فرق متطورة عن الكيسانية ينتظرون رجوعهم ورجوع اصحاب محمد بن الحنفية ويزعمون انه « يظهر بنفسه بعد الاستتار عن خلقه ، ينزل الى المدينة ويكون امير المؤمنين » (١٣٩) . ولم يكف الكيسانية برجعة رؤسائهم وانصارهم بل روى عنهم انهم « يعتقدون برجعة على بن ابي طالب » ليقتل معاوين بن ابي سفيان وآل ابي سفيان ويهدم دمشق ويفرق البصرة » (١٤٠) . ثم دخلت هذه الفكرة في الشيعة الامامية الاثنى عشرية فرأينا المجلسي يقول : « ان الله يحشر في زمن القائم او قبله جماعة من المؤمنين لتقر عينهم برؤية أئمتهم ودولتهم ، وجماعة من الكافرين والمخالفين للانتقام عاجلا في الدنيا . »

(١٣٥) فرق الشيعة ٢٩ .

(١٣٦) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٩٢ .

(١٣٧) المهدي في الاسلام ١٠٥ .

(١٣٨) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٤٩ .

(١٣٩) فرق الشيعة ٢٩ .

(١٤٠) فرق الشيعة ٤٢ .

ولزم امر دخول الرجعة فى التشيع ان تسند بالقرآن وبالادلة العقلية فانبرى الصدوق القمى من اوائل علماء الاثنا عشرية يقول « اعتقادنا فى الرجعة انها حق ، وقد قال الله تعالى : الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم : موتوا ، ثم احياهم ^(١٤١) أو : كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : انى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه ^(١٤٢) . . . ويشير الى احياء عيسى للموتى فيقول : « فجميع الذين احياهم عيسى باذن الله رجعوا الى الدنيا وبقوا فيها ثم ماتوا باجالهم » ^(١٤٣) . واورد على بن ابراهيم فى تفسيره ان تأويل الآية : ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ^(١٤٤) يؤدى الى معنى الرجعة وان محمدا الباقر (الامام الخامس) « قد اخبر ان جابرا قد كان يعرف تأويل هذه الآية ^(١٤٥) ، واورد ايضا ان الآية : ربنا امتنا اثنتين واحيتنا اثنتين ^(١٤٦) تنصرف الى الرجعة على قول جعفر الصادق ^(١٤٧) ، وهذا كله يستدعى ان يكون للناس قيامتان : صغرى وهى الرجعة وكبرى وهى القيامة النهائية وذلك هو معنى الرجعة المتطور وسرى ان بعض الصوفية يوافقون عليه كلية .

ثم ينقل على بن ابراهيم عن جعفر الصادق انه فسر الآية : ويوم نحشر من كل امة فوجا ، انها نزلت فى الرجعة ودل على ذلك بقوله : « ايحشر الله فى القيامة من كل امة فوجا ويدع الباقيين ؟ انما آية القيامة قوله : وحشرناهم

(١٤١) البقرة : ٢٤٣ .

(١٤٢) البقرة : ٢٦١ .

(١٤٣) اعتقادات الصدوق ٢٠ .

(١٤٤) القصص ٨٥ .

(١٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٤٩٣ .

(١٤٦) هود : ١١ .

(١٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٥٨٣ .

فلم تغادر منهم احدا» (١٤٨) وقال الصادق « فهذا مما يكون اذا رجعوا الى الدنيا » (١٤٩) في مدلول الآية : وعدا الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم في الارض كما استخلف من قبلكم وليمكن لهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا (١٥٠) .

ثم يضيف الشيعة الى الرجعة قيدا اخر ، وذلك ان كل قرية عذبها الله لاترجع في الرجعة وأما في القيامة فيرجعون» (١٥١) مصداقا للآية : وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون (١٥٢) . بل اتنا نستطيع ان نجد فكرة الرجعة على هيئتها المتطورة في كلام على في صورة عميقة قد تكون هي سبب نحله وذلك انه ورد في نهج البلاغة ان عليا « لما اظفروه الله باصحاب الجمل - وقد قال له بعض اصحابه : وددت ان اخي فلانا كان شاهدا ليري ما نصرك الله به على اعدائك - قال عليه السلام : أهوى اخيك معنا؟ فقال نعم قال : فقد شهدنا» (١٥٣) ولعل الامام يشير الى الآية : ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون (١٥٤) ، ولكن الخبر يتوجه الى الرجعة بكل ما فيها من عبرة وعمق ، بل ان بقية الخبر تنفذ الى اغوار بعيدة من فلسفة الرجعة وحكمتها ، فان الامام يقول : « ولقد شهدنا في عسكرنا هذا اقوام في اصلاب الرجال وارجاح النساء سيرعف بهم الزمن ويقوى بهم الايمان » (١٥٤) . ومن ذلك يبدو ان عليا لا يكتفى بتقرير عودة الماضين في الجهاد ليقطفوا ثمرة جهادهم بل يقرر ان المجاهدين الاتين يحضرون هذا

(١٤٨) الكهف ٤٥ .

(١٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٥٠) النور ٥٥ .

(١٥١) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٥٢) الانبياء ٩٥ .

(١٥٣) نهج البلاغة ١/٣٩ .

(١٥٤) ال عمران : ١٦٩ .

النصر ليزيد ذلك من ايدهم ويربط على قلوبهم وتلك امور فيها من الافلاطونية القديمة والحديثة مدخل كبير .

هذه نظرة بسيطة تدور حول المهديّة والرجعة سقناها لمناسبة عرضنا لمحمد بن الحنفية المهدي الشيعي الاول ، وسنرى المهديين يترون واحدا بعد الاخر حتى يغدو اسم المهدي شيئا عاديا يتسمى به الملوك والتائرون وان لم يدعوا انهم كذلك ، فقد دعى به سليمان بن عبد الملك في شعر الفرزدق وجريير واطلقه سليمان بن صرد على الحسين بن علي واطلقه حسان بن ثابت على النبي وكذلك الفرزدق ، بل اطلقه جرير على النبي ابراهيم (١٥٥) ، ودعى به زيد بن علي بن الحسين حين قال شاعرا الامويين بدمه :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديا على الجذع يصلب (١٥٦)
وكان التائر الزيدي محمد بن عبدالله بن الحسن يلقب نفسه ، في كتبه ، بالمهدي ايضا (١٥٧) .

بل لقد تلقب به احد الخوارج وهو علي بن مهدي الذي استولى على اليمن سنة ٥٥٤ (١٥٨) .

لقد صدرت المهديّة والزهد عن جوهر واحد هو فساد المجتمع الاسلامي فقوم اعتزلوا وانزروا وقوم تعلقوا بالامل واتجهوا بارواحهم الى فكرة الاصلاح عن طريق علوى يأخذ بالتأثر ويعيد الامور الى نصابها ، وقد نصح محمد بن الحنفية نفسه الخراساني الذي هدد بالزهد ان لم يخرج الامام داعيا الى نفسه بقوله : فلا تفعل ، فان تلك البدعة الرهبانية ، ولعمري لامر آل محمدا أيبين من طلوع هذه الشمس (١٥٩) ، ومن هنا ايضا نجد ان فكرة المهدي قد

(١٥٥) العقيدة والشريعة في الاسلام ٣٤١ .

(١٥٦) مروج الذهب ٢/١٨٣ .

(١٥٧) الطبري ، ليدن ، ٣/٢٠٨ .

(١٥٨) تاريخ اليمن ١١٨ .

(١٥٩) ابن سعد ٥/٧٠ .

دخلت التصوف بوصفها مكملة للزهد الذى يعث عليه ثقل احتمال المسلم
للأمور الدنيوية التى أخذت فى الابتعاد عن طرازها الإسلامى واتجهت الاتجاه
المادى • ولعله ليس من الغريب - بعد - ان تسبغ المهديّة على الحلاج الصوفى
المقتول فى سبيل عقيدته وبخاصة انه كان معاصرا لاحد وكلاء المهدي الشيعى
وانه كان يدعى بابته كما سئرى فيما بعد • اما الرجعة فقد دخلت التصوف
بكل تفاصيلها حتى ما يتصل منها بالقيامة الصغرى والقيامة الكبرى وقد وجدنا
ابن عربى يقول فى تفسير الحاقه : « هى الساعة الواجبة الوقوع التى لا ريب
فيها ان اريد بها القيامة الصغرى » (١٦٠) ويسمى النبأ العظيم القيامة
الكبرى • (١٦١) • وقد وضع الترمذى المتوفى سنة
نفسه ، فى كتبه ، بالمهدى ايضا (١٦١) • وقد وضع الترمذى المتوفى سنة
٨٠٣/٢٨٩ مائة وخمسة وخمسين سؤالاً يشتم منها وصل التشيع بالتصوف
ومنها ما يتعلق بختم الاولياء (١٦٢) ، اى مهدى الصوفية ، والكلام فى ذلك
كثير ونكفى بهذه الاشارة الان ولكننا نقتصر هذه الفرصة فنقرر فى غير
تردد بان معظم آراء الشيعة فى المهدي قد انتقلت الى الصوفية فصاغوها صياغة
تلائم مشربهم مع ما عرف عنهم من ميل الى التعقيد ولكنهم لم يخرجوا بالفكرة
عن جوهرها •

الكيسانية

تسبب الكيسانية - كما يبدو من لفظها - الى كيسان ، وقد اختلف
اصحاب كتب الفرق فى : من يكون ، والنظرة الفاحصة تنتهى الى انه كيسان
مولى بجيلة : القبيلة التى ستعرف فيما بعد بتبنيها الظاهر لحركة الغلو الشيعى ،

-
- (١٦٠) تفسير ابن عربى ١٦٩/٢ •
(١٦١) تفسير ابن عربى ١٨٤/٢ •
(١٦٢) الفتوحات المكية ٦٣/٢ •

وقد اخبرنا ابن سعد بانه كان من اعوان المختار وممن شهدوا بان محمد بن الحنفية قد بعث بكتاب الى ابراهيم بن الاشرع يأمره فيه بنصرة المختار (١٦٣) وقد اخذ على المختار انه استعان بابي عمرة الذي هو كيسان وقالوا: « قد جاوزه ابو عمرة » (١٦٤) • واستقراء الاخبار الواردة في كيسان يبين انه كان ذا صلة بعلي بن ابي طالب وانه غضب لقتل الحسين واغرى المختار بالطلب بدمه وانه دله على قتلته (١٦٥) • وبهذا لا يكون المختار مؤسسا للكيسانية وانما كان معاصرا لبدايتها لانها نضجت - في الواقع - بعد موت محمد بن الحنفية • وما يدل على ذلك انه قد نسب الى ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ما نسب لكيسان من ان كليهما كان له بصر بالاسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الافاق والانس (١٦٦) اخذا عن محمد بن الحنفية عن علي ابن ابي طالب • ولذلك فان الاساس الاول للكيسانية لا بد ان يكون مهديا محمد بن الحنفية او رجعته على الصحيح • وقد كانت الكيسانية اصلا لكل الافكار الغالية فيما بعد وبخاصة انها تشترك مع دعاة الغلو في كونها من قبيلة واحدة هي بجيلة او عجل - في بعض الاحيان - ولذلك وجدنا كتب الفرق طافحة بالاخبار التي تلقى افكار الغلو حتى المتأخرة منها على عاتق الكيسانية فقد نسب الى الكيسانية قولها بان الدين طاعة رجل وبان الاركان الشرعية كالصلاة والصيام والزكاة والحج انما هي في الواقع كنايات عن رجال معينين وانها قالت بالتناسخ والحلول (١٦٦) • والواقع ان هذه الافكار متأخرة كما يبدو ذلك مما يرويه النوبختي (١٦٧) وسيمر بنا تفصيله في فصل الغلاة •
وعلينا ان نذكر ايضا ان الكيسانية موصولة بالسبئية ايضا ويبدو ذلك من

- (١٦٣) طبقات ابن سعد ٧٢/٥ •
 (١٦٤) الاخبار الطوال ٢٦٠ •
 (١٦٥) فرق الشيعة ٢٣ •
 (١٦٦) الملل والنحل ١/٢٣٦ ، ٢٤٣ •
 (١٦٧) فرق الشيعة ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ •

اتفاق الفرقين على تبني فكرة الحقد على اعداء على (١٦٨) . وقد بدأت
 الكيسانية عرفا صار اساسا للشيعة الغلاة فيما بعد وذلك انها قد جعلت الامامة
 مقاما ساميا يكاد يكون منفصلا عن الحياة الواقعية اما الدعوة والعقيدة والتأويل
 والفقهاء فكلها متصلة بصاحب الفرقة الذي هو في الاغلب من الموالى وهذا تفسير ما
 يورده النوبختي من ان : « الكيسانية كلها لا امام لها وانما ينتظرون
 الموتى » (١٦٩) . وهذا يعنى ان الامام كان قائدا فخريا في حياته لا يستطيع
 ان يعترض على ما ينسبونه اليه واذا فعل فان صوته لا يصل اسماع المريدين
 بعده عنهم ، فبقى القيادة في حياته في يد اصحاب الدعوة وتبقى كذلك
 بعد موته حين توصل المهدي والرجعة به بل ربما اعتبرها كما يروى لنا
 النوبختي (١٧٠) وتلك خطة ظاهرة الجوهر لاتخفى على اللبيب . اما بعد
 فاننا لم ندخل في مناقشات كان في امكاننا اثارها حول اصل الكيسانية وجوهرها
 وما اضيف اليها ، غير اننا في مجال تعريف وتجميع لمثل الشيعة ، ولهذا فان
 علينا ان نسلك سبيل الاختصار المركز . وقد كانت العقيدة الاساس للكيسانية
 دائرة حول مهدي محمد بن الحنفية ورجعته يضاف الى ذلك تبنيها للافكار
 السبئية الدائرة حول الحقد على سابقى على وغاصبي حقه . وقد كان لابي
 هاشم بن محمد بن الحنفية مكان ومقام في مباشرة الامامة الفعلية كما يريد
 الناس الموالون للائمة وكان ذا اثر فعال في غرس العقائد الشيعة الجديدة
 ولذلك يحسن بنا ان نفرده فضلا ولو صغيرا في هذا البحث .

ورث ابو هاشم مقام ابيه وياشر الامامة مباشرة لم نجدنا عند الائمة
 السابقين ، ويحدثنا ابو الفرج الاصفهاني انه « كان لسنا خصما علما وكان
 وصى ابيه » (١٧١) ويبدو انه كان يدعى الاطلاع على علم الباطن الذي نفاه

-
- (١٦٨) فرق الشيعة ٢٣ .
 - (١٦٩) فرق الشيعة ٣٦ .
 - (١٧٠) فرق الشيعة ٢٨ .
 - (١٧١) مقاتل الطالبين ١٢٦ .

أبوه عن نفسه ويبدو ذلك من اخبار السفاح اصحابه انه سيموت بعد ثلاثة ايام لمجرد علمه ان ابا هاشم حدد تاريخ وفاته بقدم وافدين احدهما من السند والاخر من افريقيا (١٧١) وهكذا تعود نبؤات علي ومن قبله النبي (ص) بعد ان احتفت ايام الحسن والحسين . ثم تبدو من ابي هاشم ظاهرة اخرى هي انه قد اتفت الى خطورة الاعداد والتفت الى سريتها فاشار على محمد بن علي بن عبدالله بن العباس زميله في جهاد الامويين ان يختار دعائه « فليكونوا اثني عشر نقيبا فان الله عز وجل لم يصلح بني اسرائيل الا بهم وسبعين نفرا يتلونهم » فان النبي انما اتخذ اثني عشر نقيبا من الانصار اتباعا لذلك (١٧٢) . يضاف الى ذلك انه اول من اثار الالتباه الى فكرة تجديد الدين على رأس كل مائة سنة بقوله : « لم يمض مائة سنة من نبوة قط الا انقضت امورها لقول الله عز وجل : او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال : اني يحيي هذه الله بعد موتها ، فاماته الله مائة عام ثم بعثه (١٧٣) ، فاذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك ودعاتك فان الله متم امرك » (١٧٤) . وقد فعل ذلك محمد فعلا (١٧٥) . وقد صارت هذه الملاحظة سببا في ميلاد فكرة جديدة هي فكرة الاسماعيلية الباطنية التي سارت في الشوط الى نهايته فوفقت انتهاء النبوة نفسها في مائة سنة وكان الاصل فكرة ابي هاشم . ويجب ان نلتفت الى ما يعكسه هذا النص من اتصال بفكرة الرجعة التي قال بها الكيسانية

- (١٧٢) تاريخ المعقوبي ٩٨/٣ .
 (١٧٣) البقرة ٢٥٩ .
 (١٧٤) ذكر ابن سعد النقباء بروايته عن النبي انه « قال للنفر الذين لقوه بالعقبة : اخرجوا الى اثني عشر منكم « يكونوا (كذا) كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم ، فأخرجوا اثني عشر رجلا » وأنه قال للنقباء : « انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل قومي ، قالوا : نعم » (طبقات ابن سعد ٣ : ١٣٤/٢) .
 (١٧٥) العبر ٣/١٠٠ .

الاولون ثم يسير ابو هاشم بالامامة الشيعية خطوة اخرى باضافة اتباعه اليه ان
 اباه « افضى اليه اسرار العلوم واطلعته على مناهج تطبيق الافاق على الانفس
 وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن » (١٧٦) وفي ذلك
 اشارة الى الاية : سريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه
 الحق (١٧٧) ، والى الاية : وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في
 العلم (١٧٨) . وينقل لنا الشهرستاني تفسير ذلك بقوله نقلا عن اصحاب ابي
 هاشم : « ان لكل ظاهر باطنا ولكل شخص روحا ولكل تنزيل تأويلا ولكل
 مثال في العالم حقيقة ، والمنشر في الافاق من الحكم والاسرار مجتمع في
 الشخص الانساني وهو العلم الذي استأثر به على عليه السلام ثم ابنه محمد بن
 الحنفية ، وهو افضى ذلك السر الى ابنه ابي هاشم - وكل من اجتمع فيه هذا
 العلم فهو الامام حقا » (١٧٩) وهذه نقطة مهمة تبينها الى حقيقة اجلنا جلادها الى هذه
 الفرصة فلقد كانت امامة محمد بن الحنفية ثورة على المبدأ الشيعي الذي حصرها
 في اهل البيت (ى اهل بيت النبي في الدرجة الاولى الذين هم ابناء على مسن
 فاطمة التي تسبغ عليهم هذا الوصف . اما ان الحنفية فقد كان علويا فقط لان
 امه حنفية يمانية وليست فاطمة بنت محمد ، وقد جر ذلك الى القول بان
 الامامة انما تقيده بالعلم الالهى الاتى من على عن النبي لا من صلة الدم والنسب
 المتصلة بالنبي وهكذا رأينا ابن الحنفية وابنه ابا هاشم يوصفان بالاطلاع على
 العلم السرى الذى اخذه على عن النبي . والمهم ان نلاحظ هنا ان هذا التفريط
 فى حد الامامة قد جر الى اسباغها على العباسيين الذين خالفهم ابو هاشم ثم
 رأيناها - كما سيتضح لنا - تنتقل الى نسل عبدالله بن جعفر ابن عم على بن ابي
 طالب ثم تخرج على صورة نبوة تنجبه الى الهية الائمة يدعيها قوم ليسوا علويين

(١٧٦) الملل والنحل ١/٢٤٣ .

(١٧٧) فصلت : ٥٤

(١٧٨) آل عمران ٧١ .

(١٧٩) الملل والنحل ١/٢٤٣ .

على الاطلاق ولا قرشين بل كثيرا ما كانوا من غير المررب • وقد دخلت
الافكار التي اضيفت الى ابي هاشم في التصوف بعد ذلك وصار الظاهر والباطن
والتزليل والتأويل من الاسس التي اقام التصوف عليها عقيدته ، ومن ذلك
يتبين ما بين التشيع والتصوف من علاقة وثيقة في اعلم الاصول • ومات
ابو هاشم سنة ٧١٥/٩٧ - ١٦ فعاد مهديا منتظرا عند جماعة من انصاره فاستأثر
خلفاؤه العباسيون بالدعوة وجنوا ثمارها وسنرى كيف عالج الشيعة هذه
التقلة •

الفصل الثالث

الغلو والغلاة

مر بنا فيما مضى طرف من بدايات الافكار الغالية ، وهذا الفصل خاص بالغلو واصوله وما يتصل به . فاما الغلو لثة فهو - في رأى الشيخ المفيد - التجاوز عن الحد والخروج عن القصد^(١) ، واما اصطلاحا فينصرف الى «الذين غلوا في حق أئمتهم حتى اخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم باحكام الالهية فرما شبهوا واحدا من الائمة بالاله وربما شبهوا الاله بالخلق»^(٢) ، هذا رأى الشهرستاني ، والشيخ المفيد يوافقه ايضا . واما علة الغلو فتتصرف الى العامل النفسى الذى انعكس من تفريط اهل الكوفة فى حق على حتى ذهب ضحية عصيانهم ، فكان ان اسرف الكوفيون فى حبه وفى كره اعدائه حتى غلوا فى كليهما . وقد وافق الدكتور طه حسين على ذلك وعلل الغلو بانه « عزاء عما قدموا اليه من الاساءة ايام حياته »^(٣) واطاف الى هذا سببا آخر هو الاضطهاد الذى فتح عيون الكوفيين على البون الشاسع بين سياسة على وسياسة اعدائه الامويين لهم . اما احمد امين فانه يسرع فى القول بان للموالى ضلعا فى الغلو لانضمامهم الى حركة التشيع^(٤) . اما الدكتور الوردى فيعضد رأى الدكتور طه حسين ويلاحظ ان العراقيين « لم يغالوا فى حب محمد كما غالوا فى حب على ، ومرد ذلك ان حب محمد لم يكن محرما

(١) تصحيح الاعتقاد ٢١٧ .

(٢) الملل والنحل ١/ ٢٨٨ .

(٣) على وبنوه ١٨٨ .

(٤) ضحى الاسلام ٣/ ١٧٧ .

عليهم فقد كان حكامهم يشتركون معهم فيه،^(٥) ولاحظ امرا آخر هو :
 وان النفس البشرية تهوى الايمان بدين ، فاذا فقدت دينا جاءها من السماء
 التمسست لها دينا يأتيها من الارض،^(٦) ، فعاد ملاك الغلو الى الندم والحب
 ومقاساة الاضطهاد . وقد التفت - قبل هؤلاء جميعا - خصم من خصوم
 الشيعة هو هشام بن عبد الملك الى جوهر الغلو وصدوره عن الحب الزائد فكتب
 الى يوسف بن عمر واليه على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال اهل
 الكوفة في جهنم اهل هذا البيت ووضعهم اياهم في غير مواضعهم لانهم افترضوا
 على انفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوه علم ما هو كائن،^(٧) .

اما بداية الغلو فيلزم ان تكون من السبئية انصار حجر بن عدى الذين
 قتلوا جزاء تكفيرهم الخليفة وسبهم عثمان وجهنم لعلى وامتاعهم عن البراءة
 منه ، ولم يغير قتل هؤلاء من طبيعة الكوفيين بل زادهم اندفاعا الى هذه الفكرة
 وعكوبا عليها . ثم جاء المختار فشجع افكار السبئية وكانوا في جيشه على
 التحقيق فظهرت هذه المثل من جديد وساعد محمد بن الحنفية في بعده عن
 المعتزك السياسى وحصر ابن الزبير وعبد الملك ابن مروان له وحيلوتهم دون
 اتصاله بانصار ابيه فزاد ذلك من اندفاع الكوفيين الى اضافة الامتياز الروحي
 والعلم اللدنى والصفات الالهية الى الائمة الذين زادهم بعدهم عن انصارهم
 وجور منافسيهم سموا على سمو ، ثم جاء ابو هاشم فسار سيرة على في تبسؤه
 وتعلقه بالعلم السرى وقوله بان لكل ظاهر باطنا . وقد رأينا ان كون محمد بن
 الحنفية وابنه ابي هاشم من نسل على من غير فاطمة قد جراً العباسيين ابناء عم
 النبي على ادعاء الحق الالهى ثم عاد الامر - قبل انتصار العباسيين - الى دوران
 هذا الحق حول نسل عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ثم خرج الامر من

(٥) مهزلة العقل البشرى ٨٧ .

(٦) وعاظ السلاطين ٤٠٠ .

(٧) الطبرى ٢٦٥/٨ .

العلويين والطالبيين والمهاشميين وعاد بالاسم الى العلويين ولكنه كان في الواقع قد تحول الى اقوام ليس بينهم وبين قريش لحمة ولاسدى • والواقع ان بداية الغلو المنظم كانت بعد وفاة ابي هاشم سنة ١٦٠/٧١٥-١٦٠ ووصيته لمحمد بن علي بن عبدالله بن العباس ان يظهر دعوته سنة ١٩٠/٧١٨-١٩٠ اي بعد انقضاء قرن كامل على الاسلام مما يدعو الى تجديده كما مر بنا :

بيان بن سمعان النهدي (المقتول سنة ٧٣٧/١١٩) :

أحدث موت ابي هاشم انقساماً في التشيع ، فادعى محمد بن علي بن عبدالله بن العباسي انه الامام ^(٨) وادعى عبدالله بن الحارث — وهو من اهل المدائن — ان الامامة قد انتقلت الى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر (المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨) ^(٩) ، وادعى كلا الفريقين ان ابا هاشم نفسه قد اوصى بما ادعياه • اما بيان فقد انكر كلتا الدعويين وزعم ان ابا هاشم مهدي كبيه وانه لم يوص لاحد وجعل من نفسه رئيساً لهذا الفريق من الثابتين على امامة ابي هاشم ، ولكنه من ناحية اخرى نصب نفسه وصياً على امامة ابي هاشم بنص الهى هو الآية : « هذا بيان للناس وهدى ^(١٠) فبدأت بذلك اولى الحركات الغالية في الكوفة لان كلتا الحركتين المستنديتين الى وصية ابي هاشم متأخرة عن حركة بيان • وقد خلط الشهرستاني بين عقيدة بيان والسبئية المتقدمة والحارثية المتأخرة ونسب اليه القول بالتناسخ مع انه قد تسلمح بآية من القرآن مرت بنا

(٨) فرق الشيعة ٣٣ •

(٩) فرق الشيعة ٣٢ ، مقالات الاسلاميين ٧/١ •

(١٠) فرق الشيعة ٣٤ والاية في سورة آل عمران ١٣٨ •

وسيقول ابراهيم الدسوقي بنحو ذلك • فقد قال للشرنوبى : « من كراماتنا يا احمد ان الله قال : قل يا ابراهيم : انا الله ، ولا تخف (عن كتاب الغيوب للشرنوبى مخطوط رقم 3684 Or بالمتحف البريطاني في لندن ، هامش الورقة ٧٨ ب) » •

فلم يحتج الى التناسخ الذى سيرد بعدئذ (١١) . وقد نفت الدكتور جابر
عبدالعال الى ذلك ولاحظ ان بيانا قد رسم للغلاة من بعده «الموسيلة التى يخدعون
بها الناس ويعتمدون عليها فى تنصيب انفسهم دعاة وقادة وجبت طاعتهم» (١٢) .

اما عقيدة بيان الرئيسة فهى التجسيم الذى سيكون مبدأ مشتركاً بين جميع
فرق الغلاة وذلك انه اعتمد فى التجسيم على آية اخرى من القرآن هى «كل
من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (١٣) . ويجب ان نبين
ان العلة فى اجتماع الغلاة على التجسيم هو انهم قد ركزوا همهم فى الارتفاع
بالانسان مرة حتى يصير الها والنزول بالاله حتى يصير انساناً . فعقيدتهم
فى جدلهم الصاعد وانازل تعتمد على اله وانسان وكلها تدور حول الارتفاع
بهذا الانسان ، فحاجتهم الى التجسيم اشد من حاجتهم الى التجريد ، فهم
لايستطيعون تجريد المادة الحية السائرة الاكلة الشاربة وانما يستطيعون ان
يجسموا المجرد لتقريب فكرة تأليه الانسان ، وذلك ما صنعه المتصوفة فى
صعودهم الى الالهية واحلال الالهية فى محل الانسان . فكان بيانا اصل
واضح من اصول الحلول الذى اتضح فى التصوف ابتداءً من القرن الرابع .

وقد استند بيان الى آراء ابي هاشم حول انقضاء النبوة بعد قرن من
الزمان فورد عنه « انه نسخ بعض شريعة محمد » (١٤) وهذه استمرارية
لتلك الفكرة لن تلبث ان تكون اساساً يقيم عليه اصحاب المذهب الاسماعيلي
عقيدتهم بعد ثلاثين سنة . وقد كان من اصرار بيان على عقيدته انه دعا الامام

(١١) ويروى السمعاني (الانساب ورقة ١٧٣ ب) وابن الاثير
(الباب ٣١٢/١) ان اصحاب بيان بن سمعان من الحلوليين وان روح
الاله انتقلت من آل هاشم الى بيان بن سمعان .

(١٢) حركات الشيعة المتطرفين ٣٣٦ .

(١٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ . والاية فى سورة الرحمن ٢٧ .

(١٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٥ .

محمدًا الباقر الى الدخول في دعوته وخاطبه بعبارة : «وقد اعذر من انذر» (١٥) وذلك بين الى اى مدى كان محمد بن الحنفية وابنه ابو هاشم متمكين من قلوب فريق من الكوفيين . وقد انتهت حركة بيان بقتله سنة ١١٩/٧٣٧ احراقا ايام خالد بن عبدالله القسرى وشاركه مصيره صائد النهدي واتباعه .

المغيرة بن سعيد البجلي المقتول سنة ١١٩/٧٣٧ (١٦) :

ودخل المغيرة ميدان الغلو بمظهر جديد هو الاعتراف بامامة محمد الباقر مع تبرؤ الامام منه (١٧) ولما توفى صرف دعوته الى امامة محمد بن الحسن وزعم انه الامام الى ان يظهر المهدي (١٨) ويعنى به محمد بن عبدالله بن الحسن ، فيكون المغيرة بذلك قد جعل نفسه اماما وان يكن موقتا وتلك سابقة خطيرة جدا لم يجروا احد غير المغيرة على ان يصرح بها ولعل الولاية الصوفية التي هي في موازاة الامامة الشيعية موصولة - ولو جزئيا - بهذا الادعاء . وقد ظهر المهدي وقتل غير ان انصار المغيرة لم يعترفوا بقتله وزعموا ان «الذى قتل في صورة محمد انما كان شيطانا» (١٩) . ولعلنا ندرك ان الاصرار على مهديية الائمة يقصد به ابقاء الحركة في يد اصحابها واطلاق يدهم في سياسة اتباعهم السياسة التي يرتضونها . وكان المغيرة مجسما شأن الغلاة ولكنه سار بالتجسيم الى هدف واضح وذلك انه جعل لله اعضاء على عدد حروف الهجاء وهيئتها (٢٠) فكأنه يريد ان يقول ان الوحي انما هو نزول الله نفسه الى النبي او الامام وان كل كلمة يتلقاها انما هي حلول يستمر باستمرار الوحي . وتبدأ فكرة تطبيق اسم الله الاعظم في المغيرية ايضا وذلك

-
- (١٥) فرق الشيعة ٣٤ ، الملل والنحل ١/٢٤٦ .
 (١٦) يرى ابن الاثير انه قتل سنة ١٥٤ .
 (١٧) لسان الميزان ٦/٧٥ .
 (١٨) فرق الشيعة ٦٣ .
 (١٩) المصدر نفسه ٥٤ .
 (٢٠) مختصر الفرق بين الفرق ٢٥ .

ان المغيرة يرى « ان الله لما اراد ان يخلق تكلم باسمه الاعظم » (٢١) فكان اسم الله الاعظم هو مفتاح الخلق وكان معرفته تتيح لعارفه القدرة الالهية ، وتلك فكرة دخلت التصوف وقد رأينا كثيرين من الصوفية مطلعين على اسم الله الاعظم وقادرين على اتيان الكرامات وذلك امر واضح الصلة بالتشيع الغالى . وقد ظهر من المغيرة امر سيكون له شأن كبير عند الشيعة وذلك انهم ساروا فى التأويل سيرا جديدا بالتفاتهم الى دعم الامامة بايات من القرآن ، فاولوها بالامانة الواردة فى الآية : ان الله يأمركم ان تردوا الامانات الى اهلها (٢٢) والآية : انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا (٢٣) واولوا الظلوم الجهول بانه غاصب حق الامام (٢٤) وقد وافق على ذلك الشيعة المعتدلون ايضا كما فى تفسير على بن ابراهيم (٢٥) وهكذا يبدأ التأويل الموجه ليدخل التصوف من التشيع بعد ذلك .

وعاد بعقيدة المغيرة دور سلمان الفارسى من جديد وذلك ان الاعمش « قد سمع المغيرة يفضل عليا على آدم وسائر الانبياء وساواه بمحمد (ص) » (٢٦) فقد كان سلمان يعرف لعلى حقه وللنبي نبوته وهذا المغيرة يعبر عن نفس المعنى الذى اوردها عن سلمان ومن ذلك يتضح ان الالهية لم تدر حتى الان حول امام من الائمة وانما هى روحانية وتقديس على عكس ما يورده اصحاب كتب الفرق . وكان المغيرة الى ذلك قد التفت لأول مرة الى خطر الاعداء :

-
- (٢١) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .
(٢٢) النساء ٥٨ .
(٢٣) الاحزاب ٧٢ .
(٢٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٧-٨ .
(٢٥) تفسير على بن ابراهيم ٥٣٥ .
(٢٦) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .

«فخرج داعيا الى عقيدته فى سبعة نفر وكانوا يدعون الوصفاء وكان خروجهم
بظهر الكوفة» (٢٧) ، وسيقول ابو منصور - وهو غال آخر : « يتولى سبعة
انبياء من قريش وسبعة من بنى عجل » (٢٨) ثم سيستند الاسماعيلية الى
ساعات الانبياء الظاهرين والمستورين .

ويستيع هذا كله ان يكون للمغيرة بصر بالسحر والثيرنجات ، فقد روى
عنه الاعمش انه علم بان خادمه قد ذهب يشتري سمكا بدرهمين وكان يقول :
« لو اردت ان احبى عادا او نمود او قرونا بين ذلك كثيرا لاحتيمهم » (٢٩) ،
ويروى ابن رسته ان ذلك قول على (٣٠) . وكان يخرج الى المقبرة فيتكلم
فيرى مثل الجراد على القبور (٣١) . وقد ذكر الكشى - رواية عن الامام
الصادق - انه تعلم ذلك من يهودية كان يختلف اليها (٣٢) . وكل هذه
الكلمات والصفات تذكرنا بالحلاج فى بصره بالسحر وفى الحلول الذى
كان يدعيه وفى شطحاته وكراماته ، ولكن المغيرة لم يكن سالكا ولم تأته قدرته
تلك من المجاهدة بل من العلم والتبحر حتى توصل الى معرفة اسم الله الاعظم
الذى كان بداية الطريق بالنسبة للمتصوفة كما كانت الكيمياء وسيلة اخرى
للتوصل الى السمو الروحى وقد رأينا ذلك فى جابر بن حيان وصلته بنى
النون المصرى والان نجد اسم الله الاعظم مقترنا براهيم ابن ادهم المتوفى
سنة ١٦٢/٧٧٨-٧٩ . وقد جاء فى طبقات الصوفية ان الخضر قد علمه
سره (٣٣) وتلك صلة من الصوفية بالمغيرة . والاعجب من ذلك ان ابا نعيم

(٢٧) الطبرى ٢٤١/٨ .

(٢٨) البلدان للهمدانى ١٨٥ «طبع ليدن» .

(٢٩) الطبرى ٤١-٢٤٠/٨ .

(٣٠) الاعلاق النفيسة ٢١٨ .

(٣١) الطبرى ١-٢٤٠/٨ .

(٣٢) معرفة اخبار الرجال ١٤٧ .

(٣٣) طبقات الصوفية ٣٠ .

يصل نسب ابراهيم بن ادهم بنى عجل (٣٤) الذين احترفوا تأسيس فرق الشيعة الغالية فى الكوفة • ونحن مسوقون الان الى ان نقرر - ونحن فى لب انصلة بين التشيع الغالى والتصوف - ان هدف الدعويين واحد ، فقد استغل رؤساء مدرسة الغلو حركتهم للسمو بانفسهم عن طريق الوصية والعلم الباطن حتى ارتفعوا الى مرتبة النبوة والالهية وارتفع المتصوفة بانفسهم بالمجاهدة واحيانا بالعلم السرى الى نفس المقام • والحقيقة ان للغلو والتصوف هدفا مشتركا هو ان يكون للانسان موضع قدم فى الالهية وتصريف شؤون الدين والدنيا بقدره غيبية ، وهذا هو السبب الذى من اجله رفع الائمة اولا الى الالهية وارتفع رؤساء مدارس الغلو الى النبوة ثم استقلوا فارتفعوا الى الالهية بانفسهم ، والتصوف يهدف الى هذه النتيجة وقد ادعاها بعضهم فعلا ، وكانت القدوة او السابقة على الاقل من غلاة الشيعة • ويجب ان نشير الى ان اصحاب الغلو طبقة جديدة فى الاسلام مادتها الناس ممن سلبتهم الدولة اراضيهم او صادرت حوائثهم او ابتزت اموالهم سدادا للضرائب او عقوبة لهم على مناصرتهم لاهل بيت النبى وكان اغلبهم من الموالى كما رأينا فى جيش المختار واتباع الغلاة من بعده وسرى فى باب التصوف ان معتقيه من الزهاد والمتصوفة فيما بعد يشكلون طبقة تطابق الى حد بعيد مادة معتقى الغلو من الناس •

اما بعد فقد تعرض فريد لندر لاصول مذهب المغيرة فرأى انه يصور مزيجا من الديانات الشرقية القديمة ويدل فى جلاء على انه تأثر بالفنوصية وخاصة الماندية والمانوية • وقد لاحظ فريد لندر أن العراق كان مقرا لكثير من المانديين (٣٥) ، وسواء اصح ذلك ام لم يصح فان المغيرة ومعاصره وزميله

(٣٤) حلية الاولياء ٣٧٣/٧ •
 وكان اول من اورد ذلك ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦/٨٨٩) فى عيون
 الاخبار ٣٣٠/٢ •
 (٣٥) حركات الشيعة المتطرفين ٣٩ •

في الغلو والمصير. بيانا قد ربطا عقيدتهما ربطا محكما بما تأوله من القرآن
سندا لدعوتيهما فبدتا وكأنهما فكرتان ذاتا اصالة وطابع خاص .

ابو منصور العجلي (المقتول سنة ١٢١/٧٣٨) :

وظهر ابو منصور بعد المغيرة وهو من ذات القبيلة ولكنه عربي ليس
مولى ، وقد اخبرنا النوبختي انه كان « من اهل الكوفة في بني عبدالقيس » (٣٦)
وقد مر بنا انهم حالفوا الحمراء وكانوا يرون مما احققت على بن ابي
طالب (٣٧) ، وهذا يعني انه تتقف بثقافة القبيلتين الشيعيتين وبخاصة الحمراء
على ما يبدو . وقد بدأ من ابي منصور اتجاه جديد هو قوله بمهدية
الباقر (٣٨) وادعى انه « فوض امره اليه وجعله وصيه من بعده » (٣٩) ،
وبذلك سار ابو منصور على نهج الغلاة من التعلق بمهدية امام يستطيعون بها
ان يجمعوا حولهم الانصار من جهة ويتصرفوا كما يحلو لهم دون خوف من
رقابة من جهة ثانية . وقد صرح ابو منصور بما كان يعتلج في صدور سابقيه
من رغبة في التصريح بالنبوة فقال بفكرة جديدة هي في الاصل وثيقة الاتصال
بفكرة تجديد الدين جعلت تكرر مع كل فرقة غالية فقد الغى اصطلاح الامامة
وجعلها نبوة وقال : « كان على بن ابي طالب (ع) نبيا ورسولا وكذا الحسن
والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن علي » (٤٠) . ويلاحظ ان هؤلاء خمسة
من الانبياء - في رأى ابي منصور - وقد سبقهم محمد (ص) ووليهم ابو
منصور نفسه وهو القائل : « وانا نبي والنبوة في ستة من ولدي ويكونون بعدي
انبياء ، اخرها القائم » (٤٠) ، وهكذا نعود الى العدد : ١٢ الذي اشار اليه ابو

(٣٦) فرق الشيعة ٦٣ .

(٣٧) شخصيات قلقة في الاسلام ٢٩ عن تاريخ بغداد ٧/٥٣ .

(٣٨) تلبيس ابليس ١٠٣ .

(٣٩) فرق الشيعة ٣٨ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ٣٨ .

هاشم ، ويلاحظ هنا ان المهدي مستقل عن هذا العدد . وقد عادت هذه النظرية
 الاثنا عشرية الى الشيعة الامامية فيما بعد وبذلك يرد دليل جديد على ان
 التشيع في صورته المتأخرة قد اعتمد على آراء الغلاة بعد تهذيبها وترتيبها .
 وتصلح فكرة ابي منصور ان تكون اساسا للاسماعيلية السبعية بوصفه سابع
 سبعة وبوصف ولده السادس سابع سبعة من العجلين . والملاحظ ان ابا منصور
 لم يعتمد على وصية من الباقر وانما سلك الى ذلك سيلا اقصر وذلك انه
 عرج الى السماء وجاء بالنبوة من الله وزعم ان الله مسح يده على رأسه وقال
 له : « يا بنى بلغ عنى » (٤١) ، وتلك السابقة في اسقاط الواسطة التي نادى
 بها الصوفية فيما بعد وهى مسألة للتجسيم فيها دخل كبير وقد مر بنا انه امر
 جوهرى فى الغلو . وقد اوضح لنا ابو منصور نبوته بقوله : ان الله قال له :
 « يا بنى بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء » (٤٢) ، وقد قال لاصحابه :
 « فى نزلت » ، وقد نقب بالكسف فعلا (٤٣) . وآية الكسف هى : وان يروا
 كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مر كوم (٤٤) ، وقد فسر لنا ابو منصور
 هذه النبوة بزعمه ان « جبريل يأتيه بالوحى من عند الله وان الله بعث محمدا
 بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل » (٤٥) ، وهذه ظاهرة جديدة هى مقدمة لخطوة
 غالية سترد فى المستقبل وهى الى ذلك اساس خطير من اساس التصوف الذى
 تبنى ازدواج دلالة آيات القرآن . ويجب ان نذكر هنا بان معروفا الكرخي
 سينسب اليه ما نسب الى ابي منصور من انفراده بالتأويل واختصاص الجواد
 الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٤ بالظاهر والشريعة بعد ان توفى الرضا
 الذى كان جامعا للطريقة والشريعة . وعلينا ان نتوقف هنا لنشير الى ظاهرة

(٤١) مختصر الفرق ١٥٢ ، ١٣٤ .

(٤٢) خطط المقرئى ٢/٢٥٣ ، مختصر الفرق ١٥٢ .

(٤٣) الاعلان النفيسة ٢١٨ .

(٤٤) الطور : ٤٤ .

(٤٥) فرق الشيعة ٣٨ .

جديدة دخلت التصوف من الغلو ونعنى بها المعراج ، فان كثيرا من المتصوفة المتأخرين قد عرجوا الى السماء - يزعمهم - وقالوا بالتشبيه حتى ان ابن قضيبة البان المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٣٠ يصف الله بانه على صورة محمد ولكنه من مادة باردة (٤٦) ، ومعراج النبي مشهور طبعا ولكن التجرؤ عليه بدأ من الغلاة فصاروا قدوة للمتصوفة . ولا بد من الاشارة الى ان الغلو لم ينصب في بدايته على اشخاص الائمة وانما استغرق اشخاص زعماء الغلو انفسهم تقلا للامامة اليهم عن امام شيعي ولا عبرة بنسبه ، اما الغلو الدائر حول تأليه الائمة فقد تأخر ودار اولا حول ابناء علي وانتهى اخيرا الى التوجه الى علي نفسه . وانهت حركة ابي منصور بقتله سنة ١٢١/٧٣٩ في امارة يوسف بن عمر بعد ان سن لاتباعه استحلال خنق مخالفينهم وكان ذلك عندهم الجهاد الخفي (٤٧) ولكن الحركة لم تمت بل استمرت في الكوفة بقيادة ابنه الحسين واخذت شكلا جديدا منعكسا من دعوة غالبية جديدة نضجت في المشرق وكان اصلها كوفيا وسنرى ذلك فيما يلي .

عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨ (٤٨)

مر بنا ان ابا هاشم قد اوصى بالامامة من بعده لعبدالله بن معاوية كما رأى جماعة من أهل الكوفة وقد ثار عبدالله في الكوفة سنة ١٢٦/٧٤٣-٤٤

(٤٦) الانسان الكامل في الاسلام ١٣٥ .

(٤٧) فرق الشيعة ٣٨ .

(٤٨) يشير «معاوية» اسم ابي عبدالله الدهشة لكونه الوحيد من العلويين

والعباسيين المسمى بهذا الاسم الاموى . وقد اثار ذلك دهشة عامل ابي

مسلم الخراساني على هراة حين لجأ اليه عبدالله في ختام حياته

السياسية ، فكان جوابه : «ان جدى كان عند معاوية حين ولد ابي ،

فبعث اليه مائة الف (درهم) على ان يسمى ابنه باسمه » (العبر ٣/١٢٢) .

ويبدو ان هذه القصة ملفقة بدليل انه كان لعبدالله أخ اسمه يزيد (الموضع

نفسه) . ومما ينفي هذا التفسير انه كان لزيد الثائر بالكوفة سنة

٧٣٨/١٢٦ ولد سماه معاوية ايضا (العبر ٣/٩٨) .

أيام انقسام الامويين على انفسهم ولكنه لم يستطع الانتصار وانما سمح له بالانسحاب الى المكان الذي يختاره فنصحه اعوانه بالاتجاه الى فارس وبلاد المشرق (٤٩) فاختار المدائن (٥٠) . وقد استطاع عبدالله ان يؤسس ملكا عريضا انضوى تحت لوائه خصوم الامويين كلهم من العباسيين الى الخوارج بل لقد كان معه الامراء الامويون الغاضبون على مروان بن محمد (٥١) وكذلك الزيدية (٥٢) ونصره وحماء الموالي بكل قواهم (٥٣) . وكان الشيعة الموالون للعلويين يرون في عبدالله بن معاوية رجلا قد كلف جمع الامر وتسليمه لاصحابه الشرعيين من نسل علي وفاطمة (٥٤) . ويبدو ان عبدالله بن معاوية كان متساهلا في امر العقيدة لايهمه الا توطيد امره والاكتار من انصاره ، وقد روى عنه انه استكتب عمارة بن حمزة استاذ بيان وصائد الغالين (٥٥) . وكان عمارة « احل جميع المحارم وقال : من عرف الامام فليصنع ما يشاء » (٥٥) ويروى ان عمارة هذا كان يأخذ البيعة لعبدالله بن معاوية ويقول للناس : بايعوا « على ما احببتم وكرهتم » (٥٥) ، وذلك - لو صح - دليل عجيب على تساهل عبدالله الذي يمكن ان يقوم تفسيراً لما دار حول دعوته من افكار غالية عجيبة . ويزيد الامر وضوحا ان المدائن التي نزلها اولا واصطخر التي صارت عاصمة ملكه كانتا مهجرا لقبيلة عبدالقيس الشيعية (٥٧) التي خرج الغلو من بطونها وتلك امارة على ان الغلو لم يكن فارسيا في جوهره وانما كان

(٤٩) مقاتل الطالبين ص ١٦٥ .

(٥٠) الفخرى ص ٩٩ .

(٥١) الطبري ٩٤/٩ .

(٥٢) العبر ٣/١١٥ .

(٥٣) مقاتل الطالبين ص ١٦٥ .

(٥٤) فرق الشيعة ص ٣٥ .

(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٧-٨ .

(٥٦) الطبري ٩٣/٩ .

(٥٧) شخصيات قلقة في الاسلام ص ٢٩ .

للعرب من الشيعة المتعصبين لعلي الممثلين بالغيظ والحقد على الامويين دورهم الاساسى فى تنيه عقيدة •

وقد ادى اشتهار عبدالله بن معاوية بالتساهل الدينى الى اتهامه بمعارضة القرآن فى بيانه ونظمه (٥٨) كما نسب اليه ادعاؤه انه «يوحى اليه» (٥٩) اما ما عدا ذلك فقد نسب الى دعائه وحاشيته • واول ما ابتدعه اصحاب عبدالله ابن معاوية فكرة النور التى غطوا بها على ضعف حججهم فى الدعوة لامامته التى ينقصها النسب العلوى والنبوى وجعلوها امامة تقوم على الوراثة الروحية لا الطبيعية • وكانت الفكرة من ابتداع عبدالله بن الحارث - من اهل المدائن - وكان يرى « ان الله نور وهو فى عبدالله بن معاوية » (٦٠) • وتلقف انصاره الفكرة ونظموها وقالوا : « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على • ثم دارت فى اولاده الثلاثة (ثالثهم محمد بن الحنفية) ثم صارت الى عبدالله بن معاوية » (٦١) • ولعلنا فى غنى عن الاشارة الى مافى هذه الفكرة من اتصال ظاهر بمبدأ الوراثة الروحية فى التصوف ، وسنبحث ذلك فى موضعه • وقد استندت فكرة النور باى من القرآن وذلك واضح فى الآية : الله نور السموات والارض ، وآية : يهدى الله لنوره من يشاء اى يجعل نوره فى من يشاء ، وهذه الهداية نوع من الحلول مادام الله هو النور • وقد استغل غلاة الكوفة هذه الفكرة فيما بعد وساروا بها الى نهاية الشوط •

وقد خرج عبدالله بن الحارث ايضا بفكرة التناسخ والاطلة والدور

(٥٨) حركات الشيعة المتطرفين ٦٩ •

(٥٩) الاغانى (نشر ساسى) ٧٥/١١ •

(٦٠) فرق الشيعة ٣٤ •

(٦١) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٤ •

واسسها على مدلول الآية : فى أى صورة ما شاء ركبك (٦٢) وآية : وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم (٦٣) وقد ورد ذلك فى فرق الشيعة (٦٤) . واستندت هذه الفكرة الى الحديث : الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف (٦٥) . وتدور الفكرة حول انتقال الروح فى اجسام عديدة بحسب قربها وبعدها عن الخير ، فالكفار يطول تجسدهم فى اجساد الحيوانات المشوهة والمؤمنون يمتحنون بتركيبهم فى ابدان الدواب التزهة لكيلا يدخلهم العجب فتزول طاعتهم (٦٦) ، وفسروا الآية : حتى يلج الجمل فى سم الخياط (٦٧) بان الجمل الذى ولج سم الخياط يقصد به بقعة صغيرة لانها هى الجمل بنفسه متمصا الروح التى حلت فى البقعة . ولايعنى التناسخ بقاء الروح فى بدن انساني او حيواني وانما هو الدور والتناوب ، ويقول التوبختى : فهذه حالهم ابد الابدن ودهر الداهرين : هذه قيامتهم وبعثهم وهذه جنتهم ونارهم وهذه الرجعة عندهم : لا رجوع بعد الموت (لانه لاموت وانما هو تنقل للروح بين الابدان) والقوالب تفتنى وتتلشى ولا تعود ولا ترد ابدا ، (٦٨) . هذا هو التناسخ والدور وهذا هو قلبه فى الاديان القديمة وان كان مسندا بالقرآن والحديث . وهكذا عاد التأويل الشيعى هادما عند الغلاة وكانت رسالة الشيعة الاولى حماية الاسلام من التأويل المصلحي الاموى . وقد اضيف الى هذه الفرقة القول بالاباحة على اعتبار انهم لا يعتقدون الثواب والعقاب ولا يؤمنون بالحساب ، والواقع ان ذلك

(٦٢) - الانفطار : ٨ .

(٦٣) الانعام : ٣٨ .

(٦٤) فرق الشيعة ٣٧ .

(٦٥) نفس المصدر السابق ٣٩ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ٤٠ .

(٦٧) الاعراف ٤٠ .

(٦٨) فرق الشيعة ٤١ .

غير وارد لان حلول الروح فى الجسد المشوه سواء اكان انسانيا ام حيوانيا هو فى نفسه عقاب وحلولها فى بدن انسان فاضل ثواب وانصاف • ويؤخذ من استقراء مثل هذه الفرقة انهم يقيدون الزهد ولا يؤمنون به لان الغنى - حسب عقيدتهم - ثواب من الله فلا داعى لرفض نعمة انعم الله بها على عبده المؤمن المخلص ، وقد استندوا فى ذلك الى الاية : ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا (٦٩) ، ولكن اصحاب كتب الفرق نسبوا اليهم الاباحية ولعل ذلك كان آتيا من اشخاص معتققي هذه العقيدة الذين يروى الشهرستاني عنهم انهم «بيحون المحرمات ويعيشون عيشة من لا تكلف عليه» (٧٠) لا من العقيدة نفسها • ونحن - الى ذلك - نرى ان اسم «الجناحية» الذى اطلق على هذه الفرقة قد جاء من هذه الاية لامن شىء آخر كما اورد اصحاب كتب الفرق فالنسبة الى « لا جناح » •

بقى امر اخر ينسب الى هذه الفرقة هو قولهم : « من وصل الى الامام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل الى الكمال والبلاغ» (٧١) وان « المعرفة اذا حصلت لم يبق شىء من الطاعات واجبا» (٧٢) اى ان الدين طاعة رجل ، وتلك عقيدة اريد بها ضمان طاعة الاتباع وتفاذى ما حدث من خيانة الكوفيين للحسين وزيد وغيرهما ، ولاشك فى ان هذه الطاعة العمياء هى اساس الصلة بين المريد الصوفى وشيخه ، ويكفى ان نورد هنا ان ذا النون المصرى كان يقول : « طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه» (٧٣) وان ابا على الدقاق كان يقول فى شيخه : ابي القاسم النصراباذى : « وكنت افكر فى

-
- (٦٩) مقالات الاسلاميين ٦/١ ، المائة : ٩٣ •
 - (٧٠) الملل والنحل ٢٤٥/١ •
 - (٧١) نفس المصدر السابق ٢٤٥/١ •
 - (٧٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ •
 - (٧٣) تذكرة الاولياء ١١١/١ •

نفسى كثيرا انه لو بعث الله عز وجل فى وقتى رسولا الى الخلق هل يمكننى ان ازيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى» (٧٤) .

ومات عبدالله بن معاوية فى سجن ابى مسلم الخراسانى كما يروى بعد انكساره فى حربه مع الامويين فسرعان ما دارت حوله المهديّة (٧٥) . وقد تناول ابن حزم الرد على هذه الفكرة فوصلها باليهودية التى تقول : « ان ملكصديق بن عامر بن ارفخشذ بن سام بن نوح والعبد الذى وجهه ابراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت بنوال بن ناخور بن تارخ على اسحق ابنه والياس عليه السلام وفتحاس بن العاذار بن هارون عليه السلام احياء الى اليوم » (٧٦) . وقد ذكر ابن حزم بعد هذا مباشرة ان المتصوفة قد اخذوا هذه الفكرة من الشيعة « وسلك فى هذا السبيل بعض نوكمى الصوفية فرعموا ان الخضر والياس عليهما السلام حيان الى اليوم » (٧٦) والغريب ان هذا البقاء ليس له دخل بالمهديّة ومع ذلك وجدنا ابن حزم يقرنه بها والظاهر ان هذه الفكرة اصل للمهديّة التى دخلت التصوف فيما بعد .

ابو الخطاب محمد بن ابى زينب الاسدى المقتول سنة ١٣٨/٧٥٥-٥٦ :

ولم يسلم الغلاة المحيطون بعبدالله بن معاوية بعد وفاته وانما عادوا الى الكوفة كما خرجوا منها فولدت فرقة جديدة فيها وان كان الغلو قد غرس جذوره فى فارس ولم يبرحها .

كان ابو الخطاب مولى بنى اسد وارتحركات الغلو السابقة كلها ومنظمتها وكان معاصرا لجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨/٧٦٥ ، وقد احيانا لنا شخصية سلمان الفارسى الخبير بالاديان واسرارها وتسلسلها والانبياء واوصيائهم ، وجاء

(٧٤) الرسالة القشيرية ١٧٥ .

(٧٥) مختصر الفرق بين الفرق ١٢٤ .

(٧٦) الفصل ٤/١٨٠ .

ذكر ابي الخطاب مقرونا بسلمان في نص ينقله لنا ماسينيون عن « نفس الرحمن للطبرسي النوري » يرويه الخصبي النصيري (والنصيرية فرقة من مؤلهة على نشأت في النصف الثاني من القرن الثالث) ومضمونه : « قال جعفر (الصادق) لابي الخطاب : يا محمد اخاطبك بما خاطب به جدى رسول الله (صلم) سلمان - وقد دخل عليه عند ام ايمن فرحب به وقربه - وقال : اصبحت يا سلمان عيبة علمنا ومعدن سرنا ومجمع امرنا ونهينا ومؤدب المؤمنين بادابنا . انت والله الباب الذي يوه (كذا) علمنا وفيك نبأ علم التأويل والتنزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت اولاً واخراً وظاهراً وباطناً وحياً وميتاً . فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقلته انا لك يا محمد» (٧٧) والمهم هنا ان ابا الخطاب قد اله جعفر الصادق . وينقل ماسينيون نصاً آخر عن الكشي يؤيد فيه الامتياز الروحي الذي ادعاه ابو الخطاب ، وقد روى هذا ان الصادق قد وضع يده على صدره وقال له : عه ولا تنس او قال فيه ايضاً : هو عيبة علمنا وموضع سرنا امين على احيائنا وامواتنا (٧٨) ، يرد هذا الخبر في الكشي ويذكر انه عرض على الصادق فكذبه وانكره ، وقال : « ما مس شئ من جسدى جسده الا يده » (٧٩) وذلك ينبي بلقاء ابي الخطاب للصادق . وجاء في الكشي ان الصادق قد اعلم في سنة ١٣٨ بقتل ابي الخطاب (٨٠) ، وذلك يؤيد صحة هذا التاريخ والواقعة ، وذلك يذكرنا بما خاطب به النبي علياً بوصفه وصياً له حيث قال : « عليك بالصدق فلا تخرجن من فيك كذبة ابداً ، والورع فلا تجترى على خيانة ابداً والخوف من الله كأنك تراه والبكاء من خشية الله بين لك بكل دمعة بيتا في الجنة ، والاخذ

-
- (٧٧) شخصيات قلقة في الاسلام ٤٨ .
(٧٨) شخصيات قلقة في الاسلام ٤٧ .
(٧٩) معرفة الرجال للكشي ١٨٨ .
(٨٠) المصدر نفسه ١٩١ .

بستى» (٨١) وبذلك يتضح مالا ربي الخطاب من خطر في تطوير الغلو
 واسناده بالنصوص والاحاديث. وقد ادعى ابو الخطاب وصية جعفر الصادق وتعلمه
 اسم الله الاعظم منه (٨٢) وزعم ان الائمة انبياء ثم آلهة وقال بالهية جعفر
 الصادق وابائه ورأى انهم ابناء الله واحباؤه (٨٣) وتلك اول الهية صريحة
 في دنيا الغلاة. ويجب ان نبين هنا ان هذا التأليه جزئي قصد به نوع مبالغ
 فيه من الحق الالهي ومن ربط نصره الامام بنصرة الله. وقد التفت ماسينيون
 الى ذلك وقال: « فعند جميع الغلاة ان الله لا يمكن معرفته في ذاته وهو فوق
 كل وصف وحده، انما هنا امر تأليه بالمشاركة ونوع هذه المشاركة يختلف
 وفقا للنموذج الذي تفضله الفرقة» (٨٤). ولعل في هذه الالتفاتة ما يلقي
 ضوء على دعوات المتصوفة التي ستؤسس اصولها على هذه الافكار فيما بعد.

وقد تبني ابو الخطاب الفكرة التي نادى بها الاسلام من ان المسيح لم
 يقتل وانما شبه للناس ذلك وطبقها على جعفر الصادق بعد ان تبرأ منه فقال
 بان « جعفرا هو الاله في زمانه وليس المحسوس الذي يرونه ولكنه لما نزل
 الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها» (٨٥) والغريب اننا نجد
 هذا المعنى بذاته عند الحلّاج في قوله:

سبحان من اظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
 ثم بدا لخلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب
 حتى لقد عاينه خلقه كحظة الحاجب بالحاجب (٨٦)

- (٨١) تاريخ اليعقوبي ٧٦/٢ .
 (٨٢) فرق الشيعة ٤٢ .
 (٨٣) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
 (٨٤) شخصيات قلقة في الاسلام ٣٨ .
 (٨٥) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
 (٨٦) في التصوف الاسلامي ١٣٣ . وانظر ديوان الحلّاج ، تحقيق
 ماسينيون ، باريس ١٩٥٥ ، ٤١ .

وفى قوله :

واى الارض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك فى السماء
نراهم ينظرون اليك جهرا وهم لا يبصرون من العماء (٨٧)

والمهم بعد ذلك ان اتباع ابى الخطاب قالوا : « ان جعفر الا اله غير ان
ابا الخطاب افضل منه وافضل من على » (٨٨) بل لقد زعم ابو الخطاب ان
« الله تعالى قد انفصل عن جعفر وحل فيه وانه هو اكمل من الله تعالى » (٨٩)
وبذلك يتبين لنا الخطر الذى تجسم الان من اسباغ الروحانية الزائدة عن
الحد الى اناس وقد بدأ ذلك بابى هاشم ثم سيمر بنا ان الزيدية قد انزلوا
الامامة من عليائها وساووا بين سائر الناس فى فرص السمو الروحى ولم
يقصروا ذلك على الامام ثم اخرج انصار عبدالله بن معاوية الامامة من بيت على
بعد ان اخرجها الكيسانية من بيت النبى فتجراً الناس على ادعائها مادامت قد
خرجت من مجالها النبوى العلوى الضيق ، وادعاء ابى الخطاب الفضل على
الصادق وعلى بل وعلى الله امر أوله من هناك • ولعله قد ظهر الان ما بين
الخطابية والنولية الصوفية من صلة وثيقة • واذا اضفنا الى هذا ما يورده ابن
الاثير عن اتباع الحسين بن ابى منصور العجلي احد زملاء ابى الخطاب
« انهم تعلموا الشعبذة والتازنجيات والنجوم والكيمياء ، فهم يحتالون على كل
قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة باظهار الزهد » (٩٠) وقرنا به ملازمة ذى
النون للكيمياء واطلاع الحلاج على السحر واليرنجات - مما سيرد بعد - ادر كنا
الى أى حد كان الغلاة مؤصلين لمبادئ التصوف • يضاف الى هذا ان ابن
الاثير قد ذكر بان كل حركة غالية كان دعائها يظهر الزهد والعبادة (٩١)

(٨٧) ديوان الحلاج ٣٧ •

(٨٨) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ •

(٨٩-٩٠) الكامل لابن الاثير ٢١/٨ •

وان الشيخ المفيد لم يتردد في اضافة العلاج الى هذه الفرق الغالية وقال :
 «والحلاجية ضرب من اصحاب التصوف وهم اصحاب الاباحة والقول
 بالحلول» (٩٢) و اضاف « وكان الحلاج يتخصص باظهار التشيع وان كان
 ظاهر امرهم التصوف ، وهم قوم ملحدة وزنادقة يموهون بمظاهرة كل فرقة
 بدينهم» (٩٢) ، وبذلك يبدو الشبه به التوافق بين اصحاب الحلول من
 المتصوفة واصحاب الحلول من الشيعة الغلاة .

وقد كان عند ابي الخطاب نوع من السلوك توصل به الى ادعاء الألوهية
 بعد الوصية والامامة فالنبوة وهذا هو السبيل الذي سلكه الحلاج فيما بعد اذا
 تساهلنا في التقيد بالمصطلحات . وقد كان الخطابية شيوخ المتصوفة في
 التساهل في اظهار التدين وترك الظاهر والتمسك بالباطن فقالوا : « خفف
 الله عنا بابي الخطاب ووضع عنا الاغلال والاصار يعنون الصلاة والزكاة
 والصيام والحج ، فمن عرف الرسول النبي الامام (يعنون ابا الخطاب) فليصنع
 ما احب » (٩٣) . فبلوغ مقام معرفة الامام الذي هو نبي ورسول وامام واله
 في آن واحد لا بد ان يكون دونه درجات ترقى ومنازل تتجاز وهو في النهاية
 وقوف على لب الدين وجوهره مما يعادل مقام الاتحاد وقطع العلائق عند
 الصوفية ، فالمنزلة واحدة والمقام واحد وهذا هو اصله ومنبته . وقد ادى
 مذهب ابي الخطاب باحد تلاميذه : يزيغ بن موسى الحائك الى ان يقول : ان
 كل مؤمن يوحى اليه وتأول قوله تعالى : وما كان لنفس ان يموت الا باذن
 الله» (٩٤) اي يوحى من الله وكذلك تأول قوله تعالى : واوحى ريك الى
 النحل» (٩٥) . وهكذا ارتفعت الفوارق بين الناس وصاروا جميعا ذوى استعداد للنبوة .

(٩٢) تصحيح الاعتقاد ٣١٨ .

(٩٣) فرق الشيعة ٤٢ .

(٩٤) الملل والنحل ١/٣٠١-٢ والاية في سورة ال عمران : ١٤٥ .

(٩٥) المصدر نفسه ١/٣٠٢ .

وتلقى الوحي ، وتلك طفرة انتقلت الى التصوف ولكنها لم تبلغ هذه الدرجة من التطرف بل خفف المتصوفة من مسألة الوحي واستبدلوا به الاستعداد للرقى بالسلوك عن طريق المجاهدة .

اما بعد فان البحث في الغلو متشعب اقتصرنا منه على ما ذكرنا واخترنا من الغالين وعقائدهم ابرزهما وادخلهما في انجوهر . وقد غادر الغلاة الكوفة بعد ان اباد المهدي الخليفة الخطابية في السواد والبحرين وعمان (٩٦) ، وكانت تلك نهاية الغلو في الكوفة فانشغلت من جديد بحركات ثورية جديدة هي الزندقة التي اتجهت الى التشكيك في الاسلام نفسه بالعقل والمنطق . ولكن حركة ابي الخطاب لم تمت بهذه السهولة وانما وجدنا محمد بن عبدالله بن مهران يكتب في القرن الثالث كتاب « مناقب ابي الخطاب » (٩٧) ووجدنا كتابا في الرد على الخطابية بقلم رجل من انصار الامام الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ (٩٨) . ومهما يكن من أمر الخطابية ، فقد عاصر نهاية الغلو الكوفي طراز آخر من الغلو انبعث من حاشية جعفر الصادق وطلابه بعد موته ولكنه لم يكن متطرفا عنيفا وانما كان مسالما عقليا وسرى ذلك في الفصل التالي .

هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٩٩/٨١٥-٦ :

كان هشام بن الحكم من انصار الصادق وتلاميذه فخرج بنظرية جديدة في التجسيم مدعمة بالدليل العقلي ، فقال في الزامه لابي الهذيل العلاف - برواية الشهرستاني - : « انك تقول : البارى عالم بعلم وعلمه ذاته ، يشارك المحداث في انه عالم بعلمه ويباينها في ان علمه ذاته ، فيكون عالما

(٩٦) حركات الشيعة المتطرفين ٨٩ .

(٩٧) معرفة الرجال للنجاشي (بومبي ١٣١٧) ص ٢٤٧ .

(٩٨) فهرست الطوسي (كلكتة) ١٠ .

لا كالعالمين فلم لاتقول : هو جسم لا كالأجسام وصورة لا كالصور وله قدر لا كالأقدار الى غير ذلك ؟ ، (٩٩) والشهرستاني - بعد - قد وصف هشاماً بأنه «صاحب غور في الأصول» (٩٩) فلم يكن بسيطاً ساذجاً يجمع حوله الانصار ليحكم كما فعل سائر الغلاة . وقد كان هشام متكلماً احتل بعقيدته مكاناً وسطاً بين الشيعة المعتدلين والغالين فأخذ من التشيع المعتدل أصوله ومن التجسيم الغالى دون تأليه للائمة ظاهر عقيدته ورأى - بعد ايمانه بالامامة وكونها وارثة النبوة - ان الامام احوج الى العناية الالهية من النبي بحكم اتصال الانبياء بالله عن طريق الوحي وامتناع ذلك على الامام ، فبنى هشام العصمة و اضافها الى الائمة فجعلهم في مقام يستطيعون فيه الصدور عن الحق والصواب دون حاجة الى الوحي . وهكذا بدأت فكرة العصمة من هشام بعد وفاة الصادق . وقد نقل لنا الشهرستاني والبغدادي انه كان «يحيى على الانبياء العصيان مع قوله بعصمة الائمة» (١٠٠) ، وعلل الشهرستاني ذلك - بناء على مذهب هشام - بان النبي يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لا يوحى اليه فتجب عصمته» (١٠٠) ، وعلل الشهرستاني ذلك - بناء على مذهب هشام - بان النبي يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لا يوحى اليه فتجب عصمته» (١٠٠) . وقد اورد الكليني مناقشات هشام للمعتزلة واهل الشام في حضور جعفر الصادق وغيابه وكلها تدور حول « ان الجوارح اذا شككت في شيء لمسته او رآته او ذاقته او سمعته ردت الى القلب والا لم يستيقن بالجوارح . . . فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك (الخطاب لعمر بن عبيد المعتزلى البصرى) حتى جعل لك اماماً يصح لها الصحيح ويتيقن ما شككت فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم اماماً يردون اليه شكهم وحيرتهم

(٩٩) الملل والنحل ١/٣١١ .

(١٠٠) مختصر الفرق بين الفرق ٦١ ، الملل والنحل ١/٣١١ .

ويقيم لك اماما لجوارحك ترد اليه حيرتك وشكك» (١٠١) . وقد خصم هشام بن الحكم شاميا في الامامة واتفقا على ان الله قد اقام للناس حجة ودليلا هو النبي واختلفا في الدليل بعد النبي فرأى الشامى انه الكتاب والسنة فاجابه هشام : « فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في مخالفتنا اياك » ثم انتهى الى ان الامام هو الحجة والدليل وهو جعفر بن محمد الصادق (١٠٢) . وهكذا يبين خطر الامامة وضرورة احاطتها بالتوفيق الالهي الذي يحول دون تعرضها للخطأ فاحاطها بسياج من العصمة ، ومن هنا بدأت هذه الفكرة في التشيع ولزمته ولم تفصل عنه ، ومن هنا ايضا جاءت العصمة الى التصوف فوجدنا القشيري يرى انها ليست واجبة للولي كما في الانبياء (وكان الاخرى ان يقول الائمة لان هذا منبها) ثم يقول : « واما ان يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب ان حصلت هنات او آفات او زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم» (١٠٣) . وقد عزز القشيري ذلك بسؤال وجه الى الجنيد : « العارف يزني يا ابا القاسم ؟ فاطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : وكان امر الله قدرا مقدرا» (١٠٣) اي ان العصمة قد حصلت للاولياء ولكن قدر الله او بداهه التشيعي قد يفسر هذا الامر ولكن العصمة موجودة على كل حال . ويؤيدنا نيكلسون في هذا بقوله : «ولكن الصوفية - من ناحية اخرى - رأوا انهم - ببلوغهم غاية الطريق بعد اجتياز عقباته وتحمل آلامه وبعد وصولهم الى نهاية المصراع الصوفى بتحققهم بالمعرفة الالهية - قد وصلوا الى مقام الولاية وان جميع ما يصدر منهم من قول او عمل متفق تمام الاتفاق مع روح الشرع مهما ظهر من التعارض بين اقوالهم وافعالهم من جهة وبين ظاهر الشرع من جهة اخرى . ومن هنا قالوا : ان رياء العارفين افضل من اخلاص المريدين » (١٠٤) . هذا هو رأى

(١٠١) اصول الكافي ٣٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ٣٩ .

(١٠٣) الرسالة القشيرية ٢٠٨ .

(١٠٤) في التصوف الاسلامي ٢٦ .

نيكلسون ويتضح منه انه يعنى العصمة وسرى انها متحققة مقصودة عند الصوفية فى الموضوع المناسب • ويجب ان نذكر هنا انه « ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم الى الحسن ولا ملجئة اليه » (١٠٥) هذا قول الشيخ المفيد مجتهد الشيعة الاثنا عشرية الكبير ، ويحتنا هذا القول الى التأمل حقا فنخرج منه بان هذه العصمة المسبغة على الامام تشبه الى حد بعيد القدرة التى يراها المعتزلة لله من انه يستطيع فعل القبيح ولكنه لا يأتى الا الاحسن ، ولسنا فى معرض مناقشة ، ولكن يحسن بنا ان نذكر ان دونالدسون قد انتهى الى ان فكرة العصمة لم تأت عن طريق الاسفار الدينية اليهودية ، وان القرآن نفسه لم يذكر عصمة الانبياء وان المسلمين الاوائل لم يتطرقوا فى جدالهم ضد المسيحية الى ذكر هذه العقيدة وانها لم ترد فى الصحاح ، ويقطع بان العصمة فكرة شيعية اصيلة (١٠٦) • اما التجسيم الذى قال به هشام فلا داعى للافاضة فيه ولكن نكتفى بانه قد بنى على فكرة منطقية تقول : « ان بين معبوده (اى هشام) وبين الاجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ونولا ذلك لما دلت عليه » (١٠٧) وينتهى الى انه « لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شيء » (١٠٧) • وعلينا فى ختام عرضنا لافكار هشام ان نقرر بانه لا يمكن ان يقول بالهية الامام وانما اخطأ الشهرستاني فى ايراد ذلك وبخاصة ان احدا من اصحاب كتب الفرق لم يؤيده فى دعواه • وقد نسب التجسيم الى كثير من اصحاب الصادق ونفى الشيعة المتأخرون امكان ذلك ويهنا من اراء تلاميذ الصادق رأى واحد منهم هو محمد بن على بن النعمان الذى يسميه الشيعة « مؤمن الطاق » ويسميه غيرهم « شيطان الطاق » فقد كان يقول : « ان الله تعالى نور على صور انسان ويأبى ان يكون

(١٠٥) شرح عقائد الصدوق ٦١

(١٠٦) عقيدة الشيعة ٢٢٤-٢٦ ملخصا •

(١٠٧) الملل والنحل ١/٣٠٨

جسما لكنه اضاف، قد ورد في الخبر : « ان الله خلق آدم على صورته وعلى صورة الرحمن ، فلا بد من تصديق الخبر، (١٠٨) . واهمية هذه المقالة تأتي من ان هذا الحديث قد دخل التصوف وصار من اسسه وعليه اعتمد الصوفية في التدليل على الروح الالهية الموجودة في الانسان وصارت المجاهدة - على هذا الاساس - طريقا يسلكونه لتجريد النفس من مادياتها والرجوع بالروح الى صورتها الالهية الاصلية التي صنعت على هيئة روح الله . وبذلك تنتهى من بحث الغلو القديم ولا يبقى الا التعرض للغلو الذى ولى ذلك وأدار الالهية حول على بن ابي طالب ابي الائمة وقد ثبت هذا الاتجاه الغالى ولم يتغير عند معتقيه حتى الان .

النصيرية :

اختلف اصحاب كتب الفرق في محمد بن نصير مؤسس هذه الفرقة التي اتفقوا على انها تؤله عليا وقال معتقو هذه العقيدة : « وانما اثبتنا هذا الاختصاص (ظهور الروحاني بالجسد الجسداني) يعلى دون غيره لانه كان مخصوصا بتأييد من عند الله تعالى مما يتعلق باطن الاسرار » (١٠٩) وكانت حججهم في ذلك ظهور جبريل ببعض الاشخاص كما هو معسروف في الاسلام . وقال النصيرية ايضا في على : « كان هو موجودا قبل خلق السموات والارض ... وعلى هذا فال على : انا من احمد كالضوء من الضوء ، يعنى لافرق بين التورين الا ان احدهما اسبق والثاني لاحق تال له ، (١٠٩) ومن هنا نلمح لاول مرة الجمع بين النبي (ص) وعلى الذى تطور الى المفاضلة بينهما والى اشراك الاخير فى الرسالة . وقد اسند النصيرية هذه الفكرة بحديث يروونه ونصه : فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله ، الا وهو خاصف النعل، (١٠٩) ، ونحن نعرف اصل هذا النص الذى نطق به عمار بن ياسر

(١٠٨) الملل والنحل ١/٣١٣ .

(١٠٩) المصدر نفسه ١/٣١٧ .

في صفتين ولكن الجديد هنا ان هذا الخبر قد وجه الى تخصيص النبي بالظاهر او العموميات وتخصيص على بالباطن والشرح والتأويل الصحيح ثم تطورت الامور في المدائن حين وجدنا احد الغلاة يفضل عليا على النبي ويزعم انه هو الذي بعث محمدا (١١٠) تلك هي الذمية وهي عينية نسبة الى حرف العين الذي يبدأ به اسم علي ، وظهر بعد ذلك المفوضة الذين روى الرازي انهم « قوم يزعمون ان الباري خلق روح علي واولاده وفوض العالم اليهم فخلقوا هم الارضين والسموات » قالوا : ومن هنا قلنا في الركوع : سبحان ربي العظيم ، وفي السجود : سبحان ربي الاعلى لان الاله الاعلى على واولاده واما الاله الاعظم فهو الذي فوض اليهم العالم (١١١) . وقد تطورت هذه العقيدة بعد غياب مهدي الشيعة وتنظيم عقائدها وتحديد رجالها من الاركان فرأينا تدبير العالم مضافا الى الاركان ومعهم الصحابي القديم عمرو بن امية الضمري ويسمى هذا بالتخميس الذي كان موجودا في بداية القرن الرابع وكان الكرخيون في بغداد يعتقدونه (١١٢) .

(١١٠) الملل والنحل ١/٢٩٣ .

(١١١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ .

(١١٢) الغيبة للطوسي ٢٧١ .

الفكرة في اشراك عمرو بن امية الضمري في تدبير العالم انه كان وكيل النبي (ص) في زواجه من ام حبيبة بنت ابي سفيان : ارسله النبي الى الحبشة بعد ان علم بوفاة زوجها عبدالله بن جحش لاتمام ذلك الزواج (طبقات ابن سعد ٤ : ١/١٨٣ ، شذرات الذهب ١/٥٤) فاعتبر اصحاب التخميس هذه الوكالة اماراة على وكالة اخرى باطنية اوسع واعم - على عادة الغلاة في التأويل - ومن هنا جاءت هذه الفكرة . ويروي ابن الاثير ان امية كان رسول النبي الى النجاشي وداعيته الى الاسلام (ابن الاثير «اوربا» ٢/١٦١) . وكذلك يروي ان النبي (ص) ارسله لاغتيال ابي سفيان في مكة سنة ٤ (ابن الاثير «اوربا» ٢/١٢٩-٣١) فكانه عمرا كان ثقة النبي ويده في المهمات والملمات .

اما بعد فلا بد ان نختم هذا الفصل بموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة
لنرى مقامهم فى التشيع ولا يذهب بالحق بهرج الباطل ، فقد كان الصدوق
القمي - استاذ الشيخ المفيد - يقول : « اعتقادنا فى الغلاة والمنفوضة انهم كفار
بالله - جل اسمه - وانهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية
والحرورية ومن جميع اهل البدع والاهواء المضلة ، وانهم ما صغر الله جل
جلاله تصغيرهم بشيء كما قال الله : ما كان لبشر ان يؤتية الله الكتاب والحكم
والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين
بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون • ولا يأمركم الله ان تتخذوا
الملائكة والنبيين اربابا ، اياهم كم الله بالكفر اذ انتم مسلمون ؟! » (١١٣) •

(١١٣) اعتقادات الصدوق ٣٩ •

الفصل الرابع

عودة الى تطور التشيع

عل بن الحسين

مات ابن الحنفية وانصرف من انصرف الى ابنه ابي هاشم ، ولكن
اناس حاولوا ان يلتفوا حول علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، غير انه
لم يمكن احدا من الدعوة اليه او استغلال اسمه لانه نفص يده من الدنيا ومن
الطموح الى الحكم وانصرف الى العبادة فكانه طبق الخطة التي هدد بها
الخراساني ابن الحنفية من انصرافه الى الزهد . وهكذا صار للزهد رأس
علوى كما كان له رأس في العلم والشجاعة وسائر المثل التي كانت تتصل
بالمجتمع الاسلامي . وقد ولد علي بن الحسين في المدينة سنة ٣٨ في حياة علي
ابن ابي طالب ، وقد قتل جده وله ستان ، وقتل ابوه في كربلاء وله ثلاث
وعشرون سنة . وشهد بعينيه - وكان عيلا في الموقعة - مصرع اخوانه
واعمامه فاخذته رجل فاخفاه عن القائد الاموي ثم سلمه الى ابن زياد نظير
تلاثمائة درهم وكان الرجل مع ذلك يبكي^(١) . وكانت هذه الاحداث التي
مرت به قد حملته على ان يعتزل الجاه والمال والرجال وكل ما له علاقة
بالطموح والامارة . وعاصر علي بن الحسين احداثا واهوالا في المجتمع
الاسلامي ورأى بعينه الناس يبايعون لعبدالمالك بن مروان على العبودية له
بعد الحرة ، وعاصر ضرب الكعبة بالمجانيق وعاصر الحجاج في حكمه الجائر
للمراق وعاصر الحركات الكيسانية والمختار والقتال الذي اغرق العالم الاسلامي

(١) طبقات ابن سعد ١٥٧/٥ .

في بحر من الدماء ، فاندفع بعد كل هذا الى اعتزال الدنيا والانقطاع الى
 البكاء على ارحامه واخوانه والمثل التي ضاعت وعلى الافكار الغريبة التي جدت
 على الاسلام . وكان على زين العابدين يكره اهل العراق - كما يبدو - وكان
 يحمل عليهم كثيرا ، وقد انى عليه نفر من اهل العراق فقال لهم : « ما اكذبكم
 وما أجزأكم على الله ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا ان نكون من صالحى
 قومنا »^(٢) وكان كذلك حربا على السبابة من الشيعة السبئية والكيسانية وكان
 يقول لهم : « اشهد انكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم : والذين جاؤا
 من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل
 فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم »^(٣) . وكان يكره الغلو
 ولا يحب ان يرفعه احد فوق منزلة احد من المسلمين وكان يقول : « ايها الناس
 احبونا حب الاسلام ، فما برح بنا حكم حتى صار علينا عارا »^(٤) . وكان
 يعتبر نفسه رجلا من الناس يتلقى عن القراء والفقهاء وكان يسأل عن سعيد
 بن جبير الذى قتله الحجاج سنة ٧٠١/٩٤ ويعترف بانه قد تلمذ عليه ، وكان
 يردف كل قول بنفى السمو عن نفسه وقد قال فى هذه المناسبة : « انه ليس
 عندنا ما يرمينا به هؤلاء ، و اشار بيده الى العراق »^(٥) وقد اشتهر عن على بن
 الحسين مسأله الحقيقية وكان يفضى عن المسى حتى صارت هذه الطريقة
 قانونا للزهاد فقد كان عبدالله بن عون بن اربطبان من زهاد البصرة - اذا اغضبه
 رجل - قال : بارك الله فيك^(٦) .

وتأتى أهمية على بن الحسين فى التشيع من أنه الامام الرابع من ائمة

(٢) طبقات ابن سعد ١٥٨/٥ .

(٣) مع الشيعة الامامية ٤٢-٤٣ . الحشر : ١٠ .

(٤) حلية الاولياء ، ٣/١٣٦ .

(٥) طبقات ابن سعد ١٦٠/٥ .

(٦) صفة الصفوة ٣/٢٤٠ .

الامامية والاسماعيلية ، وتزداد اهميته بانه اول امام يتخذ الزهد المطلق منهجا لحياته فلا يشارك في حرب او نقاش ولا يتدخل في امر من الامور ، وقد شق للزهاد طريقا ، لم يكن ، بادعيته ومناجياته التي تقطر رقة وعاطفة وبيانا . ولكن هذا كله يتضاءل في الاهمية امام الحدث العظيم الذي انطوى في علي بن الحسين الا وهو انه كان ابن اميرة فارسية من اميرات آل ساسان ، وقد اتاح له ذلك - في رأى بعض الباحثين - ان تلتف الدعوة الفارسية حوله وتجعله صاحب الحق في حمل التاج الساساني ، فيكون له ان يحكم العرب والعجم وعليهم ان يدينوا له بالطاعة والولاء . ويعرض الاستاذ احمد امين لهذه الفكرة بقوله : « ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية - وكان لها اثر في بعض المسلمين - انهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم وخصهم بالسيادة وايدهم بروح منه ، فهم ظل الله في ارضه . . . فنظرة الشيعة في علي وابنائهم هي نظرة ابائهم الاولين من الملوك الساسانيين وثنوية الفرس كانوا منبعا يستقى منه الرفض في الاسلام » (٧) ، وهذا الرأى زبدة رأى جوينو في كتابه (الدين والفلسفة في آسيا الوسطى) وينقله الدكتور حسن ابراهيم حسن فيقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهي ان العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة لكونهم وارثي آل ساسان من جهة امهم شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، (سُميها ابن سعد غزالة ، الطبقات ١٥٦/٥) والائمة رؤساء هذا الدين حقا » (٨) وقد وافق براون على هذا الرأى ايضا (٩) . والظاهر ان ما حمل اصحاب هذا الرأى على رأيه هو قول ابي الاسود الديلمي في زين العابدين :

(٧) فجر الاسلام ١٣٧ .

(٨) الفاطميون في مصر ٦٧ .

(٩) تاريخ الادب في ايران ٢٤٠ .

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيظت عليه التمام (١٠)

والواقع ان ليس لهذا الرأى اساس صحيح ، فلم تقم دعوة نعلى بن الحسين تدل على الاتجاه الفارسى اليه ، بل لقد قامت فى حياته ثورة المختار التى شارك فيها الموالى اول مشاركة فلم تصرف اليه الدعوة ولم يذكره ذاكر . ثم قامت ثورة عبدالرحمن بن الاشعث وكانت مادتها من الموالى ايضا ، ولم يرفع احد منهم صوتا فى الدعوة لعلى بن الحسين مع انه كان ذا صلة علمية بأحد فقهاء الموالى الكوفيين وهو سعيد بن جبير كما مر بنا . ولم يكن على بن الحسين متصلا بالموالى خاصة ولا بحزب معين سواء اكان دينيا ام سياسيا . وحقيقة الامر ان جوينو وبراون قد ربطا بين نظرية النور الذى ينتقل من الانبياء الى الائمة واحدا بعد الاخر - وظهرت هذه النظرية فى خراسان - وظنا انها دارت حول على بن الحسين على اساس النظرة الفارسية التى تنقل النور الملكى من ملك الى آخر . وقد قال بفكرة النور عبدالله بن الحارث وهو مدائنى من انصار عبدالله بن معاوية وكان يرى ان عبدالله هو الامام « وهو العالم بكل شىء حتى غلو فيه وقال : ان الله عز وجل نور وهو فى عبدالله بن معاوية » (١١) ، وقد توفى على بن الحسين سنة ٧١٢/٩٤-١٣ وتوفى عبدالله بن معاوية سنة ٧٤٧/١٣٠-٤٨ . وكان من عقيدة عبدالله بن الحارث « الغلو والقول بالتناسخ والاطلة والدور » (١٢) ، وكان من عقائد الجناحية : اتباع عبدالله بن معاوية « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على ثم دارت فى اولاده الثلاثة ثم صارت الى عبدالله بن معاوية » (١٣) . وبذلك يكون النور الذى

(١٠) اصول الكافي ١٢٤ .

(١١) فرق الشيعة ٣٤ .

(١٢) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٣-٤ .

هو الله قد حل في عبدالله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب بعد حلوله في الانبياء والائمة السابقين وهذه هي اصل هذه الفكرة التي لاحظها جوينو وزعم انها ترتبط بعلي بن الحسين فاذا صح ارتباطها به فلا بد ان يكون ذلك متأخرا جدا . يضاف الى ذلك ان كتب الفرق جميعا لاتعرض لهذه الفكرة ولا تلمح اليها ، وكتب التاريخ تسكت عنها ، ولعل جوينو وبراون ثم احمد امين ارادوا ان يعقدوا بين الفرس والشيعنة صلة فتنهوا الى هذا النسب الفارسي من ناحية الام ولم يلتفتوا الى ان انقاسم بن محمد بن ابي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يشاركان على بن الحسين هذه الصفة ايضا (١٤) . والغريب ان هذه الاميرة التي دارت حولها هذه الضجة قد تزوجت بعد الحسين (ع) مولى له اسمه زيد (ولعله زيد) فولدت له عبدالله بن زيد فهو اخو علي الاصغر (زين العابدين) بن الحسين (١٥) .

ونعود بعد جلاء هذه النقطة الهامة الى ان الصفة الغالبة على علي بن الحسين كونه زاهدا من الطراز الاول يتبع زهده من حزن مادي دفين ارتفع شيئا فشيئا الى حزن معنوي روحي ملأ نفسه واستغرق حياته كلها . وقد اورد لنا ابو نعيم نصا بين فيه جوهر زهد علي بن الحسين ، وذلك انه سئل عن كثرة بكائه فقال : « لاتلوموني فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكي حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتي يقتلون في غزاة واحدة . افترون حزنهم يذهب من قلبي؟ » (١٦) ، وقد عبر عن هذا البكاء وذلك الحزن تعبيراً صوفياً جميلاً يشبه تلك العبارات المركزة المليئة بالمعنى مما نراه عند المتصوفة الكبار بقوله : « فقد الاجبة غربة » (١٧)

(١٤) وفيات الاعيان ، مصر ١٩٤٨ ، ١/٤٢٩-٣٠

(١٥) طبقات ابن سعد ١٥٦/٥ .

(١٦) حلية الاولياء ١٣٨/٣ .

(١٧) صفة الصفوة ٥٣/٢ .

ونظرة الى سيرة على بن الحسين - مما تورده كتب التصوف - تصوره لنا صوفيا كاملا ، فان فيه طبيعة الملامتية الخالص ، فقد كان يقول : « انى اعوذ بك ان تحسن فى لوائح العيون علانيتى وتقبح فى خفيات العيون سريرتى • اللهم كما اسأت واحسنت الى ، فاذا عدت فعد على » (١٨) • بل لقد كان فى زين العابدين طبيعة الفتى ممزوجة بالملامة ، فان ابا نعيم يروى ان على بن الحسين « كان يبخل • فلما مات وجدوه يقوت مائة اهل بيت بالمدينة ، قال جرير فى الحديث - او من قبله - : انه حين مات وجدوا بظهوره آثارا مما كان يحمل بالليل الجرب الى المساكين » (١٩) ، ويروى انه كان يتصدق سرا ويقول : « صدقة السر تطفى غضب الرب » (٢٠) • ولم يقتصر الامر على ذلك بل جعل اصحاب كتب التاريخ على بن الحسين يسبق المتصوفة الى رقى المقامات ، فاتا ندمح حال المحو من القصة التى يوردها صاحب اخبار الدول من انه « سقط ابن له فى البئر ، فزرع اهل المدينة لذلك حتى اخرجوه فكان قائما يصلى فى المحراب فمازال عن مكانه • فقيل له فى ذلك فقال : ما شعرت لانى كنت اناجى ربي » (٢١) ، وتلك قصة نحلها واضح •

وهذه الاخبار تبين الى اى مدى اتخذ على بن الحسين الزهد منهجا لحياته ، فانصرف الى المثل الاعلى يفرق روحه فيه ولا يلتفت الا اليه ، وكان ذلك كله متجسما فى صلاته ودعائه فكان اول من بدأ الذكر الذى يؤدى الى التطهير الصوفى • ويروى ابو نعيم وابن الجوزى ان على بن الحسين كان اذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه وصلاته اخذته رعدة ونفصة ، فقيل له فى ذلك فقال : ويحكم اندرون الى من اقوم ومن اريد ان اناجى؟ (٢٢)

-
- (١٨) حلية الاولياء ١٣٤/٣ .
(١٩) نفس المصدر السابق ١٣٦/٣ .
(٢٠) ، (٢١) اخبار الدول ١١٠ .
(٢٢) حلية الاولياء ١٣٣/٢ ، صفة الصفوة ٥١/٢ .

وقد يبدو هذا الحزن نابعا عن شعور بالاثم او خوف من الموت او شك في العقيدة ، ولكن على بن الحسين - بعد ان بين انه انما يبكي اخوانه الذين قتلوا امامه عيانا ، وبعد ان ركز همه في الانقطاع الى الله - ارسل قولا يعد فيه اول من اشار الى فكرة الحب الالهي ، وذلك انه نادى : « ان قوما عبدوا الله رهبة ، فتلک عبادة العبيد وآخرين عبذوه رهبة ، فتلک عبادة التجار ، وقوما عبدوا الله شكرا فتلک عبادة الاحرار » . وتلك عبارة مرادفة لما ينسب الى رابعة العدوية انها قالت : ما عبذته خوفا من ناره (الذين عبذوا الله رهبة) ، ولا حبا لجنته (الذين عبدوا الله رغبة) فاکون کالاجير السوء (عبادة التجار) . عبذته حبا وشوقا اليه « (٢٣) (عبادة الاحرار اشكر) . ومما يذكر ان حديث رابعة هذا ينسب الى علي في نهج البلاغة ، ومهما يكن من شيء فان كلا الامامين سبق رابعة . ولا يقتصر التداخل في المعاني بين زين العابدين ورابعة وحدها بل نجده يقول : « ان الجسد اذا لم يمرض اشر ، ولا خير في جسد يأشر » (٢٤) . وهو قول عبر عنه جعفر بن سليمان الضبيعي : احد زهاد البصرة من معاصري مالك بن دينار بقوله : « ان القلب اذا لم يحزن حزب كما ان البيت اذا لم يسكن خرب » (٢٥) . وقد كان علي بن الحسين الى شبه كلامه بكلام الزهاد يصدر عن نفس زاهدة ففتح للزهاد باب السماحة والتواضع ، وكان اول عظيم يرفع من مقام الزهد ويجعل له مكانة سامية فان سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٨ - وهو شيخ الزهاد في القرن الثماني - يروي عنه انه : « جاء رجل الى علي بن الحسين فسال له : ان فلانا قد اذاک ووقع فيک قال : فانطلق بنا اليه ، فانطلقنا معه وهو يرى انه سينتصر لنفسه . فلما اتاه قال : يا هذا ان كان ما قلت حقا فغفر الله لي ، وان كان ما قلت

(٢٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ ، وقوت القلوب « مصر ١٣١٠ ، بنص مقارب ٥٧/٢ .

(٢٤) حلية الاولياء ٣/١٣٤ .

(٢٥) نفس المصدر السابق ٦/٢٨٧ .

في باطلا فغفر الله لك» (٢٦) ، وقد رأينا عبدالله بن عون ابن اربطان - اذا اغضبه رجل - قال له بارك الله فيك . وكثيرا ما نجد في حلية الاولياء وصفة الصفوة زهادا كانوا يسترقون في صلاتهم حتى ليحسبهم الناس في الظلام جنودا (٢٧) ، وكان على ابن الحسين يصلي في كل يوم وليلة الف ركعة ، وتهيج الريح فيسقط مغشيا عليه (٢٨) . وقد هز المتصوفة ان يكون امام من اوائل الائمة مغرقا في الزهد فاضافوا اليه هم وكذلك الشيعة مايزيد زهده عمقا . وقد كان على بن الحسين زاهدا في وقت كان يمكنه فيه ان يعيش في رفاهة ودعة ولكنه آثر هذه الحياة فحمد الناس له هذا المشرب وزادوا عليه اخبارا واقوالا حتى جعلوا منه شاعرا صوفيا ، ورووا عنه انه لقي الحسن البصرى في الكعبة وكان على زين العابدين مثلما يبكي ويتضرع بهذه الايات :

الا ايها المأمول في كل حاجة	شكوت اليك الضر فارحم شكايتي
الا يا رجائي انت كاشف كربتي	فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
وان اليك القصد في كل مطلب	وانت غياث الطالبين وغيايتي
انيت بافعال قباح ردية	فما في الوري خلق جنى كجنايتي
فزادى قليل لا اراه مبغى	أ للزاد ابكى ام لبعث مسافتي
اتجمعني والظالمين موافقا	فأين طوافي ثم اين زيارتي
اتحرقني بالنار يا غاية المنى	فأين رجائي ثم اين مخافتي
فيا سيدي فامنن على بتوبة	فانك رب عالم بمقائتي

-
- (٢٦) صفة الصفوة ٥٢/٢
 - (٢٧) حلية الاولياء ٤٠/٥
 - (٢٨) صفة الصفوة ٥٦/٢

قال الحسن : فدنوت منه فاذا هو الامام بن الامام زين العابدين على بن الحسين ، فقبلت رجليه وقلت : يا سلالة النبوة ، ما هذه المناجاة والبكاء وانت فى أهل البيت ؟ وقال الله عز وجل : ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، قال : دع يا ابن ابي الحسن ، خلقت الجنة لمن اطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، وخلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا ، وقال (ص) : ايتونى باعمالكم لا بانسابكم ،^(٢٩) ونظرة واحدة الى هذا الخبر تفسح نهافت نسبة الايات الى على بن الحسين ، فان اسلوبها الركيك ينسب بانها وضعت فى وقت متأخر ، ثم ان تقبيل الرجلين لم يكن يرضى به على بن الحسين ولا يأتيه الحسن البصرى ، ولكن الخبر على كل حال جمع بين الحسن البصرى زاهد البصرة وبكائها وبين زاهد المدينة وبكائها الهاشمى ، ورواية ابن الجوزى للخبر يراد بها عقد صلة بين الزهد البصرى والامام على بن الحسين اولا - وذلك يخدم موضوعنا - ويبين ان الصلة - حتى على فرض امتناعها - قد ارادها مؤلفو كتب التصوف واخباريوه . ثم ان رواية الخوانسارى وممصوم على فى طرائق الحقائق^(٣٠) لهذا الخبر بالذات تعنى موافقتهما على مضمونه من ان الحسن كان يحس بانه ادنى من على بن الحسين الى حد انه قبل قدميه وان له - لذلك - صلة بالتشيع . ولكنهما لم يلتفتا الى انهما هدهما - بموافقتهما على هذا الخبر - ركنا ركيئا من التشيع دون ان يشعرا بذلك ، فانهما قد نفيا العصمة عن على بن الحسين باعترافه وهكذا تتحالف الظروف على اضعاف هذا الخبر وتقطع به الاسباب .

ثم يأتى تيار مقابل من ابن عربى ، وذلك انه قد روى عن السجادة :
على بن الحسين : « انه قال او تمثل بالآيات التالية :

(٢٩) روضات الجنات ٢٠٨ . عن المنتظم لابن الجوزى «المطبوع منه يبدأ بعد سنة ٢٥٧ .

(٣٠) طرائق الحقائق ١/٣٤ .

انى لاكم من علمى جواهره كى لايرى الحق ذو جهل فيفتنا
وقد تقدم فى هذا ابو حسن الى الحسين ووصى قبله الحسن
يارب جوهر علم لو ابوح به لقل لى : انت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما يأتونه حسنا (٣١)

وفسرها ابن عربى بقوله : « ونبه - بقوله : يعبد الوثنا - على مقصوده ،
ينظر اليه تأويل قوله (ص) ان الله خلق آدم على صورته - باعادة الضمير
على الله تعالى - وهو من بعض احتمالاته » (٣٢) .

والظاهر على هذه الايات التأخر ايضا وان كان اسلوبها آتق وانعم
من الايات السابقة وايرادها ينقض الايات السابقة .

ومن أهم مايرد فى هذا المجال - وهو ظاهر التهافت ايضا - ما اورده الجنيد
البغدادى الصوفى المتأخر المتوفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى - وهو
غير الجنيد شيخ الطائفة المتوفى سنة ٢٩٨ - عن على بن الحسين رواية عن
محمد بن كعب القرظى الذى قال :

« كنت فى مسجد الكوفة بعض اللالى ، فأتى على بن الحسين زين
العابدين - رضى الله عنه - فى نصف من الليل حتى بلغ باب المسجد وهو
يقول فى بعض مناجاته :

(٣١) الفتوحات المكية ١/٢٦٠ ، كتاب الامام المبين لمحبى الدين بن عربى ورقة
٤ب-٥ ، التدبيرات الالهية لابن عربى ايضا ١١٣ .

نسب ابن عربى البيتين الاخيرين الى على بن الحسين نفسه
وتمثلا منه بهما - كما مر . وتخلصا من الشك نسبها ابن عربى كلها
الى « الشريف الرضى حفيد على بن ابي طالب رضى الله عنه » . وليست
الابيات للشريف الرضى الذى نعرفه ولكن ابن عربى قدم عبارة
« الشريف الرضى » لوصف لا لتحديد الشخصية ، ولا بد انه اخذها
من مصادر شيعية . وقد اوردها الحاج معصوم على ونسبها الى الامام
السجاد المذكور (طرائق الحقائق ١/٣٤) .

(٣٢) الفتوحات المكية ١/٢٦٠ ، الكواكب الدرية ١/١٤٠ .

يا حبيبي وقرّة عيني ، غلقت الملوك ابوابها وطافت عليها حرّاسها
وبابك مفتوح • ثم دخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم أنشد :

ليك يا من انت مولاه فارحم عبيدا اليك ملجاء
طوبى لمن كان خائفا أرقا يشكو الى ذى الجلال بلواه
وما به علة ولا سقم اكثر من حبه لمولاه

فاذا بهاتف من السماء يقول :

ليك عبيدى وانت فى كنفى وكل ما قلته علمناه
دعاؤك ، عبيدى ، يجول فى حجبى فذنبك اليوم قد غفرناه
صوتك تشافه ملائكتى فحسبك ، الصوت قد سمعناه
سلنى بلا حشمة ولا رهب ولا تخف ، اننى انا الله
هذا يرى ربّه فيؤنسه سبحان من السلام حياّه
لو هبت الريح من جوانبها خرّ صريعا لما تغشاه (٣٣)

وليس من الصعب دحض التفاصيل ونسبة الايات الى زين العابدين
والملائكة ، فلم ينزل الامام الكوفة ولا زار مسجدها وانما كانت اقامته كلها فى
المدينة ، الا فترة اسره لما جاء مع ابيه الى كربلاء ثم أعيد الى الحجاز • ثم
ان هذه الايات من الركة وهذا الهاتف من الضعف بحيث لا يمكن ان
يقاوما عوامل التهافت والدحض وان كان الجنيد نفسه اثبتها فى رسالته •

ولكن المسألة كلها تنحصر فى ارادة اضافة الزهد الصوفى الى على بن
الحسين وهو حفيد على بن ابي طالب الذى اجمع اصحاب كتب التصوف ان

(٣٣) القصد الى الله ٢٢ •

له صلة وثقى بأصولهم • وقد كان من مقام على زين العابدين في المجتمع العربي ان قال فيه رجل كان واضح العثمانية وهو الجاحظ : « لم ار الخارجى في أمره الا كالشيعى ، ولا العامى الا كالخاصى » (٣٤) وعلى بن الحسين هو الذى يدور حوله شعر الفرزدق في قصيدته الشهيرة ومنها :

يفضى حياء ويفضى من مهابته ولا يكلم الا حين يتبسم (٣٥)

فابرز لنا جانباً من خلقه عبر عنه ضرار حين وصف علياً في مجلس معاوية بقوله : « وكان - مع تقريبه ايانا وقربه منا - لانكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته » ولعل رأى من يرى خطأ نسبة القصيدة الى الفرزدق قد وجه الى هذا التوافق • وقد نسب الكليني الى على بن الحسين انه كان له رأى في الزهد واقسامه ، وانه كان يقول « الزهد عشرة اجزاء : اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع واعلى درجة الورع ادنى درجة اليقين ، واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضى » (٣٦) ، وعزز الكلاباذى هذا الاتجاه بان جعل على بن الحسين « ممن نطق بعلومهم (يعنى المتصوفة) ونشر مقاماتهم ووصف احوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم » (٣٧) • ويعود الكليني فينسب الى على بن الحسين رأياً فى التوكل بقوله « رأيت الخير كله قد اجتمع فى قطع الطمع عما فى ايدى الناس • ومن لم يرج الناس فى شيء ورد امره الى الله عز وجل فى كل اموره استجاب الله له فى كل شيء » (٣٨) ، وذلك قول فيه مسحة زهدية ويعنى الاستغناء عن الناس كما فى قول معروف الكرخى : «التصوف الاخذ بالحقائق واليأس مما فى ايدى الخلائق» (٣٩) • والتوكل

-
- العلم الشامخ ١٠ (٣٤)
 - اخبار الدول ١٠ (٣٥)
 - اصول الكافي ١٦٩ (٣٦)
 - التعرف ١١ (٣٧)
 - اصول الكافي ١٨٩ (٣٨)
 - الرسالة القشيرية ١٤٩ (٣٩)

باد في قول السجاد المذكور . وادخل منه في التوكل ما يرويه الكليني ايضا من ان علي بن الحسين كان يتخوف من فتنة ابن الزبير ، فلقبه رجل عليه ثوبان ابيضان فقال له : « يا علي بن الحسين هل رأيت احدا دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا . فقال : فهل رأيت احدا توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ، قال : فهل رأيت احدا سأل الله فلم يعطه ؟ قال : لا . ثم غاب عني ، » (٤٠) ، وهذا الرجل الذي غاب لا بد ان يقرب بالامام فلعله الخضر او جبريل ، والكليني يريد ان يرتفع بالامام زين العابدين عن مستوى الزهاد فاضاف اليه هذا الاتصال بهذا الملك - علي الارجح - لان البياض يدل على ذلك .

يبقى امر مهم هو الصحيفة التي تنسب الى علي بن الحسين ، وتتضمن ادعية ومناجيات حفظها الشيعة وتشروها ، وجاء فيها - في المقدمة - انها بخط الامام زيد بن علي وباملاء ابيه زين العابدين ، وكانت نسخة منها عند متوكل بن هرون وكان من الشيعة الامامية . ويجرى بين هرون هذا ويحيى بن زيد حديث يهدف الى أن يكون العلم عند الصادق وابيه اعمق منه عند الائمة الزيديين ، لان يحيى بن زيد يقول : « كلنا له علم غير انهم يعلمون كل ما نعلم ولا نعلم كل ما يعلمون » (٤١) . وفيها ان سبب اتفاف الناس حول محمد الباقر وجعفر الصادق هو « انهما دعوا الناس الى الحياة ونحسن (الزيدية) دعوتاهم الى الموت ، وفيها مقدمات غيبية واسرار وتنبؤات . وتتضمن الصحيفة ادعية ، لكل دعاء منها مناسبة كدعاء التوحيد لله ودعاء الصلاة على محمد وآله والادعية في الاوقات المختلفة والمهمات والاعتراف وطلب التوبة والظلمات ، ودعاء يقرأ عند ختم القرآن ، وادعية للمناسبات كشهر رمضان والاعياد والجمعة وهكذا ، ثم ادعية في دفع كيد الاعداء والرهبة . . .

(٤٠) اصول الكافي ١٦٩ .

(٤١) الصحيفة السجادية ٢ .

ولا شك في نسبة كثير من اجزاء الادعية المذكورة الى الامام زين العابدين ، ولكن يبدو ان اضافات كثيرة قد اكتنفت النصوص الاصلية وسادتها الصنعة البلاغية بحيث طالت نصوصها ، والمفروض في نص الدعاء ان يكون قصيرا ليسهل حفظه كالدعاء الذي يورده صاحب اخبار الدول : « يا موضع كل شكوى ، يا سامع كل نجوى ، يا شافي كل بلوى ، يا عالم كل خفية ويا كاشف ما تشاء من كل بلية ، ادعوك دعاء من اشتدت فاقته وضعفت قوته وقلت حيلته : دعاء الغريب الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه الا انت يا ارحم الراحمين ، لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » . (٤٢) .

ويورد ابن بابويه القمي في (من لا يحضره الفقيه) ان علي بن الحسين كان يقول في سجوده : « اللهم ان كنت عصيتك فاني قد اطعتك في احب الاشياء اليك وهو الايمان بك منا منك لامنا عليك » (٤٣) وتختتم هذه الادعية بفاصلة من فواصل القرآن ، كمبارة : يا ارحم الراحمين ، انه ولي حميم ، آمين يارب العالمين ، وانت على كل شيء قدير . . . الخ .

وفي ادعية السجاد ذكر للصحابة والتابعين ودعاء لهم ، ومن ذلك : اللهم واصحاب محمد (ص) خاصة ، الذين احسنوا الصحابة والذين ابلاوا البلاء الحسن في نصره وكانفوه واسرعوا الى وفادته وسابقوا الى دعوته واستجابوا له حيث اسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الازواج والاولاد في اظهار كلمته ، وقاتلوا الاباء والابناء في تثبيت نبوته وانتصروا به . . . اللهم واصل الى التابعين باحسان الذين يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان خير جزائك ، الذين قصدوا سمتهم وتحروا وجهتهم ومضوا على شاكلتهم : لم ينتهم ريب في بصيرتهم ولا خالجهم شك في قفو آثارهم . . . (٤٤)

(٤٢) اخبار الدول ١١٠ .

(٤٣) من لا يحضره الفقيه ، طبع ايران ١٣٧٦ ، ص ٩١ .

(٤٤) الصحيفة السجادية ٣٤ .

ومن دعائه فى الاستعاذة من المكاره : « اللهم انى اعوذ بك من هيجان الحرص وسورة الغضب وغلبة الحسد وضعف البصر وقلة القناعة وشكاسة الخلق والحاح الشكوى وملكة انحمية ومتابعة الهوى ومخالفة الهدى وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة وايتار الباطل على الحق والاصرار على المأثم واستصغار المعصية واستكبار الطاعة ومباهاة المكثرين والازراء بالمقلين وسوء الولاية لمن تحت ايدينا وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا ... صل على محمد وآل محمد واعذنى من كل ذلك برحمتك وجميع المؤمنين والمؤمنات يا ارحم الراحمين » (٤٥) . وكان من دعاء السجاد اذا اعتدى عليه أو رأى من الظالمين مالا يحب : « يا من لا يخفى عليه ابناء المتظلمين ، ويامن لا يحتاج فى قصصهم الى شهادات الشاهدين ، ويامن قربت نصرته من المظلومين ، ويامن بعد عونه عن الظالمين ، قد علمت يا الهى مانائى من فلان بن فلان مما حضرت وانتهكه منى مما حجزت عليه بطرا فى نعمتك عنده واغترارا بنكيرك عليه . اللهم فصل على محمد وآله وخذ ظالمى وعدوى عن ظلمى بقوتك وافل حده عنى بقدرتك واجعل له شغلا فيما يليه وعجزا عما يناديه ... » (٤٦) ، ولعلنا لاحظنا ان كلمة : قصص تعنى الاوراق التى تكتب فيها المظالم مما كان مصطلحا عليه ايام الدولة العباسية ولم يستعمل هذا اللفظ لاداء المعنى قبل ذلك فيما نعلم . ويرد فى دعائه عند : الشدة والجهد وتعسر الامور ، عاطفة صوفية ويبان جميل كقوله : اللهم انك كلفتنى من نفسى ما انت املك به منى وقدرتك عليه وعلى اغلب من قدرتى . فاعطنى من نفسى ما يرضيك عنى وخذ لنفسك رضاها من نفسى فى عافية . اللهم لا طاقة لى بالجهد ولا صبر لى على البلاء ولا قوة لى على الفقر ، فلا تحظر على رزقى ولا تكلنى الى خالقك بل تفرد

(٤٥) ، (٤٦) المصدر نفسه ٦٥ .

بحاجتى وتول كفايتى وانظر لى فى جميع امورى ، فانك ان وكتنتى الى نفسى
عجزت عنها ولم اقم مافيه مصلحتها ، وان وكتنتى الى خلقك تجهمونى ، وان
الجبأتى الى قرابتى حرمونى ، وان اعطوا اعطوا قليلا نكدا ، ومنوا على طويلا
وذموا كثيرا . فبفضلك اللهم فاغثنى وبِعظمتك فانهشنى وبسعتك فابسط يدي
وبما عندك فاكفنى . . . (٤٧) وفى دعائه فى التذلل اسلوب جديد فيه اصالة
وتجديد وحضارة تعز على ابناء القرن الاول الهجرى فالامام زين العابدين
السجاد يقول :

مولاي مولاي انت المولى وانا العبد وهل يرحم العبد الا المولى ؟!
مولاي مولاي انت العزيز وانا الذليل وهل يرحم الذليل الا العزيز ؟!
مولاي مولاي انت المعطى وانا السائل وهل يرحم السائل الا المعطى ؟!
مولاي مولاي انت الخالق وانا المخلوق وهل يرحم المخلوق الا الخالق ؟!
مولاي مولاي انت الباقي وانا الفانى وهل يرحم الفانى الا الباقي ؟!
مولاي مولاي انت الدائم وانا الزائل وهل يرحم الزائل الا الدائم ؟!
مولاي مولاي انت الحى وانا الميت وهل يرحم الميت الا الحى ؟!
مولاي مولاي انت القوى وانا الضعيف وهل يرحم الضعيف الا القوى ؟!
مولاي مولاي انت الكبير وانا الصغير وهل يرحم الصغير الا الكبير ؟!
مولاي مولاي انت المالك وانا المملوك وهل يرحم المملوك الا المالك ؟! (٤٨)

وهذا الدعاء الاخير يصلح للحفظ والترنم والذكر لانه بسيط ورقيق
وفيه صنعة وفيه عاطفة ورقة وذلة حقة . ومهما يكن من أمر نسبة الصحيفة
الى الامام على بن الحسين فان فيها روحا وزهدا وان فيها رقة وتواضعا وقد
كان السجاد يتصف بها كلها .

(٤٧) الصحيفة السجادية ١٠١ .

(٤٨) المصدر نفسه ٢٧١ .

اما بعد فيم يكن على بن الحسين صاحب مجاهدة ولا كان يلبس الصوف ، بل يروى ابن سعد انه كان يتخضب ويلبس فاخر الثياب ويقرر انه لم يكن زاهدا الا في صلاته (٤٩) . وتلك حقيقة يجب ان تبين لان الصوف سيسود العالم الاسلامي بعد على بن الحسين وسنرى ابنه وحفيده ممن يلبسونه . فزهد على بن الحسين نفسى وعقلى باطن وذلك اجدى من الزهد القائم على الجوع ولبس الصوف لان الاول يمليه الادراك وتقييمه النظرة العميقة الى الحياة ، اما اللباس فيه تظاهر . وقد رأينا على بن الحسين يساعد ويعين في الخفاء فكان للملامة والفتوة سابقة جميلة . وتوفى الامام السجاد على بن الحسين زين العابدين في المدينة سنة ٩٤ أو ٩٥ بعد أن تعهد غرسه بالرى والنقيا ونشأ ولده الامام محمد الباقر هذه النشأة وكذلك حفيده العظيم جعفر الصادق الذى سنرى دوره الكبير فى التصوف وبخاصة التأويل الصوفى .

محمد الباقر

وكان محمد بن على الباقر سر أبيه زهدا وانقطاعا اليه وبعدا عن السياسة ، ولكنه برز فى ناحية جديدة طال عليها الزمن بعد على ، فان الاحداث التى هزت العالم الاسلامي وانشغال الائمة العلويين الثلاثة بعد على فى التطورات التى اصابت العالم الاسلامي لم تمكنهم من التفرغ للعلم ولم تتح لهم حتى الجمع بين العلم والعمل الى ان جاء الباقر بعد ابيه الزاهد هادىء النفس مملوء بالثقة بعيدا عن الاضطراب النفسى والطموح السياسى فجعل العلم قبلته ولم يعكر صفو هذا الاتجاه معكر طوال حياته . ولم يفارق الباقر الزهد لان المجتمع الاسلامي قد تلون به بحكم الاحداث التى هزته وصرفته عن طلب المال الذى كان سببا فى ذبح الحسين وعن الرأى الذى كان داعيا لمذابح الخوارج وعن العقيدة التى كانت مثارا للمآسى التى نزلت بانصار

(٤٩) ابن سعد ١٦١/٥

المختار ومحمد بن الحنفية من الشيعة وقد لقب الامام الباقر بذلك عملا بنبوته للنبي بولادته القاها الى جابر بن عبدالله الانصارى الصحابى الشيعى المشهور الذى كان يقول : «سمعت رسول الله يقول : « انك ستدرك رجلا منى : اسمه اسمى وشماله شمائلى ، يبقر العلم بقرا» (٥٠) وكانت ولادته بالمدينة سنة ٥٧/٦٧٦-٧ وورث الامامة عن ابيه سنة ٧١٣/٩٥-١٤ وتوفى سنة ١١٩/٧٣٧ على الأرجح (٥١) .

وتجلى فى الباقر الصفة الاساسية فى الشيعة الاوائل من الحفاظ على الاسلام ومحاولة منع من يفعل غير ذلك بالعدل والروية والنسنى ، وقد كان الباقر معاصرا لابي هاشم الذى التف الغلاة حوله ثم عاصر حركة الغلاة وكان - مع ذلك - يودى الواجب الذى أخذ الشيعة الاصيلون على عاتقهم اداءه ، فكان يقول لجابر : « بلغنى ان قوما بالعراق يزعمون انهم يجوتنا وينالون من ابي بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون انى امرتهم بذلك . فابلغهم انى الى الله منهم برىء . » والذى نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، لانائتى شفاعة محمد ان لم استغفر لهما » (٥٢) وكل هذا مصداق لجوهر التشيع وواجبه المقدس تجاه الاسلام ولهذا فقد كان الباقر يقول : « يا معشر الشيعة : شيعة آل محمد ، كونوا التمرقة (اى الوسادة) الوسطى يرجع اليكم الغالى ويلحق اليكم التالى » (٥٣) ، وفسر الغالى بانه من يقول فيه مالا يقول فى نفسه والتالى بانه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه » (٥٤) ، وهذا هو السبب فى ان الائمة لم يدخلوا فى معترك الصفات والجبر والاختيار والقدر ولم

(٥٠) اصول الكافى ١٢٥ ، ابن قتيبة ١/٢١٢ .

(٥٢) حلية الاولياء ٣/١٨٥ .

(٥١) فى الطبرى (ليدن ٢/١٧٠٠) انه توفى قبل خروج زيد بالكوفة سنة ١٢١ .

(٥٣) اصول الكافى ٣٦ ، طرائق الحقائق ١/٣٩ .

(٥٤) المصدر نفسه ٣٦ .

يدلوا بدلوهم في طريق الكلام المتشعبة الا ليجمعوا الاراء كلها فيخرجوا منها
كما دخلت هي في القرآن • ومعنى هذا ان اصحاب الجبر اختاروا ناحية
من القرآن واختار اصحاب الاختيار ناحية اخرى وكذلك الامر في الصفات،
والكل يستند الى آيات من القرآن ، وكان دور الائمة ان يعودوا بهذه الاراء
الى القرآن من جديد فيحملوا على التحديد والاختيار ويردوا الامر الى نصابه ،
فحين سأل الباقر عن الجبر والاختيار قال : « ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر
خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون •
فسئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة ؟ قال : نعم ، اوسع مما بين الارض
والسما » • فالباقر ينفي الجبر على الاطلاق اولا ثم ينفي الاختيار على الاطلاق
ايضا ومعنى هذا انه يجمعهما ثم يجعل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة •
وهكذا يعيد الباقر المياه الى مجاريها الحقيقية قيما بواجبه الذي يحتمه عليه
جوهر التشيع الاساسي •

وكان الزهد نفسه - كما رأينا - يعنى اجتناب الخروج على الدولة
بالسلاح وتجنب الخروج عليها بالرأى ، وتحمى الخروج عليها بالعتيدة
المختارة من بين ما يضم القرآن من اشارات ، فالزهد اذن هو البعد عن
الدخول في كفاح باليد او اللسان ، وانما هو الاعتزال ، وكان الباقر ومن قبله
ابوه من هذا الرأى ولهذا رأينا الزهاد والمتصوفة بعدئذ يجعلون الصادق
واباه وجده منهم ويجمعون معهم اسلافهم كما فعل الكلاباذى حين قال في
رجال الصوفية : « ممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم
ووصف احوالهم قولا وفعلا - بعد الصحابة رضوان الله عليهم - على بن
الحسين زين العابدين وابنه محمد بن على الباقر وابنه جعفر بن محمد
الصادق (ر) - بعد على والحسن والحسين رضى الله عنهم - واويس القرني
وهرم بن جيان والحسن بن ابي الحسن وابو حازم سلمة بن دينار المديني
ومالك بن دينار وعبدالواحد بن زيد وعتبة الغلام وابراهيم بن ادهم والفضيل

بن عياض ... (٥٥) ، وكان الباقر - كالزهاد - نفورا من القتال ، وكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين اخيه زيد بن علي ، وكان في ذلك يقول : « قال الله في الصيد : ولا تقتلوا الصيد واتم حرم ، فقتل الصيد اعظم ام قتل النفس التي حرم الله ؟ » (٥٦) ، وقد روى ابو نعيم ان هذه المسئلة مؤقتة وذكر ان محمدا الباقر قد قال : « ان الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فاذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل اجراً من ليث » (٥٧) ، ثم يحدد الشيعي بانه من اطاع الله عزوجل (٥٧) ، وهكذا يتبين الاندماج - في المبادئ - بين الزهاد والشيعة المعتدلين . وكان الباقر يلوم زيدا على اخذه عن واصل بن عطاء المعتزلي (٦٩٩/٨٠ - ٧٩٨/١٨١) لانه كان يجوز الخطأ على جده (علي بن ابي طالب) (٥٨) ولم يكن ذلك من الباقر تعصبا لجدّه مطلقا بل احالة الى التشيع الاصيل الذي اقترب منه الزهد في تحامى الدخول في تفاصيل عقلة تحدد وتفيد بل كان مبدأ الشيعة الجوهرى ان يأخذوا الاسلام كله دون ان يتركوا شيئا منه ثم صار مبدأ الزهاد ان يتركوا كل هذه الامور التفصيلية ويتجهوا الى الله وحده وتلك نقطة تلاق بين الشيعة والزهاد الى درجة ما . فاذا اضفنا الى ذلك نفور الباقر من الغلو تمت له صفة الزاهد ولكن اى زاهد ؟ الزاهد الشيعي الاصيل كأبي ذر وسلمان وعمار والشيعة الاوائل . ولهذا فان النظرة الاولى الى محمد الباقر تظهره اماما شيعيا من طراز علي بن ابي طالب من حيث نطقه بالاسرار واندماجه على العلم اللدني . وقد قسم محمد الباقر العلم السرى قسمين : « علما لا يعلمه الا هو تعالى وعلما علمه ملائكته ورسله . فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه » (٥٩) . وقد شرح

(٥٥) التعرف ١٠-١١ .

(٥٦) اصول الكافي ٩٢ .

(٥٧) حلية الاولياء ٣/١٨٤ .

(٥٨) هذا الخبر مشهور يرد في كتب الفرق كثيرا ، انظر مثلا الملل والنحل ٦٥/١ .

(٥٩) اصول الكافي ٦١ .

جعفر الصادق ذلك بقوله : « ان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان مافى الالواح » (٦٠) ، ثم اضاف الى ذلك « ليس هذا هو العلم . ان العلم الذى يتجدد يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » (٦٠) . فهذا العلم السرى المستمر يعود بنا الى اراء سلمان وحذيفة . والعلم المذكور لا يبدو محصولا من القراءات والثقافات فقط ، وانما هو استعداد والهام الهيان وتمكين منه بحيث يستطيع الامام - بما لديه من استعداد روحى شخصى - ان يصدر عن الحق دائما كما وصف ضرار الامام عليا بقوله : « يتفجر العلم من جوانبه » وهذا الذى اكتسبه الائمة بالاعداد والتمكين قد طمخ اليه المتصوفة بالمجاهدة وتطهير النفس حتى لقد وجدنا فريد الدين اعطار يصف الباقر كما يصف اى متصوف كبير بقوله : « وكان مخصوصا بدقائق العلوم ولطائف الاشارة » (٦١) وهذا جانب فى الشيعة واضح الصلة بالتصوف وسرى تفصيله فى موضعه المناسب .

وقد صب مؤلفو كتب التصوف جوانب الامام الباقر فى قالب صوفى زهدى بحيث بدا واحدا منهم . واول ما يجب ان نلتفت اليه البكاء الذى يضاف الى الباقر المعاصر للحسن البصرى المشهور وكذلك عاصر الحسن على بن الحسين كما رأينا . وقد سمعنا عليا زين العابدين يعلل بكاءه بفقده العلويين الاربعة عشر الذين قتلوا على مذبح اطماع الامويين : رآهم يقتلون رأى العين فى كربلاء ، فلم ترقا له دمة طول حياته ، وكانت صورهم تملأ عليه نهارة وليله (٦٢) ، ثم تطورت الفكرة تطورا زهديا عبر عنه زين العابدين بقوله : « فقد الاحبة غربة » (٦٣) ، وهذا محمد الباقر ابته يقول : « ما اغر ورقت عين

(٦٠) المصدر نفسه ٥٢ .

(٦١) تذكرة الاولياء ٢٦٦/٢ (ترجمة) .

(٦٢) حلية الاولياء ١٣٨/٣ .

(٦٣) صفة الصفوة ٥٣/٢ .

بماثها الا حرم الله وجهه صاحبها على النار . * بل ان محمدا الباقر يقسم البكاء
 كما قسم المعرفة (وقد فعل ابوه كذلك من قبل) (٦٤) فقال : « فان سالت على
 الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة . وما من شئ . الا نه جزاء الا الدمعة ،
 فان الله يكفر بها بحور الخطايا . ولو ان باكيا بكى في امة لحرّم الله تلك
 الامة على النار » (٦٥) ، وهكذا نرى جذور البكاء في الزهد والتصوف حتى
 تحول الى الذكر الذي يصفى القلوب كما يصفىها بكاء الشيعة على الحسين
 الذي كانت مجالس البكاء عليه تعقد زمن المأمون (في نهاية القرن الثاني)
 جهارا (٦٦) . * وقد ربط محمد الباقر البكاء بالذكر صراحة فقال « الصواعق
 تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر . * وقد رأينا البكاء ومنزلته ،
 فلا بد ان يقترن بالذكر لتمجيد الذنوب . * وهكذا اسس الشيعة - كما يبدو -
 جذور المجاهدة في الذكر ببيكائهم على شهيدهم . *

وقد زكى ابن حجر الباقر صوفيا بقوله فيه : « وله من الرسوم في
 مقامات العارفين ما تكل عنه السنة الواصفين ، وله كلمات في السلوك
 والمعارف لا تحتملها هذه العجالة » (٦٧) ومن تلك الكلمات ما يدخل في سلسلة
 السند في روايته ابو على الروذباري وسفيان الثوري وذلك في نقل قول
 الباقر في التوكل « الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فاذا وصلا الى مكان
 فيه التوكل او طناه » (٦٨) ، وقد رأينا التوكل عند الحسين ثم عند علي بن
 الحسين وهذا محمد بن علي الباقر . * ثم نجد الحب عنده ايضا كما وجدناه
 عند ابيه من قوله لجابر بن عبدالله الانصاري : « اعلم يا جابر ان اهل التقوى
 ايسر اهل الدنيا مؤونة . . . قطعوا محبتهم لمحبة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة

(٦٥) صفة الصفوة ٢/٦١ .

(٦٤) تفسير علي بن ابراهيم ٤١٦ .

(٦٦) الشيعة في التاريخ ١٨ .

(٦٧) الصواعق المحرقة ١٩٩ .

(٦٨) حلية الاولياء ٣/١٨١ .

مليكهم» (٦٩) . وهذا النص يرد في اصول الكافي للكلينى وهو اهم مرجع لاحاديث الائمة واخبارهم وثبت لاصول الشيعة . ولهذا فان هذا النص يعتبر شهادة شيعية بزهد الباقر المنبنى على الظروف الاسلامية الجديدة ، وهذه المحبة التى يعبر عنها الباقر المتوفى بين سنة ١١٧-١٢٦ / ٧٢٥-٧٤٤ سبقت الحب الالهى الذى ظهر فى البصرة وركز فى رابعة العدوية المتوفاة بعد ذلك بحوالى سبعين سنة .

وقد كان التواضع الذى صار من اهم صفات الزهاد - لا المتصوفة - من ابرز صفات محمد بن الباقر وكذلك كان من صفات ابيه ، وقد كان تواضعه مبنيا على نظر ورأى يتصلان بقدر المعرفة الذى يتناسب عكسيا مع الكبر والعجب ، فقد كان يقول : « مادخل قلب ابن آدم شىء من الكبر الا نقص من عقله مثل مادخله من ذلك : قل او كثر » (٧٠) ، واذا صدر من مثل الباقر مثل هذا القول فلا بد ان يكون مثلا اعلى يطمح اليه ومبدأ يطبق . وهكذا اختط للزهد اساسا من اساسه . ولكن فريد الدين العطار لايفلت هذه الفرصة بل رفع من تواضع الباقر حتى جعل منه مقاما ساميا لا يصل اليه اصحاب الكبر والجبروت ، فقد نقل انه سئل احد خواص الباقر : كيف يقضى الامام ليله؟ فقال : « اذا جاء الليل وفرغ من ترديد الاوراد ، قال فى صوت عال : الهى وسيدى ، حل الليل وآنت ولاية تصرف الملوك وظهرت التجوم ونام الخلائق » (٧١) ، وهكذا ارتفع التواضع فى نظر المتصوفة حتى صار جلالا بعده جلال السلطان المادى . وروى عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١/٧٩٧ حكاية تجعل الباقر كالخضر ، وتجعل له كرامة الصوفية المتأخرين وتنطقه باسلوبهم ، حدث عبدالله بن المبارك قال : « كنت بين مكة والمدينة ، فاذا انا

(٦٩) اصول الكافي ١٨٥ .

(٧٠) صفة الصفوة ٢/٦٠ .

(٧١) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ ترجمة ، وانظر اول صفحة ١٦٣ من هذا الكتاب .

بشبح يلوح في البرية ، يصهر تارة ويغيب اخرى حتى قرب منى ، فأملته فاذا هو غلام سباعي او ثمانى ، فسلم على فرددت عليه السلام فقلت : من اين ؟ قال : من الله ، فقلت والى اين ؟ فقال : الى الله ، فقلت : علام ؟ قال : على الله . فقلت : فما زادك ؟ قال : التقوى ، فقلت : ممن انت ؟ قال : انا رجل عربى ، قلت : ابن لى قال : انا رجل قرشى ، فقلت : ابن لى قال : انا رجل هاشمى فقلت : ابن لى ، قال انا رجل علوى ، ثم انشد :

فنجن على الحوض رواده نذود ونسعد ووراده
فما فاز من فاز الابنا وما خاب من جبا زاده
ومن سرنا نال منا السرو ر ومن ساءنا ساء ميلاده
فمن كان حقا لنا غاصبا فيوم القيامة ميعاده

ثم قال : انا محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ثم التفت فلم اره فلا اعلم هل صعد الى السماء ام نزل فى الارض ، (٧٢) ، وقد توفى عبدالله بن المبارك سنة ٧٩٧/١٨١ وهو هنا يروى عن الباقر فى طفولته مع انه توفى قبله باكثر من خمسين سنة . والمهم ان عبدالله بن المبارك كان ممن تفقهوا على سفيان الثورى ، فروايته عن الباقر تجرنا الى ان الزهاد والمتصوفة قد اعجبهم من الائمة الاوائل زهدهم فارادوا ان يجعلوا منهم قدوة يقتدون بها وجعلوا مبادئهم الخلقية والسياسية الموازية لمبادئ الزهاد شيئا يهتدون به ، وكانت اسس التصوف فى بداية وضعها فاستفاد الزهاد من الائمة استفادة ظاهرة حتى رأيناهم فى النهاية ينسبون التصوف كله الى على عن طريق اولاده هؤلاء وسنرى ذلك كله فيما بعد . وقد صرح العطار بذلك فقال فى محمد الباقر الذى انهى سيرته كتابه : تذكرة الاولياء مانصه : « ذلك حجة اهل المعاملات ، ذلك برهان ارباب المشاهدات ذلك امام اولاد النبى ، ذلك كريم

(٧٢) طرائق الحقائق ٢/٨٨ عن كشف الغمة .

احفاد علي ، ذلك صاحب الظاهر والباطن : ابو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه • والسبب الذى من اجله بدأنا هذه الطائفة بجعفر الصادق - لكونه من ابناء المصطفى عليه الصلاة والسلام - هو السبب الذى ختمنا من اجله هذه الطائفة بالباقر» (٧٣) هذا هو الباقر فى امامته وزهده وشيعيته الاصيلة التى حددناها فى اول هذه الرسالة • وقد خلف الامامة لابنه جعفر الصادق الذى سار بكل هذه السبل الى نهايتها ووضح ما كان صعبا على الباحثين الانتباه اليه من شؤون العلم والاسلام والعقيدة •

اما بعد فيجب ان لاتفوتنا ملاحظة مهمة هى ان الباقر قد عاصر حركة شيعية كبيرة صارت منهجا لكثير جدا من الشيعة : حركة تعتمد على نضاد الصبر والخروج على الظلم بالسيف تحت قيادة رأس علوى هو زيد بن علي • وقد غذى هذه الحركة مارأيناه من مسالمة على زين العابدين وبكائه المستمر ومتابعة الباقر لهذه السياسة وهو وصى ابيه ووارث علمه ومقامه ، تلك هى الزيدية التى بدأت سنة ٧٢٩/١٢١ بالكوفة ومازالت باقية حتى الان فى اليمن ، وسنرى ذلك فى الفصل المقبل •

زيد والزيدية

كانت الحركات الزيدية ثورات دموية على الظلم والجور بعد ذلك الركود الذى اصاب الحركات الشيعية بعد قتل الحسين وقد كان جوهر حركات الزيدية قول امامهم الاول زيد بن علي : « ماكره قوم قط حر السيوف الا ذلوا» (٧٤) وزيد هو القائل : « والله لو ددت ان يدي معلقة (بالثريا) فاقع على الارض او حيث اقع فانقطع قطعة قطعة دون ان اصلح بين امة محمد» (٧٥)

-
- (٧٣) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ (ترجمة) •
 - (٧٤) خطط المقرئى ٤/٣٠٩ •
 - (٧٥) مقاتل الطالبين ١٢٩ •

وهذا الاصلاح الذى يعنيه زيد هو الخروج بالسيف ، وقد خرج زيد قتل سنة ١٢١/٧٣٩ فى الكوفة و صلب بعد قتله خمسين شهرا عريانا ثم احرق (٧٦) فصار مثلا اعلى لابنائه وابناء عمومته يتأسون به ويضحون بانفسهم فى سبيل تحقيق المثل العليا التى كانوا ينشدون تحقيقها ولقى ابنه يحيى المصير نفسه سنة ١٢٥/٧٤٢ (٧٧) . وكانت حركة زيد اول دعوة التف حولها انصار من المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والرى وجرجان مع اهل الكوفة انصار العلويين المعهودين . ويجب ان نضيف الى ذلك ايضا ان زيدا كان رجلا شعبيا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى وان امه كانت امة سندية اهداها المختار الى ابيه . وكانت حركة زيد وشخصيته تملان ثورة على طيبة الامام الشيعى ، فانه عادة كان رجلا واحدا يطبعه العلويون والشيعى ، ولكن زيدا سمح لنفسه ان يخرج على امامة اخيه محمد الباقر فاجتمع امامان فى وقت واحد وصارت هذه الخطة منهجا للزيدية فيما بعد فلم يمنعوا ان يكون لكل ناحية امام على ان يجمع الصفات المطلوبة فيه (٧٨) . وقد سمح زيد لنفسه بامر لم يكن احد من الشيعة يجروء على الظهور به - بله الامام - وذلك انه نزل من علياء الامامة وسموها وامتيازها ورضى ان يتلقى العلم من رجل عادى للعقل عنده المقام الممتاز ، ولا تدخل العناية الالهية ولا السمو الروحى فى عقائده ذلك هو واصل بن عطاء الغزال الذى كان

(٧٦) مروج الذهب ٢/١٨٢ .

(٧٧) ذكر ابو الحسن الاشعري (فى مقالات الاسلاميين ١/٧٥-٨٥) ثمانية وعشرين نائرا من آل البيت ابتداء من ايام الحسين الى بداية القرن الرابع الهجرى . ويلاحظ ان الاشعري قد تفادى الاشارة الى الفاطميين ورجالهم وعمائدهم بتهـ ولعل لذلك مدخلا الى الحالة السياسية آنئذ او لعله كتب الكتاب قبل ظهورهم جهارا . وقد توفى ابو الحسن سنة ٣٢٤ .

(٧٨) الزام النواصب ٨ .

يرى احتمال كون على فاسقا (٧٩) • واتخذ المنهج العقلي المأخوذ عن المعتزلة سبيلا في العقائد الرئيسة للزيدية • وطلع زيد على العالم الاسلامي بمذهب جديد في الخلافة حل به عقدة طالما ابعدت الناس عن العلويين وشيعتهم • ذلك ان مذهب زيد كان «جواز امامة المفضل مع قيام الافضل» (٨٠) وشرح زيد ذلك بقوله « كان على بن ابي طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة فوضت لابي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائرة الفتنة وتطيب قلوب العامة» (٨٠) وقد اجاب من ناقشه في الفرق بين من ظلم حق على دون ان يوسم به ، على رأى زيد ، ومن ظلم العلويين عندئذ بقوله : « ان هؤلاء ليسوا كأؤلئك : ان هؤلاء (يعنى الامويين) ظالمون لى ولكم ولانفسهم ، وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والى السنن ان تحيي والى البدع ان تطفأ » (٨١) وقد صرح زيد بانه ما سمع احدا من أهل بيته يتبرأ من ابي بكر وعمر رضى الله عنهما ولا يقول فيهما الا خيرا (٨٢) فخرج زيد من الخلاف الشخصى الضيق وحصر مسألة الخلافة التى حرم على منها فى ظلم وقع على على شخصا دون ان يشمل الظلم المجتمع والدين • وقد اضاف زيد شرطا شعبيا آخر الى الامام هو ان يكون قائدا حريبا يشترط فيه الخروج (٨٣) (بالسيف) فصار الائمة الزيديون مجموعة من المهديين ولم يحتاجوا - لذلك - فى مذهبهم الى التعلق بفكرة المهدي المنتظر كغيرهم من الشيعة الذين ركزوا الى السكون فى انتظار الخروج مع مهديهم الذى سيخرج بالسيف فى يوم من الايام • وهكذا تميزت الدعوة الزيدية بالمذهب العقلي اخذنا عن المعتزلة وقرنت به الرأى فى الفقه الذى اخذته عن ابي حنيفة

(٧٩) الملل والنحل ١/٦٥ •

(٨٠) الملل والنحل ١/٢٥٠ •

(٨١ ، ٨٢) الطبرى ٨/٢٧٢ •

(٨٣) الملل والنحل ١/٢٥٢ •

المتوفى سنة ٧٦٧/١٥٠ وقد قيل: انه كان تلميذا لزيد ستين^(٨٤) ومهما يكن من شيء فان المنهج العقلي واضح في اخص خصائص مذهب زيد الذي جعل الامام انسانا كالناس يتعلم ويسمع ويتناقش • وقد كان زيد زاهدا شأن المتدينين المخلصين في ذلك الوقت الذي انتشر فيه لبس الصوف تعبيرا عن معارضة صامته ازاء ما فرضه سليمان بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٩ وكذلك هشام المتوفى سنة ٧٤٣/١٢٥ من لبس الخبز كما سئرى فيما بعد • وكان زيد « يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل: ما يرجع على الدنيا »^(٨٥) ، واخبرنا محمد بن ايوب: « ان اهل النسك كانوا لا يعدلون بزيد احدا »^(٨٥) • وقد اتاح هذا الاتجاه الزيدي - من النزول بالامام من عليائه بالاضافة الى ظهوره بمظهر الزهاد - للمتصوفة فيما بعد ان يطمحوا الى السمو مادامت الامامة قد خرجت من حد النص الالهى وصارت مجموعة من المثل الخلقية تتمثل في رجل « فاطمي عالم زاهد شجاع سخى خرج بالامامة »^(٨٦) « باختيار أهل النحل والنقد لا بالنص »^(٨٧) ، فرأينا مجموعة من الزهاد تلتف حول زيد كمنصور بن المعتمر الذي كان يدعو الى الخروج مع زيد^(٨٨) وسفيان الثوري الزاهد المشهور الذي كان الزيديون يعتبرونه واحدا منهم^(٨٩) • ولم يقتصر الامر على التفاف الزهاد حول زيد بل رأينا قوما من شيعة اخيه محمد الباقر يلتحقون بدعوة زيد ويضيفون الى المذهب الجديد ما يسبغ عليه القداسة التي حاول زيد ان يخفف منها ، ومن ذلك ما قاله ابو الجارود المتوفى بعد سنة ٧٦٧/١٥٠ : « الحلال حلال آل

(٨٤) تاريخ الكوفة ٢٢٧ عن الروض النظير ٨ (طبع بومباي ١٣١٥ هـ) .

(٨٥) مقاتل الطالبين ١٢٨ •

(٨٦) الملل والنحل ١/٢٤٩ •

(٨٧) مقدمة ابن خلدون ٢٠٠ •

(٨٨) مقاتل الطالبين ١٤٠ •

(٨٩) المصدر نفسه ١٤٦ •

محمد (ص) والحرام حرامهم والاحكام احكامهم ، وعندهم جميع ما جاء به
النبى (ص) ، كله كامل عند صغيرهم وكبيرهم ، والصغير منهم والكبير فى
العلم سواء ، لا يفضل الكبير الصغير : من كان منهم فى الخرق والمهد الى
اكبرهم سنا ، (٩٠) . وهكذا عاد السمو والتوفيق الالهى والعلم اللدننى
فانصا على آل محمد جميعا بعد ان كان مركزا فى الامام المفرد وحده ، وصار
الرجل منهم ، ليس يحتاج ان يتعلم من احد منهم ولا من غيرهم : العلم ينبت
فى صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، فان الله - عز وجل - قد علمهم بلطفه
كيف شاء (٩١) . ويجب الا يفوتنا هنا ان ابن عربى يوافق على هذه
الفكرة الشيعة بقوله : « ولا يتبعض اهل البيت . . . فمن خان اهل البيت
فقد خان رسول الله ومن خان ماسنه رسول الله (ص) فقد خانته صلى الله
عليه وسلم فى سنته » (٩٢) ، وموافقه ابن عربى تعكس - فى الواقع - ما احسه
الصوفية قديما من الروح بالتخفيف من الصعوبة التى تحصل دون بلوغ
الناس العاديين منزلة الولاية بالمجاهدة والسلوك ، فان ترك الولاية فى واحد
والنص عليها نصا الهيا يمنع غير المنصوص عليه بها من بلوغ منزلته ، فجاء
الزيدية فزالوا هذا الحد وجعلوا القيادة وحدها للفاطميين وجعلوا العلم
شائعا بين الناس يطلبه من يستطيعه ، ولم يجعلوا العلم خاصا ولا سرا ففتحوا
السبيل للجادين لبلوغ ما يجدون من اجله ، وهكذا رأينا الطموح الصوفى
الى الولاية يتنفس . ومما يوضح هذه الفكرة ان ابن عربى قد تبنى فكرة
امامة الفضول التى نادى بها زيد وحل بها اشكال خلافة ابى بكر وعمر ، بل
ان ابن عربى ليسند ذلك بخبر يرويه عن النبى ، وذلك ان رسول الله (ص)
صلى خلف عبدالرحمن بن عوف بلا خلاف وقضى ما فات ، (٩٣) واضاف الى

(٩٠) فرق الشيعة ٥٥ .

(٩١) فرق الشيعة ٥٦ .

(٩٢) الفتوحات المكية ٤ / ١٣٩ .

(٩٣) المصدر نفسه ١ / ٤٤٨ .

ذلك تعليقه « احسنتم اعتبار ذلك ، الفاضل يصلى خلف المفضول ليرقى همته ويرغبه في طلب الانفس والاعلى » (٩٣) ، وبذلك نجد الحل المنشود والتوفيق بين سمو اهل البيت وبين اتاحة الفرصة لغيرهم من المسلمين لبلوغ منزلتهم لا بالنسب والوراثة الروحية بل بالعمل والمجاهدة ، وسنجد الحلقة المفقودة التى تنقص صورة الصوفى فى رقيه المستند الى الافكار الشيعة عند الاسماعيلية بعد بحثنا لجعفر الصادق •

وقد استهوت الحركة الزيدية الغلاة من الشيعة رغم ما بينهما من تناقض فرأينا اصحاب المغيرة بن سعيد العجلي يقولون - بعد موته - بمهدية محمد بن عبدالله الحسن الزيدى الذى خرج بالمدينة سنة ١٤٥/٧٦٢-١٣، (٩٤) • وقد ناصر اصحاب الحديث والفقهاء والزهاد الحركات الزيدية لانهم وجدوا فيها الروح مما كانوا يعانونه من ضيق مادي وعقيدى ، فقد حلت العقيدة الزيدية مشكلة التشيع وصبت الناس فيه ووجدنا مالك بن انس يقضى بالخروج مع محمد بن عبدالله بن الحسن (٩٥) وخرج معه الزاهد عبدالله ابن عطاء وبنوه التسعة جميعا (٩٦) ، وكان سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨ يقول فيه : « ان يرد الله خيرا بهذه الامة يجمع امرها على هذا الرجل وهل ادركت خيار الناس الا الشيعة » (٩٧) ، وكان الزاهد ابن هرمز الذى بايع زيدا من قبل (٩٨) قد خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن فى محفة وقال : ما فى قتال ولكن احب ان يتأسى بى الناس (٩٩) ،

(٩٤) الملل والنحل ١/٢٩٤ •

(٩٥) مقاتل الطالبين ٢٨٣ •

(٩٥) مقاتل الطالبين ٢٨٣ والطبرى ٩/٢٠٦ •

(٩٦) المصدر نفسه ٢٩٣ •

(٩٧) المصدر نفسه ٢٨٩ •

(٩٨) تاريخ الكوفة ٣٣٨ •

(٩٩) الطبرى ٩/٢٢٩ •

وقد كان ابو حنيفة الذى سمه المنصور سنة ٧٦٧/١٥٠ يرى « ان القتل مع ابراهيم بن عبدالله (اخى محمد) يعدل قتله - نوقتل - يوم بدر ، وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة » (١٠٠) ، ويروى ابو الفرج ان اصحاب الحديث جميعا خرجوا مع ابراهيم بالبصرة (١٠١) مع انها كانت معقل العثمانية .

وأشار ابو الحسن الاشعري الى خروج المعتزلة فى البصرة مع ابراهيم وأنهم قتلوا بين يديه (مقالات الاسلاميين ١/٧٩) . وقد بقى الرأى المعتزلى فى الزيدية منذ نشأته وما زال فيها . وقد كانت حركات الزيدية تلعب بقلوب الناس وتعال اعجابهم لما فيها من اخلاص وتجرد حتى لقد وجدنا العامة من اهل بغداد يتولون الثائر يحيى بن عمر بن الحسن بن زيد (١٠٢) الذى ظهر سنة ٢٥٠/٨٦٤ (١٠٣) .

وكان الائمة الزيديون - كزيد - مجموعة من الزهاد المتقشفين ، بل كان منهم من يسمى بالصوفى كمحمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن على بن ابي طائب الذى قتله الرشيد مجبوسا (١٠٤) ، وكان محمد ابن جعفر الصادق يخرج الى الصلاة بمكة فى سنة ٢٠٠/٨١٥-١٦ بمائتى رجل من الجارودية وعليهم ثياب الصوف وسيماء الخير ظاهر (١٠٥) ، وكان ثائر زيدى آخر يوصف بالصوفى وهو محمد بن القاسم لانه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الابيض (١٠٦) .

(١٠٠) مقاتل الطالبين ٣٦٩ .

(١٠١) المصدر نفسه ٣٧٧ .

(١٠٢) تاريخ الكوفة ٣٦٤ .

(١٠٣) مروج الذهب ٢/٤١٠ .

(١٠٤) مقاتل الطالبين ٤٠٨ .

(١٠٥) المصدر نفسه ٥٤٠ .

(١٠٦) المصدر نفسه ٥٤٠ .

وقد يبدو هذا الزهد العام في أئمة الزيدية عاملا صار له اثر في الزهد والتصوف ، غير ان الواقع يحكم بخلاف ذلك لان اتجاه الزيدية المعتزلى فى الاصول واتخاذهم الرأى فى الفقه قد طبع عقيدتهم بالطابع العقلى الذى يتفر منه التصوف ، بل كانت الحركات الزيدية تلقى هوى من الناس لانها كانت تشبع روح التذمر فيهم ، والخروج على الدولة ليس من طابع الزهد والتصوف بل العكس هو الصحيح . ذلك لان الخروج يستلزم التجمع ، والزهد والتصوف فرديان ، وقد قال رويم البغدادي فى ذلك : « ما تزال الصوفية بخير ماتنا فروا » (١٠٧) . وكان عبدالواحد بن زيد يقول فى وصف الزهاد : « القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم » (١٠٨) ، وقال السرى السقطى : « من اراد ان يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس » (١٠٩) . بل لقد ذهب الكلاباذى الى ابعد من ذلك فصرح فى جلاء ان الصوفية : « لا يرون الخروج على الولاية بانسيف وان كانوا ظلمة » (١١٠) وليس هذا بدعا فى التصوف فان سفيان الثورى نفسه - على تأييده حركة محمد بن عبدالله بن الحسن - الناصر الزيدى - يعيب على ابن خالد الاحمر الزاهد المتوفى سنة ٨٠٥/١٨٥ خروجه مع ابراهيم » (١١١) وكان من الغريب فى الزيدية - وهم شيعة يعتمدون فى الاصل على القيم الروحية - ان تجرد عقيدتهم هذا التجرد الواضح من الروحانيات - ولم يكن ذلك بالامر الطبيعى - ولهذا فان الزيدية مالت قليلا قليلا عن هذا الجفاف فدخلها - اول مادخلها - رأى النجارودية (وهم فرقة من الزيدية) التسوية فى العلم بين صغير آل محمد وكبيرهم وهو العلم

-
- ١٠٧) الرسالة القشيرية ١١٦ .
 - ١٠٨) اللمع ٢٥ .
 - ١٠٩) طبقات الصوفية ٤٨ .
 - ١١٠) التعرف ٣٣ .
 - ١١١) مقاتل الطالبين ٣٥٦ .

النسبى» (١١٢) ثم ادخل ابو الجارود النص على امامة على على صورة مخففة
 هى النص بالوصف لا بالاسم . وقد كان ابو الجارود من انصار محمد الباقر
 من قبل . وكان السليمانية - وهى فرقة زيدية - اتباع سليمان بن
 جرير يكفرون عثمان وطلحة والزبير وعائشة ، (١١٣) وتلك من سمات
 الشيعة بعد على وان تكن فيها سمات التقاليد المعتزلية . ومن الطريف انهم
 لم يستطيعوا الاستمرار على تطبيق مانادوا به من امامة المفضول وذلك ان
 الشهرستاني يخبرنا انهم « مالوا بعد ذلك عن القول بامامة المفضول وطغنت
 فى الصحابة طعن الرافضة» (١١٤) .

وكان اصل كتاب الجفر الذى حوى علم ماسيق لاهل البيت على
 العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص مرويا عن جعفر الصادق عن
 طريق راوية زيدى هو هرون بن سعيد العجلي وكان من رؤوس الزيدية
 القدامى (١١٥) ونحن نعلم ان المعجزات والكرامات والنبوءات امور تنكرها
 المعتزلة والزيدية التى اتصلت بها واخذت عنها ، غير ان الكرامات بدأت
 تقترن بالائمة الزيديين ابتداء من المنصور بالله القاسم بن على العياني الذى
 ظهر فى الشام وافئذ رسله الى اليمن سنة ٣٨٨/٩٩٨ . وكانت كراماته
 لاتحصى (١١٦) وكانت للحسين بن قاسم (٣٨٤-٤٠٤/٩٩٤-١١٤)
 كرامات ايضا (١١٦) ، ويصف الشيخ الواسع الامام الهادى الحقيقى المتوفى
 سنة ٤٩٠ بان « كان معه من العلم ما يكفى اثنى عشر اماما » (١١٧) ، وكان
 الامام الكيسمى الحسينى مستجاب الدعوة (١١٧) ، وكان الامام المتوكل على

(١١٢) فرق الشيعة ٥٥ .

(١١٣) الملل والنحل ١/٢٥٩ .

(١١٤) المصدر نفسه ١/٢٥٤ .

(١١٥) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ .

(١١٦) تاريخ اليمن ٢٥ .

(١١٧) المصدر نفسه ٢٨ .

الله (٥٠٠-٥٦٦/١١٠٦-١١٧١) يقول الشعر الفصيح في حال الطفولية^(١١٨) ، وكان الامام المنصور بالله (٥٦١-٦١٣/١١٦٥-١٢١٧) فرغ من قراءة القرآن وهو في الرابعة من عمره وفي هذا التاريخ كان يتأسف على تفریطه بالعلم^(١١٨) ، وهكذا غلبت على تطبع الزيدية طبيعة الشيعة الاصلية . ويقرر الشيخ صالح القبلي ان ثلب بعض الصحابة قد عاد الى الزيدية شأن الشيعة الاقدمين مع ان الامام المنصور بالله الزيدى كان يقول « لا اسأل عن عدالة ثلاثة قرون »^(١١٩) . بل ان الزيدية يقولون بالتقليد^(١٢٠) وهو من اهم مميزات الشيعة في الفقه . والتقليد هو ان ينتخب الشيعي فقيها يجعله شيخا له ومعتمدا في معرفة الحلال والحرام ويسلم اليه زكاته وخمسه ويستشيره في امور دينه بعد ثقته في صدقه وعدالته ونزاهته وصدق تدينه . وصار الاجتهاد عنصرا مهما عند الزيدية كما هو كذلك عند الشيعة الامامية ، وقد اقتضت طبيعة الزيدية التي تجعل الامامة في من يجمع الناس على عدالته ونزاهته وشجاعته ان تختار القول بالاجتهاد ، وهو اتجاه شيعي امامي . بل لقد اختاروا في الفقه ان يكونوا مصوبة يرون ان كل مجتهد مصيب وتلك فكرة دخلت الزيدية من ايام المهدي ابي عبدالله الداعي^(١٢١) . ولقد دخل الحذر الذي يقرب من التقية التي حاربها الزيديون في عقيدتهم لانهم يحرمون صلاة الجمعة في بلد السلطان ليس على شرطهم^(١٢٢) ولعل ذلك يعنى تجنب الفتنة وهو داخل في التقية كما يبدو . بل لقد عاد الزيديون الحاليون الى ما تجنبوه من صدام مع الفرق الاخرى من اقامة الحداد على الحسين وما كان يتبع ذلك من اثاره للاحقاد

-
- (١١٨) تاريخ اليمن ٢٩ .
 - (١١٩) العلم الشامخ ٣٠٧ .
 - (١٢٠) المصدر نفسه ٣٦١ .
 - (١٢١) المصدر نفسه ٣٧٧ .
 - (١٢٢) المصدر نفسه ٣٥٢ .

وهم الآن يفعلون ، (١٢٣) واخيرا يخبرنا امين الريحاني ان العصمة لحقت ائمتهم في القرن العشرين ، ولعلها كانت كذلك من قبل (١٢٤) . وهكذا نفرغ من الزيدية التي تميزت باستغنائها عن المهديّة باستمرار الامامة عندهم على ان يكون الامام رجلا عادلا ورعا نزيها ينتخبه الناس ويشترط فيه ان يكون من نسل الحسن او الحسين ، ويخبرنا الشيخ المَقْبَلِي ان العوام في اليمن يكادون يلحقون الامام بالنبي ويحاربون معه بلا جعل كسائر الملوك (١٢٥) .

ونعود من هذه الجولة - التي رأينا فيها الزيدية قد حررت الصوفية من القيد الذي تقيد به الشيعة من جعل الامام في مقام لا يمكن لانسان اخر ان يرتقى اليه - نعود الى التشيع من جديد لنرى ماجد عليه حين رجعت الامامة من محمد الباقر اخي زيد الى جعفر بن محمد الصادق الذي عرف بانه اشهر واظهر امام عند الشيعة .

جعفر بن محمد الصادق

وجاء الصادق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فارسي للتشيع أسسه وأقام بناءه ، فقد تفرغ هو كما تفرغ ابوه من قبل - للعلم وخدمته ، وترك السياسة والملك لظالبيهما وما كان اكثرهم . فقد عاصر الصادق حركة الغلوفى اعنف مراحلها وحركة ابي مسلم الخراساني وحركة عبدالله بن معاوية وحروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركة الزهد ثم حركات الزيديين ، حتى استقر الامر واستوت الامور لابي جعفر المنصور . وظل الصادق في كل هذا بمنأى عن التيارات واصر على ماهو فيه من انقطاع للعلم . وقد خدم الصادق وابوه الباقر العلم نصف قرن من الزمان في وقت كان المجتمع العربي فيه طافحا بالنشاط العقلي والحربي . وقد كان الصادق

(١٢٣) ملوك العرب ١/٩٠ .

(١٢٤) المصدر نفسه ١/١٠٢ .

(١٢٥) العلم الشامخ ٣١٨ .

وابوه ابرز ائمة الشيعة بلا منازع ، وقد اجمع الباحثون على فضل الصادق لهذا التجرد للعلم فقال فيه الشهرستاني : « وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات . وقد اقام بالمدينة فيفيد الشيعة المتيمين اليه ويفيض على المواليين له اسرار الحكمة . ثم دخل العراق واقام بها مدة ما تعرض للإمامة قط ولا نازع احدا في الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ومن تملّى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط» (١٢٦) . وقد نقل ابو نعيم عن عمرو بن المقدام قوله : « كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت انه سلاله النبيين» (١٢٧) . ويجب ان نذكر - قبل ان يستغرقنا البحث ان المنصور هو الذي اطلق عليه لقب الصادق (١٢٨) لانه تنبأ له بان امر الخلافة سيكون للعباسيين بعد الامويين ، وتنبأ بالقتل للتوار العلويين (١٢٩) ، ولعل هذا هو سر استطاعة الصادق نزول الكوفة دون ان يتعرض له السلطان بالمطاردة والحرب ، ولعل المنصور قد شجعه على اثار العلم ليخفف من اندفاع الشيعة للثورة عليه مع الزيديين .

وقد كان الصادق استاذا لجيله المعاصر ، ويرى دونالدسون انه « قد كانت له شبه مدرسة سقراطية» (١٣٠) ويجعل جرجي زيدان من تلامذته ابا حنيفة المتوفى سنة ١٥٠/٧٦٧ ، ومالك بن انس المتوفى سنة ١٧٩/٧٩٥ وكذلك واصل بن عطاء شيخ المعتزلة المتوفى سنة ١٨١/٧٩٧ (١٣١) ، ويضيف اليهم ابن حجر : يحيى سعيد وابن جريج وشعبه وايوب

-
- (١٢٦) الملل والنحل ١/٢٧٣
 - (١٢٧) حلية الاولياء ١/١٩٣
 - (١٢٨) مقاتن الطالبين ٢٥٦
 - (١٢٩) المصدر نفسه ٢٠٦
 - (١٣٠) عقيدة الشيعة ١٤٨
 - (١٣١) الامويون والعباسيون ١٥٣

المسختياني (١٣٢) ، ويورد ابو نعيم قائمة طويلة من تلامذته والرواة عنه منهم :
 مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح المشهور (١٣٣) . وروى النجاشي انه
 كان في مسجد الكوفة وحده تسعمائة شيخ من تلاميذه (١٣٤) . ويرى السيد
 أمير على ان « مدرسة الصادق في المدينة كانت استمرارا لمدرسة علي بن ابي
 طالب من قبل » (١٣٥) ، وقد نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان
 وانتشر صيته في جميع البلدان (١٣٦) . وكان هذا المقام داعيا لكثرة النسبة
 اليه حتى عاد هذا الاجماع على فضله والاخذ عنه مورثا للضد منه الى حد دفع
 البخاري الا يروى عنه شيئا من حديثه (١٣٧) .

وقد علل الكشي - وهو من اوائل مصنفى الشيعة - ذلك بخبر نقله عن
 شريك حين سأله رجل عن علة تضعيف حديث الصادق ، فرأى أنه « كان
 ابن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتفه قوم جهال يدخلون عليه
 ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ويحدثون باحاديث
 كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون
 منهم الدراهم ... » (١٣٨) . وقد استمر الصادق محافظا على رسالة الشيعة
 من الاستقلال في العقيدة وتجنب اختيار وجه منها وتفضيله على آخر كما
 كان المجتمع الاسلامي يفعل وقد كانت سورة الآراء المتناحرة في الصفات
 والخلق والجبر والقدرة وغيرها على اشدها يومئذ . ولهذا فقد كان الصادق
 يقول في الارادة : « ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا

-
- (١٣٢) الصواعق المحرقة ١٩٩ .
 (١٣٣) حلية الاولياء ١٩٨/٣ .
 (١٣٤) كتاب الرجال ، بومبي ١٣١٧ ، ٢٩ .
 (١٣٥) مختصر تاريخ الاسلام ٧٦ .
 (١٣٦) الصواعق المحرقة ١٩٩ .
 (١٣٧) ضحى الاسلام ٢٦٥/٣ .
 (١٣٨) معرفة اخبار الرجال ٢٠٨ .

طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا . فما باننا نشتغل بما اراده بنا عما اراده
منا ، (١٣٩) ، ويضيف الشهرستاني الى ذلك معلقا بقوله : « وهذا قول في
القدر هو امر بين امرين : لاجبر ولا تفويض » (١٣٩) .

وقد بنى المتصوفة نحونا من هذا الاتجاه وحاولوا الاستقلال عن
خصومات الفرق ومتكلميها ، فقال ابن عربي :

فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا وان قلت بالتشبيه كنت محمدا
وان قلت بالامرين كنت مسودا وكنتم اماما بالمعارف سيدا (١٤٠)

ويروى الكليني ان الصادق كفر المرجئة والقدرية والحسورية (١٤١)
ويضيف اليه قوله : « فان الكلام في الله لا يزداد صاحبه الا
تحييرا » (١٤٢) . ولكن الفرق الاسلامية - على اختلافها - ادعت الصادق
لنفسها ، فقد نفى عنه الشهرستاني القول بالغية والرجعة والبداء والتناسخ
والحلول والتشبيه (١٤٣) ، مع ان امامة موسى بن جعفر ولده قد وصلتته
بالبداء الذي رأيناه عند اصحاب المختار اولا ، وكذلك انتقلت الامامة الى
الحسن بن علي الامام الحادي عشر من اخيه بالبداء ايضا . اما الحلول والتشبيه

(١٣٩) الملل والنحل ١/ ٢٧٣ .

(١٤٠) ورقة ٧٨ ب في المخطوط المرقم Op. 3684 في المتحف البريطاني
بلندن الذي يتضمن رسائل ومقالات صوفية .

(١٤١) اصول الكافي ٢٣٤ .

(١٤٢) المصدر نفسه ٢٠ .

ويورد ما سينيون عن تفسير البقلي عبارة تبين اتحاد نور محمد بالائمة
وكونهما من عنصر واحد ازل ، فروى عن الصادق انه قال : « اول
ما خلق الله نور محمد (ص) قبل كل شيء واول ما اوجد الله - عز وجل -
من خلقه ذرة محمد - صلعم - واول ما جرى القلم : لا اله الا الله ومحمد
رسول الله » (الطواسين ١٥٩ «التعليقات» عن تفسير البقلي) .

(١٤٣) الملل والنحل ١/ ٢٧٣ .

والرجعة والغيبة فان الشيعة قد اضافوها اليه فعلا كما اضافوها الى سابقه وكانت تلك العقائد ضرورة ماسة لهم . وقد تعلق الغلاة بالصادق ايضا حتى الهوه (١٤٤) ، ومنهم من جعل منه مهديا منتظرا (١٤٥) ، وسنرى منزلته في الزهد والتصوف في موضعها . وعلينا الآن ان نتدر فنقول : ان من كتب عنه من سائر الباحثين انما جعله اماما للشيعة كما رأينا ذلك عند الشهرستاني . فالامامة الشيعية تطغى عليه وتغلب على احاديثه وافكاره ، ولكنها امامة علمية وروحية ليس من جوهرها السياسة والمادة . وقد روى لنا الكليني ان الصادق يرى للائمة منزلة روحية سامية تقرب من منزلة النبوة الا انهم ليسوا بانبياء ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي ، اما ماعدا ذلك فهم بمنزلة النبي (١٤٦) ، وهو بذلك يجعل لهم مقام الابلاغ عن النبي وكان تعاليمهم هي تعاليم النبي نفسها . وذلك ان الامامة وراثته روحية وهي من صلب تعاليم الاسلام وردت - كما يرى الشيعة - في القرآن ، ومن ذلك ما رواه ابو بصير عن جعفر الصادق قال : « سالت ابا عبدالله (يعني الامام الصادق) عن قوله عز وجل : اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم (١٤٧) فقال : نزلت في علي ابن ابي طالب (ع) والحسن والحسين (١٤٨) ، بل ان الكليني يروي لنا ان الامامة حلقة في سلسلة النبوات في العالم كله بنقله عن ابي عبدالله ايضا انه « اوصى موسى الى يوشع بن نون ، واوصى يوشع الى ولد هارون ولم يوص الى ولده ولا الى ولد موسى ، ان الله له الخيرة يختار من يشاء ممن يشاء ، وبشر موسى ويوشع بالمسيح فلما بعثه الله عز وجل قال المسيح : انه سوف يأتي من بعدى نبي اسمه احمد من ولد اسماعيل : يجيء بتصديقي وتصديقكم

(١٤٤) فرق الشيعة ٤٢ .

(١٤٥) الملل والنحل ١/٢٧٣ .

(١٤٦) اصول الكافي ٦٥ .

(١٤٧) النساء : ٥٩ .

(١٤٨) اصول الكافي ٧٠ .

وعذرى وعذرکم» (١٤٩) وهكذا تصل الامامة بالنبوة فى رأى الصادق وسندها القرآن دائما • ولكن الكلينى يورد لنا خبرا لا يتسق هو وهذه الاخبار ، وذلك انه جعل النص على الامامة واردا فى وصية مستقلة عن القرآن كما يروى لنا معاذ بن كثير بن ابى عبدالله ان « الوصية نزلت من السماء على محمد كتابا لم ينزل على محمد كتاب مختوم الا الوصية » (١٥٠) • وهو بذلك يفتح بابا لم يغلق من خصوصية الائمة واستقلالهم الروحى عن البشر • ويستتبع هذا طبعاً ان يكون الائمة من طينة غير طينة البشر فروى عن ابى عبدالله قوله : « ان الله خلقنا من طينة مكنونة تحت العرش فاسكن ذلك النور فينا فكننا نحن ، خلقنا بشرا نورانيين » (١٥١) ، ولولا هذه الطينة لصار الائمة مخلوقين من نور ، والنور والنار عنصر واحد وبذلك تقوم الصلة بين التشيع والثنوية ، ولكن هذه الطينة قد عزلت هذا الرأى وجعلته شيئاً قائماً بذاته • ويعود ذلك بنا الى النور الذى اسبغه عبدالله بن الحارث على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابى طالب واخذ به الغلاة واسبغوه من جديد على جعفر بن محمد الصادق ومقاتلهم فى ذلك انه : « كان النور الذى هو الله فى عبدالمطلب ثم صار فى ابى طالب ثم صار فى محمد ثم فى على ابن ابى طالب : فهم ائمة كلهم » (١٥٢) ، وكانت تلك العقيدة مبدأ بزيغ ومعمّر (المعاصرين لابى عبدالله) • وتؤدى بنا هذه الافكار الغنوصية الى روحانية الامام وشمول الله له بالعاية والرعاية بحيث كان لدى الصادق والائمة كتابان سريان هما الجعفر والجماعة فيهما اسرار العلم واسماء الانبياء

(١٤٩) اصول الكافى ٧٣ •

(١٥٠) المصدر نفسه ٦٧

(١٥١) المصدر نفسه ١٠٢ •

(١٥٢) فرق الشيعة ٤٣ •

والمملوك (١٥٣) وكان لديه مخلفات الرسول وغيره من الانبياء ، لان الامام وارث علومهم ومخلفاتهم كألواح موسى وعصاه وخاتم سليمان بن داود بالاضافة الى سيف رسول الله ورايته ودرعه الخ (١٥٤) وكان سلاح رسول الله (ص) هو علامة الامامة فان الامام الشرعي هو الذي يحتفظ به عنده ويسلمه الى الامام التالي كما كان التابوت في بني اسرائيل ينتقل من نبي الى نبي (١٥٥) . وهكذا تعقد بساطة الاسلام في الامامة الشيعية بحيث يحتاج لباحث الى بذل الجهد الشديد في الفهم والربط . ويؤدي بنا امتياز الائمة في الخلق والخلق الى البحث في جوهر علمهم ، فينما يروي الكليني حديثا ينفي فيه الصادق علم الغيب عن الائمة يقابلنا حديث آخر يقرر فيه الصادق نفسه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علمهم » (١٥٦) ويذكر « ان سليمان ورث داود وان محمدا ورث سليمان وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان مافي الالواح » (١٥٧) وهذا الذي ذكرناه يعود بنا الى وحدة العلم لدى الانبياء كما وجدنا عندهم وحدة من نور النبوة الالهية وهذا يدفعنا دفعا الى عقد صلة بين هذه الافكار السابقة كلها ومبادئ المتصوفة في كل خصيصه من خصائص الشيعة غلاة ومعتدلين . ثم يسأل الصادق سائل عن حدود العلم وهل هو العلم الذي ذكره ممتدا من التوراة والكتب السماوية السابقة الى القرآن ومعرفة اسرارها كلها فاجاب الصادق : « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذي يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » (١٥٨) . وذلك يستتبع العناية والتوفيق الالهيين وان لدى الامام استعدادا وموهبة لتلقى ذلك العلم ونفع الناس به في حياتهم . وقد رأينا أسرار العلم وخطر البوح بها

(١٥٣) اصول الكافي ٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٤) ، ١٥٥ ، ١٥٦ المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٧) ، ١٥٨ المصدر نفسه ٥٢ .

كما هي لما قد يحدث من اعراض بعض الناس عن التصديق بها ولذلك روى عن الصادق عن الرسول انه (ص) قال : « انا معاصر الانبياء نكلم الناس على قدر عقولهم »^(١٥٩) وتلك مقالة اخرى دخلت التصوف من التشيع مما رأيناه من أقوال الحلاج الذي دفع حياته ثمنا لبوحه باسرار ما كان له ان يبوخ بها ، وكان ذلك نفسه دافعا للصادق الى الاجابة على سؤال رجل واحد اجابته مختلفين بحسب عقلية السائل مرة ومحافظة على التقية مرة اخرى كما حدث لعمر بن الرياح الذي انكر امامة الصادق لانه اجاب على سؤال واحد اجابته متخالفين^(١٦٠) ، وكان الصادق يقول « وددت والله اني اقتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدى : النزق وقلة الكتمان »^(١٦١) ، ولعل هذا الخبر يفسر السبب في اختلاف اجابات الصادق . والظاهر من هذه انكلمات ان التشيع قد دخل في الطور السرى خوف السلطان وخشية ان يقرن بالثورة ، فآثر الصادق ان يحصر تعاليمه في اضيق الحدود ، وكان مقامه العلمى فى العالم الاسلامى يسبب له ان يروى عنه ما قال وما لم يقل ولا سيما من شيعته ولهذا وجدناه يقول : « ليس من احتمال امرنا التصديق له والقبول فقط . من احتمال امرنا ستره وصيائته من غير اهله . . . »^(١٦٢) وذلك يفيد انه قد صار على الائمة ان يكافحوا فى جبهتين - كما فعل ابن الحنفية من قبل - عليهم اولا ان يبصروا الناس بحقيقة الاسلام وثانيا ان يكبحوا جماح انصارهم ويرقبوا روايتهم الاحاديث الكثيرة عنهم مستغلين بذلك قربهم منهم وثقة الائمة بهم . وكانت سياسة الصادق للغلاة هي نفس سياسة ابن الحنفية - وهي مصداق هذا الذى رأيناه - فقد قال الصادق : « لاتقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تتكلموهم ولا توارثوهم »^(١٦٣)

(١٥٩) اصول الكافي ٥٢ .

(١٦٠) فرق الشيعة ٦٠ .

(١٦١) ، (١٦٢) اصول الكافي ٢٠٦ .

(١٦٣) معرفة أخبار الرجال ١٩١ .

ويبدو ان الصادق - بحكم علمه الغزير وانقطاع كثير من الناس اليه ونسبه العلوى - قد اضيف اليه علم كل ما كان في عصره من معرفة • وليس ذلك غريبا فقد رأينا العلوم الاسلامية كلها تضاف الى جده على بن ابي طالب ، ولهذا فقد اضيف الى الصادق فيما اضيف كلام في الكيمياء والزجر والفأل وازادوا اليه كتاب الجفر الذي يخبرنا ابن خلدون ان « هارون بن سعيد العجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص : وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير ، فرواه عنه هارون بن سعيد العجلي وكتبه وسماه باسم الجلد الذي كتب فيه » (١٦٤) ومع هذا فان ابن قتيبة يروي ان هارون هذا قد تبرأ من الجفر ومن تجفر (١٦٥) • وقد دخلت هذه الكتب السرية في التصوف وقد نقل لنا الاستاذ سعد محمد حسن انه « كان تناول هذه الكتب وشرحها موضع اهتمام المشتغلين بالسحر والطلاسم • وكثيرا ما اسهم الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي وحنة الاسلام الغزالي بنصيب كبير في الاشتغال بهذه الكتب » (١٦٦) •

وقد نشر بول كراوس مجموعة من رسائل جابر بن حيان نجد فيها تعاليم جعفر الصادق في الكيمياء تختلط فيها الفلسفة اليونانية بالاسرار والغنوص وتبدو عليها مسحة متأخرة • ففي كتاب اخراج مافي القوة الى الفعل يقرر الصادق ان معنى الطلسم مقلوبة (اي مسلط) « من جهة الغلبة والتسليط » (١٦٧) والواقع ان الكلمة يونانية معربة (١٦٨) من (Talisma)

- (١٦٤) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ •
 (١٦٥) عيون الاخبار ١٤٥/٢ •
 (١٦٦) المهدي في الاسلام ٨٣ •
 (١٦٧) مختار رسائل جابر بن حيان ٧٨ •
 (١٦٨) انظر شفاء الغليل لاحمد الخفاجي «عصر ١٣٢٥» ، ١٣٢ •

ويروى جابر « فخررت ساجدا فقال : لو كان سجودك لى - وحدك - لكثت من الفائزين • قد سجد لى آباؤك الاولون وسجودك لى يا جابر سجودك لنفسك ••• (١٦٩) • ونجد فى موضع آخر تعرضا للحدود وذكرنا للهولى والمادة ونجد حد العلم النورانى : انه العلم بحقيقة النور الفاض على الكل ، وحد العلم الظلمانى : انه العلم بالضد للنور وكيفية مضادته له وليته (من أداة الاستفهام لم) وانما لم نذكر الهلية والمائة (من : هل و ما) فى هذا العلم لان العلم باحد الضدين علم بالآخر فى الجملة ••• وحد العلم الباطن انه العلم بعلم السنن واغراضها الخاصة باللائقة بالعقول الالهية» (١٧٠) وتعرض الرسائل للاكسير وتعرف العلم به بانه « العلم بالشيء المدبر الصانع القالب لايان الجواهر الذائبة الخسيسة الى اعيان الجواهر الذائبة الشريفة ••• وحد العلم بلحجر الذى هو المادة للاكسير : هو العلم بالذات التى تحتاج الى تبديل اغراضها لتصير اكسيرا ••• (١٧١) ، وتبدو الكيمياء هنا نوعا من السلوك المادى ينصب على العناصر كما ينصب السلوك الانسانى على الانسان حتى يجعل منه مخلوقا ساميا شريفا • ويذكر جابر بن حيان فى موضع آخر : « ان جميع ما يمر بك فى هذه الكتب مما ذكرناه لسيدنا (ع) فيه اغراض لايمكن كشفها لك • ولو كشفت لك ما هو فيها حتى تكون مثل جابر بن حيان ، فاذا كنت مثله لم تحتج الى ان يكشف لك عنها كما لم يحتج هو الى ذلك» (١٧٢) • وهكذا تبدو هذه الرسائل على صورة محاورات

(١٦٩) مختار ٧٨ •

(١٧٠) المصدر نفسه ١٠٤ •

وينبغى ان ننبه هنا الى ان ابا يعقوب السجستاني ، من اسماعيلية القرن الرابع ، يروى ان «الحكماء يرون ان معرفة الاشياء تتم باربع أدوات : هل وما وكيف و لم • (كشف المحجوب للسجستاني ، طهران ١٩٤٩) •

(١٧١) مختار ١٠٦-١٠٧ •

(١٧٢) المصدر نفسه ١١٦ •

أفلاطون التي يرويها عن استاذة سقراط . وقد كان هذا العلم الكيماوى من الاسرار ايضا ، وقد قال فيه الصادق : « والله يا جابر ، لولا انى اعلم ان هذا العلم لا يأخذ الا من يستأهله ، واعلم علما يقينا انه مثلك لامرتك بابطال هذا الكتاب من العالم » (١٧٣) .

ويصطبغ ميل جابر بن حيان بالصبغة الاسماعيلية المتأخرة التي تنحو منحى غنوصيا حين يعرض للاشخاص الذين يكونون سلم علم الباطن وهم خمسة وخمسون اولهم النبي ثم الامام فالحجاب فالبسيط فالسابق فالتالى فالاساس . . . وهكذا حتى تنتهى السلسلة بالناسك فالحياة فالناهى فذى الامر الذى اذا ظهر فلا بد له منهم ، اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لا يخاطله فيه غيره» (١٧٤) ، وتؤكد اسماعيلية جابر فى المقالة السابعة والثلاثين التى يذكر فيها « اذا استقامت الامامة والافئوبة جديدة والقوم قد نصبوا لكل دور ستة اشخاص » (١٧٥) وتفاصيل الاسماعيلية سترد فى فصل مستقل . ويجب ان نذكر بان جابر بن حيان يجمع بين الغلاة والصفوية - فى رسائله المزعومة - فى الاعتقاد بان الشخص الواحد يجمع الظاهر والباطن وينص على ان ذلك هو المفوض عند الغلاة والصفوية» (١٧٦) ومهما يكن من أمر صحة نسبة هذه الرسائل الى جابر بن حيان فان فيليب حتى يذكر « ان البحث العلمى الحديث قد انكرها » (١٧٧) ، ولكن ما يعنينا من ذلك ان جابر بن حيان الذى كان يسمى صوفيا وان ابا هاشم الكوفى الذى يسميه صاحب طرائق الحقائق مخترع الصوفية كان معاصرا لجابر وكان كلاهما معاصرا للامام الصادق (١٧٨)

(١٧٣) مختار رسائل جابر بن حيان ٣١١ .

(١٧٤) المصدر نفسه ٤٨٩ .

(١٧٥) المصدر نفسه ٤٩٣ .

(١٦) المصدر نفسه ٤٩٩ .

(١٧٧) تاريخ العرب ٢/٣٢٥ .

(١٧٨) طرائق الحقائق ١/١٠١ .

والملاحظ ان الكيمياء قد اقترنت بالتصوف عند اول ظهوره وكان الصادق استاذ اول رجل اطلق عليه هذا الاسم • والظاهر ان الكيمياء اليونانية التي تعتمد على الاكسير وتطمح الى تحويل المعادن الخسيسة الى شريفة هي الجسر المادى الذى استعان به الزهاد لتحويل النفس الارضية الى نفس سماوية ثم انفصل • ويجب ان نذكر ان ذا النون المصرى الذى يقرن اسمه دائما باسم جابر بن حيان « كان منتجلا لصناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة » (١٧٩) ويورد ابو نعيم اهتمام ذى النون بالعقل كما اهتم جابر تلميذ الصادق بالعقل ايضا ، ويلاحظ نيكلسون ان « الكيمياء والسحر قد اتصلا منذ عهد بعيد بصلات وثيقة بعلم الطلسمات والثوسوفيا » (١٨٠) وقد كان خالد بن يزيد بن معاوية - وكتيته ابو هاشم - اول من اهتم بالكيمياء كما يخبرنا بذلك الطبرى (١٨١) فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب اليهم ان ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية (١٨٢) ، ويرى الدكتور حسن ابراهيم حسن ان اولئك اليونانيين « لعلهم ترجموا لنا شيئا لم يصلنا خبره » (١٨٣) •

وينسب اليه ابن النديم كتاب « قصيدة خالد بن يزيد فى الاحداث والملوك » (١٨٤) مما يدخل فى هذه العلوم السرية التى راجت فيما بعد رواجا كبيرا ولم يكن العرب فى القرن الاول يعرفونها اللهم الا اذا اعتبرنا علم ابى هاشم السرى وتبوءاته بالحوادث • والصلة واضحة - على كل حال -

(١٧٩) اخبار الحكماء ١٢٧ •

(١٨٠) فى الفلسفة الاسلامية ١١ •

(١٨١) الطبرى ١٦/٧ •

(١٨٢) تاريخ الاسلام السياسى ٥٥٢/١ •

(١٨٣) المصدر نفسه ٥٥٣/١ •

(١٨٤) الفهرست ، لبيبزج ١٠٤ •

بين هذا التبخر في الكيمياء وبين زهد خالد في الامارة وانصرافه الى العلم والعمل وتلك سابقة قد تكون مقدمة اشتغال الصادق او طلابه - على الاقل - بهذه العلوم ايضا ، واتصال هذه البداية بالامام الصادق جائزة ان صدقا او اتحالا وذلك يدل على وجود صلة على كل حال • ولعله قد بدأ الاشتغال بالكيمياء لدى نزوله الكوفة التي عرفت بالاهتمام بالسحر منذ القديم ولعلنا نعلم انها قد بنيت بالقرب من بابل المشهورة بهذه العلوم وعلل الامير خالدا هو ابو هاشم الصوفي الذي لقب بالكوفي نتيجة لاتصال هذه العلوم بهذا المصر منذ القديم • والرأى عندنا - بالنسبة الى الامام الصادق - ان ملاك الامر يكمن في ربط العلوم به ، وقد قال فيه اتباعه من الناووسية انه « كان عالما بجميع معالم الدين في العقليات والشرعيات » (١٨٥) واعتبروه شبه استاذ روجي للجيل كله كما كان جده علي بن ابي طالب أبا للعلوم كلها • ويستتبع انقطاع رجل كالصادق للعلم ان يكون زاهدا ، وقد كان الامام كذلك فعلا ، بل ان الكليني يجعله بكاء من طراز جده علي بن الحسين زين العابدين • ويجعل الصادق للبكاء صفة معنوية سامية فانه يقول : « ما من شيء الا وله كيسل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفئ بحارا من النار فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمة الله على النار ولو ان باكيا بكى في امة لرحموا » (١٨٦) • وكان الصوف قد صار لباسا رسميا للزهاد ايام الصادق وقد عجب سفيان الثوري - الذي روى عن الصادق كثيرا من الاخبار الزهدية - كيف يلبس الصادق الخنز ولا يلبس الصوف فقال له : « يا ابن رسول الله ، ليس هذا من لباسك ولباس آباءك » ، فاتضح له ان الصادق كان يلبس الصوف لصق جسده لئلا يحمل الناس ذلك عليه محمل التظاهر والشهرة (١٨٧) ويصطبغ زهد الصادق بصبغة علمه واتصاله بالنبوات السابقة ، فانه كان

(١٨٥) اصول الكافي ٢٤٨ •

(١٨٦) مختصر الفرق بين الفرق ٥٧ •

(١٨٧) حلية الاولياء ٣/١٩٣ •

يدعو بدعاء الياس النبي في سجوده ويقول : « اترك معذبي وقد اظلمات لك
هو اجري ؟ اترك معذبي وقد عفرت لك في التراب وجهي ؟ اترك معذبي
وقد اجتنبت لك المعاصي ؟ اترك معذبي وقد اسهرت لك ليلي ؟ قال : فواحي
اليه الله : ان ارفع رأسك فاني غير معذبك » (١٨٨) ، ويروي له يعقوبى نسا
ناجى به الله موسى : « يا موسى لاتنسى على حال ولا تفرح بكثرة المال ، فان
نسياني يميت القلب ، وعند كثرة المال تكثر الذنوب . يا موسى كل زمان ياتي
بالشدة بعد الشدة وبالرخاء بعد الرخاء والمملك بعد الملك ، وملكى قائم
لايزول » (١٨٩) ، وكان الصادق يقول : « كان في وصية لقمان الاعاجيب ،
وكان اعجب ما فيها انه قال لابنه : خف الله خيفة لو جثته ببر الثقلين
لعذبك ، ورج الله رجاء لو جثته بذنوب الثقلين لرحمك » (١٩٠) .

وكان الصادق كجده على بن الحسين في فتوته بقوله : « لا يتم
المعروف الا بثلاث : تعجيله وتصغيره وستره » (١٩١) ، وذلك امر صادر عن
الرضي الذي اورد لنا الكيني نسا صريحا فيه وذلك ان الصادق سئل :
« باى شيء يعلم المؤمن بأنه مؤمن ؟ قال : بالتسليم له والرضى فيما ورد عليه
من سرور او سخط » (١٩٢) ، ويضيف اليه العطار ما كان يتصف به الزهاد
من خوف من الآخرة ويروي عنه « انه كان يوما جالسا مع مواليه فقال : تعالوا
تتعاهد على ان يشفع من يكون له قدم صدق يوم القيامة لبقية المتعاهدين .
فقالوا : يا ابن رسول الله ، ما حاجتك الى شفاعتنا وجدك شفيع جملة الخلائق ؟
فقال الصادق : اني لاخلج من افعالى الى حد اننى استحى من مواجهة جدى

• (١٨٨) اصول الكافي ١٧٠

• (١٨٩) اليعقوبى ١١٦/٤

• (١٩٠) اصول الكافي ١٧٠

• (١٩١) اخبار الدول ١١٢

• (١٩٢) اصول الكافي ١٦٩

يوم القيامة» (١٩٣) • ويفلسف لنا سفيان الثوري الزهد في روايته عن جعفر الصادق وبين جوهره في ذلك العصر الذي اتصف بالاضطراب والقلق وقال: «سمعت جعفر بن محمد الصادق يقول: عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها • فان تكن في شيء فيوشك ان تكون في الخمول • وان طلبت في الخمول ولم توجد فيوشك ان تكون في التخلي ، وليس كالخمول • فان طلبت في التخلي ولم توجد فيوشك ان تكون في الصمت وليس كالتخلي • فان طلبت في الصمت ولم توجد فيوشك ان تكون في كلام السلف الصالح ، والسعيد من وجد نفسه في خلوة يشتغل بها» (١٩٤) • وهكذا يضع الصادق اسس المقامات والاحوال ويعلل لنا سر الزهد الذي تطور الى التصوف ويعزز كل ذلك بالنتيجة: «من خاف الله اخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شيء» (١٩٥) ، وهذا هو جوهر التوكل في عصر مضطرب لا يأمن الانسان فيه على نفسه من الغوائل والدسائس • وقال: «من أعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا: من أعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية» (١٩٦) ، وقال - وكأنه يؤسس للصوفية عقائدهم - : «اذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله وكان عند اهل الدنيا كأنه خولط ، وانما خالط القوم حلاوة حب الله فلم يشتغلوا بغيره» (١٩٧) ، ولهذا فان القشيري يروى عنه انه سئل: «ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا؟ فقال: لانكم تدعون من لا تعرفونه» (١٩٨) ، وسيقول ابراهيم بن ادهم قياسا على هذه المقالة وجوابا على السؤال نفسه:

(١٩٣) تذكرة الاولياء ٩/١ (ترجمة) •

(١٩٤) صفة الصفوة ٩٦/٢ •

(١٩٥) اصول الكافي ١٧٠ •

(١٩٦) المصدر نفسه ١٦٨ •

(١٩٧) روضات الجنات ٢٣٢ •

(١٩٨) الرسالة القشيرية ١٥٦ •

«لأنكم تعرفون الله ولا تطيعونه...» (١٩٩) ، ويورد ابو طالب المكي نصا يفهم منه ان الصادق قد بلغ مقاما عاليا في التصوف على صورته الناضجة المتأخرة وهو يرتبط بالنص الذي ذكرناه : فقد قال الصادق : « والله لقد تجلى الله - عز وجل - لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون » ، وقال ايضا - وقد لحقه شيء في الصلاة حتى خر مغشيا عليه... - : « ما زلت اردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاني قدرته تعالى » (٢٠٠) ، ويضيف ابو طالب الى هذا النص تعليقا منه : ان الخصوص كذلك . وهذه بداية للذكر الذي صار بعدئذ مجلة لوجود وسيلا الى المحو وواسطة للاتحاد صدرت عن الصادق - اذا صدقت هذه الروايات - ومرد كل ذلك الى علمه وفضله وصدقه وارادة كل ذوى طريقة من العلم ان يصلوه بهم ليكون رئيسا لمدرستهم يفخرون به ويسعدهم ان يصدروا عنه ويتصلوا به .

وقد جعل السلمى أكبر مفسرى المتصوفة لجعفر الصادق مقاما محمودا في التأويل الباطن بحيث اعتمد عليه اعتمادا كليا ولكنه لم يورد من تأويلاته ما يفهم منه انه امام للشيععة وانما انصبت تأويلاته على اظهاره بمظهر صوفى كامل ليس له شأن بمشرب آخر ، ومن ذلك ان الصادق يفسر آية : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا بقوله « لو اطلعت عليهم - من حيث انت - لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم - من حيث الحق - لشاهدت فيهم معاني الوجدانية والربانية » (٢٠١) ، ويفسر الصادق ذلك بقوله : « أى يا سيد - مخاطبا لنيه عليه السلام - بقوله (ص) : انا سيد ولد آدم ولا فخر ، ولم يمدح بذلك نفسه ولكنه اخبر عن معنى مخاطبة الحق اياه

- (١٩٩) تذكرة الاولياء ١/٨٦ «ترجمة» .
 (٢٠٠) قوت القلوب ١/٧٢ .
 (٢٠١) حقائق التفسير ٣٢٥ ، الكهف ١٨ .

بقوله تعالى : يس» (٢٠٢) ، ويفسر : والنجم اذا هوى ، بان النجم « هو محمد (صلعم) اذا هوى انشرح منه الانوار اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى» (٢٠٣) ويفسر : ماضل صاحبكم وما غوى ، بقوله : ماضل عن قربه ويفسر الكونر بانه « نور قلبك ذلك على وقطعت عما سوانا» (٢٠٤) وقد ذكر السلمى فى المقدمة انه يعتمد فى التأويل على اقوال لجعفر الصادق وآيات متفرقة نسب تأويلها الى ابى العباس بن عطاء (٢٠٥) وهو فى تأويله يستند الى منهج جعفر الصادق القائل بان « كتاب الله على اربعة اشياء : العبادة والاشارة واللطف والحقائق : فالاشارة للخواص والعبادة للعوام واللطف للاولياء والحقائق للانبياء » وذلك مؤسس على قول على ابن ابى طالب : مامن آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد هو احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » (٢٠٦) ، وهكذا تبين صلة مهمة جدا بين التشيع والتصوف فى التأويل . وقد كان من مقام جعفر الصادق ومنزته فى الزهد والتصوف ان مؤلفى كتب التصوف يروون عنه ويعقدون - فى صفحات كتبهم - الندوات ويجمعون الامام بالزهاد المعاصرين له لو لم يلقهم ، فاننا نجد كثيرا جدا من الاخبار الصادرة عن الصادق يرويها عنه سفيان الثورى ثم اننا نجد داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ / ٧٨١-٢ يطلب المشورة من الصادق لان قلبه قد اسود ، فعجب الصادق كيف يطلب داود المشورة وهو زاهد زمانه فقال داود : « يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق ، والمشورة منكم واجبة . فأجابه الصادق : انى اخاف ان يأخذ جدى بيدى يوم القيامة ويقول : لم لم تبغنى حق الاتباع . فلا ينسب هذا القول الى الصحة والشرف وانما يعود الى عناية

(٢٠٢) حقائق التفسير ٥٣٥ .

(٢٠٣) المصدر نفسه ٦٣٧ .

(٢٠٤) المصدر نفسه ٧٤٧ .

(٢٠٥) المصدر نفسه ١ .

(٢٠٦) حقائق التفسير ٥ .

الله ، فبكى داود وقال : الهى اذا كان من عجن طينته بماء النبوة وركبت طبيعته من اصل حجة جده الرسول وبرهانه وامه البتول فى هذه الحيرة فما داود حتى يعجب بمعاملته» (٢٠٧) ويروى القشيري مناقشة بين الصادق وشقيق البلخي المتوفى سنة ١٩٤ فقد كان شقيق يرى الفتوة فى قوله : « ان اعطينا شكرنا وان منعنا صبرنا فقال جعفر الصادق : الكلاب عندنا فى المدينة كذلك تفعل . فقال شقيق : يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ قال : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا» (٢٠٨) ، مع ان العطار يورد هذه المحاوره بين ابراهيم بن ادهم وشقيق (٢٠٩) ، ولكن ايراد مناقشة الصادق له دلالتة الكبيرة ايضا فهل التقى شقيق بالامام حقا وقد سبقه الى الموت بستة واربعين عاما ؟ *

ويجب - فى نهاية حديثنا عن الصادق ان نتطرق الى فكرة الصوفية عنه : هل كانوا يتصلون به ويأخذون عنه باعتباره واحدا منهم ام باعتباره اماما شيعيا له مقامه فى التشيع ؟ لقد مر بنا ان السلمى فى اقتباسه من تأويلات الصادق اظهره فى مظهر زاهد ليس له بغير الزهد صلة فهل كان ذلك مجرد تظاهر ام ان للصوفية فيه نظرة اخرى ؟ الواقع ان فريد الدين العطار قد صرح بهذه النظرة فى عرضه للامام الصادق فى تذكرة الاولياء ووضح مقامه ، ويحسن بنا ان نترجم صفحة مما كتبه فيه ليتبين ما نقول *

قال فريد الدين العطار : « ذلك سلطات الملة المصطفوية ، ذلك برهان الحجة النبوية ، ذلك العامل الصديق ، ذلك عالم التحقيق ، ذلك فاكهة قلوب الانبياء ، ذلك قلب سيد الرسل ، ذلك الناقد العلى ، ذلك وارث النبى ، ذلك العارف العاشق : جعفر الصادق رضى الله عنه . وقد قلنا : اتنا - اذا

-
- (٢٠٧) تذكرة الاولياء ١٢/١ (ترجمة) .
 (٢٠٨) الرسالة القشيرية ١٣٦ .
 (٢٠٩) تذكرة الاولياء ١٦٧/١ .

تطرقنا الى ذكر الانبياء والصحابة واهل البيت - ينبغي ان نصنف كتابا خاصا بهم . اما هذا الكتاب فشرح لحال الاولياء الذين جاؤا من بعدهم . والسبب في تبركنا بالبدا بالصادق انه كان بعد هؤلاء وكان من اهل البيت . ولان التعبير عن طريقته كان اوفر والرواية عنه اكثر فسنورد له بعضا من اقواله فان اهل البيت كلهم شيء واحد اذا جاء ذكر احدهم فكأنما جاء ذكرهم جميعا : الا ترى ان من يذهب مذهبه فقد ذهب مذهب الاثنى عشرية اى الواحد اثنا عشر والاثنا عشر واحد ولكنى اخشى ان اصفه بلسانى وعبارتى خوفا العجز . لقد كان فى جملة العلوم والاشارات كاملا فى غير تكلف ، وكان قدوة لجميع المشايخ ، وكان موضع اعتماد الكل . كان شيخ الآلهيين وامام المحمديين . كان مقدم اهل الذوق ودليل اهل العشق كان مقدم العباد ومكرم الزهاد . كان منقطع القرين فى مصنفات الحقائق ولطائف التفسير واسرار التنزيل ، وقد نقل عن الباقر اقوالا كثيرة . وانى لاعجب من قوم ذوى اوهام من اهل السنة والجماعة يتساءلون عن حقيقة طريقة اهل البيت ، فان عليهم ان يرجعوا الى الحق ولست اعرف احدا من اهل الباطل الا فى خيال باطل . والذي اعرفه ان من يؤمن بمحمد ولا يؤمن بأبنائه فما آمن بمحمد وقد كان الشافعى يحب اهل البيت حبا نسب معه الى الرفض وجس من أجله ، وقد قال فى هذا المعنى شعرا :

لو كان رفضا حب آل محمد فليشهد النقلان انى رافضى (٢١٠)

اما بعد فهذا هو الصادق فى شخصه وعلمه وزهده ومقامه ، وقد كان عظيما الى حد انه استطاع ان يجمع الشيعة حوله ويوحد صفوفهم فى العلم والمعرفة والعقيدة دون ان يعرضهم للاضطهاد والتشريد والقتل ، وقد بدت عظمته ناصعة بعد ان انتقل الى جوار ربه حين تشقق التشيع وتفرع وتفتت وسرى ذلك فى الفصول الآتية .

(٢١٠) المصدر نفسه ١/١ «ترجمة» .

الفصل الخامس

تشعب التشيع التقليدي واستقراره

الاسماعيلية

ظهرت الاسماعيلية بعد وفاة الصادق وكانت حركة مفاجئة مستمدة من الافكار الغالية التي عاصرتة وسبقته ، وقد انشق الشيعة المعتدلون - بذلك - الى طائفتين : احدهما هذه الاسماعيلية والاخرى الفرقة الرئيسة التي استمرت في طريقها تملؤها اختلافات حول شخص الامام ولا تصرف الى طبيعة العقيدة . ولذا حق لنا ان نبحت الاسماعيلية قبل الخوض في تطور التشيع المعتدل . لقد اصاب الاسماعيلية تعقيد وخلط لكثرة تناول الباحثين لها بالدرس والتقصي دون روية وانعام نظر . ولم يحاول احد منهم ان يتناول الاسماعيلية من جذورها وانما يهجم الباحث منهم على البحث هجوما ويقرن الاسماعيلية بالباطنية مباشرة ثم ينتقل الى الخرمية والقرامطة ابتسارا . وعلينا ان نعرض لهذه الطائفة على المنهج الذي اتبعناه في بحثنا للفرق الشيعية الاخرى بحيث تتبعها من اولها ونغوص معها الى الاعماق .

وهيكل الاسماعيلية المذهبي البسيط يقوم على فكرة الامامة بالنص ، وقد كان اسماعيل اكبر اولاد جعفر الصادق (ع) وكان ابوه «يجبه حبا شديدا» (١) وكان معدا لتولي الامامة بعد ابيه بنص منه و «بأفقاك من اولاده» (٢) ، ولكن الموت عاجل اسماعيل سنة ١٣٣/٧٥٠-٥١ في حياة ابيه . ويبدو انه كان يتميز

(١) روضات الجنات ٢٨ .

(٢) الملل والنحل ١/٢٧٨ .

بصفات وعلم ويتميز ايضا بان امه عربية كما كانت ام ابيه كذلك . ويبدو ان قوما من الشيعة كانوا يلثفون حوله فى حياته ويمنون النفس بالاتصال به والاخذ عنه بعد ابيه ، ولم يتحمل انصاره هذه الصدمة فأبوا ان يصدقوا انه مات استنادا الى ترشيح ابيه المعصوم له ، فجعلوه مهديا منتظرا كمادة الشيعة اذا مات عنهم امام لا يريدون الاعتراف بمن بعده ، وتلك هى الاسماعيلية الخالصة (٣) ، والظاهر ان انصاره او تلك كانوا من اهل المدينة .

وكان لاسماعيل مولى يسعى المبارك كوفى وهو الذى بدأ فى تثبيت الاسماعيلية بعد ان انصرف الناس بعد جعفر الصادق الى ابنه الاكبر عبدالله الذى توفى بعد سبعين يوما من وفاة ابيه فاجتمع الشيعة على امامة موسى : اخيه الاخر . وقد زعم المبارك واتباعه « ان النص لا يرجع القهقرى ، والفائدة فى النص بقاء الامامة فى اولاد المنصوص عليه دون غيره ، فالامام بعد اسماعيل محمد بن اسماعيل » (٤) (توفى سنة ١٩٨) ، و « المباركية يدبرون الامامة فى ولد محمد بن اسماعيل كدعوى الباطنية فيه » (٥) وكان لمحمد جماعة ثبتت على امامته ولم تصرفها الى احد غيره بعد موته فقالوا برجعت وغيبته . وبإضافة الامامة الى محمد بن اسماعيل بدأت الاسماعيلية الباطنية ، وليست هذه التسمية الا اصطلاحا جديدا وهى - فى الواقع - تنطبق على فرق الغلاة الذين شتتهم المنصور اولاء ثم المهدي بعده ، فانصب انصار ابي الخطاب واتباعه فى هذه الفرقة الجديدة التى دبت فيها الحياة فقالت فرقة منهم : « ان روح جعفر بن محمد حلت فى ابي الخطاب ثم تحولت بعد غيبة ابي الخطاب فى محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ثم ساقوا الامامة فى ولد محمد بن

(٣) فرق الشيعة ٦٨ .

(٤) الملل والنحل ٢٧٨/١ .

(٥) مختصر الفرق بين الفرق ٥٩ .

اسماعيل» (٦) ويذكر النوبختي ايضا انه « خرج من قال بمقالته (يعنى ابا الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم الى محمد بن اسماعيل بن جعفر» (٧) فظهرت الان فرقة مستقلة عن الزيدية الذين صار لهم مجالهم وتقاليدهم ومستقلة عن الامامية الذين التفوا حول موسى بن جعفر الصادق ، فالترزم احياء هذا الاتجاه الجديد الصادر عن الحركات الغالية جماعة جدد من الموالي الذين انضجوا هذه العقيدة الجديدة التي تمتد جذورها الى فكرة ابي منصور العجلي القائل : « كان على بن ابي طالب نبيا ورسولا وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن علي ... وانا نبي» (٨) فهؤلاء ستة ، ومحمد (ص) اولهم ، فجملتهم سبعة . وكان ابو منصور الى ذلك يقول : « يتولى سبعة انبياء من قریش وسبعة من بنى عجل» (٩) فهو اول من جعل النبوات سلاسل لها عدد ثابت كما فعل الاسماعيليون بعدئذ في الامامة فجعلوها سلاسل سباعية بعضها ظاهر والاخر مستور . بل ان فكرة العدد (٧) تمتد الى المغيرة الذي « خرج داعيا الى عقيدته في سبعة نفر وكانوا يدعون بالوصفاء» (١٠) ويرى ماسينيون ان ابا الخطاب عدّ ابا روحيا لاسماعيل بن جعفر لكونه لقب ابا اسماعيل كما لقب سلمان ابن الاسلام على اعتبار انه « قد انكر الخطائية ان يكون آل محمد قد قدر لهم قدرا سابقا ان يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله (نسل محمد ص) وقال : ان الاختيار الالهى بالتبني الروحي هو وحده المعتبر» (١١) . والخبر الذي يستند اليه ماسينيون هو ما يورده الكشي عن ابي الخطاب انه كان يعتبر اتباعه انبياء (١٢) . وقد وصف اسماعيل باتباع رأى ابي الخطاب عن طريق

(٦) فرق الشيعة ٧١ .

(٧) فرق المصدر نفسه ٦٩ .

(٨) المصدر نفسه ٣٨ .

(٩) البلدان للهمداني ١٨٥ (ليدن) .

(١٠) الطبري ٢٤١/٨ .

(١١) شخصيات قلقة في الاسلام ١٩ .

(١٢) معرفة أخبار الرجال ٢٠٨ .

المفضل بن عمر الجعفي^(١٣) . وقد قتل ابو الخطاب سنة ١٣٨ حين اظهر عقيدته وتوفى اسماعيل سنة ١٣٣ ، فالصلة مستبعدة وان كانت قابلة للبحث والتدقيق . وذلك يبين على الأقل الاثر الذي خلفه ابو الخطاب في الشيعة عموما واتصال الاسماعيلية بهم ووراثه عقائدهم . اما تحول الامامة الى نبوة فقد كان اسبق الى الظهور على لسان ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي كان يقول : « لم يمض مائة عام من نبوة قط الا انتهت امورها »^(١٤) ، وبهذا يتضح التسلسل الذي نفقده في ابحاث الباحثين في الاسماعيلية ، وتبرز - بذلك - العلاقة بين الكيسانية الاولى التي كانت اساسا لفرق الغلاة - كما رأينا - وبين الاسماعيلية وذلك ان الغلو الذي اخذ عن الكيسانية اصوله قد انصب في الاسماعيلية واورثها اسسه فقال الاسماعيليون : « ان محمد بن اسماعيل لم يمت ، وانه في بلاد الروم ، وانه القائم المهدي . ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد »^(١٥) وبدأت فكرة السبعات من اولي العزم ، و « اولو العزم عندهم سبعة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن اسماعيل ، على معنى ان السموات سبع وان الارضين سبع وان الانسان سبع : بدنه ويداه ورجلاه وظهره وبطنه وقلبه ، وان رأسه سبع : عيناه واذناه ومنخرأه وفمه وفيه لسانه كصدره الذي فيه قلبه ، وان الائمة كذلك وقلبهم محمد بن اسماعيل »^(١٦) ويضيف المقرئ الى ذلك ان « الائمة سبعة قد رتبهم البارئ تعالى كما رتب الامور الجليلة ، فانه جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعا وجعل الارضين سبعا ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات »^(١٧) ، وهكذا

(١٣) المصدر نفسه ٢٠٦ ، ويذكر ابو الحسن الاشعري ان المفضل المذكور

كان يقول بامامة موسى بن جعفر ، مقالات الاسلاميين ٢٩/١ .

(١٤) تاريخ يعقوبى ٤٠/٣ .

(١٥ ، ١٦) فرق الشيعة ٧٢ .

(١٧) خطط المقرئى ٢٢٩/٢ .

دخلنا في بحر الباطنيات التي تتصل بالتطابق بين العالم المادى الذى خلقه الله وبين العالم الروحى الذى رتبته الله ايضا متناسقا مع النظام الذى ينعكس من الخلق المادى •

بعد ان تبينا الصلة بين مذاهب الغلاة والاسماعيلية وظهر لنا التدرج فى العقيدة الشيعية حتى بلغت اوجها فى الاعتماد على الباطن عند الاسماعيلية ندخل فى هذا المذهب لنرى كيف بدأ وتطور ومدى اتصال التصوف به • وقبل ذلك كله يجب ان نقرر انه حتى الاسماعيلية الباطنية تعتمد على مهديية محمد بن اسماعيل كما يروى المقرئى الذى يقرر ان « الائمة السبعة هم : على بن ابي طالب والحسن بن على والحسين بن على وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ومحمد بن على وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان » (١٨) ثم يذكر المقرئى ان الاسماعيلية منقسمون على انفسهم فى من هو المهدي ، ففريق يرى انه اسماعيل وفريق يرى انه محمد بن اسماعيل (١٨) وبذلك تكون الحركة الاسماعيلية - ككل الحركات الشيعية المعتمدة على فكرة المهدي - معتمدة على اتباع شخص واحد لاعدد من الاشخاص الذين رتبهم دعاة الاسماعيلية فيما بعد •

وتبدأ الاسماعيلية الباطنية من اسرة جديدة تبنت هذه العقيدة هى اسرة عبدالله بن ميمون ابن ديسان القداح المتوفى سنة ٢٦١/٧٥-٨٧٤ ومن قبله ابوه ميمون الذى كان مولى لجعفر الصادق (١٩) • والواقع ان الاخبار التي تتصل بهذين الداعيتين مضطربة اشد الاضطراب والذى يستخلص منها ان ميمون بن ديسان كان ملازما لجعفر الصادق وكان فى خدمة اسماعيل ابنه المتوفى سنة ١٣٣/٧٥٠-٥١ ، فلما مات اسماعيل فى حياة ابيه وتوفى جعفر

(١٨) خطط المقرئى ٢/٢٢٩ •

(١٩) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٣ •

الصادق كون ميمون فرقة جديدة تدعو الى مهدية اسماعيل ، ثم لما شب محمد ابن اسماعيل - ويبدو انه كان مطارداً بدليل موته فى بلاد الروم كما مر - صرف ميمون الدعوة اليه ثم مات ميمون فورث دعوته ابنه عبدالله وسار بالدعوة الى نهايتها • ولكن عبدالله مات بعد وفاة محمد بن اسماعيل بثلاث وسبعين سنة فكيف يستقيم ذلك مع معاصرته له ؟ ونحن مسوقون الى ان نقرر ان عبدالله بن ميمون قال بمهدية محمد بن اسماعيل بعد موته ثم دعا سرا الى ابنه جعفر واستمرت الدعوة الى الائمة الاسماعيليين الاولين الذين دعوا بالمكومين حتى استطاع عبيدالله المهدي ان يؤسس الدولة العبيدية فى المغرب بعد قرنين من الكفاح السرى الذى لا يهدأ • وكانت هذه الدولة معاصرة للعباسيين الذين حاربوهم بكل وسيلة ممكنة حتى بالظعن فى نسبهم العلوى • ويجب ان نقرر هنا ان الدعوة السرية دارت حول جعفر بن محمد بن اسماعيل ثم ابنه محمد الحبيب الذى كان يؤمل ظهوره فى اليمن ثم استطاع ابنه عبيدالله ان يكون هذه الدولة (٢٠) • وقد عاصر هؤلاء الائمة المستورين دعاة يثون لهم الدعوة السرية فبدأت الدعوة من ميمون ثم تلقاها عبدالله ابنه ثم احمد ثم الحسين واخوه محمد (٢١) •

و اول ما يقابلنا فى الاسماعيلية الباطنية انها تدعى السبعة (٢٢) رمزا الى السباعيات التى تتحكم فى العقيدة مما رأينا اصله الذى يتصل بالغلاة الكوفيين ، وقد اورد الشهرستانى ان للاسماعيلية تعلقا برقم اخر هو : ١٢ بالاضافة الى الرقم : ٧ ، وروى انهم قالوا : « انما الائمة تدور احكامهم على سبعة سبعة كأيام الاسبوع والسموات السبع والكواكب السبعة والنقبات تدور احكامهم على اثني عشر ... » (٢٣) والنقبات هم الدعاة • والواقع ان الرقم الجديد متأصل من عقيدة الكيسانية ايضا مما رأيناه عند ابى هاشم بن محمد بن الحنفية الذى

(٢٠ ، ٢١) خطط المقرئى ٢٣٤/٢ •

(٢٢) اللباب لابن الاثير ١/٥٣١ •

(٢٣) الملل والنحل ١/٣٣٠ •

وصى محمد بن علي العباسي ان يختار دعائه « فيكونوا اثني عشر نقيبا ، فان
الله لم يصلح بنى اسرائيل الا بهم فان النبي انما اتخذ اثني عشر نقيبا
من الانصار اتباعا لذلك » (٢٤) وهذا دليل جديد على تسلسل الاسماعيلية عن
الكيسانية : اصل مذاهب الغلاة . وسيكون للرقم ١٢ أهمية بالغة عند الامامية
الذين سيختمون ائمتهم بالمهدى المنتظر وهو الامام الثاني عشر . وستكون
لمجموع هذين الرقمين أهمية عند القرامطة الاسماعيليين الذين ساروا في
الشوط الى نهايته فاستندوا - في تأصيل هذه الارقام - الى اسس اسلامية
فقالوا : « ان التسمية مركبة من سبعة واثني عشر (يعنى حروف بسم الله
الرحمن الرحيم) وان التهليل (يعنى الشهادتين) مركب من اربع كلمات في
احدى الشهادتين (لا اله الا الله) وثلاث كلمات في الشهادة الثانية (محمد
رسول الله) ، وسبع قطع في الاولى وست في الثانية واثني عشر حرفا في
الثانية (٢٥) . والامر واضح ان الرقم : ١٩ الذي هو عدد حروف التسمية جمع
بين عدد الائمة وعدد نقبائهم وامناء سرهم وذلك يعنى ان لعدد النقباء اصلا
الها قدسيا فيعود بنا الامر الى الانبياء العجلين الذين اسبقوا على انفسهم قداسة
الائمة الذين دعوا اليهم . والمهم في الامر ان قدسية العدد : ١٩ قد انتقلت
الى البهائية فجعلوا له هالة قدسية واسسوا عليه ركنا من عقيدتهم بل لقد وصلوا
به عدد الاشهر وايامها اذ جعلوا السنة تسعة عشر شهرا والشهر تسعة عشر
يوما وبذلك تبدو الصلة بينهم وبين اسلافهم الشيعة الغلاة . ومن الغريب ان
الحسن بن الصباح المتوفى سنة ١١٢٤/٥١٨ تنكب هذا الاتجاه بعد ان
استطاع ان يسيطر بالقوة على قلعة الموت المشهورة ، بل ان الفاطميين انفسهم
قد اهلوا الساعات التي تحدد عدد الائمة الظاهرين والمستورين بعد ان
تأسس حكمهم في المغرب ثم في مصر فكان عدد خلفائهم - وهم ائمة ظاهرون

(٢٤) تاريخ اليعقوبي ٤٠/٣

(٢٥) الملل والنحل ١/٣٣٨

بالطبع - أكثر من سبعة ثم لما زالت الدولة لم يلتفت احد الى الناحية التطبيقية لفلسفة الارقام التي اسسوا عليها عقيدتهم • وقد لخص لنا براون فلسفة هذه الارقام واصولها بقوله : « ومذهبهم في جملته فلسفي باطني قد استمد كثيرا من اسسه من المذاهب الايرانية والسامية القديمة كما تطرقت اليه بعض تعاليم الافلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة • وهو مبني - في كل تفاصيله على العدد الخفي : ٧ ، فهناك سبع فترات في فترات الانبياء والرسول : آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل • وكل واحد من هؤلاء الانبياء السبعة اعقبه سبعة من الائمة وأول كل سبعة من هؤلاء الائمة هو الامام الصادق وهو (صامت) ولكنه ناطق ورئيس واساس واصل واس وآخر كل سبعة من هؤلاء الائمة يعقبه اثنا عشر نقيبا تنتهي الفترة النبوية بالآخر منهم وتبدأ بعدها فترة نبوية اخرى • فالفترة النبوية السادسة التي بدأت بمحمد قد بلغت نهايتها على يد محمد بن اسماعيل الذي ادعى الخليفة الفاطمي الاول عبدالله بن المهدي بانه من حفدته وسلالته» (٢٦) • وهذا الذي يقرره براون من علاقة الفيثاغورية والافلاطونية الجديدة بالاسماعيلية قد رآه فليب حتى ولكن على صورة اوثق وذلك انه يعتقد بان قدسية الرقم : ٧ قد كانت موجودة في الفيثاغورية القديمة (٢٧) ويرى كذلك مع جولد تسيهر ان الاسماعيلية « يتبعون - في حدود الكائنات فلسفة غنوصية مبنية - الى حد ما - على الافلاطونية الجديدة» (٢٨) وهكذا قادتنا فكرة الاسماعيلية - في اسباغ المعاني الدينية على الارقام - الى نظرية التجليات ، فاستعانوا بنظرية الفيض الافلاطونية - كما يرى جولد تسيهر - وجعلوها اساسا لهم كما فعلت جماعة اخوان الصفا الاسماعيلية البصرية (٢٩) ويضيف جولد تسيهر الى ذلك ان

(٢٦) تاريخ الادب في ايران ٢٤٣ •

(٢٧) تاريخ العرب ٥٣٢/٢ •

(٢٨) العقيدة والشريعة في الاسلام ٢١٣ •

الاسماعيلية « استتبعت من هذه الفلسفة اعرق نتائجها واشدها تطرفا فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكونى التى وضحتها هذه الفلسفة » (٢٩) . والواقع ان رأى جولد تسيهر هذا ليس جديدا ، فان الشهرستاني قد التفت الى ذلك واتبه الى ان « الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة وصنفوا كتبنا على ذلك المنهاج » (٣٠) ، ووقفنا على ان الله -عندهم- « ابدع بالامر العقل الاول الذى هو تام بالفعل ، ثم - بتوسطه- ابدع النفس الذى هو غير تام ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النقص الى الكمال ، واحتاجت الحركة الى آلة الحركة فحدثت الافلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها وتحركت حركة استقامة بتدبير النفس ايضا ، فتركبت من المعادن والنبات والحيوان والانسانية واتصلت النفوس الجزئية بالابدان . وكان نوع الانسان متميزا على سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الانوار وكان عالمه فى مقابل العالم كله » (٣١) ، وذلك كله مذكور فى تبسيط لطيف فى جامع الحكمتين لناصر خسرو (٣٢) ، هذا عن الخلق عامة . اما ما يتصل بالنبي والامام فعلاقته بنظرية المثل كما يبدو من عبارة الشهرستاني ايضا « وفى العالم العلوى عقل ونفس هو كل فوجب ان يكون فى هذا العالم عقل مشخص هو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البائع ويسمونه الناطق وهو النبي ، ونفس مشخصة هو كل ايضا وحكمها حكم الطفل الناقص المتوجه الى الكمال » اما دور النفوس بالنسبة الى النبي فيعبر عنه الشهرستاني بانه « تحركت النفوس والاشخاص بالشرائع بتحريك النبي والوصى فى كل زمان سائرا على سبعة سبعة حتى ينتهى الى الدور الاخير ويدخل زمان القيامة وترتفع

(٢٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ .

(٣٠ ، ٣١) الملل والنحل ١/٣٣٣ .

(٣٢) جامع الحكمتين ١٤٩ .

التكاليف وتضمحل السنن والشرائع « (٣٣) . وهكذا نصل بعد لاي الى ان ارتفاع التكاليف لا يكون في الدنيا وانما يكون في آخر الزمان حين يتصل الناس بالمثل الاعلى فسقط عنهم القائص وتنفصل عنهم الشرور فلا يحتاجون الى تبصير بالحسن والقبیح لانهم يعودون الى طبيعتهم الخيرة الالهية بعد ان اتم النبي والوصي مهمتهما في تطهيرهم ، ولذلك يقول الشهرستاني : « وانما هذه الحركات الفلكية والسنن الشرعية لتبلغ النفس الى حال كمالها وكمال بلوغها الى درجة العقل واتحادها بها ووصولها الى مرتبة فعلا » (٣٤) ويبين ذلك بأنه « من وقت الحركة الى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون الى ما لانهاية له هو الكمال » (٣٥) . ويلاحظ جولد تسهر ان هذه الفكرة تعني ان « الوحي الالهى لا ينقطع ولا ينتهى فى فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليفة » (٣٦) وبذلك يحكم بان الاسماعيلية - من هذه الوجهة - تهدم ركنا من اركان الاسلام وهى « ان محمدا قد ختم الى الابد سلسلة الانبياء » (٣٧) والواقع ان بداية الاسماعيلية لم تكن مؤسسة على هذه الفكرة الازلية كما يبدو منها لاننا وجدنا محمدا بن اسماعيل مهديا كما كان محمد بن الحنفية ومحمد بن عبدالله بن الحسن والائمة من بعد على بن الحسين من قبل ، ولكن استمرار العقيدة الاسماعيلية واستهواها للدعاة والناس معا حمل القائمين على تنظيم العقيدة على تطويرها وتطويرها للاستمرار . ويلاحظ جولد تسهر ايضا ان الصوفية قد استعانوا بالافلاطونية كالاسماعيلية مع فاروق واحد هو ان « الصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه الفكرة الا ان توجد دعامة نفسية تبنى عليها الحياة الدينية بينما الاسماعيلية استخدمتها لكي تنفذ الى صميم الديانة الاسلامية وتعمل على تعديل احكامها وعقائدها » (٣٨) وأهمية هذا الرأى تكمن فى ان جولد تسهر يرى ان الصوفية قد اخذت مما اخذت منه

(٣٣ - ٣٥) الملل والنحل ١/ ٣٣٣ .

(٣٦ - ٣٨) العقيدة والشرعة فى الاسلام ٢١٣ .

الاسماعيلية • وقبل ان نعرض لمراحل السلوك التي يمر بها الاسماعيلي في تدرجه الى الكمال الديني تتم هذا البحث في اصول الاسماعيلية فنذكر بان كل ما اورده الشهرستاني واثبتته جولد تسيهر من ارجاع اصولها الى الفيشاغورية والافلاطونية الحديثة قد اعاده البغدادي ببحث مقارن الى العقائد الفارسية القديمة ، فقال : « وذكر اصحاب التواريخ ان الذين وضعوا اسس الباطنية كانوا من اولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين اسلافهم ، ولم يجسروا على اظهاره فوضعوا للاعمار منهم اساسا من قبلها منهم صار في الباطن الى تفضيل دين المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي على موافقة اساسهم » (٣٩) ، ولا يترك البغدادي الامر يمر دون برهان ، فيرى ان « بيان ذلك ان الثنوية زعمت ان النور والظلمة صانعا قديمان ... وذكر زعماء الباطنية في كتبهم ان الاله خلق النفس ، فالاله هو الاول والنفس هو الثاني وهما مدبرا هذا العالم ، وسموها الاول والثاني وربما سموهما العقل والنفس ، ثم قالوا : انهما يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الاربع ، وهذا تحقيق قول الثنوية ان النور والظلمة يدبران امر العالم ... » (٤٠) .

والنوبختي يجد في الاسماعيلية اصولا مسيحية بقوله « وزعموا ان اسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله عز وجل في كتابه ، وان الدنيا اثنا عشرة جزيرة في كل جزيرة حجة ، وان الحجج اثنا عشر ولكل حجة داعية ولكل داعية يد : يعنون بذلك ان اليد رجل له دلائل وبراهين يقيمها ويسمون الحجة الاب والداعية الام واليد الابن يضاھئون قول النصارى » (٤١) ولكن النوبختي يعود فيرى في المظاهر الاسماعيلية الاخرى المتضمنة « ان جميع الاشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنها نبيه (ص) وامر بها لها ظاهر وباطن » (٤٢) انما هي مذهب عامة اصحاب ابي الخطاب كما رأينا نحن

• (٣٩ ، ٤٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٤

• (٤١ ، ٤٢) فرق الشيعة ٧٥

من قبل ، ويرى ابن التديم ان عبدالله بن ميمون القـداح واباه كانا
ديصانيين (٤٣) وذلك يعنى ان الاسماعيلية تشتمل على مبادئ الديصانية وهى
كما يروى الشهرستانى « مذهب يثبت اصلين ايضا : نورا وظلاما وهو سابق
على المانوية » (٤٤) هذا الاضطراب فى الحكم قد اصاب الاسماعيلية حتى من
المعاصرين لها وكان السبب فى ذلك سرية عقائدهم وتعلقهم بالباطن وهذه
الاشارة اليهما مدخل لنا الى اهم ما يميز به المذهب الاسماعيلى • فالمقرئزى
يقول فى تعرضه لهم : « لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطن ولكل تنزيل
تأويل » (٤٥) ويشرح ذلك بقوله : « ان دين محمد (ص) ما جاء بالتحلى
ولا بامانى الرجال ولا شهوات الناس ولا بما خف على الالسة وعرفته دهماء
العامة ولكنه صعب مستصعب وامر مستقبل وعلم خفى غامض ستره الله فى
حجبه وعظم شأنه عن ابذال اسراره ، فهو سر الله المكتوم وامره المستور
الذى لا يطيق حمله ولا ينهض باعبائه ونقله الا ملك مقرب او نبي مرسل
او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى » (٤٦) ويضيف المقرئزى الى ذلك ان
محمد ابن اسماعيل عنده ايضا علم المستورات وبواطن المعلومات التى
لا يمكن ان توجد عند احد غيره وان عنده علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر
الامور وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم واتقان دلالاته فى كل امر
يسأل عنه فى جميع المدومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله والتأويلات
وتأويل التأويلات » (٤٧) • وقد اورد لنا الخوانسارى امثلة من هذه التأويلات
كتأويل الوضوء بموالاته الامام والتميم بالاخذ من المأذون عند غيبة الامام الذى
هو الحجبة والصلاة هى الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى ان الصلاة

(٤٣) الفهرست ٢٦٤ •

(٤٤) الملل والنحل ٢/٨٩ •

(٤٥) خطط المقرئزى ٢/٢٢٩ •

(٤٦) خطط المقرئزى ٢/٢٢٧ •

(٤٧) المصدر نفسه ٢/٢٣٠ •

تهى عن الفحشاء والمنكر ، والاحتلام بافشاء السر الى غريب دون قصد ،
والغسل بتجديد العهد ، والزكاة بتزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين ،
والكعبة بالنبي ، والباب بعلى ، والميقات والتلبية باجابة المدعو ، والطواف بالبيت
سبعا بموالاته الائمة السبعة ، والجنة براحة الابدان عن التكليف ، والنار
بمشقتها بمزاولة التكليف (٤٨) وتلك احكام تعود بنا الى الغلو الذى عرفنا انه
رأى ان الدين طاعة رجل وان الصلاة والزكاة وغيرهما انما هى كنيات عن
رجال . ثم ان الاسماعيلية تجعل النقباء الهيين ايضا وان كانوا من غير الائمة
وتسندهم بان عددهم اثنا عشر رجلا فى كل زمان كما ان عدد الائمة سبعة
وانهم مع كل امام قائم منفردون فى جميع الارض عليهم تقوم (٤٩) ثم يعين
المقريزى مركز هؤلاء النقباء او الحجج بان مقامهم هو مقام الفاهم المطلع
على اسرار المعانى وينص على ان ظهور امر الامام « انما هو ظهور امره ونهيه
على لسان اوليائه » (٥٠) . ويذكر ابو يعقوب السجستاني ان ميراث النبى
من العلم يتحول الى الوصى ومنه الى الامام ومن الامام الى الحجّة (٥١) . ثم
تضح المسألة اكثر باطلاعنا على النص الذى يورده المقريزى ايضا من ان
« الامام انما وجوده فى العالم الروحانى اذا صرنا بالرياضة فى المعارف
اليه » (٥٢) . المعنى الذى يعبر عنه السجستاني الاسماعيلية بقوله : « ان هذه
العلوم لاتصل الا الى مستحقها بالرياضة ولو كان حبشيا او سنديا » (٥٣) .
وبذلك تضح لنا فكرة السلوك الاسماعيلية الذى ييسح للمريد ان يصل الى حقيقة
التأويل عن طريق الرياضة العقلية التى بلغ بها النقيب او الحجّة ما بلغه الامام
من علم . ويوضح جولد تسيهر ذلك بان « الحقائق لاتوجد الا فى المعانى

(٤٨) روضات الجنات ٧٣١ .

(٤٩ ، ٥٠) خطط المقريزى ٢/٢٣٣ .

(٥١) كشف المحجوب فى شرح قصيدة الجرجانى ٦٥ .

(٥٢) خطط المقريزى ٢/٢٣٣ .

(٥٣) كشف المحجوب ٩٢ .

الباطنة • اما المعاني الظاهرة فهي حجب مضطربة واقعة متناقضة • ومريدو الاندماج في الفرقة الاسماعيلية تراح عنهم هذه الحجب والاقعة بالقدر الذي يناسب استعداداتهم ، ويتدرجون في هذا المضمار حتى تنهياً لهم المقدرة على مواجهة الحقائق وهي سافرة» (٥٤) ولا بد اننا لاحظنا موازاة هذه المعاني للمثل والمبادئ الصوفية • وقد لاحظ ذلك جولد تسيهر فاورد لنا قصيدة لجمال الدين الرومي الشاعر الصوفي يفصح بها عن فكرتي الجانبين المعبرة عن حقيقة واحدة بقوله : « اعلم ان آيات القرآن سهلة يسيرة ، ولكنها على سهولتها تخفى وراء ظاهرها معنى خفياً مستترا • ويتصل بهذا المعنى الخفي ثالث يحير ذوى الافهام الناقبة ويعيها • والمعنى الرابع ما من احد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لاشييه له • وهكذا نصل الى معان سبعة الواحد تلو الاخر ، ولذا لاتقيد يا بنى بفهم المعنى الظاهري كما لم تر الشياطين في آدم الا انه مخلوق من الطين • فالمعنى الظاهري في القرآن شبيه بجسد آدم ، فما نراه منه هو هيئته الظاهرة وليس روحه الخفية المستترة » (٥٥) ، وهذا السلوك يصف الانسان بالعلم الالهى الى حد ان الاسماعيلية رأوا - كالتصوفة - « ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة وان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة » (٥٦) ، وذلك ان الفاطميين كانوا « يتدرجون في دعوتهم فاذا تمكن المدعو من التعاليم الاولى احواله على ما تقرر في كتب الفلسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهى وغير ذلك من اقسام العلوم الفلسفية ، حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه وقال : « ان ما ذكر من الحدوث والاصول رموز الى معاني المبادئ وتقلب الجواهر » (٥٧) والظاهر ان هذه الدرجات متأخرة جدت في بدأ دولة الفاطميين وليست من اوائل عقائد الاسماعيلية •

(٥٤ ، ٥٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٦ •

(٥٦) خطط المقرئى ٢/٢٣٣ •

(٥٧) خطط المقرئى ٢/٢٣٢ •

ويورد عبدالله عنان المراتب التسع في دار الحكمة التي اسسها الحاكم بامر الله الفاطمي ويذكر ان الطالب يلقن تعاليم التنوية في المرتبة السابعة ، وفي الثامنة تنقض كل صفات الالوهية والتنوية ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم السياسية وانشاء الحكومات المثلى ، وفي التاسعة والاخيرة يدخل الى حظيرة الاسرار ويعلم ان كل التعاليم الدينية اوهام محضة وانه يجب الا يتبع منها الا ما هو لازم لحفظ النظام وان ابراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الانبياء ليسوا الا رجالا مستيرين تفقهوا في المسائل الفلسفية» (٥٨) . والواقع ان هذه النظرة المادية الى المذهب الاسماعيلي تسلبه كل مافيه من غنوصية وروحانية ، فليس الامر كذلك والا ما قامت له خلافة ولا حدثت في دولتهم طاعة ، بل لقد وجدنا الفاطميين اخلص من غيرهم في عقيدتهم واسرع الى بذل النفس ، ولا يكون البذل الا بالعاطفة الفياضة والايمان الذي لا يتزعزع ، وكذلك يرى الاستاذ محمد كرد علي ان «العقل عندهم هو حقيقة مبعودهم» (٥٩) ولكن اى عقل؟ انه العقل الالهى لا المادى وهذا ما يورده فيليب حتى من ان «المريد يتدرج بتأن وهدوء في مراق بطيئة دقيقة حتى يعلو ذروة العقائد الباطنية الخفية بعد ان يكون قد اقسام على الكتمان ومن هذه التعاليم والعقائد الباطنية فكرة نشوء الكون متجليا عن الجوهر الالهى وتناسخ الارواح وحلول الالوهية في اسماعيل وانتظار رجعته مهديا . والمراتب التي يتدرج فيها المريد سبع وقد تكون تسعا ، وهى تذكرنا بدرجات الماسونية اليوم» (٦٠) . ومع تناول الباحثين لهذه الدرجات بالبحث على انها قضية مسلمة فان آدم متز يشكك في كل ما يقال عن درجات الاسماعيلية الا ما يذكره ابن النديم من انه « كان عندهم سبع درجات من الاتباع خلافا لما ذكره اخو محسن من درجات

(٥٨) الجمعيات السرية فى الاسلام ٤٢ .

(٥٩) الاسلام والحضارة العربية .

(٦٠) تاريخ العرب ٥٣٣/٢ .

تسع» (٦١) • والمهم في الامر ان كلا من هذه الدرجات له كتاب خاص يلقي على الواصلين اليها ، وكل كتاب يسمى البلاغ والبلاغ السابع هو الذي فيه نتيجة المذهب الكشفي الاكبر ويقول ابن النديم : « انه قرأه فوجد فيه امرا عظيما من اباحة المحظورات والوضع من الشرائع واصحابها » (٦٢) • ومادام الوضع من الشرائع واباحة المحظورات مقصورين على الدرجة السابعة فانها تعنى - ان صح قول ابن النديم - ان المريد قد بلغ درجة الحلول وان العقل الاول قد اتصل به فلم يعد ثمة مجال لفهامه لماذا حرم كذا واحل كذا لانه صار بنفسه مصدرا للتشريع ، وتلك عقيدة وجدناها من قبل عند فرق الغلاة وليست هي جديدة على الاسماعيلية • ومن اهم مايرد في هذا المقام تقرير محمد بن سرخ النيسابوري الاسماعيلي (المتوفى في القرن الخامس) ان « ذلك اليوم هو يوم قوة العقل ودولته ، فيه تتعلق بالنفس آثار القائم الذي يعيد للعقل اشراقه ، وتعود الى النفوس الفيوض الالهية التي حجبت عنها من قبل » (٦٣) • وهذه المكانة في الاسماعيلية تقابلها في التصوف درجة المحو والاتحاد بحيث يقول الصوفي في صراحة : انا الله ، وقد رأيناها آتية من الغلاة اولاً ثم نظمتها الاسماعيلية واصلتها واسست لها فاخذتها الصوفية جاهزة وقد رأينا في رسائل جابر بن حيان الاسماعيلي قوله : « ان حد علم الباطن انه العلم بعلم السنن واغراضها الخاصة اللائقة بالعقول الالهية » (٦٤) ، وقد وجدنا هذا التفاوت في العلم - من قبل - في هذه الرسائل ايضا ووجدنا ان طبقات الناس الالهيين تعد خمسا وخمسين طبقة للواصلين لاسبعا ولا تسعا كما قال الفاطميون بعدئذ • وتبدأ هذه الدرجات « بالنبي فالامام فالحجاب فالبيسط فالسابق فالتالي فالاساس ... حتى تنتهي بالناسك فالحياة فالناهي فذى الامر

(٦١) الحضارة العربية في القرن الرابع ٥١/٢ •

(٦٢) الفهرست ٢٨٢ •

(٦٣) شرح قصيدة ابن الهيثم الجرجاني ، طهران ١٩٥٥ •

(٦٤) مختار رسائل جابر بن حيان ١٠٤ •

الذى اذا ظهر فلا بدل منه اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لا يخالطه فيه غيره» (٦٥) .

وقد دخلت فى التصوف فكرة اسماعيلية صريحة اخرى هى فكرة النقباء التى دارت - فى الاسماعيلية - حول رجال عددهم اثنا عشر يسمون الحجج يثون الدعوة فى غيبة الامام او فى حضرته وهم مقدسون وعددهم ثابت ويسندهم تكوين العالم الطبيعى كما يسند عدد الائمة السبعة فى السلسلة الواحدة وقد بين لنا المقرئى ان هؤلاء الحجج متفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم «ويضيف ان عدة هؤلاء الحجج ابداء اثنا عشر رجلا» (٦٦) . وهكذا يشارك الحجة الامام فى العلم والدعوة والسند الالهى ومن هنا نفذت الصوفية الى منازل القطب والابدال . وهذا ابن عربى يذكر - فى الفتوحات عن الصوفية ما ذكره المقرئى عن الاسماعيلية فيقول فى النقباء : « وهم اثنا عشر نقيباً فى كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثنى عشر » (٦٧) ، وهذه الاشارة تكفى للدلالة على أخذ المتصوفة فكرة هذه المنازل المقدسة عن الاسماعيلية ، ويجب ان نشير هنا الى ان ابن تيمية قد تبه الى ان هذه المصطلحات ليست مأثورة عن النبي (٦٨) فكأنه يشير الى ان الصوفية قد اخذوها عن الاسماعيلية الذين قالوا بها اول من قال . وقد تبه ابن خلدون ايضا الى اخذ المتصوفة - وبخاصة ابن عربى - عن الاسماعيلية القول « بالقطب وكذلك ابن قسى وعبدالحق بن سبعين وابن ابى واصل : تلميذه » (٦٩) وسيرد كل ذلك فى موضعه من التصوف .

-
- (٦٥) مختار رسائل جابر بن حيان ٤٨٩ .
(٦٦) خطط المقرئى ٢/٢٣١ .
(٦٧) الفتوحات المكية ٩/٢ .
(٦٨) ضحى الاسلام ٣/٢٤٥ .
(٦٩) المقدمة ٣٢٣ .

لقد كانت الدعوة الاسماعيلية تقوم على نظام هرمى يبدأ بالامام ثم يستند على الحجج الاثنى عشر ثم على الدعاة المنتشرين فى ارجاء العالم الاسلامى وقد ذكر ناصر خسرو انهم سبعة على نسق الكواكب السبعة يتنازلون من النبى فالوصى والامام فالحجة فالباب فالداعى فالماذون (٧٠) • فلما اخذ الاسماعيلية ازمة الحكم تحول ذلك النظام الى هيئة رسمية تقوم على تلك الصورة نفسها ولكن تغيرت الاسماء فصار رئيس الحجج داعى الدعاة ومنه يخرج الدعاة • ويذكر لنا آدم متر عن ناصر خسرو ان داعى الدعاة هذا هو اكبر اصحاب الدرجات عندهم وهذه الدرجات دينية بالضرورة كما رأينا • وقد كون المتصوفة المتأخرون عالمهم على ذات النسق بادئين بالقطب والابدال وغيرهم ، وكما استند الاسماعيلية فى اعدادهم الى مظاهر الطبيعية الالهية فعل الصوفية كذلك ، وقد رأينا اشارة ابن عربى السابقة فى النقباء الى ان عدد البروج يسندهم وتلك اشارة المقرئى نفسها الى نقباء الاسماعيلية • فكان ابن عربى يعبر عن عقول الافلاك التى استندت اليها الفلسفة الاسماعيلية ان صح صدورها عن العقل الاول والنفس الكلية من الفلسفة الافلاطونية الحديثة •

وقد كان من اثر اغراق الاسماعيلية فى الجانب الروحى وازافتهم الصفات الالهية الى الائمة ان قيل بالهية الحاكم بامر الله الفاطمى المتوفى سنة ٤١١/١٠٢٠-٢١ ، وذلك امر ليس بالمستغرب على غلاة الشيعة كما مر بنا فى هذا البحث ، غير ان الحاكم قد كان - دون الائمة كلهم - صريحا فى لبس جبة صوف ابيض وركوب الحمار (٧١) • وينقل متر عن تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكى انه اعتق سائر مماليكه من الاناث والذكور ••• وانه رفض اللذة الجسدية (٧٢) وكل تلك امور اذا اضيفت الى نسب الحاكم

(٧٠) جامع الحكمتين ٢٩٦ •

(٧١) تاريخ ابن اياس ٥٣/١ •

(٧٢) الحضارة الاسلامية فى ٥٦/٢ •

العلوى واستناد الدعوة الفاطمية الى روحانية الائمة وحلول الجزء الالهى فيهم تشجع الظالمين الى تأسيس فرقة جديدة الى اهتبال هذه الفرصة . وهكذا استغل الدرزي هذه الظروف كلها ونادى بان روح الاله حلت في الحاكم^(٧٣) ، وكان هناك «حمزة الذى كان اصحابه يركعون عندما يرون الحاكم فى الشوارع ويصيحون قائلين : انت الواحد الاحد والمحيى الميت»^(٧٤) ، وتلك امور عهدناها عند الشيعة ايام جعفر الصادق وليست علينا بغريبة ، ولكن الطريف فى الامر ان يكون التآلية مكشوفاً صريحاً وان يسير الحاكم الاله فى الاسواق وان يسجد له الناس ويتجهوا اليه بالدعاء ولعل ذلك ما كان يتمناه الحلاج لنفسه حين ظهر منه الحلول ، بل لعل السرفى هذا المذهب الفاطمى الذى ربما كان الحلاج يدعو اليه كما سنرى عند عرضنا له . وعلى ذلك فان من المتوقع ان تتأثر الصوفية بالاسماعيلية وبخاصة فى الهدف الذى يرمى اليه الصوفية والذى تحقق فى واحد من خلفائهم بعد قتل الحلاج بتسعين سنة ، وقد كانت نهاية الحاكم القتل سنة ٤١١ كما انتهى الحلاج . ومهما يكن من امر ادعاء الحاكم او ادعاء اصحابه الهيته - التى انكرها ولم يعترف بحدوثها ابن خلدون^(٧٥) والذهبي^(٧٦) و آدم منز^(٧٧) - فان مبادئ الاسماعيلية تشتمل على هذه البذرة التى يستطيع الظالمون غرسها وتعهدها بالسقيا لثمر هذا الثمر ، غير ان الحاكم قد صار مهدياً للدروز ينتظرون عودته^(٧٨) أو الها كما يذكر جولد سيهر^(٧٩) .

لقد مرت الاسماعيلية فى ادوار كثيرة وتسمت بها فرق عديدة وذلك

- (٧٣ ، ٧٤) الفاطميون فى مصر ٢٠٩ ، عن تاريخ يحيى بن سعيد ٢٢١ .
 (٧٥) المقدمة ٦٠٤ .
 (٧٦) خطط المقرئى ١٨٤/٤ .
 (٧٧) الحضارة الاسلامية ٧٥٦/٢ .
 (٧٨) وفيات الاعيان ١٩١/٤ .
 (٧٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٨ .

لا يهمننا في شيء طالما جمعها جميعا القول بالباطن وترتيب المعرفة بحسب مستوى المرید العقلي وإضافة السمو الروحي إلى الأئمة والدعاة اليهم ، ولكن الاسماعيلية - في تاريخها الطويل - لم تلتفت إلى الجنس مع اعتمادها في البداية على الموالي وقد سقطت دون أن نسمع عن ثورة داخلية أو تحكم جنس في جنس داخل الدولة ولعل للمكان الذي أقيمت فيه دولتهم اثره . لقد جمعت الاسماعيلية « العامة الذين قتلت بصائرهم باصول العلم والنظر كالقبط والاكراذ والمجوس والصف الثاني الشعبي الذين يرون تفضيل العجم على العرب والصف الثالث اغنام بني ربيعة من اجل غيظهم من مضر لخروج النبي منهم » (٨٠) ، ويكفي ان اخوان الصفا : اصحاب الحركة السرية الاسماعيلية كانت « تسمى لهذیب العامة » (٨١) ، والغرض معروف وهو الثورة على الدولة العباسية ولكنها لم تستند إلى عصية جنسية . وقد اخذ المتصوفة هذا الاتجاه عن الاسماعيلية فاننا لانجد في التصوف عصية جنسية ، وكان في الامكان جدا ان ينشأ التصوف ويتطور متمادا على العصية الفارسية ، ولكنه تكب هذا السبيل لانه - في جوهره - تحسرر من كل القيود . على ان ذلك لا يمنع انه تأثر باتجاه سبقه وكان متحققا في عالم اسس على العصية الجنسية .

ويجب ان تنبه إلى ان الاسماعيلية مازالت موجودة في العصر الحاضر وانها تمثل في اتجاهين : الاول باطنى مشتق من حركة الحسن بن الصباح الذي كان سند دعوته ضرورة الحاجة إلى امام للتمييز بين الحق والباطل (٨٢) كدعوى هشام بن الحكم السابقة ، وهؤلاء هم الاغا خانية (٨٣) الذين ينتسب

(٨٠) الفرق بين الفرق ١٨١ .

(٨١) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع ٧٧ .

(٨٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشرکين ٧٨ .

(٨٣) الشيعة في التاريخ ٦٢ .

زعيمهم الى الحسن هذا ، والاتجاه الاخر هو الاتجاه المعتدل الذي كان
يمثله المباركية : انصار محمد بن اسماعيل في بداية الدعوة ، وهؤلاء يمثلون
الان في البهرة ، وسلطانهم الحالي مولانا سيف الدين^(٨٤) . ولا يفرق براون
بين الفريقين وانما يجعل كل فريق منهم يدين لولد مسن ولدى المستنصر
آخر الخلفاء الفاطميين في مصر ، فالبهرة يدينون بامامة المستعلي والاعا خانية
- وهم النزارية - بامامة ابن المستنصر الاكبر نزار^(٨٥) .

ويضاف الى هذين الفريقين الدرزي وهم فرقة اسماعيلية معاصرة
مستقلة عن الفريقين السابقين ، وهم يقولون : « ان روح آدم انتقلت الى علي
ابن أبي طالب ومنه الى اسلاف الحاكم بأمر الله ملك الفاطميين مقمصه من
واحد الى آخر ، والدين الحق توحيد الحاكم»^(٨٦) ، وقد ذكر المقرئزي
ذلك كله في تعرضه للدرزي محمد بن اسماعيل^(٨٧) . ويذكر كرد علي ان
الدرزي يعتبرون الصوم صدق اللسان ، وحفظ الاخوان بدل الصلاة
ويقرؤون القرآن ويؤولونه ويذهبون الى قدم العالم تبعاً لتعاليم الفلاسفة ،
ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص^(٨٨) ، وقد قال بذلك المقرئزي
ايضاً نقلاً عن مرآة الزمان في ذكره للدرزي^(٨٩) .

ومهما يكن من شيء فان الاسماعيلية قد اضافت الى الامامة اندليل
العقلي وجعلت الفلسفة في خدمة العقيدة، وذلك امر شاق ولكنه تحقق . ويحجان
نذكر - في نهاية بحثنا للاسماعيلية - انها اضافت الى التصوف كثيراً مما فيه
من روحانية وانها كانت اساساً لفكرة القطب والابدال التي شاعت في التصوف

(٨٤) الشيعة في التاريخ ٦٢ .

(٨٥) تاريخ الادب في ايران ٢٤٧/٢ (هامش) .

(٨٦) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .

(٨٧) خطط المقرئزي ١٨٤/٤ .

(٨٨) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .

(٨٩) خطط المقرئزي ١٨٤/٤ .

المتأخر وكانت الاصل في المناصب الصوفية المتأخرة كمشيخه مشايخ الطرق التي تعادل منصب داعي الدعاة في الاسماعيلية . وقد كان من التقارب بين الاسماعيلية والصوفية ان اضيف الى خليفة من خلفائهم ما اضيف الى كبار الصوفية ممن قالوا بالحلول كالحلاج والقائلين بقوله من المتأخرين .

الامامية

احدث موت جعفر الصادق تفتتا غربيا في التشيع فقد كان الشيعة - ممن التفوا حوله - يمثلون اتجاهات مختلفة وثقافات متباينة ونفسيات شتى . وسرعان ما بدت الاتجاهات الجديدة مما رأينا لونا منها متمثلا في الاسماعيلية ، ومر بنا لونا آخر هو الغلو في فصل الغلاة . اما الشيعة التقليديون المحافظون فقد التفوا حول عبدالله بن جعفر الصادق وقالوا بامامته (٩٠) ولكن موته بعد ابيه بسبعين يوما دون عقب (٩١) اعادة الشيعة الى القول بامامة موسى بن جعفر الصادق ، وانصرفت فرقة اخرى الى القول بامامة محمد بن جعفر الصادق النائر بالمدينة وهم الزيدية (٩٢) . ولا بد - في امام مثل جعفر الصادق - ان يقال بمهديته مادام قد كان الها عند الخطابية ، وقد حدث هذا فعلا اذ قالت الناوسية بمهديته (٩٣) . وقد انصرفت كل فرقة الى مثلها وعقائدها ويهمننا في هذا الفصل فريق واحد هو الامامية انصار موسى بن جعفر وهم اسلاف الاثنا عشرية الحاضرة . والحديث في النواحي التاريخية والشخصية يطول ، وملخص مادار من سيرة ائمة الامامية ان موسى بن جعفر قد مات في سجن الرشيد سنة ٧٩٩/١٨٣ فدارت الامامة حول ابنه علي الذي لقبه المأمون بالرضا وولاه العهد من بعده (٩٤) ، وقد كان الرضا من قوة الشخصية وسمو

(٩٠) فرق الشيعة ٧٧ .

(٩١) الملل والنحل ١/٢٧٤ .

(٩٢) مقاتل الطالبين ٥٤٠ .

(٩٣) فرق انشيعة ٦٧ .

(٩٤) مروج الذهب ٢/٣١٦ .

المكانة ان التف حولة المرجئة واهل الحديث والزيدية ثم عادوا الى مذاهبهم بعد موته سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ بطوس^(٩٥) وحدث اشكال كبير بعد موت الرضا اذ كان عمر ابنه محمد الجواد سبع سنين^(٩٦) فاضطر قوم من الشيعة الى القول بمهدية الرضا وقال قوم بامامة الجواد وحاولوا ان يسندوا امامته بتشييهه بيحيى بن زكريا وعيسى عليه السلام والصبي الذي حكم بين يوسف بن يعقوب وامرأة الملك وغيرهم^(٩٧) بل لقد اجاز الشيعة له العمل بالقياس^(٩٨) مع انهم اعدى اعدائه وجوزوا « ان يتولى الصلاة لهم وينفذ احكامهم في ذلك الوقت غيره من اهل الفقه والدين والصلاح»^(٩٩) ، ومات الجواد سنة ٢٢٠/٨٣٥ م خلفا ابنه عليا الهادي في الخامسة من عمره فعاد امر اضطراب التشيع كما كان وان لم يشر احد الى صغر سنه . ومات الهادي في سامراء محدد الاقامة سنة ٢٥٤/٨٦٨ ، ووقع الشيعة في حياته في اشكال آخر ذكرهم بامامة اسماعيل وذلك ان الهادي كان قد اعد ولده محمدا لتولى الامامة من بعده ولكنه توفي في حياة ابيه ، فعانج الشيعة الامامة بالبداء ايضا فصارت لابن الهادي الثاني وهو الحسن العسكري والد المهدي الاثنا عشرى . وقد توفي الحسن في سامراء ايضا سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ فاختلاف الشيعة في امر عقبه وقالت اثنا عشرة فرقة باعتناع ولادة عقب له وتشككت اخرى في الامر وقالت الرابعة عشرة بتحقيق ولادة محمد المهدي له^(١٠٠) وانصهرت آراء الشيعة في هذا الاعتقاد الاخير فتبنت فكرة المهدي واسست عليها عقيدتها واعادت تنظيم افكارها من جديد واقتصرت على الائمة الاثني عشر الذين ذكرناهم وسميت بالاثنا عشرية التي مازالت موجودة حتى عصرنا الحاضر . ويجب الا يفوتنا انا لم نتطرق الى تفاصيل التنازع في الامامة لان في ذلك

(٩٥) فرق الشيعة ٨٦ .

(٩٦) ذكر الاشعري انه كان له اربع او ثمانى سنين ، مقالات الاسلاميين ١/٣١ .

(٩٧) فرق الشيعة ٩٠ .

(٩٩) مقالات الاسلاميين ١/٣١ .

(١٠٠) فرق الشيعة ٩٦-١١٢ ملخصا .

تطويلا لا مبرر له ، ولكن يحسن بنا ان نذكر بان الائمة من بعد الصادق قد
 قيل بمهديتهم جميعا كما يرد ذلك في فرق الشيعة للنوبختي وغيره من
 كتب الفرق التي تنطرق الى التشيع وتشعبه وينبغي ان نذكر ايضا ان انصار
 الائمة بعد جعفر الصادق قد اشتهوا فرقا عالية شأن اسلافهم من انصار الائمة
 قبل الصادق . وانظري في أمر المهدي الاثنا عشرى انه قد عاصر غيبته
 الصغرى - التي بدأ سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ وتنتهى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ -
 اربعة سفراء كانوا ينوبون عنه في قضاء شؤون الشيعة
 وهم : عثمان بن سعيد ثم ابنه محمد المعروف بالشيخ الخلاني
 المتوفى سنة ٣٠٤/٩١٦-٧ ثم الحسين بن روح النوبختي المتوفى سنة
 ٣٢٦/٩٣٧-٣٨ ثم على بن محمد السمرى او السيمرى المتوفى سنة
 ٣٢٩/٩٤٠-٤١ ، وقد اخرج السمرى - قبل وفاته - توقيعا من المهدي
 » ينذر بانقطاع السفارة ووقوع الغيبة الكبرى الى ان يأذن الله سبحانه
 بالظهور « (١٠١) وبعد انتهاء الوكالة - التي ألفت في سيرهم كتب وذلك في
 نهاية القرن الرابع وبداية الخامس (١٠٢) ، تسلم الميراث علماء الشيعة

(١٠١) الشيعة في التاريخ ٧٦ .

(١٠٢) راجع رجال النجاشي ، ٦٢ ، ٣٠٨ .

وانظر صفحة ٦٣ حيث ذكر النجاشي احمد بن محمد بن ايوب الجوهري
 (المتوفى سنة ٤٠١) باعتباره مصنف كتاب « اخبار وكلاء الائمة
 الاربعة» وكذلك جاء ذكر احمد بن نوح السيرافي ، نزيل البصرة واستاذ
 النجاشي وشيخه ، بوصفه مؤلف كتاب « اخبار الوكلاء الاربعة » . وانظر
 صفحة ٣٨ التي نص فيها النجاشي على تأليف هبة الله بن احمد بن محمد
 الكاتب ابى نصر المعروف بابن برنية ، ابن بنت محمد بن عثمان
 العمرى ، (وكان حيا سنة ٤٠٠) لكتاب في الوكلاء الاربعة اعتمد عليه
 السيرافي في تأليف كتابه المذكور .

وانظر معالم العلماء لابن شهر اشوب (ص١٦-١٧) حيث ذكر
 كتابا لاحمد بن محمد بن عبد الله الجوهري في أخبار وكلاء الائمة
 مختصرا .

ومما يلفت النظر حقا ان خصوم الشيعة لم يتطرقوا الى الوكلاء
 حتى في القرن الخامس فلم يعرض لهم مثلا ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦)
 ولا الاسفراينى (المتوفى سنة ٤٧١) .

وقفهاؤهم وجعلوا يلائمون بين عقائدهم القديمة والمعاصرة وينظّمون ويصنّفون ، فصبوا كل ما قالته الفرق المختلفة في تاريخ التشيع على صورة منسقة ملطّفة مسندة بالمنطق العقلي في التشيع الاثنا عشرى وشرعوا لعلماء التشيع الاجتهاد ، وهكذا انتهت حياة الائمة لتبدأ حياة المذهب والواقع انه لم يجد على التشيع جديد بل كل ما صنعه العلماء والمصنّفون هو التنظيم لا اكثر ولا اقل . ونعود الى الائمة الذين اقر امامتهم التشيع الاثنا عشرى في النهاية فنجد بعد جعفر الصادق ابنه موسى ثم على بن موسى الرضا ثم محمد بن على الجواد ثم على بن محمد الهادى ثم الحسن بن على العسكري فمحمد بن الحسن المهدي . وستعرض لذكر كل واحد منهم على انفراد لئرى مدى تأثير التصوف بسيرتهم او صدورهم عن المنزاع الزهدى .

كان الامام السابع : موسى بن جعفر - ويلقب بالكاظم - اماما من سنة ١٤٨-١٨٣/٧٦٥-٧٩٩ ربيع قرن من الزمان ولكنها امامة سرية وكان رجلا مسلما جنى عليه شك الرشيد في احتمال منازعته الخلافة . وكان الكاظم صورة اخرى من على بن زين العابدين في زهده وفي معاملته للناس ، وكانت الصرار التي يتألف بها قلوب مبغضية مشهورة ، فقد كان يرد الاساءة بالاحسان (١٠٣) صنيع جده زين العابدين ، وكان يقول : « ما اهان الدنيا قوم قط الا هأنهم الله اياها وبارك فيها لهم ، وما اعزها قوم قط الا بغضهم الله فيها » (١٠٤) . وكان للامام الكاظم اتصال بالصوفية فان الخوانسارى ينقل عن جامع الانوار ان شقيقا البلخي المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-٨١٠ كان من تلامذته وله الرواية ايضا عنه . . . وكان استاذا لحاتم الاصم المتوفى سنة ٢٣٧/٨٥١-٥٢ ومصاحبا لابراهيم ابن ادهم المتوفى سنة ١٦١ ، واسشهد (يعنى شقيقا البلخي) في بلاد

(١٠٣) مقاتل الطالبين ٤٩٩ .

(١٠٤) تاريخ اليعقوبى ١٤٥/٣ .

ما وراء النهر بتهمة الرفض» (١٠٥) وقد جمع انخوانسارى بين معروف الكرخى والامام موسى الكاظم وجعل معروفا بوابا له (١٠٦) ، ويجعل الحاج معصوم على توبة بشر الحافى على يده ايضا (١٠٧) ، ويورد القشيري ان بشرا (المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢) رأى فى منامه الرسول (ص) فذكر له (ص) ان « من جملة الاسباب التى رفعه الله بها من بين اقرانه محبته لاصحاب الرسول واهل بيته» (١٠٨) . وينقل صاحب طرائق الحقائق عن ابن الجوزى فى كتابه : (اثارة العزم الساكن الى اشرف الاماكن) - ويسميه صاحب اخبار الدول : (مير الغرام الساكن) - عن شقيق البلخى انه قال : « قصدت الى الحج ، فنزلت القادسية . فينا انا انظر الى الناس وزيتهم ، اذ نظرت شابا حسن الوجه شديد السمرة نحيفا ، فى رجليه نعلان ، فجلس منفردا ، فقلت : هذا من الصوفية ، يريد ان يكون كلا على الحجاج ، فقلت : لامضين اليه ولاويخه . فدنوت منه فقال : يا شقيق اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم» (١٠٩) ، ثم تركنى وولى . فقلت : هذا عبد صالح كاشفنى لالحقته ليستغفر لى . فاسرعت فى أثره فغاب عنى . فلما نزلنا واقصة اذا هو قائم يصلى واعضاؤه ترتجف ودموعه تجرى ، قلت : هذا صاحبى . فلما فرغ قال : يا شقيق اتل قوله تعالى : وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى» (١١٠) ، ثم تركنى . فقلت : هذا من الابدال كاشفنى مرتين . ثم رأيت على مورد ويده ركوة ، فسقطت منه فى البئر ، فرمق الى السماء بطرفه

(١٠٥) روضات الجنات ٣٢٨ .

لم يرد فى كتب الصوفية اية اشارة الى الرفض مطلقا ، وسيرد على هذه النقطة تعليق فى موضوع « الزهد فى خراسان» .

(١٠٦) روضات الجنات ٢٠٩ .

(١٠٧) طرائق الحقائق ٨٣/٢ .

(١٠٨) الرسالة القشيرية ١١ .

(١٠٩) الحجرات ٢ .

(١١٠) طه ٨٣ .

وقال : انت ربي اذا ظمئت الى الماء ، وقوتى اذا اردت طعاما ، ثم قال : اللهم - سيدى - مالى سواك فلا تعدمنيها • قال شقيق : فوالله لقد رأيت الماء ارتفع حتى تناول الركوة ، فنوضاً وصلى اربع ركعات ، ثم مال الى كتيب رمل فجعل منه فى الركوة وحر كها وشرب • فجئت وسلمت عليه وقلت : اطعمنى من فضل ما انعم الله عليك ، فقال : يا شقيق ، لم تنزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة ، فاحسن ظنك بربك ، وناولنى الركوة فشربت منها سويقا بسكر ما شربت الذ ولا اطيب منه وبقيت اياما لا اشتهى طعاما ولا شرايا • ثم رأيت به بمكة قد طاف ، واذا له خدم وحشم وموال يلقونه ، وطاقوا به يمينا وشمالا ، وانكفأ الناس يقبلون اطرافه فتعجبت وقلت : من هذا ؟ قيل : هذا موسى الكاظم (١١١) •

وكان الكاظم يلقب بالعبد الصالح (١١٢) ، وهو « الساهر ليله قائما ، القاطع نهاره صائما ، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظما • وهو المعروف عند اهل العراق بباب الحوائج ، لانه ماخاب المتوسل به فى قضاء حاجة قط » (١١٣) •

وكان من كرامات الكاظم التى توافق مشرب الصوفية انه « احببى بقرة ماتت لامرأة بمنى وكان لها صبيان فلما نظرت المرأة الى البقرة صاحت وقالت : عيسى بن مريم ورب الكعبة • فخالط الناس وصار بينهم ومضى » (١١٤) • ويروى صاحب طرائق الحقائق عن الكليني ان الكاظم كان يتنبأ كما كان على يفعل وكذلك جعفر الصادق من بعده ، وقد رأينا النبى (ص) هو

(١١١) اخبار الدول ١١٢ •

(١١٢) اصول الكافي ١٣٠ •

(١١٣) اخبار الدول ١١٢ •

(١١٤) اصول الكافي ٩١ •

القدوة في النبوات ، وقد كان العبد الصالح (موسى بن جعفر) ينعى الى رجل نفسه (١١٥) .

ومن متمات سيرة الكاظم ان تذكر انه حمل الى بغداد من المدينة مرتين : الاولى زمن المهدي والثانية سنة ٧٩٥/١٧٩ زمن الرشيد وحبس في بغداد حتى توفي في السجن سنة ٧٩٩/١٨٣ بتهمة امامته للشيعة وجباية المال الية (١١٦) . ويرد في غيبة الطوسي انه كان بين الكاظم وبين يحيى بن خالد بن برمك صلة لم يكن الرشيد يعلم بها (١١٧) ولعل تلك من اسباب الغضب عليه وذلك امر لايهمنا في هذا البحث ، والمهم ان الكاظم كان زاهدا يروى عنه الصوفية اخبارا تناسب مشربهم وكانوا في ذلك الحين يؤسسون قواعد التصوف ويطورون الزهد الصوفي الى صور التصوف العميقة .

وقام على بن موسى بن جعفر بعد ابيه في المدينة ، وقد ولد سنة ٧٧٠/١٥٣ وولى الامامة عشرين سنة كان في الاربع الاخيرة منها وليا لعهد المأمون نكاية من المأمون في عمومته العباسيين الذين شجعوا الامين على خلع المأمون وضربا للمناظرين العلويين من اخوة على بن موسى باخيهم (١١٨) .

(١١٥) طرائق الحقائق ١/٩٣٨ .

(١١٦) الصواعق المحرقة ١٠١ .

(١١٧) غيبة الطوسي ٢١ .

(١١٨) يرى السيوطي ان المأمون فعل ذلك « لان ابا بكر - لما ولي - لم يول احدا من بنى هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم لما على ولي ولي عبد الله بن عباس البصرة وعبيد الله اليمين ومعبيدا مكة وقثم البحرين ، وما ترك احدا حتى ولاء شيئا ، فكانت هذه في اعناقنا حتى كافات في ولده بما فعلت » (تاريخ الخلفاء ٢٠٥) . ويرى ابن العماد ايضا ان ميل المأمون الى العلويين كان « اصطناعا ومكافأة لفعل على كرم الله وجهه لما ولي الامامة لبنى هاشم خصوصا بنى العباس » (شذرات الذهب ٣/٢) ، وليست السياسة بهذه البساطة ولا تدخل في باب العواطف بحال .

وقد كانت ام على الرضا نوبية كما كانت ام ابيه فارسية وزوجه نوبية ايضا ، وكانت ازواج الائمة جوارى لانهم لم يكونوا يقوون على التسرى بالجوارى الغاليات ، ويبدو انهم كانوا فى ضيق مادمى منعهم الزواج بمن يناسب مقامهم

« ومن اهم النصوص التى ترد فى ايضاح هذه المسألة ما علق به نعيم بن خازم - وكان عربيا من ثقات المأمون ومستشاريه - على تولية الرضا ، لما استشاره المأمون فى ذلك بحضرة الفضل بن سهل وزيره ووليه فى هذا الشأن .

قال نعيم - بعد ان كلمه الفضل « وخلط ليئا وغلظة » :

« انما تريد ان تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ثم تحتال عليهم فتصير أملك كسرويا ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده - وهى البياض - الى الخضرة وهى لباس كسرى والمجوس » .
« ثم اقبل على المأمون فقال : الله ، الله يا أمير المؤمنين لا يخذعك عن دينك وملكك ، فان اهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه » (نشوار المحاضرة ، مجلة المجمع العلمى بدمشق ، المجلد العاشر ، ص ٣١٣ ، الوزراء والكتاب للجهمشيارى ٣١٣) ومما يوضح أمر الخضرة أن العبيديين فى مصر اختاروا البياض شعارا لهم . وكان الاولى - اذا كانت الخضرة علوية اصيلة - ان يختاروها شعارا لهم . وقد رأينا البساسيرى - حين خطب للمستنصر العبيدى ببغداد سنة ٤٥٠ - يأمر الناس بترك السواد ولبس البياض (اخبار الدولة السلجوقية ٢٠) والظاهر ان اعتبار البياض شعارا يتأصل مما ورد فى السيرة من أن راية على بن أبى طالب يوم خيبر - وكان فتحها على يده - كانت بيضاء (السيرة ، جوتنجن سنة ١٨٥٩ ، صفحة ٧٥٦) ومما ينبغى ان يلتفت اليه فى هذا الشأن ايضا اشارة الباحثى الى خضرة لباس كسرى فى وصفة للصورة التى رآها له فى الايوان بقوله فى ديوانه ، طبع الجوائب سنة ١٣٠٠ ، ١٠٩/١ :

والمنايا موائل وانوشروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على اصفر يختال فى صبيغة ورس
يضاف الى ذلك ان حمزة بن الحسن الاصفهانى (المتوفى قبل سنة ٣٦٠) ذكر فى كتابه « تاريخ سننى ملوك الارض والانبياء » ، برلين ١٣٤٠ ، ص ٣٥ ، أن شعار هرمز بن سابور (وكان من الملوك الاشغانية الذين حكموا بعد الاسكندر) كان « احمر موسى وسراويله اخضر وتاجه ايضا اخضر فى ذهب » .

من الحرائر ، وقد تبه الخوارزمي في رسائله الى ذلك فقال : « والمتوكل زعموا انه تسرى باثني عشر الف سرية ، والسيد من سادات اهل البيت يتعفف بزنجية او سنديّة » (١١٩) . وقد تطرقنا الى هذا الموضوع لاننا - في كتب الشيعة - نصادف اخبارا اسطورية كثيرة جدا تدور حول الجوارى التي يلدن للائمة ابناهم يحاول بها راووها ان يغطوا على هذه الناحية من سير امهات الائمة التي تسأل عنها الظروف المادية السيئة التي عانوها .

وكان الرضا مشتغلا بالعلم كجدّه وابيه حتى روى عبدالله بن جعفر الحميري انه اجاب على خمسة عشر الف مسألة وكان ذلك قبل ان يجمع الناس على فضله (١٢٠) ، وكان صاحب كرامات وفراصة يشفى المرضى ويعرف الرجل الاتي من العراق بالاسم قبل دخوله عليه (١٢١) وكان غلامه يصب الماء على يديه فيسيل من بين اصابعه في الطست ذهباً (١٢٢) ، وكان يمثل في علمه جده جعفرا الصادق وكانت له آراء في الامامة وانتقالها وعلاماتها .

وللرضا صحيفة تضم مجموعة من الاحاديث يرويها عن ابيه عن النبي ويشترك في سندها القشيري الذي يرويها سنة ١٨٠٧/٥٠١ - (١٢٣) وقد كتب السيد فضل الله الراوندي شرحا للقسم الطبي منها (١٢٤) . وينص الحديث الثاني من صحيفة الرضا على أنه : « قال رسول الله : اربعة انا لهم شفيع يوم القيامة ولو اتوا بذنوب اهل الارض : المكرم لذريتي ، والقاضي لهم حوائجهم ، والساعي لهم في امورهم - عند من اضطروا اليه ، والمحب

(١١٩) رسائل الخوارزمي ٨١ .

(١٢٠) غيبة الطوسي ٥٢ .

(١٢١) اصول الكافي ٩١ .

(١٢٢) المصدر نفسه ١٢٣ .

(١٢٣) صحيفة الرضا ٩٢ . مات القشيري سنة ٤٦٥ .

(١٢٤) روضات الجنات ١٨٢ .

لهم بقلبه ولسانه» (١٢٥) • وفي الصحيفة احاديث ذوات مسحة زهدية تشي بالتصوف كحديث : «••••• واول من يدخل النار امير مسلط لم يعدل وذو ثروة من المال لم يقض حقه وفقير فخور» (١٢٦) ويجب ان تنبه الى ان الفقير الفخور ، فان في ايام الرضا كانت بداية ظهور التصوف بمعناه الخاص • بل ان في الصحيفة حديثا ينبيء برفع الوساطة بين الانسان والله ، مع ان الشيعة تعتقد ان الائمة هم شفعاء البشر اليه وهم الوساطة ، وهذا الحديث هو : « قال رسول الله : يقول الله عز وجل : ما من مخلوق يعتصم بي دون خلقى الا ضمننت السموات والارض رزقه فان سألني اعطيته وان دعاني اجبته ، وان استغفرني غفرت له » (١٢٧) ، وهذا حديث قدسي التوكل فيه ظاهر • وفي الصحيفة حديث اخر يحض على التوكل ايضا : « لو رأى العبد اجله وسرعه اليه لابقض الامل وطلبه الدنيا » (١٢٨) • وفي الصحيفة مجموعة من الاحاديث الطيبة واحاديث تدور حول الطعام وصفات الناس ومنها حديث زهدى يتعلق بالجوع : « ليس شيء ابغض الى الله من بطن ملان » (١٢٩) • وينقل الحاج معصوم على عن صحيفة الرضا ايضا حديثا غربيا يبدو فيه السلوك واضحا ونسبته الى الرضا عنسيرة • وهو غير متضمن في النسخة المطبوعة من الصحيفة ، ويبدو أنه ينقل عن جامع الاسرار وينسب الى الصحيفة • وذلك انه يروى عنه انه قال - والاحاديث في الصحيفة كلها مروية عن النبي (ص) : « ان لله تعالى وتبارك شرابا لا اوليائه اذا شربوا سكروا ، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا ، واذا طابوا ذابوا ، واذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا وصلوا ، واذا وصلوا اتصلوا ، واذا اتصلوا لافرق بينهم وبين

-
- (١٢٥) صحيفة الرضا ٩٢ •
 - (١٢٦) المصدر نفسه ٩٥ •
 - (١٢٧) المصدر نفسه ٩٤ •
 - (١٢٨) المصدر نفسه ١١٣ •
 - (١٢٩) صحيفة الرضا ١٠٤ •

حبيهم» (١٣٠) ويروى الخوانسارى هذا الحديث ايضا غير انه يسنده الى جد الرضا : جعفر الصادق ويضيف اليه عبارة : « واذا طربوا طلبوا ... » غير ان الافلاكي روى ان جلال الدين الرومى سئل عن معنى عبارة مقارنة لهاين على انها حديث نبوى ، فأجاب بأن المقصود بالشراب الخمر الالهية على اساس الحديث « اخترت اللبن واختبأت الخمر لاوليائي» (١٣١) . ومما تجب ملاحظته انه وردت فى الطواسين عبارة مقارنة فى معناها ومنهاها ، قال الحلاج : « فكان قاب حين تاب وأصاب ودعى فأجاب وابصر فغاب وشرب فطاب وقرب فهاب ...» (١٣٢) فالشرب الذى يعقبه الطيب الصق بسكر الحلاج ولعل عبارة الامامين مؤصلة من هذا المصدر ومنحولة عليها . والاعرب من هذا ان الحاج معصوم على يروى عن كتاب «فقه الرضا» خبرا يدخل فى التصوف المتأخر ، وذلك انه ينقل - عند ذكر تكبيرة الاحرام - : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك . وهذه هى مراقبة الذكر من حيث ان من شروط الذكر حضور صورتك اى صور الشيخ الروحانية النورانية التى هى هيكل ومظهر رسول الله ، وئمة رسول ظاهرى ورسول باطنى ومنه السلام على هياكل التوحيد» (١٣٣) ، وقد قال بهذه المقالة بالذات متصوف شيعى متأخر هو الجنايدى المتوفى منذ حوالى نصف قرن ، ونسبها الى جعفر الصادق ، وذلك انه يقول فى تفسير : الصراط المستقيم : « وصح ان يقال : ان بشرية الامام ومعرفة بشريته من دون معرفة نورانيته والاتصال بشريته ، والبيعة معه طريق الى الله ، وان الطريق الى الله هو نورانية الامام ومعرفتها والاتصال بها ، ويسمى الاتصال بالامام ومعرفته بحسب نورانيته -

-
- (١٣٠) طرائق الحقائق ١/٢٣١ ، جامع الاسرار ورقة ١٩٧ .
(١٣١) مناقب العارفين لاحمد الافلاكي (متوفى سنة ٧٦٠) اسطنبول ١٩٥٩ ، الصفحة ٣٥١ .
(١٣٢) الطواسين ٣٢ .
(١٣٣) طرائق الحقائق ١/٢١٧ ترجمة .

عند الصوفية بالحضور والفكر • واول مرتبة ذلك الاتصال والمعرفة هو ظهور الامام بحسب مقام مثاله على صدر السالك الى الله • وليس المراد بهذا الفكر الحضور وما اشتهر بين مرتاضى العجم من جعل صورة الشيخ نصب العين بالعمل ، وان كان ورد عن ائمتنا الاشعار بمثل هذا المعنى ، فانه ورد عن الصادق (ع) وقت تكبيره الاحرام : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك » فانه تقيد بالصورة وشيبه بعبادة الاصنام • بل المراد ان السالك ينبغي ان يجلو مرآة قلبه بالذكر والاعمال المأخوذة من شيخه ، فاذا اجتلى الذهن ونوى الذكر وجلا القلب من الاعيان ظهر الشيخ بمثاله على السالك ••••• واذا ظهر الشيخ بمثاله رفع كلفة التكليف عنه والتذبحضوره عند محبوبه ورأى ان كل ما يرد عليه انما هو من محبوبه فيلتسذ بها ••••• (١٣٤) وللرضا - بعد هذا - صلة بمعروف الكرخى (المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥-١٦) : استاذ السرى السقطى المتوفى سنة ٨٦٧/٢٥٣ ومن اول الشارعين للتصوف طريقته واول قائل بالولاية الصوفية على صورتها التى ثبتت للمتصوفة • ويحدثنا القشيري عن ابي على الدقاق ان معروفا اسلم على يد على بن موسى الرضا (١٣٥) وكان من مواليه (١٣٦) ويروى القشيري ايضا ان الرضا نفسه هو الذى شجعه على الزهد بعد سماع معروف لابن السماعة وهو يعظ الناس «فوقع كلامه فى قلبى ، فاقبلت على الله وتركت جميع ما كنت عليه الا خدمة مولاي على بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاي فقال : يكفيك بهذا موعظة ان اتعظت» (١٣٧) ، ومن هنا نستطيع - ان صححت هذه الرواية - ان نجد تعليلا شيعيا معقولا نقول معروف للسرى السقطى : « اذا كانت لك حاجة الى الله فاقسم عليه بى » (١٣٨) وذلك انه اخذ عن

(١٣٤) تفسير المنير المسمى ببيان السعادة •

(١٣٥) الرسالة القشيرية ١٢ •

(١٣٦) طبقات الشعرا نى ١/٦٢ •

(١٣٧ ، ١٣٨) الرسالة القشيرية ١٢ •

الامام الرضا (١٣٩) • ويذكر الحاج معصوم على نقلا عن كتاب (مجالس المؤمنين) ان معروفا انقذ سفينة من الغرق برقعة زود بها تاجرا هدأ لها الماء حين نار ، وكان في هذه الورقة دعاء مأثور عن الامام الرضا وقد كتبه معروف عنه (١٤٠) • وقد كان قبر معروف اقدم مقام صوفى يزوره الناس ويتبركون به ، ويقول فيه القشيري : « قبر معروف ترياق مجرب » (١٤١) ولعل لذلك مدخلا الى صلته بالتشيع واسلامه على يد امام الشيعة الرضا •

ويوافق الحاج معصوم على ان الامام الرضا كان صاحب طريقة وان « معروفا اخذ عن حضرة امام العالمين وقطب دائرة الامكان : على بن موسى الرضا عليهما السلام الفيض ومنه تعلم الطريق وعنه تسلم منصب مشيخة المشايخ ، واذن له ان يوصل المريدين الصادقى العقيدة وانصار الائمة الى الطريقة الرضوية العلوية المصطفوية التي هي عبارة عن العبادة وتركية النفس وتصفيتها » (١٤٢) • وينقل عن القاضى نور الدين الشوشترى ان معروفا « •• كان اخذا من العلوم الظاهر والباطن » (١٤٣) ونحن نعلم صلة الظاهر والباطن بالتشيع وعلم الائمة • ويوافق الحاج معصوم على على ما يراه الشاعر الصوفى محمد تقى الكرماني من ان « الشيعة صنفان : فريق اختص بالشرعية وحفظها ، وفريق اختص بالطريقة وهم حملة السر • وكان اوائل حملة السر : سلمان الفارسي واويس القرني ورشيد الهجرى وكميل بن

(١٣٩) كانت الدولة العباسية ايام الرضا شيعية ، وذلك ان المأمون جعله ولي عهده لمحاولة تآلف قلوب الناس ضد قومه العباسيين الذين حاربوه ونصروا اخاه الامين • وروى لنا ابن كثير ان المأمون « اظهر في الناس بدعتين فظيعتين احدهما آظم من الاخرى وهى : القول بخلاق القرآن والثانية تفضيل على بن ابى طالب على الناس بعد رسول اللهص » (البداية والنهاية ١٠/٢٦٧-٨)

(١٤٠) طرائق الحقائق ٢/١٢٩ •

(١٤١) الرسالة القشيرية ١٢ •

(١٤٢) طرائق الحقائق ٢/١٣٣ ترجمة •

(١٤٣) المصدر نفسه ١/٢٣٤ •

زياد والشيخ بسطام (يعنى ابا يزيد البسطامي) وشقيق البلخي ومعروف الكرخي . فكان الرواة حملة العلم الظاهري والعارفون حملة السر القاهري . وكان الرواة يحفظون الاحكام الظاهرية والعارفون مكلفين بحفظ الاسرار العميقة (١٤٤) . ويعود الحاج معصوم على فينقل ان الامام الرضا هو مجدد الدين في المائة الثانية وان معروفا الكرخي هو مجرده باعتباره من الزهاد (١٤٥) . ويكتفينا الشيخ محمد باقر الفت الاصفهاني الصوفي الايراني العالم المعاصر المولود سنة ١٣٠١/١٨٨٣-٨٤ هذا التحسس بان الرضا قد سلم الطريقة الى معروف الكرخي واختصه بها فانفصلت عن الامامة وبقيت الشريعة والعلم الظاهري لدى الائمة ابتداء من محمد انجواد الذي تسلم الامامة من الرضا سنة ٢٠٣/١١٨-١٩ وله سبع سنين (١٤٦) . ويعتبر معروف الكرخي اخر صوفي اتصل بالائمة مع ملاحظة ان الرواة نقلوا لقاء ابي يزيد بالصادق (١٤٧) وذلك امر مستحيل لان الصادق توفي في القرن الثاني سنة ١٤٨/٧٦٥ و ابو يزيد متأخر عن ذلك كثيرا . ولم يرد عن اتصال الائمة بعد الرضا بالمتصوفة خبر بل لقد روى عن علي الهادي الامام العاشر انه كان خصما للصوفية ولو كانوا معترفين بحق العلويين ومكاتبهم وقد روى عنه انه قال : الصوفية كلهم مخالفونها (١٤٨) وسيمر بنا السبب في هذا .

وبذلك يتضح لنا ان الفكرة القائلة بانتقال القسم الباطن من العقيدة الى معروف والمتصوفة ، وبقاء القسم المتصل بظاهر الشريعة في الائمة بعد الرضا

-
- (١٤٤) طرائق الحقائق ١٣٥/٢ ترجمة .
 - (١٤٥) المصدر نفسه ٢٣٥/١ .
 - (١٤٦) مقابلة مع الشيخ الفت .
 - (١٤٧) روضات الجنات ٦٨٤ .
 - (١٤٨) روضات الجنات ٢٣٣ .

آتية من اتصال معروف الكرخي بالرضا الذي ذكره المتصوفة واصروا عليه
وعنهم نقل من نقل من الشيعة . وتلك ظاهرة تبدو فيها محاولة التصوف
ان يؤسس له اساسا من انتشيع القائل بالظاهر والباطن من بداية تنظيم التصوف
وايجاد قواعد له يرتفع عليها بناؤه . ولا يدع اصحاب كتب التصوف معروفا
الكرخي بل يلزمونه صحبة الامام الرضا الى مماته بوصفه حاجبا له بل
يجعلون موت معروف على باب دار علي بن موسى حين كسر الشيعة اضلعه
بازدحامهم على الباب ، (١٤٩) . ومهما يكن من امر العلاقة بين الرضا ومعروف
الكرخي فقد كانا متعاصرين والغالب ان الامام لم ينزل بغداد ولم يقيم بها وانما
التقى بالمأمون في طوس سنة ٢٠٠ (وهي السنة التي توفي فيها معروف) وتوفي
بها (اي الرضا) سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ ، ولم يورد احد خبرا ينبيء باقامة
الرضا في بغداد ، ولكن ذلك لا يمنع ان يكونا التقيا ، وليس هذا مجال
مناقشته . على ان ذلك كله ينبيء بزهد الرضا على الاقل ، ومن المعروف انه
كان يكثر وعظ المأمون اذا خلا به ومن ذلك انه «رآه يوما يتوضأ للصلاة
والغلام يصب على يده الماء ، فقال : يا امير المؤمنين لا تشرك بعبادة ربك
احدا» (١٥٠) .

ومات الرضا مسموما كما يرى اكثر المؤرخين وخلفه في الامامة ابنه
محمد الجواد وكان له سبع سنين كما روينا . وقد حالت حدائث سنة ووفاته
دون ان يتجاوز الخامسة والعشرين دون الاستفادة من علمه (١٥١) وجاء بعده
ابنه علي الهادي وله من العمر ست سنين وكان مراقبا في سر من رأى . وخلفه
ابنه الحسن العسكري (نسبة الى العسكر في سر من رأى) ولم تكن ظروفه

(١٤٩) طبقات الصوفية ٨٥ .

(١٥٠) مقاتل الطالبين ٥٦٦ .

(١٥١) يرى ابن خلكان أنه قدم بغداد وافدا على المعتصم ومعه امرأته أم

الفضل بنت المأمون فتوفى بها وحملت امرأته الى قصر عمها المعتصم

فجعلت مع الحرم (وفيات الاعيان ، باريس ١٨٣٨ ، ١/٦٣٢) .

احسن من ظروف ابيه ، ومات الحسن وله من العمر ثمان وعشرون سنة عام ٢٦٠/٨٧٣-٧٤ وخلف طفلا فى الخامسة على اكثر تقدير او ولد بعد موته بثمانية اشهر كما سيتبين لنا فيما بعد . ولكن هذا الوليد لم يظهر للناس اماما وانما اختفى من يوم وفاة ابيه وغاب غيبة صغرى - بعد تسليم الوكالة عنه الى سفرائه الاربعة - وانتهت الغيبة الصغرى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ ، فظاب ثانية ولم يظهر حتى الان . والشيعية ينتظرون ظهوره ليملاء الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا . ويحسن بنا ان نقف هنا قليلا لترى كيف تطورت فكرة المهدي بعد ان تركناها عند محمد بن عبدالله بن الحسن .

المهدي :

ولد محمد بن الحسن سنة ٢٥٦ وصار اماما للناس وله من العمر خمس سنين حين توفى ابوه الحسن العسكري سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤^(١٥٢) ، وقد مر بنا ان جد ابيه محمدا الجواد قد صار اماما وله سبع وجده عليا الهادى وله ست ، فصغر السن ليس غريبا على أئمة الامامية المتأخرين وقد رأينا مقارنة الجواد بيحىي والمسيح وها هو صاحب اخبار الدول يقول فى المهدي : « وكان عمره عند وفاة ابيه خمس سنين آتاه الله فيها الحكمة كما اوتيتها يحيى عليه السلام صيبا »^(١٥٣) . والغريب ان محمد بن الحسن لم يتسلم الامامة لكى يعكسها على الناس بنفسه وانما تسلمها وغاب عنهم ، وقد رأينا المهديين السابقين يسبغ عليهم هذا الوصف بعد موتهم كجمل الائمة السابقين او يعتبرون مهديين فى حياتهم يراد منهم الثورة وتبديل الظلم والجور بالقسط والعدل كما تطلب الناس من محمد بن الحنفية وكما فعل محمد بن عبدالله بن الحسن . اما مهدي الامامية - الذين صاروا الان الاثنا عشرية بعد ختام أئمتهم بالمهدي - فقد اختفى مهديهم وهو صغير حال امامته لهم ،

• (١٥٢) الغيبة للطوسى ٢٥٦

• (١٥٣) اخبار الدول ١١٧

وبعد ان كانت المهديّة عامل قوّة للشيعة صارت عامل ضعف كما يبدو ذلك من تصريح الشيعة بان غيبة المهدي انما كانت خوفا عليه من الطلب (١٥٤) .
ويجب ان نلتفت هنا الى ان فكرة جديدة قد دارت حول مهديّة اخرى هي مهديّة الاسماعيليّة التي رأيناها تعني انتهاء رسالة دينية وبداية رسالة اخرى وكان رأسها محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ١٩٨/٨١٣-١٤٠ . وبذلك يتبين لنا اتجاهاً يضافان الى الاتجاه الاثنا عشرى في المهديّة : الاتجاه الزيدى الذى اتخذ المهديّة شرطاً للإمامة ، ويعنون بذلك ان الامام هو القائم بالسيف لدفع الظلم واشاعة العدل فصارت المهديّة عندهم هي الامامة بذاتها . اما الاتجاه الاخر فهو الاسماعيليّ الذى لم يرد من المهديّة القيام بالسيف واشاعة العدل ومحق الظلم وانما عنى بها قيام دين يصلح ماتغير من مثل الاسلام او يحل محله . فانفصلت فكرة السيف عن مهديّة الاسماعيليّة واتصلت بها فكرة معنوية هي تجديد الدين . ثم جاءت خاتمة مهديات الامامية فاتصلت بالسيف من جديد ولكن في وقت مناسب للقيام ، ولا يعلم هذا الموعد الا الامام وحده (١٥٥) .

ونعود الى محمد بن الحسن من جديد فنجد الشيعة - بعد موت الحسن بن علي الامام الحادى عشر - برواية النوبختى افترقوا اربع عشرة فرقة لم تعترف بالمهدي منها غير ثلاث فقط ، وانكرت العشر الباقيات ان يكون للحسن ولد اصلاً ، وقالت احدى الثلاث : « ان للحسن بن علي ابناً سماه محمداً ودل عليه ... وولد قبل وفاته بسنين » (١٥٦) وقالت الثانية « بل ولد

(١٥٤) الغيبة للطوسى ٥٥ .

(١٥٥) يقول ابو الحسن الاشعري في وصفه للروافض - ويعنى بهم الشيعة من غير الزيدية والغلاة - : « اجمعت الروافض على ابطال الخروج بالسيف - ولو قتلت - حتى يظهر الامام وحتى يأمرها بذلك ، واعتلت في ذلك بان النبى (ص) - قبل ان يأمره الله عز وجل ، بالقتال - كان محرماً على اصحابه ان يقاتلوا » (مقالات الاسلاميين ١/٥٨) .
(١٥٦) فرق الشيعة ١٠٢ .

للحسن ولد بعده بثمانية اشهر وان ان الذين ادعوا له ولدا في حياته كاذبون
 مبطلون» (١٥٧) وقالت الثالثة وهي فرقة الاثنا عشرية التي انضمت اليها
 سائر الفرق الامامية الاخرى بعدئذ بهذين القولين وغلبت الرأى الاول .
 والغريب في الامر ان فرقة من فرق الشيعة حين سئلت عن المهدي قالت: «لاندرى
 ما نقول في ذلك (الامام) اهو من واد الحسن ام من اخوته ؟ فقد اشتبه علينا
 الامر : انا نقول : ان الحسن بن علي كان اماما وقد توفى وان الارض لاتخلو
 من حجة ، وتتوقف ولا تقدم على شىء حتى يصح لنا الامر ويتبين» (١٥٨) .
 وهكذا نصل في نهاية الامر الى ان جوهر الامامة هو الذى اوجب القول
 بالمهدية ، فان بعض الشيعة لم يرضوا بامامة جعفر اخى الحسن بن علي
 فاضطر بعضهم الى العودة الى القول بامامة محمد بن الامام العاشر (١٥٩) على
 الهادى الذى كان مرشحا للامامة وتوفى في حياة ابيه كما توفى اسماعيل في
 حياة جعفر الصادق ، وقال بعضهم بامامة جعفر نفسه على ما كان له من صلوات
 بالسلطان ، بل لقد قال بعضهم بان جعفرا هذا هو القائم المهدي و «انه افضل
 الخلق بعد رسول الله» (١٦٠) ، وقال بعضهم بمهدية الحسن العسكري الامام
 الحادى عشر و « انه حتى لم يميت وانما غاب وهو القائم ولا يجوز ولا ولد
 له ظاهر لان الارض لاتخلو من امام» (١٦١) . واغرب من هذا كله ان فرقة
 شيعة قالت في المهدي : انه « قد مات وسيحى ويقوم بالسيف» (١٦٢) ونعل
 هذا يفسر لنا الحيرة التي كانت تستبد بالشيعة من غيبة امامهم وخوفهم من
 الضياع . ويبدو ان هذا الرأى قد رآه النوبختي وهو من كبار الشيعة المعروفين ،

-
- (١٥٧) فرق الشيعة ١٦٠ .
 - (١٥٨) المصدر نفسه ١٠٦ .
 - (١٥٩) المصدر نفسه ١٠٠ .
 - (١٦٠) المصدر نفسه ١٠٨ .
 - (١٦١) المصدر نفسه ٩٦ .
 - (١٦٢) المصدر نفسه هامش ٩٦ .

بل لقد كان ابو سهل النوبختي خال صاحب فرق الشيعة يرى « ان الامام محمد بن الحسن ولكنه مات في الغيبة وكان تاليه في الغيبة ابنه وكذلك فيما بعده من ولده الى ان ينفذ الله حكمه في اظهاره» (١٦٣) . وهذه الفكرة تخرج بالامامة عن حد الاثنا عشرية وتجعلها امامة تشببه الاسماعيلية المستورة . ومهما يكن من شيء فقد زالت كل الافكار الدائرة حول مهدي الائمة السابقين وغيرهم والتف الشيعة حول مهدي محمد بن الحسن متفقين في النهاية على انه حي لم يموت وانه ولد سنة ٢٥٦/٨٧٠ .

وكما كان في النبي (ص) علامة بحث عنها سلمان ووجدناها في محمد ابن عبدالله بن الحسن النائر بالمدينة على انه المهدي المنتظر وقد ولد « وبين كفيه خال اسود كهيئة البيضة عظيم» (١٦٤) كذلك وجدنا في اخبار المهدي انه كان يتميز بعلامة رآها رجل من اهل فارس حكى عنه ضوء بن علي العجلي انه قد شهد ولادة المهدي فاذا هو «غلام ابيض حسن الوجه ، وكشف عن بطنه فاذا شعر نابت من لبتة الى سرته اخضر ليس باسود» (١٦٥) ولعل في هذه العلامة الفرق بين مهدي الاثنا عشرية ومحمد بن اسماعيل مهدي الاسماعيلية الذي ظهر للتبشير بعقيدة جديدة لان الاثنا عشرية قد تحاموا ان يعقدوا صلة بين مهديهم وبين النبي الجديد فغيروا علامة مهديهم تميزا له عن ان يقرن اسمه بالنبوة ، وعلينا ان نتنبه الى مصدر هذا الخبر فان راوية هو احد العجلين الذين تبناوا الغلو واشاعوه في بداية القرن الثاني وها نحن في القرن الثالث وما زال العجلون ممسكين بزمام الاساطير الشيعة .

وهناك شيء اخر هو ان القائلين بمهدي محمد بن الحسن قد عادوا

(١٦٣) ألفهرست ٢٥١ .

(١٦٤) مقاتل الطالبين ٢٣٧ .

(١٦٥) اصول الكافي ١٤١ .

يستندون الى الاخبار السابقة التي تقول بمهدية عيسى بن مريم بعد ان تقطعت
الاسباب بهذه الفكرة حتى تبددت في مهدى الاسماعيليه ، وعادت الان في
شخص المهدي الاخير ، وذلك ان ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١/٩٩١

ذكر عن محمد بن الحسن انه هو المهدي الذي اخبر به النبي و «انه
اذا خرج نزل عيسى بن مريم يصلي خلفه ، ويكون اذا صلى خلفه كمن كان
مصليا خلف رسول الله لانه خليفته» (١٦٦) ، ويروي الكنجي عن سفيان
الثوري حتى يصل الخبر الى حذيفة بن اليمان الذي عرفنا منزلته من الاسرار ،
انه قال : « قال رسول الله (ص) : فالتفت المهدي وقد نزل عيسى كأنما يقطر من
شعره الماء فيقول للمهدي : تقدم صل باناس فيقول عيسى : انمسا اقيمت
الصلاة لك . فيصلي عيسى خلف رجل من ولدي ، فاذا صليت قام عيسى حتى
يجلس في المقام فيبايعه فيمكث اربعين سنة » (١٦٧) ، وهكذا يتبين الغرض
الذي من اجله وصل المهدي بالمسيح وذلك لتبدو امامته من جنس نبوة محمد
التي بشر بها المسيح وراقب حدوثها سلمان الفارسي احد الشيعة القدماء ، وهاهو
ذا شيعي اخر يروي عنه هذا الخبر الذي وجه الى الغرض نفسه . ولكن
الكنجي يفصل فكرة المهدي عن التشيع خاصة ويجعلها ضرورة من ضرورات
الاسلام ويقول في اخباره التي تدور حول المهدي : « وهذه الاخبار مما ثبت
طرقها وصحتها عند السنة وكذلك ترويه الشيعة على السواء فهذا هو الاجماع
من كافة اهل الاسلام » (١٦٨) ثم ان ابن خلدون يؤيد صلة المسيح بالمهدي
ويذكر « ان عيسى ياتم بالمهدي في صلاته » (١٦٩) ولكنه يعقب على ذلك بان هذا
المهدي هو الفاطمي المنتظر ويذكر ان الصوفية تقول بنفس المقالة اخذا عن

(١٦٦) اعتقادات الصدوق ٣٨ .

(١٦٧ ، ١٦٨) البيان ٣١٩ .

(١٦٩) المقدمة ٣١١ .

الاسماعيلية (١٧٠) • والواقع ان مهدي الاسماعيلية قد حققت رسالتها وليس لمهديهم صلة بالقيامة واشراط الساعة التي هي علامات ظهور مهدي الانسا عشرية • وقد غفل ابن خلدون عن هذه الحقيقة ولم يلاحظ ان المهدي قد كان ابن جارية مسيحية (١٧١) ولم يلتفت الى ان صلة مهدي الاثنا عشرية قد جاءت من هذه الناحية • وهكذا تبين الصلة التي تجددت بين المسيح وبين المهدي من كون امه من نسل الحواريين من بنات الملوك (١٧٢) لتتم بذلك فكرة الامتزاج بين الدين المسيحي والاسلام بالصهر كما امتزجت الديانات الفارسية القديمة بالاسلام بمصاهرة الحسين للفرس بزواجه شهربانو بنت يزدجرد • ومن هنا يتبين لنا ان اية فكرة تربط المهدي بالمسيحية وتمزجها انما هي آتية من طريق الاثنا عشرية الى الفرق الشيعية الاخرى •

وعلينا ان نذكر ان ابن خلدون يذكر بان الصوفية تقول بمقالة الشيعة في المهدي اخذا عن الاسماعيلية أما ما يتعلق بالاسماعيلية فقد بناه ، واما ما يتعلق بالتصوف فتحقيقه ان الصوفية يتصلون في اكثر عقائدهم الاثنا عشرية لا الاسماعيلية ، وذلك ان اتصال رجالهم بالائمة انما كان قاصرا على الائمة الاثنا عشرية وبخاصة الامام الثاني علي بن موسى الرضا الذي رأينا اتصال معروف الكرخي به واخذه عنه ، ولانجد في كل السلاسل الصوفية سندا يتصل بامام اسماعيلي بعد الصادق ، وانما تقوم الصلة - اذا استندت الى سند علوي - بادثة من علي بن موسى الامام الثامن من الاثنا عشرية حتى تصل الى علي ، او تقوم من المتصوفة انفسهم حتى تصل الى علي ، وليس هذا مجال الاستطراد في الافكار الصوفية عن المهدي ولكن هذه اشارة صغيرة لايضاح فكرة طارئة • وعلينا ان نذكر هنا ان ابن عربي - في اكثر ما اورده عن المهدي - كان يستند الى اسئلة الترمذي المتضمنة للبحث حول الاولياء والمتعلقة

(١٧٠) المقدمة ٣٢٣ •

(١٧١ ، ١٧٢) غيبة الطوسي ١٣٤ •

بالمهدى قطعا ، (وقد توفي الترمذى سنة ٢٨٥/٨٩٨ اى كان معاصرا لغيبة المهدي (الاثنا عشرى) ، وكذلك نجد عند النفرى الصوفى (التوفى سنة ٣٥٤/٩٦٥) فكرة كاملة عن المهديية ضمنها كتابه المخاطبات الذى تعرض له فيما بعد . وبذلك يحق لنا ان نتلقى بالشك مقالة ابن خلدون عن المهديية من ان المتقدمين من المتصوفة « لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال » (١٧٥) . ويشير ابن عربى فى تعرضه لمستند ختم الاولياء من القرآن انه « ذكر بما دل عليه ابو يزيد (البسطامى) فى مناجاته بسماء التوحيد وشاركه فى اوضح الاسماء صاحب سورة الاسراء » (١٧٤) . بل ان الحلاج نفسه قد حاول ان يجعل من نفسه وكيلا لمحمد بن الحسن مهدى الشيعة الاثنا عشرية ، ويذكر الطوسى انه صار الى قم (المدينة الشيعية القديمة) وادعى انه رسول الامام ووكيله (١٧٥) ويرد فى نشوار المحاضرة ان الحلاج « راسل ابا سهل بن نوبخت (الذى مر بنا رايه فى المهديية) يستغويه . وطلب اليه ان ينبت شعرا فى صلته ليقول : انه نائب الامام » (١٧٦) ولكن الحلاج لم يعد الى مقالته ويرد مثل ذلك فى الفهرست (١٧٧) . بل لقد ادعى سيد حسن العراقى المتصوف المتوفى سنة ٩٧٣/١٥٦٥-٦ انه رأى المهدي ودعاه عنده فى بيته فاقام سبعة ايام بلياليها ولقنه الذكر (١٧٨) . وهكذا يتبين اتصال المتصوفة فى فكرة المهدي بالشيعة الاثنا عشرية . ويزيد ذلك وثيقة ان محمد بن زينب يقول : ان هذه الغيبة لو لم تكن . . . لكان مذهب الامامة باطلا . (١٧٩) .

-
- (١٧٣) المقدمة ٣٢٣ .
(١٧٤) عنقاء مغرب ٧٢ .
(١٧٥) غيبة الطوسى ٢٦٢ .
(١٧٦) نشوار المحاضرة ٨١ .
(١٧٧) الفهرست ٢٦٩ .
(١٧٨) طبقات الشعرانى ٢/١٢٦ .
(١٧٩) غيبة الطوسى ٢١٦ .

ونشأت فكرة متى يظهر المهدي بعد ان طال الزمن على غيبته ، والفكرة الاساسية هي ما يعرضه الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٦٧-٨ من ان « الله اعلمه على لسان نبيه (ص) ووقفه عليه من جهة زمان غيبته وزمان زوال الخوف عنه ... وانما اخفى ذلك عنا لما فيه من المصلحة . فاما هو فعالم به لا يرجع الى الظن» (١٨٠) فالغيبية رهن بالموعد الذي حدد لها والظهور يتوقف على زوال الخوف ، هذا هو توقيت الظهور في بساطة . ولكن الزمن مضى ، دون ان يظهر المهدي ، وقد قطع الشيعة الطريق على كل محاولة للتوقيت ولعنوا الوقتين (١٨١) ، وقام بهذه المهمة المتصوفة وبعض قبالي اليهود بان « انتهجوا تأويلا قباليا لآيات القرآن وسوره وتجميعات للحروف والاعداد» (١٨٢) غير ان الشيعة استبدلوا الوصف بالتاريخ فحددوا مظاهر اجتماعية هي علامات الظهور وتدل في الواقع على الفكرة التي تحوج العالم الى ظهور امام يملؤه قسطا وعدلا كما ملئ ظلما وجورا كتحديد الكليني ذلك رواية عن محمد الباقر من ان الظهور يكون حين « تخرج الفتاة من خدرها وتوقظ النائم ، ويفزع اليقظان» (١٨٣) ويحدد عمار ذلك باستيلاء الترك والروم على العالم الاسلامي بعد نهاية «خليفتمكم الذي يجمع الاموال» (١٨٤) وهذه العلامات تعنى تفسخ العالم خلقيا واجتماعيا وسياسيا ولذلك اختلفت علامات الظهور باسراط الساعة وجوهر الامرين واحد . وهذا سلمان الفارسي يسأل النبي عن موعد الساعة فيجيبه : « فمنها اضاعة الصلوات واتباع الشهوات والميل الى الاهواء وتعظيم اصحاب المال ... ان عندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا ويؤتمن الخائن ويخون الامين ... فعندها امارة النساء ... تشارك المرأة زوجها في التجارة ، وعندها يكتفى الرجال بالرجال والنساء

(١٨٠ ، ١٨١) غيبة الطوسي ٢٧٧ .

(١٨٢) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٩٣ .

(١٨٣) الغيبة لابن زينب ١٣٣ .

(١٨٤) البيان للكنجي ٢٩٣ .

بالنساء ••• ويظهر الربا ويتعاملون بالعينه والرشا ••• ويكثر الطلاق •••
وتفشو الفاقة ••• ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان اذل من في الامه •••
ويتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم ، فلا يلبثون قليلا حتى تخور الارض
خورة (١٨٥) وتبدو صلة القيامة بظهور المهدي من انه « اذا قام اشرفت الارض
بنور ربها واستغنى الناس ويعمر الناس في ملكه » (١٨٦) ويوثق ذلك خبر
يروى عن عمار بن ياسر ايضا انه قال : ان دولة اهل بيت نبيكم في آخر
الزمان (١٨٧) • وقد تركزت الرجعة في قيام المهدي الى حد ان الحديث
عنها وتوكيدها والتدليل عليها صار امرا ليس له داع • ومما يذكر الشيعة في
ذلك « ان شعيب بن صالح هو صاحب لوائه » (١٨٨) وشعيب هو الذي ردت
له الشمس كما ردت لعلی - في رأى الشيعة - فيما بعد • ومن اخبار الرجعة ان
جيش المهدي يعد ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة اهل بدر (١٨٩) ، منهم
التجباء من اهل مصر والابدال من اهل الشام والاخيار من اهل
العراق (١٩٠) • بل يروى الشيعة ان عليا نفسه سيحكم بعد المهدي ويطلب
بدم الحسين (١٩١) والدخول في هذه التفاصيل لا ضرورة له ولكن علينا
ان نتذكر بان كل هذه المثل يراد بها الانتقام ممن قاسى الشيعة على ايديهم
الجور والقسوة والقتل •

وتذكر في ختام هذا الفصل ان الشيعة قد ارادوا من فكرة المهدي ان

-
- (١٨٥) تفسير على بن ابراهيم ١٨٨ •
(١٨٦) البيان للكنجي ٢٩٧ •
(١٨٧) المصدر نفسه ٢٨٩ •
(١٨٨) المصدر نفسه ٢٩٣ •
(١٨٩) غيبة الطوسي ٢٩٧ •
(١٩٠) غيبة ابن زينب ١٧٠ •
(١٩١) هامش البيان ٢٩٨ •

يجمعوا امر المسلمين بل امر العالمين على المثل الشيعية العلوية التي رأوا انها خلاصة رسالات الرسل وجوهر اهداف الاديان وقد اورد الطوسي عن الباقر انه قال : « في صاحب هذا الامر سنن من اربعة انبياء : سنة من موسى وسنة من عيسى وسنة من يوسف وسنة من محمد ... » (١٩٢) • ويرد عن الباقر ايضا تحديد المكان الذي سيظهر فيه المهدي والروح التي تبعث مسن ظهوره بقوله : ان القائم اذا قام بمكة واراد ان يتوجه الى الكوفة نادى مناديه : الا لا يحمل احد منكم طعاما ولا شرابا ، ويحمل حجر موسى بن عمران وهو وقر بعير ، فلا ينزل منزلا الا انبعث عين منه : فمن كان جائعا شبع ومن كان ظاميا روى ، فهو زادهم حتى التجف (مدفن علي) من ظهر الكوفة» (١٩٣) • ومكة هي المكان الذي ظهر فيه محمد (ص) والكوفة هي المكان الذي قتل فيه علي وانهى امر الشيعة • اما بعد فهذه هي المثل الشيعية في فكرة المهدي وسنرى كيف ترد بكل تفاصيلها على صورة صوفية مشتقة من التصوير الشيعي لها • وبهذا نختم كلامنا عن التشيع ، ولكن يجب ان نشير - قبل ان نضع القلم بان ما مر بنا من افكار الشيعة مما كان خاصا بفرقة بعينها لم يلبث ان دخل كله في التشيع الاثنا عشرى ودعم بالحجج العقلية والنصوص • والتشيع الحالي انما هو زبدة الحركات الشيعية كلها من عمار الى حجر بن عدى الى المختار وكيسان الى محمد بن الحنفية وابي هاشم الى بيان بن سميان والغلاة الكوفيين الى الغلاة من انصار عبدالله بن الحارث الى الزيديين والاسماعيليين ثم الامامية التي صارت اثنا عشرية • وقد قام بعملية المزج

(١٩٢) غيبة الطوسي ٢٧٦ •

(١٩٣) اصول الكافي ٥٤ •

متكلمو الشيعة ومصنفوهم • وليس التعرض لهذه العملية مما يفيد البحث
وانما هي عملية غريبة ومزج لا تغير من امر التشيع شيئا ولا تضيف اليه ولا
تنقص منه •



الباب الثاني

الزهد

الفصل الاول

الزهد . . . عموماً

مقدمة :

بعد ان فرغنا من بحث التشيع وبيننا اصله ومثله ومذاهبه التي تشعبت منه خلال تطوره حتى ثبت على صورته اللاحقة حتى الان نعرض للجانب الثاني من هذه الرسالة ، وسنبداً بمبحث التصوف بالزهد الذي هو له اصل والتصوف تطور له كما كان التشيع الاول اصلاً والفرق الشيعية الحاضرة فروعاً له ، وسيكون المنهج الذي سنطبقه هو ما طبقناه في التشيع من مصاحبة للتصوف في مراحلها ، وكلما ظهرت فكرة جديدة فيه بسطنا القول فيها وبحثناها الى نهايتها ورأينا صلتها بالتشيع ، اى ان عرضنا للزهد والتصوف سيكون محاولة للمطابقة بينهما وبين التشيع او بحثنا عن المصادر الشيعية فيهما ، وسنجد من ذلك الشيء الكثير .

ولن نفتح الزهد بتعريفه لان ذلك صار شغل المتصوفة الشاغل فيما بعد وتعتبر تعريفاته التي نطق بها المتصوفة عكساً للمراحل التي مر بها قصد بها بيان ما بين الزهد والتصوف من فرق وسنعرض لهذه المسألة في اثناء بحثنا ولكن يحسن بنا ان نذكر ان لفظ الزهد لم يرد في القرآن الا مرة واحدة في سورة يوسف في آية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » (١) ولا تعبر هذه الآية عن مدلول معين للزهد ولا تتصل به

(١) يوسف : آية ٢٠ .

ولكننا وجدنا كل عقيدة جديدة في الاسلام توصل بالقرآن وقد مر بنا التشيع وفرقه ورأينا كيف يتعلق اصحاب الفرق بآيات القرآن تعلق الفريق بطوق النجاة ولهذا وجدنا السرى السقطي (المتوفى سنة ٢٥٣/٨٦٧) يصل الزهد بالقرآن ويرى انه من قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (٢) ، ثم يشرح مرماه بقوله : « ان الزاهد لا يفرح بوجود ولا يتأسف على مفقوده » (٣) ، وقد لمح القشيري اختلاف المتصوفة في تعريف الزهد فصرح بانهم « تكلموا عن معنى الزهد فكل نطق عن وقته واثار الى حده » (٤) ويكفي ان نورد هنا ان سفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) قد تار على الزهد الاول الذي تمثل في زهد الصحابة المادى فى اللباس والطعام فنفى أن يكون الزهد « أكل الغليظ ولا لبس العباء » (٥) وكان فى مقاله هذا يحاول ان يتطور بالزهد ويقلل من اندفاع المسلمين الى لبس الصوف كما سنرى فى اثناء هذا البحث .

ويجب ان نقرر الان وقبل الدخول فى التفاصيل اننا نفرق بين الزهد الذى جاء به الاسلام والزهد المنظم الذى نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف ، وسنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والعباد والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية . وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتشفي العلامة المميزة له عن النظام القرشى فى مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبى ويدخلون فى دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد

(٢) الحديد : ٢٣ .

(٣) الرسالة القشيرية : (٣ ، ٤ ، ٥)

واشبهته ما رأينا المستضعفين والفقراء والعييد انصارا له ولكن حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكي وكانت مقاومته محاطة بالاشواك . وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لاستقراطية قريش من الدخول فيه وتقويضه فقد كانت ضريبة دخول الغنى فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادقى الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك . ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة نفسها بنزول محمد بن سودة الزاهد مولى بجيلة عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة (٦) ، وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام وفقرة هامة فى منهجه التطبيقى اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعييد فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاؤهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابداع مثل يضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده ابو طالب المكي من انه « لما جاء عبدالله بن عامر بن ربيعة فى بزته الى ابي ذر (ر) وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه فجعل ابو ذر يضرب به فى كفه ثم اعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر - وكان قرشيا شريفا - وشكاه الى ابن عمر (ر) فقال له : « انت فعلت بنفسك تأتى الى ابي ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد» (٧) ، وهكذا اوضحت صراحة ابي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته

(٦) صفة الصفوة ٦٥/٣ .

(٧) قوت القلوب ٥٢/٢ . ابن عامر هذا - المتوفى سنة ٥٩ - كان اول من لبس الخبز فى الاسلام (الاعلاق النفسية ١٩٢ ، الوسائل الى مسامرة الاوائل) وهو فاتح راسان ايام عثمان (البلدان لليعقوبى ، اوربا ، ٢٩٦) وكان امويا من بنى عبد شمس (البلدان ٢٩٥) .

الحقيقية ووضحت حقيقة المتلبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى
الذين جاء الاسلام لمحقتهم *

ويضرب لنا ابو الدرداء ، واسمه عويمر بن زيد بن قيس ، مثلا آخر على
هذه الحقيقة بقوله : « كنت تاجرا قبل ان يبعث النبي - صلعم - فلما بعث محمد
زاوت التجارة والعبادة فلم تجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة » (٨) .

وقد رأينا الاسلام يحارب الرهينة ويجعل الزواج اساسا للزهد لان فقر
المسلمين الاولين لم يمنهم من الزواج ، ولو كان الزواج عسيرا على فقراء مكة
وعبيدهم ممن صاروا مادة الاسلام على الاعتبار السابق لرأينا الاسلام - على
الارجح - يحض على البعد عن النساء ولكننا سمعنا عبدالله بن عباس
يقول : « لا يتم نسك اناسك الا بالنكاح » (٩) ، فعرفنا ان كل ما يقال عن
اتصال اصول الزهد بالمسيحية ورهبتها امور بعيدة عن الصدور عن حقيقة
مبينة ، وهكذا دخل الزهد في قلوب المسلمين منذ اللحظة الاولى وكان
شعارا بل ضرورة من ضروراته بحكم كون الفقر والجوع الامرين السائدين
في العالم المكى والعربي ، ولهذا فليس من المستغرب ان يروى عن النبي (ص)
انه قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام » (١٠)
وعلى ذلك فاننا مضطرون الى ان نرى انه ليس دقيقا - ان لم يكن باطلا - رأى
فليب حتى الذي يرى فيه انه « كان التصوف - ويقصد به الزهد - في بدئه
مقصورا على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل كما كان الحال عند
النسك النصراني » (١١) الا اذا كان يعنى به الزهد الذي نضج في القرن
الثاني بعد ان دخلته ثقافات وتقاليده من خارج الدين الاسلامي * ونيكلسون

(٨) طبقات ابن سعد ، ٧ : ١١٧/٢ .

(٩) الكواكب الدرية ١/٦٦ .

(١٠) قوت القلوب ٢/١٥٨ .

(١١) تاريخ العرب ٢/٢٢١ .

نفسه يوثق هذه الفكرة في صورة غير مباشرة بما يذكره من خلو أقوال متصوفة الزهاد من امثال ابراهيم بن ادهم (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨) وداود الطائي (المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٢) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) وشقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-٨١٠) من تأثرهم بالمسيحية « او بأى مصدر اخر الا قليلا » (١٢) ، واذا كان نيكلسون يرى ذلك فيما يتعلق بالزهد المنظم الذى يوشك ان يتطور الى التصوف فان صدور الزهد الاسلامى الاول عن جوهر الاسلام يصبح امرا مقطوعا به . وقد تنبه الى هذه الحقيقة باحثون من المسلمين كالثيخ صالح بن مهدي القبلى الذى يقول « اعلم ان من اشد الخلاف ضلالا واعمه بلاء وادقه مسلكا واكثره هلكا ومعترا كما انه تزهد جماعة من الصحابة رضى الله عنهم - لعله يقصد بهم المسلمين الاولين - برفض الدنيا فقط تابعين لنصيحة الله وسنة رسول الله (ص) . . . ثم نشأ بعدهم زهاد كذلك لكنهم قالوا : لا سلامة الا بالعزلة عن الناس هربا من العوارض » (١٣) ، ويرى الشيخ القبلى ان هؤلاء النساك التابعين هم الذين تشبه منهم طائفة برهبان النصرارى لا الاوائل ، ويضيف نيكلسون ناقلا لرأى جولد تسيهر الى ذلك انه « ترجع العوامل الرئيسية فى ظهور نزعة الزهد الى عاملين هامين : الاول المبالغة فى الشعور بالخطيئة ، والثانى الرعب الذى استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة » (١٤) ، وهذا رأى له وجهته ولكنه مع ذلك يدخل ضمن العامل الذى ذكرناه من ان الاسلام قد بنى الزهد صورة له ، وتلك صورته المادية وهذه المعنوية . فالزهد فى الاسلام اذن ادى اليه عاملان : عامل اجتماعى اسلامى ينعكس من محاربة الارستقراطية باساعة المظهر الزهدى فى الاسلام والمسلمين وقطع الطريق

(١٢) فى التصوف الاسلامى ٣ .

(١٣) العلم الشامخ ٣٦٨ .

(١٤) فى التصوف الاسلامى ٢ .

على الملأ المكى فى اندس له والدخول فيه تظاهرا اتم القضاء عليه ، وعامل
نفسى استشفه المسلمون من رساله الاسلام ومن عذاب الاخرة الذى يرد
ذكره فى القرآن ومن التخويف بالنار . وزاد ذلك رقة عاطفة المسلمين
الاوائل الذين كانوا فى عامتهم فقراء مستضعفين او عبيدا وهم قد عانوا كثيرا
فى سبيل عقيدتهم كما رأينا فى التشيع الاول . ولو لم يكن الزهد جوهريا
فى الاسلام الاول لرأينا مظهر المسلمين يتبدل بعد الفتوح التى تحققت ايام
عمر ، بل لقد رأينا الزهد الصق بالخليفة والمحيطين به فى هذه الفترة ،
ولعل مصداق نظرتنا هذه ان الفتنة الكبرى لم تحدث الا لخروج عثمان
على هذا الشعار الزهدى . وكذلك كانت ثورة العراقيين على الامويين مؤسسه
على ان الامويين كانوا يعتبرون السواد بستانا لقريش^(١٥) ، وكانوا بذلك
يخرجون على تقاليد الاسلام من ايثار الزهد والبعد عن الترف وهى السياسة
التى استنها الاسلام ودخل فيه العرب على هذا الاساس وكانوا فى النهاية
هم الذين حاربهم الاسلام واستقى وجوده من القضاء عليهم . ويؤكد لنا الباحث
الايرانى المعاصر الدكتور قاسم غنى هذه الحقيقة ويرى ان قد « كان مسلمو
صدر الاسلام فقراء وجياعا يحيون حياة بدوية بسيطة ليس فيها تكلف ،
وصار الفتح سببا فى امتلاء ايدى هؤلاء الفقراء بالثروة فاتصل هؤلاء القوم من
سكان الصحراء شبه البدائيين بحضارات كثيرة الترف والتكلف واتسعت رقة
المجتمع الاسلامى بنتيجة هذه الفتوح . . . حافلة بالصخب . والخلاصة ان
كل هذه العوامل سببت تبدل حياة الاعراب المعتدلة الهادئة البسيطة الى حياة
ملية بالترف على صورة كان الافراط والتفريط زائدا فيها ، وتحمل المسلمون
المتعبدون هذه التغيرات والتحولات فى حياة العرب فى صعوبة وضيق .
ويحدثنا التاريخ ان عمر لما اطلع على حياة معاوية المترفة وسلطوته فى سورية
غضب ، ووبخ خالد بن الوليد على اسرافه ، وكان من احد اسباب ثورة

(١٥) الطبرى (اوربا) ١/ ٢٩١٥ .

المسلمين على عثمان الخليفة الثالث انه كان يملك كثيرا من العقارات والمواشي والاراضي بخلاف الشيخين» (١٦) • وهذا يدعونا الى الشك في صحة ما يراه المرحوم محمد كرد علي من انه « نشأ في القرن الاول رجال ربانيون اتقياء عزفت نفوسهم عن بهرج الدنيا وزخرفها فانصرفوا الى العبادة والزهادة لمزاج خاص بهم او جبلة دفعتهم او لسبب من الاسباب التي تعرض للبشر من اخفاق في طلب مجد او مال او وصال» (١٧) لان الزهد لم يكن نزعة فردية وانما كان لونا اسلاميا اصطبغ به المجتمع الجديد كله ، وهذا ابو طالب المكي يسم المهاجرين جميعا بالفقر والزهد ويجعلهم من جنس اهل الصفة فيقول : « ولا نعلم في الامة افضل من طائفتين : المهاجرين واهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال : للفقراء الذين احصروا في سبيل الله (١٨) فقدم وصفهم على اعمالهم : الهجرة والحصر» (١٩) • ويسوقنا هذا النص الى ذكر اهل الصفة الذين جعلهم اصحاب كتب التصوف مقدمة المتصوفة واسلافهم ، ويحدثنا السراج انهم « كانوا نيفا وثلاثمائة لا يرجعون الى زرع ولا ضرع ولا الى تجارة وكان اكلهم في المسجد ونومهم في المسجد وكان رسول الله (ص) يؤانسهم ويأكل معهم ويحث الناس على اكرامهم ومعرفة فضلهم» (٢٠) ، وكان لاهل الصفة رئيس هو ابو هريرة ، وابو طالب المكي يخبرنا انهم « كلهم كان متبعا لاوامره مجتنبيا لزاوجه» (٢١) ، ويصفهم بانهم كانوا الصق بالزهد من باقى المسلمين وانهم كانوا يبالغون فيه وكان يشاركهم بعض زهاد الصحابة ذلك ويروى ان احدهم كان «ياشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه

-
- (١٦) تاريخ تصوف در اسلام ٢٠ (ترجمة) •
 (١٧) الاسلام والحضارة العربية ٢٨ •
 (١٨) البقرة : ٢٧٣ •
 (١٩) قوت القلوب ٢/١٥٩ •
 (٢٠) اللمع ١٣٢ •
 (٢١) قوت القلوب ١/٨٨ •

ويقول : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، كأنهم كرهوا الترفع عنها والوقاية منها
يجدون ذلك ارق لقلوبهم وابلغ لتواضعهم» (٢٢) .

والظاهر من هذه الاخبار أن أهل الصفة هم المسلمون الذين لم يؤاخ
الرسول بينهم وبين زملاء لهم من أهل المدينة وانهم اتخذوا لذلك الصفة
سكنا لهم وملجأ ، يدل على ذلك ما يورده ابو حفص السهروردي (المتوفى
سنة ٦٣٢/١٢٣٤-٣٥) من انه « كان الرجل اذا قدم المدينة وكان له بها
عريف ينزل على عريفه فان لم يكن له بها عريف نزل الصفة» (٢٣) ،
ويبدو ان عددهم قد حدد بعدئذ وقصد به ان يشبه عدد سنى أهل الكهف او
عدة جيش النبي (ص) يوم بدر ، وقد روى ابن سعد أن عددهم يتراوح بين
ثلاثمائة وثلاثة عشر وثلاثمائة وستة عشر رجلا بحسب روايات الرواة (٢٤) ،
وقد حدد عدد الابدال في كتب التصوف بثلاثمائة لهذا السبب على ما يبدو .
وقد صنعت رياسة ابي هريرة لهم ليجمعوا من الصفة رباطا صوفيا كما يبدو
من تشبيهه ابي طالب الرباط بالصفة . ومهما يكن من شىء فاننا وجدنا
المهاجرين زهادا أو رأينا الزهد رسميا فى المدينة بدليل مؤانسة الرسول (ص)
لهم .

واذا تركنا أهل الصفة وجدنا عبدالله بن عمرو بن العاص الذى كان
من « اتقى الصحابة واقواهم حماسة فى الدين واشدهم غيرة وتدقيقا فى
اتباع السنة» (٢٥) ، ويحدثنا جولد تسبهر انه « حرم عينه الرقاد ليقضى الليل
فى تلاوة القرآن وانه فرض على نفسه صوما دائما ويذكر ان النبي (ص)

(٢٢) قوت القلوب ١/ ٥٢ .

(٢٣) عوارف المعارف ٧٨ .

(٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ١٣٤/٢ .

(٢٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٢٤ .

« زجره ليقصر في عادات زهده على الحد المعقول » (٢٦) ، وعبدالله قد شارك في حرب صفين مع ابيه فهل كان ايام النبي في سن تؤهله لهذا الادراك وتحمله على هذا الصنيع ؟ ومهما يكن الامر فاننا لانعدم امثلة اخرى على لصوق الزهد بالصحابة واختطاطهم له ، وقد رأينا سلمان الفارسي اميرا على المدائن وهو متلبس بالزهد الى حد غريب وكذئت رأينا ابا ذر وعمارا وغيرهم • ويحدثنا ابو طالب ان عمر « كتب الى اهل حمص ان عدوا لى فقراءكم فسموا له في الكتاب نفرا وكان اميرهم سعيد بن جذيم او عمير بن سعد افقرهم » (٢٧) ، ويحدثنا كذلك ان فضالة بن عبيد والى مصر رؤى اشعث حافيا فقيل : انت الامير وانت هكذا ؟ قال : نهانا رسول الله (ص) عن الارفاه وامرنا ان نحثي احيانا» (٢٨) ولعل في ذلك مايقطع بما اوردها من ان الزهد صفة عميقة من صفات الاسلام لما ذكرناه في مبحث التشيع ولما اوردها هنا ايضا • ولعله ليس من التكرار في ايراد الاخبار ان نشير الى اهمية مقالة ابى سعيد الخدرى : « ما كنا نعرف المناققين على عهد رسول الله (ص) الا ببغض على بن ابى طالب » (٢٩) ، واذا عرفنا ان المناققين هم الارستقراطيون السابقون ادركنا الى اى مدى كان الاسلام متبنيا للزهد لونا لحياته • وبهذا نجد ان الاسلام هو منبع الزهد الذى هو التواضع فى الملبس والمشرب والمأكل والتواضع فى المعاملة اى التطبع بطابع الفقراء الذين كانوا يؤلفون اغلبية المسلمين • وليس الزهد الذى مر بنا فى هذه الصفحات هو الزهد الاصطلاحى الذى تطور الى التصوف وانما هو صورة الفقر التى انمكست على سواد المسلمين الاولين •

وقد وجدنا الاسلام قويا ايام النبي (ص) وايام ابى بكر وعمر ووجدنا عليا نصيرا لهما وناصحا ووجدنا زعماء الصحابة معهما ، وقد بينا فى بداية التشيع ان المسلمين الحقيقيين كانوا الارقاء والفقراء من امثال سلمان وابى ذر

- (٢٦) العقيدة والشرعة فى الاسلام ١٢٤ •
 (٢٧) ، (٢٨) قوت القلوب ٢ / ١٨٠ •
 (٢٩) الصواعق المحرقة ١٢٠ •

والمقداد وعمار وحذيفة وصهيب وغيرهم وانهم كانوا يلتفون حول علي :
 افقه الصحابة واعلمهم واشجعهم واقربهم الى النبي والاسلام ، ثم وجدنا من
 بقى من هؤلاء الى خلافة عثمان يشاركون في الثورة عليه وبينا ان كل ما صنعه
 عثمان هو شعوره بانه رئيس دولة له ان يصنع ما يشاء باموال المسلمين
 ومناصبهم فجعل يوزع الامارات والاموال على اقاربه وارحامه . ولم يكن
 ذلك كثيرا على رئيس دولة عادية ولكنه كان كثيرا جدا على رئيس المسلمين
 وخليفة النبي الذي اتخذ الزهد والفقر اساسا لبث دعوته ليضم اليها كل العرب
 الذين كانوا يشكون الفقر والذل ثم غيرهم ولم تكن حالهم لتختلف عن حال
 العرب . وهكذا وجدنا مثل الاسلام تبلور في جماعة هم المتفون حول علي
 وكانوا هم الشيعة الاولين على الصحيح ، ومن ذلك ما يرويه ابن الاثير ان
 «عليا نظر الى قوم باباه فقال لقنبر مولاه - قتله الحجاج سنة ٨٢/٧٠١ - : من
 هؤلاء؟ قال : شيعتك يا امير المؤمنين ، قال : ومالى لا ارى فيهم سيماء الشيعة؟
 فقال : وما سيماهم؟ قال : خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظما ،
 عمش العيون من البكاء» (٣٠) ، وما يرويه ابو نعيم عن مجاهد ايضا ان شيعة علي
 هم : «الحلماء العلماء الذبل الشفاه الاخيار» (٣١) ، وما يرويه هو ايضا عن
 الامام علي بن الحسين زين العابدين ان «شيعتنا الذبل الشفاه» (٣٢) ، ويختم
 ابو نعيم هذه السلسلة من الاخبار بقوله : «فالمحققون بموالات العترة الطيبة
 هم الذبل الشفاه المقترشوا الجباه الاذلاء في نفوسهم العتاة المفارقون لمؤثري
 الدنيا من الطغاة» (٣٣) .

هذا هو الزهد الاسلامي الاصيل المستقل عن المؤثرات السياسية
 والاجتماعية والنفسية والثقافية . وهناك منبع آخر للزهد لا ينضب معينه بل

(٣٠) الكامل ٣/٢٠٤ .

(٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) حلية الاولياء ١/٨٦ .

منابع كثيرة صبت فيه هي هذه الظروف التي تدفع المسلم الحساس دفعا الى الزهد في الدنيا لما يراه من ظلم محيق وطمع وخروج عن جادة الاسلام ، ثم شاركت الثقافات ووجهت الزهد وجهة خاصة سنراها في الموضوع المناسب .

ويجب ان نذكر هنا مع ماسينيون ان « الميل الى حياة النسك كان في كل بلد وفي كل عصر » (٣٤) ، وذلك امر لا يستطيع احد انكاره ولكنه لاينفى شيئا مما رأيناه من ان الاسلام هو دين الزهد حقا ، ونحن لانكر الشق الثاني من رأى ماسينيون ايضا ن ان تلك الحياة الزهدية « لم تشب ان انتشرت في الاسلام في قرنيه الاولين » (٣٤) ولكننا نزع ان هذه المؤثرات الخارجية هي التي شاركت في صبغ الزهد بالوان جديدة تختلف ن بلد الى آخر حتى ادت الى الزهد الصوفي فالتصوف ، وهذا هو السبيل الذى حدثنا عنه ماسينيون ايضا من ان « الاستعداد للتصوف - الزهد الآن - ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس فيثور صاحبها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه واصلاح خطيئاته » (٣٥) . ويجب ان نورد ملاحظة نيكلسون ايضا لنرى مصداق ماكان للظروف من تأثير في الزهد وتشجيع للميل اليه : قال نيكلسون : « وقد انفرد القرن الاول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، كالحروب الاهلية الطويلة الدائمة - التي وقعت في عهد الصحابة وبنى امية - والتطرف العنيف في الاحزاب السياسية وازدياد التراخي في المسائل الخلقية وما عاناه المسلمون من عسف الحكام المستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن اخلصوا في الاسم » (٣١) ، ثم اشار نيكلسون الى التشيع الذى يقصد به اعادة الحق الى على وابنائيه فقال : « ورفض هؤلاء علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التي حاول

(٣٥ ، ٣٤) الاسلام والحضارة العربية ٢٨/٢ .

(٣٦ ، ٣٧) في التصوف الاسلامى ٤٦ .

المسلمون ارجاعها : كل اولئك عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها وحولت انظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة وانتشرت على مر الايام فكان زهدا دينيا خالصا فى بادىء الامر ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى اقدم صورة نعرفها للتصوف الاسلامي» (٣٧) .

ولن نطيل فى ضرب الامثال على الظروف التى تذكى الميل الصوفى وسنقتصر على : قول ابن عمر : ما شيعت منذ قتل عثمان» (٣٨) ، فان فى هذه المقالة هزة نحسها دفعت ابن عمر الذى قال هذه المقالة زمن الحجاج - اكبر باعث على الزهد فى القرن الاول الهجرى كما سنرى - دفعته الى التمسك بالزهد والاصرار عليه بل لقد زاد الالم من اقتناع ابن عمر ان النبى كان حكيما وان الاسلام دين حق حين امر بالزهد ونهى عن الارفاه كما مر بنا . ولهذا فان علينا ان نلاحظ ان الامصار التى شاركت فى الاحداث وتأثرت بالظروف التى جددت على الاسلام قد اسهمت فى تطوير الزهد ، كل مصر بما حدث فيه وما انصب من احداث وثقافات . ومن المعلوم ان اول عامل كبير من عوامل الزهد هو قتل عثمان وقد وجدنا ان اول حركة زهدية متصلة بالسياسة قد اقترنت بهذا الحادث ، ورأينا سعد بن مالك وسعد بن ابى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة - برواية النوبختى - (٣٩) ويضيف اليهم احمد امين : حسان بن ثابت وعبدالله بن سلام يخرجون الى مكة بعدا عن الفتنة ولسان حالهم يقول سعد بن ابى وقاص : « ان رسول الله امرنى اذا اختلف الناس ان اخرج بسيفى فاضرب به عرض الجدار فاذا انقطع اتيت منزلى فكنت فيه لا ابرحه حتى تأتبنى يد خاطية او منية قاضية » (٤٠) ، والنوبختى

(٣٧) فى التصوف الاسلامى ٤٦ .

(٣٨) قوت القلوب ٤٦/١ .

(٣٩) فرق الشيعة ٤ .

(٤٠) فجر الاسلام ٣١٢ .

يسمى هؤلاء اسلاف المعتزلة ويوافقه نيرج على ذلك (٤١) ، ولكن النظرة الفاحصة تجعلهم اسلاف الزهاد المتأثرين بعوامل زائدة على الزهد المنبعث من جوهر الاسلام وبخاصة اذا عرفنا ان الاعتزال الرسمي الذي بدأه واصل بن عطاء في البصرة قد خرج من مدرسة الزهد البصرية التي يتزعمها الحسن البصرى (٤٢) ، ويلاحظ جولد تسيهر انه « تأخذ الحياة الزهدية مكانا فائقا له خطره بين ما يفتخر به المعتزلة من خلال عظمة ماجدة » (٤٣) ، ومن رأى جولد تسيهر انه « مما يدل على الجهل بتاريخ الاسلام جهلا تماما وضع المعتزلة في عداد الفرق » (٤٤) .

فمن هذا كله نخرج بان اول اثر سياسى فى الزهد او اول دافع سياسى اليه نشأ بعد قتل عثمان من الخوف من الدخول فى فتن لا اول لها ولا آخر تكون نتيجتها ضياع الاسلام وسيادة الاطماع الشخصية . ولعلنا نذكر - فيما يختص بمكة ايضا - زهد عبدالله بن الزبير (العائد بالبيت) وانقطاعه فى مكة ، ولعل هذه السطور تقوم مقام الزهد المكى . وقبل ان نختم هذه الصفحات فى الزهد الاسلامى الاول يجب ان نقرر بان النبى نفسه لم يكن زاهدا زهدا ماديا ولم يعرف عنه ذلك لانه كان يعتبر نفسه زعيما للمسلمين ورئيسا لهم يقف بازاء رؤساء قريش الذين جاء لحربهم وليس ذلك غريبا على النبى فانه قد ميز عن المسلمين ماديا فى عدد الزوجات وغير ذلك ليتاح له ان يكون ندا للقرشيين . ولكن الزهاد والصوفية اعتبروا النبى مثلهم الاعلى فى مشربهم لا من مصدره المادى المتمثل فى الزهد فى الطعام واللباس وانما من مصدره الروحى المتمثل فى تصفية النفس والتأمل والخلوة مما ادى فى النهاية الى نزول الوحي عليه ليبلغه اختيار الله له نبيا .

(٤١) الاسلام والحضارة العربية ٥٨ .

(٤٢) المال والنحل ٥٧/١ (عامش) .

(٤٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٩٨ .

(٤٤) المصدر نفسه ١٦٦ .

الفصل الثاني

الزهد في الكوفة

تمصير الكوفة وعناصرها :

كانت الكوفة معسكرا للجيش العربي الذي فتح فارس وصارت مدينة تسكن سنة ١٧/٦٣٨ للهجرة بأمر عمر بن الخطاب وبنيت بالقرب من بابل^(١) فكانها مركز لموجة سامية جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية وصارت استمرارا للحضارات العراقية القديمة والواقع ان الكوفة جمعت بين طابعي حضارتين حضارة آشور الحربية متمثلة في استمرار الثورات فيها حتى انطفاة جذوتها باتقال الحكم الى العباسيين وحضارة بابل العلمية التي اخرجت للعالم اولى الشرائع في التاريخ ، وكانت الكوفة - الى ذلك - وارثة الحيرة عاصمة اللخمين التي كانت مجتمعا للقوافل وكانت تربط اعلى آسيا باقاصى اليمن^(٢) .

اما الكوفيون فكانوا من عنصرين : اغلبية عربية جلهم يمانيون واقلية فارسية هم الحمراء الذين انضموا الى الجيش العربي في القادسية وسكنوا الكوفة مع العرب^(٣) وكانوا حلفاء لقبيلة عبد القيس الشيعية^(٤) وكان من حسن حظ الكوفة ان كلا العنصرين اللذين حطا فيها الرحال كان على جانب من الحضارة كبير اذا قيس بمستوى العرب الحضارى ، فقد كانت مذحج

-
- (١) تاريخ العرب ٢/٣٠٩ .
 - (٢) خطط الكوفة ٦ .
 - (٣) فتوح البلدان ٢٨٠ .
 - (٤) خطط الكوفة ١٠ .

وحمير وهمدان قبائل متحضرة حقا من سكان المدن والقرى اليمنية^(٥) يضاف اليهم عناصر نصف متحضرة ككندة وبيجة وكل اولئك من اليمن ونحن نعرف درجة العنصر الفارسي من الحضارة • وقد اثبت العنصر اليمني قدرته على تأسيس الثقافة الاسلامية وعلى التمدن والتحضر • وكان اليمنيون اهل تصور وابتكار وكانت فيهم المادة الموجدة لهذين المظهرين الحضاريين^(٦) فكان ما ظهر من ثقافة وحضارة في الكوفة اصيلا له طابع الكوفة الخاص • ويؤكد ماسينيون ان الكوفة هي السبب في ثقافة البصرة التي لم تتصف بالاصالة^(٧) ، ويعدد ماسينيون اوجه الاصاله في حضارة الكوفة فيخبرنا بانها « طورت الخط الكوفي المأخوذ من المصاحف وانها انتجت نهج البلاغة : مجموعة خطب الامام على وطورت الشعر القديم واوجدت الاحاديث والسير في حب الله ، ويذكر « انها كانت موطن البهاليل (جمع بهلول وهو المدعى الجنون) وموطن الصوفية الذين ذكر الغزالي مكاتبتهم واهميتهم وكانت في السياسة تهدف الى العدل الاجتماعي وكانت في الحقوق تلتزم الاجتهاد ، وهي مهد الفقهاء والمشرعين الاقدمين ، وكانت في النحو تبحث عن اوضاع الشواذ (التي تدل على فهم لقواعد النحو وفصاحة عميقة بحيث طرحت البحث في النحو العادي وتعمقته ببحثها عن الشواذ فيه)^(٧) • وهكذا تبين الميادين التي عكستها حضارة اليمن في الكوفة فاثبتت اصالتها واستقلالها عن الثقافات والمعارف التي شاركت في بناء هذه الحضارة • واذا عرفنا ان « الكوفة كانت مجتمعا تختلط فيه الديانات القديمة من نصرانية ويهودية وماندية وزرادشتية ومزدكية وان الكوفيين كانوا يألفون النصارى واليهود وكان منهم قوم في جيش على^(٨) وان العنصر الفارسي لم يؤثر في صبغتها العربية

(٥ ، ٦) خطط الكوفة ١٢ •

(٧) المصدر نفسه ١٢-١٣ مختصر •

(٨) حركات الشيعة المتطرفين ١٨ •

الادبية^(٩) ادركنا الى اى مدى كانت الكوفة اصيلة فى حضارتها • ويتضح من ذلك ان الكوفة كانت بيئة اصالة لا بيئة تقليد وانعكاس مباشر كما كان الامر فى البصرة وقد قيل لهذا : « ان آداب اللغة العربية ميراث الكوفة »^(١٠) •

وقد كان الكوفيون - واغليبتهم يمانية - يجمعون الى هذا الاستعداد الحضارى عاطفة منبعثة من جيلة العنصر اليمانى التى يخبرنا ابو الفرج انه يتصف برقته العاطفية^(١١) ، ويروى البخارى ان النبى (ص) قال فيهم : اناكم اهل اليمن - هم ارق الناس افئدة والين قوبا ، الايمان يمان والحكمة يمانية^(١٢) •

وهكذا جمع هذا الحديث صفتى العنصر اليمانى : الحكمة والايمان
اي الحضارة والعاطفة •

وقد كانت هذه العاطفة السبب الاول فى تشيع الكوفة ، فقد كانت بداية اتصال اليمانيين بعلى حين عجز خالد بن الوليد عن فتح اليمن فارسل اليهم النبى (ص) عليا فبث الاسلام فيهم دون قتال وكانت همدان اولى القبائل اسلاما وكان ذلك سنة ٩/٦٣٠-٣١ للهجرة^(١٣) ، ولهذا لم يكن غريبا ان تستجيب الكوفة لدعوة على حين طلب الى الكوفيين الانضمام اليه ضد طلحة والزبير ، وقد قال قائلهم يومئذ ردا على كتاب على الندى ورد فيه : « ولعمري ما اياى تجيبون ، ما تجيبون الا الله »^(١٤) ، قال قائل اليمن « والله لو لم

(٩) تاريخ الكوفة ١٣٦

(١٠) المصدر نفسه ١٢٦ •

(١١) الاغانى ٢/١٦٣ •

(١٢) صحيح البخارى ٣/٦٨ •

(١٣) العبر ٢/١١٠ •

(١٤) الامامة والسياسة ١٠٩ •

يستصعنا لنصرناه سمعا وطاعة ، (١٥) ، وكان لهذه الاستجابة السريعة صلة
بالايمان المقترن بالعاطفة . ويجب ان نشير الى ان شيعيين هما سلمان الفارسي
وحذيفة بن اليمان هما اللذان اختارا بقعة الكوفة (١٦) ، وقد مر بنا ان حضارة
اليمن تركز في الثقافات التي صدرت عن التشيع مما رأينا منه وجها واحدا هو
الفرق الشيعية وسنرى في هذا الفصل وجها ثانيا من الحضارة الكوفية هو
الزهد وسيتبين لنا انه قد صدر عن التشيع ايضا .

شابت الكوفة عليا بعد انتخابه مباشرة بل لقد كان على مطمح انظار
التأثرين على عثمان كلهم وقد كلفت هذه المناصرة الكوفة الكثير من التضحيات
فقد كان الامام على طرازا من الرجال غريبا نادرا ، لقد نزل الكوفة بعد ان
تطورت عقلية المسلمين وفتحت اذهانهم للمادة ورأوا كيف يعيش الولاة
الامويون الذين عينهم عثمان ورأوا تطور الاسلام من الزهد والاكتفاء بالقليل
الى البذخ الذي اظهره عثمان واقاربه فتأروا عليه بعد ان صرح عامله عليهم
ان السواد بستان لقريش ويعنى بها بنى امية . وقد انتصرت الثورة
واستطاعت ان تنفذ مشيئتها بانتخاب على . ونصرت الكوفة عليا ضد خصومه
وكانت تتوقع الغنم المادى من الاسلاب والغنائم والمعنوى الذى يتمثل فى
انتقال مركز الاسلام اليه . اما الغنم فقد انقلب غرما لان الغنائم قد حرمها
على فى حروبه على اعتبار ان المسلم لا يسلب المسلم واما الغرم فقد جاء من انهم
كانوا يقتلون اخوانهم وارحامهم وكثيرا ما رأينا ابنا يقاتل اباه وابن عم ينحر
ابن عمه ، وهكذا كلف الامام على الكوفيين مالم يكلف النبي المسلمين الاولين
فكانت هذه بداية لظهور الزهد فى الكوفة . فقد هال الكوفيين كثرة القتلى فى
الجمل ثم صفين ثم النهروان وتعبوا من القتال الموجه الى مثل عليا ليس النفع

(١٥) الامامة والسياسة ١٠٩ .

(١٦) العبر (بيروت ١٩٥٦) ٢ / ٩٥٩ .

احدى نتائجه فتخاذلوا وتواكلوا وفتروا عن الاستمرار فى القتال الذى لانهاية له . ولم يتضح عجز الكوفيين عن الاستمرار فى القتال الا بعد قتل الحسين حين ادركوا انهم قد انتهوا ولم يكن يدور فى خلدتهم انهم قد بلغوا هذه الدرجة من الخور والوهن وادركوا مع هذه الحقيقة حقيقة اخرى هائتهم تلك هى انهم قد فرطوا فى حق عقيدتهم تفريطا عظيما . وهنا بدأت عوامل الزهد تزحف على الكوفة ، ويجب هنا ان نورد رأى الدكتور على الوردى الذى علل سرعة قلب اهل الكوفة فرأى ان العراقى « يفكر بمبادئ » لا يستطيع تطبيقها ويدعو الى اهداف لا يقدر على الوصول اليها ، ولذا تجده يقول للزعماء : انهضوا فانى معكم ثم اذا نهضوا وجد فى نهضتهم مخافة فقبع فى بيته يشكو من تصاريق الزمان^(١٧) ، وبذلك يتضح لنا ان طاقة الكوفى المادية ليست مسائرة لطاقته الروحية وانعاطفية ولهذا وجدنا الحياة فى الكوفة تتخذ ثلاثة انماط تدور كلها حول المعارضة وحول التشيع ، فقوم ثبتوا على التشيع وجعلوا يؤيدون كل حركة شيعية ويشجعون الائمة والثائرين على الخروج ، وقوم جعلوا يجمعون حولهم الاتباع ويشققون الافكار الشيعية ليؤلفوا لهم فرقا تركز على عقائد شيعية ، والنمط الثانى قوم اتخذوا السيف اداة للمعارضة وهم الخوارج وانظم اليهم كل شيعى لم يطق صبورا على حياة الذل الذى نزل بالكوفة بعد الحسين ، والثالث فريق اعتزل القتال واعتزل الجهر بالعقيدة فانزوى فى بيته او اظهر الزهد للناس وامتنع من القتال ثم دفعته الثورة الداخلية والمرارة والحزن الدفين ليجزئه عن ان يصنع شيئا لاحقاق ما يراه حقا فظهر بذلك الزهد الاصطلاحي الذى ادى الى التصوف . ومن اجمل ما قيل فى هذا المجال ما اوردته ابو طالب المكي الذى قرن حركة الزهاد المتطرفين بحركة الخوارج فيبين لنا انهما يستقيان من منبع واحد هو الثورة على الفساد الذى عم الارض والمعارضة له فقال فى الزهاد البصريين - وظروف

(١٧) شخصية الفرد العراقى ٤٧ .

الكوفة اقسى من ظروف البصرة - : « فهرب هؤلاء من الافن والاغترار فوقموا في اعظم منهما من القنوط والاياس فصاروا في كباثر المعاصى من خوفهم منها ، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الائمة بالسيف لانكار المنكر فوقموا في انكر المنكر من تكفير الائمة ٥٥٥ » (١٨) ، وقد تحالفت الكوارث على الكوفة فزادتهم اندفاعا في ميادينهم الثلاثة حتى جاء الحجاج فبلغ الغاية في التكيل والتعذيب حتى جعل الناس يصرحون بالكفر نجاة من القتل (١٩) . وكان الحجاج نفسه يفضل الخليفة الاموى على النبي بقوله : « اخليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسول في حاجته !؟ » (٢٠) ، ولقد سمعنا ايام الحجاج عجبا فقد كان من مناقب العرب يومئذ « الفرخ يقتل الحسين وسب على والحسن والحسين وفاطمة » (٢١) ، وكان مصعب بن الزبير عاتيا على الكوفيين ، واستمرت الاحداث واستمر معها خروج الناس من المعارضة الايجابية الى المعارضة السلبية .

وقائمة الزهاد من الشيعة طويلة ولكنها لم تعرف من قبل ، فقد كان الربيع بن خثيم عامل على على الرى وقزوين اول الزهاد الكوفيين ممن امتنعوا عن قتال المسلمين وفضلوا الخروج الى الثغور (٢٢) ، وكان اويس القرنى المتوفى سنة ٦٥٧/٣٧-٥٨ شيعيا وصفه الاسفراينى بانه « احد النساءك العباد » (٢٣) ورجح انه قتل في صفين مع على ، وكان اويس يتمتع بمكانة عظيمة في الزهد الى حد انه ورد فيه حديث نبوى يشر به وينص على اسمه ويأمر عمر وعليان ان يرعياه ، وقد عين النبي علامة يعرف بها اويس (٢٤)

(١٨) قوت القلوب ٢/١٥٣ .

(١٩) الطبرى ، ليدن ، ٢/١٠٩٦-٧ .

(٢٠) مروج الذهب ٢/١٤٥ .

(٢١) المصدر نفسه ٢/١٤٣ .

(٢٢) الاخبار الطوال .

(٢٣) التبصير فى الدين ٢٢ .

(٢٤) صفة الصفوة ٣/٢٢ .

مما رأيناه خاصا بالنبي نفسه ومن ادعى المهديّة من بعد من امثال محمد بن عبدالله الحسن والمهدي الاثنا عشرى بل يورد ابن سعد ان رجلا تحول من جيش معاوية الى جيش علي حين عرف ان اويسا فيه^(٢٥) ، وكان كميل بن زياد النخعي زاهدا شيعيا قديما ولى لعلى ولاية هيت وعانات وآمد وقد قتله الحجاج سنة ٧٠٢/٨٣ ، وكان يقول له : لقد اخبرني مولاى انك قاتلى^(٢٦) ، وكميل دعاء مشهور يتلوه الشيعة فى مجموعة ادعيتهم وهو من رجال السلاسل الصوفية وتتصل به سلسلة خرقة طريقة انور بخشية فى ايران^(٢٧) ، وكان خباب بن الارت ناسكا شيعيا من النواحين البكائين^(٢٨) وكان من المعذنين الاولين فى الاسلام ، وكان سعيد بن جبير المقتول سنة ٧١٢/٩٤ - ١٣ زاهدا شيعيا مع انه ولى القضاء للحجاج وخرج مع ابن الاشعث ودليل شيعيته ان الحجاج - قبل ان يقتله - سأله رأيه فى علي وفى معاوية^(٢٩) مما كان يتطلب البراءة من علي او القتل فى سبيله . وكان زيد ناسكا شيعيا ايضا تمنى سعيد بن جبير لو انقطع اليه وروى عنه سفيان الثورى^(٣٠) ، وكان ابو صالح ماهان الحنفى من ضحايا الحجاج ايضا وكان زاهدا ، وثقى رشيد المهجرى وميثم التمار الشيعيان مصيرهما على يد الحجاج ايضا^(٣١) ، وقد عرض طلحة بن مصرف نفسه للقتل بالامتناع عن البراءة من علي مع انه ندم اشد الندم على اشتراكه فى وقعة الجمام^(٣٢) ، وقد قتل الحجاج قبرا

-
- (٢٥) ابن سعد ١١٢/٦ - ١١٣ .
(٢٦) الاصابة ٢١٨/٣ .
(٢٧) روضات الجنات ٥٣٧ .
(٢٨) حلية الاولياء ١٤٣/١ .
(٢٩) الطبرى (ليدن) ١٠٩٦/٢ - ٩٧ .
(٣٠) المصدر نفسه ٣١/٥ .
(٣١) صفة الصفوة ٤٠/٣ .
(٣٢) حلية الاولياء ١٦/٥ .

مولى على سنة ٨٢/٧٠١ لمجرد شهوته لقتل رجل يوالى عليا وكان زاهدا (٣٣) .

وهكذا يتضح لنا فشو التشيع فى الزهد لان انسحاب الشيعة من ميدان القتال قد اورث فيهم هذا الميل من الدخول فى ميدان المقاومة السلبية والمعارضة القلبية او الندم على الخيانة والبكاء من العجز عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويؤيد شيعة الزهد الكوفى ان عليا قد وصف شيعة لقنبر بانهم « خمس البطون من الطوى يبس الشفاء من الظما ، عمش العيون من البكاء » (٣٤) وقد مر بنا وصف حفيده للشيعة بالوصف نفسه وكذلك وصف ابى نعيم لهم بانهم الذبل الشفاء المقترشو الجباه . . . وبذلك يتضح استغراق التشيع للزهد كما استغرق المحاربين . اما بالنسبة لزهاد القرن الثانى فى الكوفة فمن المعروف انه قد كان جابر بن حيان شيعيا وكذلك الامر بالنسبة لسفيان الثورى شيخ مدرسة الزهد الكوفية ويتبين ذلك من مبايعته لمحمد ابن عبدالله بن الحسن النائر بالمدينة كما مر بنا فى فصل الزيدية ، وكذلك كان عبدك الصوفى (٣٥) . ويمكن ان يصح هذا القول على اغلب زهاد الكوفة ويمكن اثباته من اخبارهم او اقوالهم ، ولعل مما يقوم مثلا على هذا الرأى ان ابن السماك القاص المشهور المتوفى سنة ١٨٣/٧٩٩ الذى ترهد معرروف الكرخى ، بوغظه كان مولى لبني عجل (٣٦) القبيلة التى اسست مدرسة للغلو ودولة له كما مر بنا .

اما ميادين الزهد الكوفى فقد تعددت ، فقد وجدنا فيها الزهد الاسلامى الاصيل القائم على التواضع فى اللبس والمأكل والتزام تلاوة القرآن والخوف من عذاب الاخرة . ووجدنا فى الكوفة الزهد المنبعث من

(٣٣ ، ٣٤) حلية الاولياء ١/٨٦ .

(٣٥) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .

(٣٦) وفيات الاعيان ١/٦٨٨ (باريس ١٨٢٨) .

عذاب الآخرة ، والزهد الانى من الاحداث التى تناوبت عليها من قتل ذريع
ومن خيانة ومن نصرة للباطل ومن حسرة على العجز عن رد الظلم • وسنرى
ان الكوفة ستكون مثابة لبس الصوف فى العالم الاسلامى كله وستبين لنا ان
ذلك كان قاصرا عليها وكان تعبيراً عن معارضة سلبية ، وكان فى الكوفة اول
من تسمى صوفيا واول من قال بالولاية الصوفية ، وكانت الكوفة منبع الفتوة
الصوفية كما سيمر بنا فى نهاية هذا البحث • وبذلك تبدو اصالة الكوفة فى
ميدان الزهد كما رأينا اصالتها فى ميدان التشيع وكما اخبرنا ماسينيون
باصالتها فى الميادين الاخرى من الحياة الاجتماعية والعلمية فى القرنين الاول
والثانى •

الزهد الاسلامى فى الكوفة :

لقد كان الامام على واصحابه من صحابة الرسول (ص) الذين
نصروه والتفوا حوله يمثلون الزهد الاسلامى الاصيل وقد رأينا الامام عليا
ازهد الصحابة واعرفهم برسوم الاسلام وقد التف حوله مريدوه يأخذون
عنه ويعكسون مثلهم الاسلامية على مسلمى الكوفة • ولقد كان للامام على مثل مقام
الرسول فى تذكير الناس بان بهم حاجة الى التوبة والى اندم والى البكاء وكان
على يذكرهم بان ظروفهم التى يعيشون فيها انما هى صورة مشبهة لصورة
ظروف مكة ايام بعثة الرسول (ص) وقد كان على يقول : « الا وان بليتكم قد
عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه ، وانذى بعته بالحق لتبلبلن ببللة ولتغربلن
غربلة حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم ... » (٣٧) • وقد قال الربيع
ابن برة قولاً يشبه ان يكون استجابة لمقالة على هذه : « ان لله عبادا اخمصوا
له البطون عن مطاعم الحرام وعضوا له الجفون عن مناظر الاثام واهمنوا له
العيون لما اختلط عليهم الظلام رجاء ان يبر ذلك لهم قلوبهم اذا تضمنتم الارض

(٣٧) اصول الكافي ٩٦ •

بين اطباقتها فهم في الدنيا مكتسبون والى الآخرة متطلعون . . . وهم الذين تقرأ
أعينهم بطلعة ملك الموت عليهم» (٣٨) .

ولم تلبث احوال الكوفة وظروفها ان طغت على الزهد القائم على السلم
والاتجاه الى الله بنفس مطمئنة فاصطبغ زهد الكوفة برد فعل للاحداث التي
نزلت بساحتها فبدأ الشعور بالاثم فسمعنا الربيع بن خثيم يعلل بكاءه وارقه
لامه بقوله : «قلت قتيلا هي نفسي» (٣٩) ، فاقام لمن جاء بعده من الزهاد
والمتصوفة مقام المجاهدة ، وكان اول من قال بها ، ولاحداث الكوفة الفضل
الاول في انطاقه بهذا المعنى . وقد اندفع معضد بن يزيد العجلي - وقيلته
معروفة في الغالين - الى الصلاة وهجر النوم وكان يقول : « اللهم اشفني من
النوم باليسير » (٤٠) ، وقد ظهر من معضد بداية خطيرة صارت منهجا للزهاد
الكوفيين من بعده ، ذلك هو الخروج الى الجبان للعبادة (٤١) وذلك انعكاس
مريع للاحداث فقد يشس معضد من فائدة الاحياء فخالط الموتى وانقطع اليهم
لانهم لا يتكبرون طريق الصواب ولا يوحون بالحق ويأتون الباطل . وكان
سعيد بن جبير يخشع حين يردد هذه الاية : « فسوف يعلمون اذ الاغلال في
اعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم » (٤٢) . وقد كان هذا العذاب الديني
والاهوال التي قاساها اهل الكوفة ثم انعكست من نفوسهم زهدا وبكاء وخوفا
باعنا لهم على ملء وقتهم بالعبادة او قراءة القرآن لانهم كانوا يخشون من
الجنون اذا عاشوا كما يعيش غيرهم . بل وجدنا غيرهم ممن اعترفوا بثقل
وخز الضمير عليهم يقول : « اني لاذكر الشيء من امر الدنيا الهى به نفسى عن
ذكر الآخرة ، اخاف على عقلى » (٤٣) . وهكذا يتبين لنا مبلغ خوف الكوفيين

(٣٨) حلية الاولياء ٦/٢٩٨ .

(٣٩) صفة الصفوة ٣/٣٤ .

(٤٠) حلية الاولياء ٤/١٥٩ .

(٤١) طبقات ابن سعد ٦/١١١ .

(٤٢) حلية الاولياء ٤/٢٧٤ المؤمن ٣/٥٥ .

(٤٣) المصدر نفسه ٦/٢٤١ .

من التفكير في الحساب لانهم كانوا يدركون الحد الذي بلغوه من غضب الله فكانوا يشغلون انفسهم بالصلاة الكثيرة والصوم الكثير وقراءة القرآن والانشغال بأية مشغلة تبعد عنهم شبح العذاب الذي ينتظرهم في العالم الآخر، وكان الزهاد الكوفيون يحاولون ان يكفروا شيئاً من تلك السيئات التي قارفوها في دنياهم ويدفعوا ضريبة ما اقترفت ايديهم من خذلان الحق بعد ان نصره ، وقد حزن الندم في بعضهم حتى تمنى لو قطعت يده ولم يشترك في قتال (٤٤) . اما المذبذب الضمير الطامحون الى التكفير فقد خرج منهم قوم قاتلوا بقصد الموت كالتوابين الذين مروا بنا بعد قتل الحسين واما من قعد به الخوف من الموت عن القتال فقد كان يتمنى لو زاد الله في عذابه في النزع عند الموت ، وهذا ابراهيم النخعي المتوفى سنة ٩٥ يروى بان الزهاد « كانوا يستحبون للمريض ان يجهد عند الموت » (٤٥) وصارت هذه الفكرة راسخة في الزهد الكوفي وكان سفيان الثوري (اول زاهد التقت به الولاية الصوفية) يقول : ما من موطن من المواطن اشد على من سكرة الموت ، أخاف أن يشدد على فاسأل التخفيف فلا أجاب فافتن (٤٦) وقد اطال الزهاد التفكير في الموت فاطالوا التفكير وكان القلق يملأ نفوسهم وكانت احلامهم في الليل والنهار تطوف حول الموت والآخرة . ولم يلبث ذلك القلق ان ظهر في اخبارهم فقد « رأى رجل مرة بن شراحيل الهمداني - من زهاد الطبقة الاولى في الكوفة - في المنام بعد موته فسأله ما منزلتك في الآخرة ؟ قال : خير منزلة ،

(٤٤) حلية الاولياء ، ١٦/٥ .

(٤٥) صفة الصفوة ٤٨/٣ .

(٤٦) المصدر نفسه ٨٤/٣ .

قارن هذا بما يروى عن ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي (١٦٠-٢٣١) من أنه « كان يقول - وهو يجود بنفسه - : اللهم ان كنت تعلم اني لم اقصر في نصره توحيدك ، اللهم ولم اعتقد مذهباً الا سنده التوحيد ، ان كنت تعلم ذلك مني فاغفر ذنوبي وسهل علي سكرة الموت ! قالوا : فمات من ساعته » . (طبقات المعتزلة لابن المرتضى الزيدي ، ٧٦٤-٨٤٠/١٣٦٣-١٤٣٧ ، لبنان ١٣٨٠/١٩٦١) ص ٥٢ .

دار لا ينتقل اهلها عنها ولا يموتون» (٤٧) بل ان ربيعى بن حراش - من الطبقة الاولى - ايضا مات له اخ - وكان زاهدا ، وحيى بعد موته ، كما يزعم - فقال فى معرض وصفه للآخرة : « وانى وجدت الامر ايسر مما تحسبون » (٤٨) . ونتج شىء آخر من هذه الفتن التى كانت تؤثر فى عواطف الكوفيين فيندفعون الى الخروج ثم لا يلبث الميزان ان يختل بين المثل والارادة الضعيفة فترجح الارادة الضعيفة . وقد اورث ذلك الزهاد روحا انفرادية تأبى الاجتماع وتفر من الالفة بالناس والانس بهم فانزوى جماعة وانقطعوا فى بيوتهم ونفروا من الناس وكان قائلهم يقول : « ما كنت ارى ان احدا يستوحش مع الله » (٤٩) وهكذا بدأت فكرة الوحدة والانفراد وهى وان تكن شبيهة بفكرة النساك المنقطعين للعبادة الا ان منطلق الحوادث يجعل هذا الانفراد نابعا من ظروف الكوفة . وقد سار منصور بن المعتمر المتوفى سنة ١٣٢ فى هذا الطريق الى غايته فرأيناه يصوم ستين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها وكان فى كل ذلك يبكى (٥٠) .

وكل هذا الذى ذكرناه من الخوف والبكاء والروع التى استبادت بالكوفة واستغرقت زهادها كان منبعا من بيئة الكوفة والتقلب واهدار الملل بين لحظة واخرى ولهذا فانه ليس من المستغرب ان تختفى فكرة الحب من الكوفة مع ظهورها واضحة ناضجة فى شقيقتها البصرة ، فلم يكن للحب محل فى الكوفة غير انه انصرف الى طائفة معينة هم الائمة الذين انصرف اليهم عاطفة الكوفيين وخذلتهم ايديهم فى الاحيان التى تغلب الخور فيها عليهم غير عامدين ولا متآمرين وانما هو القلب الذى لم يعد يحتمل رهبة ولم يعد يستطيع تماسكا بعد التجويع والارهاب والنوت الزوأم . فالحب اذن قد انصرف فى الكوفة الى

(٤٧) صفة الصفوة ١٨/٣ .

(٤٨) المصدر نفسه ١٦/٣ .

(٤٩) الرسالة القشيرية ٦٧ .

(٥٠) حلية الاولياء ٤٠/٥ .

الاشخاص ولم يتسام الى المثل الاعلى الذى هو الله كما كان الامر فى
البصرة ، ولعل ذلك يقطع بشيعة زهد الكوفة لان الحب عندهم كان مايزال
ماديا موجها الى اشخاص باعيانهم اما الخوف فهو الذى كان يدور حول الله
فى الكوفة •

الصوف :

لقد ظهر فى الكوفة نوع من الزهد يتمثل فى البساطة فى اللباس لم يكن
ظاهرا فيها قبل نهاية القرن الاول ولكننا رأينا يطفى عليها فى اواخر القرن
الاول واوائل القرن الثانى حتى صار شعارا للزهاد اولاً ثم اطلق على الزهد
نفسه فصار له اصطلاحا وذلك هو الصوف الذى اشتق منه التصوف • واذا
استطنا ان ثبت انفراد الكوفة بالصوف بعد اثباتنا لشيعة الزهد فيها كان ذلك
برهانا جديدا على ان التشيع مصدر الزهد الكوفى الذى يدخل تحته الزهد
الاسلامى المعاصر له ثم التصوف •

يكاد الباحثون يجمعون على ان اتخاذ الصوف لباسا انما كان « لان
الزهاد المسلمين وعبادهم حاكوا نساك النصارى ورهبانهم فارتدوا الصوف
الصوف الخشن» كما يقول جولدم تسيهر الذى يؤرخ بداية هذه العادة فى
ايام عبدالملك بن مروان الذى حكم بين ٦٥-٨٦ / ٦٨٤-٧٠٥^(٥١) ، وكذلك
يروى نيكلسون ولكنه يبين بان بداية لباس الصوف الخشن كانت قبل
الاسلام^(٥٢) ، ويروى الدكتور قاسم غنى ذلك ايضا ولكنه يحدد ظهور
لبس الصوف اى جبة يضاء منه باواخر القرن الثانى واوائل القرن الثالث
ويذكر ان هذا النوع من اللباس كان النبى يفضله^(٥٣) ويؤيد ذلك ما يورده
الكلاباذى من ان لباس اهل الصفة الصوف حتى ان بعضهم كان يعرق فيوجد

(٥١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٣٦ •

(٥٢) فى التصوف الاسلامى ٤٨ •

(٥٣) تاريخ تصوف در اسلام ٤٣ •

منه ريح الضأن اذا اصابه المطر^(٥٤) . فنحن في حيرة متى بدأ لبس الصوف وهل كان تقليدا للرهبان المسيحيين حقا وهم الذين يكاد الباحثون يجمعون على اخذ الزهاد لباسهم المتميز عنهم؟ اذا رجعنا الى كتب التصوف وجدنا ابا طالب المكي يقول : « كان عيسى ويحيى بن زكريا يلبسان الصوف »^(٥٥) ويروى السراج ان « لبس الصوف كان دأب الانبياء والصدّيقين وشعار المساكين المتسكين »^(٥٦) فإوحى لنا بأنه لباس الرهبان ايضا . ويذكر ابن سعد ان النبي لم يطلق لبس الحرير لاحد من الرجال الا لعبدالرحمن ابن عوف وذلك لانه كان رجلا قملا او مصابا بمرض جلدي^(٥٧) وذلك لايشير الى ان الصوف كان سائدا ، فليس كل ما يلبس من غير الحرير صوفا ولكنه يوحى بأنه كان موجودا وملبوسا ايام النبي مادام اصحاب الصفة مرتدين له . والواقع ان لبس الصوف من حيث هو قماش خشن لايدل على اصل معين نقل عنه وانما يتطلب الامر البحث عن اصله اذا اتخذ لباسا في الصيف والشتاء معا . لقد اخبرنا ابن الجوزي ان القراء في الكوفة وكذلك الفتيان كان لهم لباس مخصوص^(٥٨) في القرن الاول فلا بد ان كان للزهاد لباس خاص وهو الصوف ، ويجب علينا هنا ان نغفل البحث عن الوقت الذي بدأ فيه لبس الصوف بالتحديد لان ذلك لا يؤدي بنا الى نتيجة ، ولبس اويس القرني للصوف^(٥٩) وهو المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧-٥٨ لا يدل على امر عرفي وانما هو - اذا صح - تصرف فردي ، والنزعة الفردية لا تقوم اساسا للمجتمع . واذا استحضرنا في الذهن ان

(٥٤) التعرف لمذهب اهل التصوف ٦

(٥٥) قوت القلوب ٣/١٩٢ .

(٥٦) اللمع ٤٣ .

(٥٧) طبقات ابن سعد ٣ : ٦٢/١ ، وعن منع لبس الحرير للرجال انظر

مثلا « من لا يحضره الفقيه » ، طهران ١٣٧٦ ، ص ٤٦٧ ومما يذكر هنا

ان ابن سعد قد نص على انه « كان المسلمون يلبسون الحرير في

الحرب » الطبقات ٣ : ٦٢/١ .

(٥٨) صفة الصفوة ٣/٤٧ .

(٥٩) طرائق الحقائق ٢/٢٢ .

الزهد هرب من الاحداث الجارية في الكوفة وانها مازالت حتى الان اعنى مركز للمعارضة بالسيف كما فعل الخوارج ، واللسان والعقيدة كما فعل الشيعة والمعارضة السلبية التي تنبعث عن زهد الزهاد وكف ايديهم عن نصرة الدولة الاموية ثم العباسية او تشجيع العلويين على الخروج ثم النكوص على الاعقاب حين تلمع السيوف او ترن الدراهم والدنانير ، فعلينا الان ان نقرأ هذا الخبر فى شىء من انعام النظر • قال المسعودى فى اخبار سليمان بن عبدالمك الذى ولى الخلافة سنة ٧١٤/٩٦-١٥ أى بعد موت الحجاج الذى فعل الافاعيل فى الكوفة « وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى ، وفى ايامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لايدخل عليه رجل من اهل بيته الا فى الوشى وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلسه وعلى المنبر ، وكان لايدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى وعلى رأسه طويلة وشى ، وامر ان يكفن فى الوشى المثقلة » (٦٠) ، وكذلك فعل هشام بن عبدالمك الذى حكم من سنة ٧٢٣/١٠٥ الى سنة ٧٤٣/١٢٥ «فسلك الناس جميعا فى ايامه مذهبه» (٦١) وبذلك وجدنا لبس الحرير سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاؤها • واذا عرفنا انه لم يرد لبس الصوف ذكر فى الشام ولا فى مصر التي يسميها مترز « مهد الرهبة » (٦٢) مع ان اول من تسمى صوفيا فيها كان ابا عبدالله الصوفى النائر الاندلسى بالاسكندرية سنة ١٩٩/٨١٤-١٥ ولم يرد عنه لبس الصوف وان كان هذا التاريخ متأخرا لاينفى ولا يثبت شيئا ، يدل على انتشار لبس الصوف حتى على فرض اتصاله بالرهبة

(٦٠) مروج الذهب ٢/١٦٢ •

(٦١) مروج الذهب ٢/١٦٢ •

(٦٢) صفة الصفوة ٤/١٧٣ •

(٦٣) تاريخ اليعقوبى ٣/١٤ •

لم يتحقق الا فى الكوفة معاصرا لحركة نشر انترف الظاهرى مما رأينا فى
 خبر المسعودى • ومادامت دمشق والشام - وكان فيها زهد متميز يختلف
 عن زهد الكوفة كما سنرى - لم يلبس زهادها الصوف وهم فى قلب المسيحية
 الشرقية آنئذ فلا ندرى كيف يكون الصوف مرتبنا ارتباطا مباشرا بالرهبة •
 بل لقد كان للزهاد فى الشام اسم مستقل ينم عن جوهر الزهد عندهم ويذكر
 الكلاباذى انهم كانوا يسمون جوعية (٦٤) وسنرى فى تعرضنا لزهد البصرة
 ان الزهاد فيها لم يهتموا بالصوف وان من لبسه منهم انما كان متأثرا بزهد
 الكوفة • ونعود الى الكوفة فنجد انها قد اتيح لها موضوع للمعارضة لا يستطيع
 احد ان يؤاخذها عليه ، وكان هذا الوشى الذى فضله هشام وسليمان يصنع
 فى الكوفة ولعلها كانت من خير المراكز التى يصنع فيها ، والكوفة مشهورة
 حتى الان ، فانقلب الزهاد الذين كانت معارضتهم خفية سلبية تمثل فى العزلة
 الى الصوف المضاد للحرير يلبسونه ويقبلون عليه وصار لباسا خاصا بهم كما
 كان للقراء والفقهاء لباسهم الخاص • ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة انه قد روى
 عن سفیان الثورى لومه الامام جعفر الصادق على لبسه جبة من الخز - وكانت
 بداية امامته فى ايام هشام - فاراه الامام ثوبا من شعر خشن تحت الجبة •
 ويحدثنا الشعرانى والعطار وابو نعيم ان سفیان قد كان يلبس جبة
 من الصوف (٦٥) ، ولعل هذا الخبر ينفى ما يروى عن سفیان انه اعتبر لبس
 الصوف بدعة (٦٦) • واذا عرفنا ان الربيع بن ابى راشد المعاصر لسفیان
 الثورى كان يرى السياحة بدعة (٦٧) وان سفیان الثورى كان سائحا مشهورا
 يلام على سياحته كما اورد ابى نعيم انه قيل لسفیان « ان للناس مأوى تأوى

(٦٤) التعرف ٥

(٦٥) طبقات الشعرانى ٢٨/١ ، التذكرة ٩/١ ، الحلية ٩٣/٣

(٦٦) تلبیس ابليس ٢٠٩

(٦٧) حلية الاولياء ٧٧/٥

اليه وللسبع مأوى ومالك مأوى تأوى اليه » وانه كان ينسب الى العجب (٦٨)
عرفنا مدى هذا الخبر من الصواب *

وبذلك يتبين لنا ان الكوفة هي مركز اتخاذ الصوف شعارا للزهاد وان الكوفيين قد تأثروا مندفعين مع موجة الزهد الذي اتخذ معارضته للامويين من لباسه - اقتداء بمن لبس الصوف قبلهم من الزهاد او الرهبان * لكن يجب ان نتنبه الى حقيقة مهمة وهي ان لبس الصوف لم يكن آتيا من تأثر بالمسيحية من حيث هي دين بل من تقليد قوم منهجهم في الحياة مثبته لمنهج الزهاد الكوفيين الذين ارادوا ان يظهروا معارضتهم للامويين بلبس لباس مضاة لما أمر به الخليفة الاموي ، وتأتي فكرة التأثر بالرهبة المسيحية في الدرجة الثانية * ولو كان قوم غير الرهبان يتخذون الصوف لباسا لآخذ الكوفيون عنهم لباسهم تحقيقا لمعارضتهم التي تعلقوا بها * وبذلك يتبين ان لبس الصوف بالذات لم يكن تحريا لتقليد الرهبان وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الاموي لبث الارفاة في اللباس في مجتمعهم * واذا عرفنا ان الضرائب والرسوم كانت تجبي من العراق ومن فارس التي فتحت بجهد العراقيين ، وان الحرير نفسه - بالاضافة الى نبات فارس - كانا يشكلان الاسلاب والغنائم التي كان الحجاج يبعث بها الى الشام (٦٩) ، وان عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ١٠١ كتب الى عامله في الكوفة ان « اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عما السوء » (٧٠) ادركنا لماذا صارت الكوفة بعد ضعفها وخورها مر كرا لاتخاذ الصوف لباسا * واذا تبين لنا ان نيكلسون حائر في اصل التصوف ونشأته وانه يرى ان التابع الزمني في تطور الفكرة

(٦٨) حلية الاولياء ٦/٣٧٤ *

(٦٩) راجع ديوان الاخطل ، بيروت ١٨٩١-٢ ، ص ٧٤ *

(٧٠) ابن الاثير ٥/٢٣ *

الصوفية لم يضطلع بدراسته احد^(٧١) ادركنا الى اى حد يظلم الباحثون
التصوف بالاحكام القطعية فيما لايحتمل احكاما قطعية .

ويحسن بنا فى ختام هذه السطور ، ان نشير الى ان الصوف لم يكن
مادة يهتم بها العرب وانما كان شيئا مهملا لم يهتم به أحد . ولعل العرب لم
يلبسوا ثيابا منسوجة منه حتى فى الشتاء . وقد ذكر الجاحظ ان اهل البصرة
كانوا يلبسون القمص فى الحر والمبطنات فى البرد^(٧٢) ، وورد فى نشوار
المحاضرة أنهم كانوا يلبسون المحشو^(٧٣) ، وهو لباس من القطن يحشى
داخله ليقى من البرد ، أو كانوا يلبسون الفرو كما كان داود الطائي يفعل^(٧٤) .
ومما يلاحظ انه حتى اللغويون - الذى دأبوا على جمع كل المعانى والالفاظ -
لم يثبتوا للصوف وللنسيج المعمول منه اى اسم او نعت او قماش على كثرة ما
أوردوا من اسماء النسيج من الخز والقز والحريير والقطن والكتان ، وعلى
عديد ما اورده من اسماء رقيق الثياب وكثيفها و مزأبرها ومخططها وموشاها
الافى الاكسية التى تلبس فوق الثياب ، وكل هذا يوحى بأن لبس الصوف كان
تقليدا غير عربى وبأن الاقبال على اتخاذه لباسا انما كان أمرا جديدا على
العالم العربى الاسلامى اخذوه عن غيرهم لتطبيق خطة معينة ، وأن ما اوجب
لبسه لم يكن الحاجة اليه بوصفه نسيجا يقى من البرد وانما كان لتحقيق مطلب
ملح . ونظرة الى المخصص لابن سيدة^(٧٥) (المتوفى سنة ٤٥٨) توضح هذه
الحقيقة ، فخلو هذا الكتاب الذى أنف فى منتصف القرن الخامس ، وفى
وقت كان التصوف فيه يملأ العالم الاسلامى ، يدل على اهمال الناس والتجار

(٧١) فى التصوف الاسلامى ١٢ .

(٧٢) معجم البلدان ٢/٢٠٢ .

(٧٣) نشوار المحاضرة ، الجزء الثامن ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ،
المجلد العاشر ، ص ١٤٨ .

(٧٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ .

(٧٥) المخصص ، مصر ١٣١٦ ، كتاب اللباس ، وخصوصا ٣/٦٣-٨١ .

هذه الصناعة ويدل من ثمة على انه كان لباس الزهاد وبالتالي المتصوفة
المتلبسين بالفقر المتزمين لمظهره .

اول من تسمى صوفيا :

يؤدى بنا البحث فى لبس الصوف الى قضية بدأت فى الكوفة ، وذلك ان
اول من تسمى بالصوفى كان كوفيا ولعل ذلك دليل اخر على ما سقناه من علة
اختيار الزهاد الصوف لباسا لهم . والباحثون مختلفون فى من هو اول من
تسمى بالصوفى وتطور اخبارهم فى هذا الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين
هم جابر بن حيان وابو هاشم الكوفى وعبدك الصوفى ويجب ان نعرض لكل
منهم بالبحث لعرف حقيقة ما يدور حول كل منهم .

جابر بن حيان :

هو - كما مر بنا تلميذ الامام جعفر الصادق - او عبده (٧٦) - وكان
يلقب بالصوفى وقد اورد عنه ابن النديم انه « المعروف بالصوفى » (٧٧) ،
واورد كذلك ان الناس مختلفون فى امره ، فالشيعة تزعم انه منهم بل من
كبارهم واحد الابواب ، والفلاسفة يرونه منهم لان له مصنفات فى الفلسفة ،
وادعى اهل صناعة الذهب انه منهم ايضا ، وقيل انه كان من جملة رجال
البرامكة وانه كان منقطعا الى جعفر البرمكى بدل جعفر الصادق ، وقيل فى
النهاية : « ان هذا الرجل لا اصل له ولا حقيقة » (٧٨) ، ولكن ابن النديم
يرفض هذه النظرية ويدل على وجود جابر بن حيان بان « امره اظهر
واشهر وتصنيفاته اعظم واكبر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة » (٧٩)
ويضيف الى ذلك ان اصله من خراسان فيضعه بذلك بازا ابراهيم بن ادهم

(٧٦) خلاصة الاثر ٢١٣/١ .

(٧٧) الفهرست ٤٩٨ .

(٧٨) المصدر نفسه ٤٩٩ .

(٧٩) المصدر نفسه ٥٠٠ .

الذى عاصره وعاش فى الشام • ثم ينقل ابن النديم نسا يعتبره قاطعا فى حقيقة وجود جابر ، وذلك ان الرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة : قال استاذنا ابو موسى جابر بن حيان «^(٨٠) بل يذكر ابن النديم لجابر طلابا اخذوا عنه كالحرقى^(٨١) (الذى تنسب اليه سكة الخرقى بالمدينة) وابن عياض المصرى (الفضيل) (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) والاخيمى^(٨٢) وقد لاحظ فيلب حتى صلة جابر بالصادق وذكر انه اطلق عليه اسم الصوفى ورأى انه ادعى مذهبا خاصا فى الزهد^(٨٢) • ويرد فى اخبار الحكماء ان جابر بن حيان كان « مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ومتقلدا للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من اهل الاسلام كالحارث المحاسبى وسهل بن عبدالله التستري ونظرائهم »^(٨٣) • ويذكر ابن ابى اصيعة كتب جابر دون مناقشة ويؤرخ وفاته بسنة ٢٠٨^(٨٤) اى بعد وفاة جعفر الصادق بستين سنة وذلك امر قابل للشك على كل حال • ومهما يكن من شىء فقد رأينا خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٧٠٢/٨٥ مصيبا لعلم الكيمياء وانه قد استقدم من مصر كيميائين ترجموا له الكتب اليونانية والقبطية • اما الشيعة فلا يجدون ضيرا فى الحاق جابر بالصادق لان ذلك لا يمس عقيدتهم فى شىء وهم الى ذلك قد وافقوا على ان جعفرا الصادق كان له بصر بالكيمياء لانه جمع كل العلوم بوصفه اماما معصوما محيطا بكل شىء علما • ويشكو الخوانسارى من انه لم يجد لجابر ترجمة خاصة فى شىء من فهارس رجال الفريقين^(٨٥) وينقل نسا عن كتاب غاية الحكيم للمجربى يتضمن هذه العبارة : « واما البارع فى هذه الصناعة على الاطلاق (علوم الطلسمات) فهو المقدم فيها الشيخ الاجل ابو موسى جابر بن حيان الصوفى منشىء كتاب

• ٨٠ ، ٨١) الفهرست ٤٩٩
 • ٨٢) تاريخ العرب ٢/٢٢
 • ٨٣) اخبار الحكماء ١١١
 • ٨٤) طبقات الاطباء ٢٠٣
 • ٨٥) روضات الجنات ١٥٤

ومهما يكن من امر فان كتب الشيعة القديمة لم تورد اسم جابر بن حيان في سلسلة سند أى حديث ينسب الى جعفر الصادق ثم ان صلة جابر بالتصوف اسمية لانه لم يكن صاحب مجاهدة او خوف او ناطقا بأقوال زهدية وانما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء ونقلت عنه كذلك مشارب اسماعيلية في مجموعة الرسائل المنسوبة اليه التي اخرجها بول كراوس . وقد التفت السيد هبة الدين الشهرستاني - من مجتهدى الشيعة المعاصرين - الى هذه النقطة فروى لنا عن استاذة شيخ الشريعة الاصفهاني ان تسمية جابر بن حيان بالصوفي ليست منسوبة الى الصوف وانما النسبة الى سوفيا اليونانية بمعنى الحكمة فقول : صوفى ثم اشبع العرب السين فصارت (صوفى وصوفية) وقال : واول هؤلاء المسلمين جابر بن حيان المشهور بالصوفى ، ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملا لاي مبدأ من مبادئ الطريقة الصوفية^(٨٧) فيبدو من رأى الشهرستاني ان الصوفى هو المتقلد للحكمة اليونانية وعلومها ويرى ان هذا الوصف لم يستقر على الاساس الاصطلاحي الا فيما بعد^(٨٨) والواقع ان هذا الرأى قد تعرض له البيروني في كتاب (بيان ما للهند من مقولة ، لندن ١٨٨٧ ، ص ١٥) وتبناه فون هامر غير ان تولد كذا قد أثبت خطأ هذه النسبة (انظر في التصوف الاسلامى لنيكلسون وترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى ص ٦٦-٦٧ ، والصوفية فى الاسلام للمؤلف نفسه وترجمة نور الدين شريعة ص ٢-٤) .

اما بعد فان جابر بن حيان - ان صح وجوده - كان رجلا منزويا كزملائه الزهاد ولكنه صرف هذا الانزواء الى الاشتغال بالكيمياء والحكمة اليونانية وذلك يحمل على الحيرة حقا فى بيئة مثل بيئة الكوفة التى شغلت بالحديث والرواية والزهد . وكون جابر خراسانيا كما اخبرنا ابن النديم

(٨٦) روضات الجنات ١٥٤ .

فى كتاب غاية الحكيم الجريطي (المتوفى سنة ٣٩٥) ، تحقيق ريتز ، طبع المانية ١٩٣٣ ، صفحة ١٤٦ « ٠٠٠ وأما البارغ فى هذه الصناعة على الاطلاق فهو المقدم فيها ابو موسى جابر بن حيان الصوفى ٠٠٠ منشئ كتاب البحث فى صنعة الطلسمات » .

(٨٧ ، ٨٨) املاء للسيد الشهرستاني .

ابعث على الحيرة اذا قرنا به الاشتغال بالكيمياء لان الخراسانيين لم يعرف عنهم ذلك وانما كان جهدهم منصرفا الى البحث فى العلم الظاهر والباطن والدعوة للسرية . ولهذا فان كون جابر بن حيان اول من اطلق عليه لفظ صوفى فى الاسلام يصطدم بعقتين : الاولى انه لم يكن زاهدا بالمعنى المفهوم من الزهد المتأثر بالبيئة المتجهة الى البعد عن المشاركة فى الاحداث والاعراض عن المادة التى سببت فساد الضمير اولا واستيقاظه من بعد ذلك ، يضاف الى ذلك اننا لم نسمع عنه كونه من البكائين او العباد المتسكين . والعقبة الاخرى هى الشك فى وجوده وخلو كتب الرجال الشيعية والصوفية من ذكره باعتباره حلقة فى سلسلة سند او ملاقيا لشخص يروى عنه رؤية وعيانا . وما نرجحه نحن ان جابر بن حيان كان شخصية اسطورية ، فلقب «صوفى» لم يطلق على ممارسى هذه العلوم المأخوذة عن اليونان الا فى القرن الرابع حين وجدنا منجما يدعى بالصوفى^(٨٩) . ثم ان جابر بن حيان، فى روايته للعلوم عن جعفر الصادق ، كان على مثال افلاطون الذى روى انتاج سقراط ، وكان هذا الاخذ عن اليونانيين وانتشاره متأخرين عن التاريخ الذى حدد لوفاة جابر .

ولهذا فان علينا ان نبحت عن رجل اخر يمكن ان تدور حوله كلمة صوفى وان كان ذلك كله لا يقدر فى احتمال كونه اول من دارت حوله .

ابو هاشم الكوفى :

وكان كوفى اخر يوصف بهذا الوصف ذلك هو ابو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى ، وقد ذكر الجامى انه كان فى الشام وهو كوفى الاصل وكان معاصرا لسفيان الثورى ، ويذكر ان هذا قال فيه : « لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء »^(٩٠) ويذكر انه بنى اول خانقاه للصوفية فى

(٨٩) هو ابو بكر عبدالرحمن بن عمر الصوفى (توفى سنة ٣٧٦) صاحب «صور الكواكب» المطبوع فى حيدر اباد وفى المتحف البريطانى بلندن

نسخة منه مخطوطة تحت رقم 7488 Add. *

(٩٠) نفعات الانس ٣٦ .

الرملة • ويورد محمد كرد علي ان اول من تسمى بالصوفي من أهل السنة ابو هاشم الكوفي سنة ٧٦٧/١٥٠ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ^(٩١) • ويعمل الحاج معصوم على تسميته بالصوفي بانه كان يابس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ويرى انه كان يقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى غير ان النصارى اضافوا الحلود والاتحاد الى عيسى(ع) وازافهما هو الى نفسه وكان مترددا بين هاتين الدعويين ، ولم يعلم على ايهما استقر في النهاية^(٩٢) • وينقل عن كتاب اصول الديانات انه كان امويا وجبريا في الظاهر وباطنيا ودهريا في الباطن وكان مراده من وضع هذا المذهب ان يثير الاضطراب في الاسلام • وينقل ان صاحب اصول الديانات يرى انه ورد عنه احاديث كثيرة في الطعن على الائمة المعصومين ويرى « انما سماه المشايخ بالصوفي بقطع النظر عن لبسه الصوف او عدمه وقد نسبوه الى الهاشمية وابى الهاشمية والعمانية والشريكية مرة بالاسم وطورا بالكنية وتارة باسم ابيه »^(٩٣) •

وهذا الاضطراب في أمر ابي هاشم اذا نخل يبقى منه انه كان زاهدا كوفيا ويبدو انه كان من الموالي ايضا لان احدا لم يذكر عربيته ولم يذكر اسم قبيلته ، وانه لم يطق البقاء في الكوفة الشيعية فانتقل الى الشام • ومادام قد توفي هناك في سنة ٧٦٧/١٥٠ - وكان سقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢/٧٤٩-٥٠ - فلا بد انه انتقل اليها قبل سقوط دولتها • ولكنها كانت مضطربا للحروب بين مروان بن محمد وخصومه من الامويين والعباسيين والشيعية • أو لعله هجر الكوفة قبل ذلك بعد ثورة زيد سنة ١٢١/٧٣٩ او ثورة عبدالله بن معاوية سنة ١٢٦/٧٤٣-٤٤ وكل هذه الافتراضات تزيد الامر اضطرابا ، ثم نجد

(٩١) الاسلام والحضارة العربية ٣١/٢ •

(٩٢ ، ٩٣) طرائق الحقائق ١٠١/١ •

صوفيا لانه يلبس الصوف فى رأى الحاج معصوم على ونجده لا يلبسه فى رأى صاحب اصول الديانات واما سمي بالصوفى على وجه تسمية جابر بن حيان به ، ثم اذا به شيعيا غالبا - مادام يؤمن بالحلول - ثم دعا به الى نفسه فى الشام ، وذلك امر لا يصدق • ثم ان قول سفيان الثورى : لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق لرياء ، يوحى بانه لم يلبس الصوف الذى كان يدل على الزهاد فى الكوفة وكون الرجل ناهيا عن الرياء يعنى البعد عن التظاهر بالزهد اى البعد عن لبس الصوف الذى هو مظهر الزهد الخارجى • ومهما يكن الامر فان من الواضح ان المراد باسباغ وصف الصوفى على أبى هاشم هو ان يكون بالكوفة صوفى شيعى وبالشام صوفى اموى - ولعل ذلك مراد الاستاذ كرد على - كما يبدو من معاصرة ابى هاشم لجابر بن حيان الذى اعتبر تلميذا لامام الشيعة جعفر الصادق • وكلا الصوفيين على كل حال كوفى ، ولعل امر المعارضة قد نسي الان بعد ان زالت دولة الامويين فى هذا الوقت وبقي منه الدلالة على الزهد فقط •

ويظهر من كل ما دار حول ابى هاشم ان اخباره كانت قليلة وهى فى اضطرابها تعدل الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او يزيد ، ولكن ابا هاشم على كل حال كان معاصرا لجعفر الصادق ايضا اى معاصرا لجابر بن حيان • ويسميه الشيعة مخترع الصوفية^(٩٤) وينقلون عن الصادق أنه قال فيه : «انه فاسد العقيدة جدا وهو ابتدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة»^(٩٥) • كل ذلك لينفوا ان يكون التصوف من اختراع شيعى وذلك امر يدل على محاولة التنصل من مسؤولية لم تمحص نتائجها ولا اغراضها • ولعل ابا هاشم الصوفى - بعد - هو خالد بن يزيد بن معاوية

(٩٤) طرائق الحقائق ١٠١/١

(٩٥) الرسالة الاثنا عشرية فى رد انصوفية لمحمد بن الحسن بن الحر العاملى ورقة ١٩ ب •

الذي مارس صناعة الكيمياء ، وكان يكنى بابي هاشم ايضا () ،
ولعله سمي بالصوفي أو الكوفي على أساس
اشتهار الكوفة بتلك الصناعة من قديم ، وقد مر بنا ذلك في فصل جعفر
الصادق •

عبدك الصوفي :

اما الزاهد الكوفي الثالث الذي سمي بالصوفي فهو عبدك الذي يذكر
الدكتور قاسم غني نقلا عن ماسينيون انه كان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية
صوفية تأسست في الكوفة وظهرت كلمة «صوفية» في آثار المحاسبي والجاحظ
اسما لها ، وان عبدك هذا كان رجلا منزويا زاهدا توفي في بغداد في حدود
سنة ٢١٠/٨٢٥-٢٦ (٩٦) • وقد ذكر ماسينيون ان عبدك هو اول من اطلق
عليه اسم الصوفي وكان يطلق في ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من
الشيعة وعلى مجموعة من الثائرين في الاسكندرية (٩٧) وينقل ماسينيون عن
الحمداني ان اول من سمي ببغداد (لا الكوفة) بهذا الاسم عبدك الصوفي
وهو من كبار المشايخ وقدمائهم وكان قبل بشر بن الحارث الحافي والسري
بن المغلس السقطي (٩٨) ويخبرنا الملطي ان عبدك كان رأس فرقة من الزنادقة
الذين « زعموا ان الدنيا كلها حرام محرّم لا يحل الاخذ منها الا القوت من
حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا الا بامام عادل والا فهي حرام » (٩٩) •
وذكر المقدسي ان اسم عبدك هو عبدالكريم ، وأن حفيده محمد بن علي
ابن عبدك الشيعي كان مقدم الشيعة (١٠٠) • وهكذا يبدو عبدك جامعا لاتجاهات
عديدة مختلفة تابعة من التشيع الممتزج بالزهد المتأثر بظروف الكوفة التي
انتقل منها كثير من سكانها الى بغداد بعد ان صارت عاصمة للدولة الجديدة •

(٩٦) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ •

(٩٧) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١٠-١١ •

(٩٨ ، ٩٩) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١١ •

(١٠٠) كتاب الانساب لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (متوفى سنة

٥٠٧) ليدين ١٨٦٥ ، مادة عبدك •

والمهم في شأن عبدك انه اول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغداد ، ويبين لنا الدكتور قاسم غنى ان « كلمة صوفى - على هذا الاساس - شاعت في الكوفة اولا ، ثم نقيت اهتماما كبيرا بعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، ويضاف الى ذلك ان المقصود بهذا التاريخ ان المتصوفة كانت تجمع تحت لوائها عارفي العراق وتقابلها كلمة ملائمة التي تطلق على عارفي خراسان . وقد زال هذا الفرق منذ القرن الرابع وصار يقصد بالصوفية كل عارفي المسلمين » (١٠٠٠) .

اما بعد فان نتيجة هذا كله ان كلمة (صوفى) التي قطع الباحثون المحدثون بصدورها عن الصوف قد صارت كذلك لان الصوف قد عمّ زهاد الكوفة نفسها حيث ظهرت هذه الكلمة اولا ، وقد اشتق التصوف من الصوف . وقد رأينا ان لبس الصوف قد نبع من بيئة الكوفة التي عرف تمسكها بالتشيع ومعارضتها وحربها بالسيف او بالقول او بالقلب لمن نكل بالائمة العلويين ، وذلك - اذا صح - يقطع بان التصوف في اصوله الاولى كان متصلا بالتشيع ، وسرى ان هذه البذور الزهدية التي صبت في التصوف فيما بعد ستضاف اليها بذور اخرى مختلفة الالوان من البصرة والشام وخراسان ليستكمل التصوف ملامحه بعد انتقاله الى بغداد ونضجه فيها .

انتظام الزهد في الكوفة :

فاذا عدنا الى الكوفة من جديد وجدنا الزهد قد انتظم قليلا وكون له مدرسة بسيطة لها رئيس هو سفيان الثوري ، الذي ولد سنة ٧٦٥-١٦ في خلافة سليمان بن عبد الملك الذي اشاع في الناس لبس الخبز وحضهم عليه . وقد بدأ سفيان الثوري دور جديد هو الهدوء الذي سيتأدى الى الزهد الهادئ والصمت بعد البكاء والاتجاه الى التفكير بدل الهرب منه . وقد كان احد زملاء سفيان يقول له : ارى الناس يقولون سفيان الثوري وانت تام الليل ،

(١٠٠٠) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .

فقال : « اسكت ملاك هذا الامر التقوى » (١٠١) ولكنه مع ذلك كان زاهدا في لباسه الى اقصى حد ، وقد رآه على بن ثابت في طريق مكة فقال : « قومت كل شيء عليه حتى نعليه درهما واربعة دوانيق » (١٠٢) . وتبدأ بساطة المجاهدة عند سفیان الثوري ايضا ، ولكنها مازالت لاصقة بالليل حين تخطر الاشباح في الكوفة مدينة المعاصي والعذاب والموت وكان سفیان يقول لمن سأله أخبرنا كيف تصنع انت في الليل؟ : « لها عندي اول الليل نومة ، تام ما شاءت لا امنعها ، فاذا استيقظت فلا اقبلها » (١٠٣) وقد ظهر من سفیان اتجاه زهدي جديد يسد عليه الفراغ الذي يملأ حياة الزاهد بالاشباح والخوف ، فانقطع الى العلم انقطاعا تاما علله لنا بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢ « بان طلب العلم انما يدل على الهرب من الدنيا ليس على جها » (١٠٤) ، وذلك يذكرنا بجعفر الصادق وابيه محمد الباقر اللذين انقطعا الى العلم بعد ان قتل اباؤهم وابناء عمومتهم ورأوا الراحة من هذا العناء باطراح الطموح المادى وتركيز الهم والجهد في العلم وطلبه وتلك خدمة تسدى الى الاسلام دين جدهم . وقد ظهر لسفیان امر - بعد ان علم اشياء كان يجهلها - فزاد حزنه وكثر ندمه على هذا العلم الغزير الذي فتح عينيه على الحقيقة المؤلمة ، فقد كان يقول : « لو لم اعلم لكان اقل لحزني » (١٠٥) ، وهذا هو الفرق بين الامام الشيعي الذي تزيد طمأنينته وصفاء نفسه كلما توغل في العلم وبين غيره من امثال سفیان الثوري الذي فسر طلبه للعلم بقوله : « ليس طلب الحديث من عدة الموت ، لكنه عدة يتشاغل بها الرجل » (١٠٦) وزاده وضوحا بقوله : « ان

(١٠١) صفة الصفوة ٣/٨٣ .

(١٠٢) ، (١٠٣) المصدر نفسه ٣/٨٥ .

(١٠٤) حلية الاولياء ٨/٣٤٧ .

(١٠٥) صفة الصفوة ٣/٨٣ .

(١٠٦) حلية الاولياء ٦/٢٦٤ .

هذا الحديث عز ، من اراد الدنيا فدنيا ومن اراد الآخرة فأخرة» (١٠٧) وقد كان سفيان يتنقل في البلدان كثيرا ولا يقيم في بلد بعينه ولذلك صلة - كما يبدو من ثقافته الواسعة - بالسياحة المسيحية فكان لا يستقر في بلد بعينه مع علمه بان ما يفعله بدعة صريحة وقد كان معاصره الربيع بن ابي راشد يقول : « لولا ان تكون بدعة لسحت او همت في الجبال » (١٠٨) ، وقد علل سفيان الثوري سياحته تعليلا غريبا ووصل ذلك باستجلاب صفاء الفكر وتصوير النعيم الاخرى بعد ان ليم في ذلك فروى انه « افتحم على اهل الجنة نور في قباهم كاد ان يخطف نوره ابصار القوم ، فاذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها (يقصد نفسه) ، فما كنت ادع هذا الخير ابدا لقولك » (١٠٩) . وقد كانت سياحته سياحة عزلة المطلوب منها التفرغ الى التأمل والتفكر لان رأيه كان منصرفا الى ان « من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راثاهم ومن راثاهم وقم فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا » (١١٠) ، وذلك ترديد لمقالة جعفر الصادق التي يرويها سفيان نفسه عنه انه قال : « عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها ، فان تكن في شيء فيوشك ان تكون في الخمول » (١١١) .

وقد اعترف اهل البصرة لسفيان بالفضل والعلم (١١٢) وكان انتقل اليها في آخريات ايامه (من سنة ١٥٥/٧٧٣) الى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) ، وصار للزهاد شيئا وصاروا له مرادين الى حد ان ابراهيم بن ادهم نفسه قد اعترف بولايته وامامته على الزهاد جميعا حتى انه رجا سفيان الا يقف عند الصخرة بعد ادائه الصلاة في صحن المسجد الاقصى لئلا يراه الناس - ولعل

(١٠٧) حلية الاولياء ٦/٣٦٦ .

(١٠٨) المصدر نفسه ٥/٧٧ .

(١٠٩) حلية الاولياء ٦/٣٧٤ .

(١١٠) قوت القلوب .

(١١١) صفة الصفوة ٢/٩٦ .

(١١٢) حلية الاولياء ٦/٢٦٠ .

ابراهيم يعنى الزهاد - فتكون سنة لهم (١١٣) . والغريب ان سفيان قد وافق ابراهيم على ذلك ولم يعترض عليه . ويتوثق ذلك بان سفيان كان يحضر موت الزهاد - بوصفه شيخا لهم - ويخفف عنهم (١١٤) ، بل يبدو انه كان يجمع اموالا ينفقها على الزهاد مما يروى عنه من قوله : « ما بقى احد يدفع به عن اهل الكوفة الا ابن سوقة (محمد) (١١٥) ، كان عنده عشرون ومائة الف (درهم) فقدمها (١١٥) وقد كان سفيان يرمى بالعجب (١١٦) وطلب الشهرة كما اتهم المتصوفة بعدئذ .

وقد جمع سفيان الى مشيخته للزهاد وولايته احترام اصحاب الحديث وحامليه وكان لهم شيخا الى حد ان الشعرائى يروى انه سمي بامير المؤمنين فى الحديث (١١٧) ، ولا عبرة بتحديد الامارة بالحديث فقط فان سفيان الثورى الذى نشأ فى بيته الغلاة والمنتبين والمؤلهين للائمة وخالط الائمة انفسهم لا يبعد ان يكون قد شعر بالامامة بنفسه ، ويؤيد ذلك ان قبيلته كانت مشهورة بانها « كثيرة المشايخ والفقهاء والمتعبدين » (١١٨) ، وقد جاء فى سيرة الربيع بن خثيم انه « كان فى بنى ثور ثلاثون رجلا ما منهم رجل دون الربيع » (١١٩) وبذلك يتبين لنا ان اسرة جديدة قد تولت بث مذهب جديد هو الزهد الموازى للتشيع الغالى كما فعل بنو عجل من قبل .

وكان سفيان نفسه زيديا وناصر محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة وبايع له كما مر بنا ، وكان السلطان يطلبه لذلك ، ولكنه لم يشارك فى

-
- (١١٣) حلية الاولياء ٥٠/٨ .
 (١١٤) صفة الصفوة ٩٦/٢ .
 (١١٥) المصدر نفسه ٦٥/٣ .
 (١١٦) حلية الاولياء ٤/٦ .
 (١١٧) طبقات الشعرائى ٤٠/١ .
 (١١٨ ، ١١٩) طبقات ابن سعد ١٢٩/٦ .

القتال لأنه آثر السلم كما يقضى مبدأ الزهاد بذلك ، وآية ذلك انه لام زاهدين هربا من الكوفة الى البصرة متكرين في زى الحماليين ولم يكلم احدا منهما على ذلك حتى مات (١٢٠) ، والظاهر ان ميل سفيان الى المذهب الزيدي آت من ان عقيدة الزيدية تقضى بان الامام ليس معصوما وليس اعلم المسلمين ولا يتميز عنهم الا بانه علوى فاطمى يصلح لامامة المسلمين ، اما التفوق فى العلم فميسر لمن انقطع اليه . ويجب ان نكرر هنا ان هذه النظرية الزيدية هى التى فتحت للزهاد باب الولاية واثارت فى نفوسهم الطموح اليها ، فما دام المجال قد انفتح امام المسلم بعمله وجهده لا بتوقيف ونص الهين فقد زال الحاجز الذى كان يطمئن من غلواء الزهاد فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على لوم الامام الصادق على لبسه الخبز ، وكان عيسى بن زيد بن على يحتكم اليه (١٢١) (اي سفيان) .

وكان من ثقة سفيان فى مكاته فى الزهد انه سلم على المهدي الخليفة تسليم العامة (١٢٢) . والمهم ان ابن النديم قد ايد زيدية سفيان فنقل عن محمد ابن اسحق ان اكثر علماء المحدثين زيدية وذكر سفيان الثورى فى فقههاء المحدثين الزيديين (١٢٣) .

داود الطائى :

ويأتى بعد سفيان الثورى داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٨٢ ودخل اسمه فى قائمة الزهاد الصوفيين وهو الصلة بين الكوفة وبغداد ، وكان داود الطائى كسفيان تعلمنا وقد اخذ علمه عن ابي حنيفة (١٢٤) الذى ناصر

(١٢٠) مقاتل الطالبين ٣٥٦ .

(١٢١) المصدر نفسه ٤١٥ .

(١٢٢) تاريخ المسعودى ٢/٢٥٤ .

(١٢٣) الفهرست ٢٥٣ .

(١٢٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ .

محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر الزيدى ومات فى السجن لتمسكه ببيعته فلما اتم داود تعلمه قال له ابو حنيفة : بقى العمل به ، فنازعت داود نفسه الى العزلة والوحدة (١٢٤) . وزاد تأييد النساك فى داود حتى رأيناه يتخذ التبتل منهجا لحياته ومظهرها لها ، فبقى اربعا وستين سنة اعزب ، وقد علل ذلك بقوله : « قاسيت شهوتهن عند ادراكى سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبى » (١٢٥) فداود اذن اول زاهد دخل فى زهده العامل المسيحى واضحا ، وقد سبقه سفيان الثورى الى السياحة والتجول . وترد فى سيرة داود اول اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ، فان العطار يذكر انه كان شيخ طريقة الراعى (١٢٦) ويذكر الجامى انه من قران الفضيل و ابراهيم بن ادهم (١٢٧) ، وهذه رائحة التصوف ترد من الكوفة الى بغداد . وقد زادت الولاية وضوحا فى داود بحيث كان الناس يقصدونه وينتظرونه اياما ليقوه ويسمعوا منه (١٢٨) ، وكان محصول القاصد « صم الدنيا واجعل فطرك الموت ، فر من الناس فرارك من الاسد غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم » (١٢٩) ، ولم يطلق داود ان يخرج عن صمته اكثر من ذلك فوثب الى المحراب وقال : الله اكبر (١٣٠) .

وقد انتظمت عند داود مسألة الزهد فى الطعام والاعراض عن زخرف الدنيا ، فكان يقول : « اذا كنت لا اشرب الا باردا ولا آكل الا طيبا ولا البس الا لينا فما اقيت لآخرتى » (١٣١) . وداود بهذا قد ابتعد عن بساطة الزهد الاول واقترب كلامه من كلام المتصوفة وبدا زهده زبدة ميراثه من احداث الكوفة وعبرها وظهرت فى داود ظاهرة اخرى جديدة هى التفكير والتأمل والتركيـز

-
- (١٢٤) صفة الصفوة ٧٤/٣
 - (١٢٥) طبقات الشعرائى ١٨٥/١
 - (١٢٦) تذكرة الاولياء ١٨٥/١
 - (١٢٧) نفحات الانس ٤٢
 - (١٢٨) صفة الصفوة ٧٤/٣
 - (١٢٩ ، ١٣٠) صفة الصفوة ٦٥/٣
 - (١٣١) طرائق الحقائق ٣٧/١

والبعد عن الهرب بالعلم او بالبكاء فقد روى عنه معاوية بن عمر قال : « كنا عند داود الطائي يوما فدخلت الشمس من الكوة ، فقال بعض من حضر : لو اذنت لى سددت الكوة ، فقال : كانوا يكرهون فضول النظر • وكنا عنده يوما فاذا بفروه قد تمزق وخرج خمله فقال بعض من حضر : لو اذنت لى خيطته فقال : كانوا يكرهون فضول الكلام » (١٣٢) وبذلك يبدو ان داود الطائي اول شيخ يلتف حوله المريدون ويسمعون منه ويلفون عنه لاتعلما كما فعل هو بل مراقبة واخذنا عن اعماله مما سيكون منهجا للصوفية من بعده • وقد بقيت فى داود ظاهرة كوفية بارزة هى استحبابهم طول النزاع ، وقد طال نزاع داود (١٣٣) فدل ذلك على رضى الله عنه لان عذاب الدنيا ينقص من عذاب الآخرة • وبقيت فى داود ظاهرة اخرى من رواسب الزهد البسيط هى اتصال الزهد بالائمة ، فقد اوردنا فى تعرضنا للمصادق ان داود طلب المشورة منه وقال له : يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق والمشورة منكم واجبة (١٣٤) •

الفضيل بن عياض :

وبأتى الفضيل بن عياض ليزيد الزهد صلة بالتصوف الذى سيدأ عما قليل ، واصحاب السير الصوفية حائرون فى اصله ، فقوم يجعلونه مولودا فى سمرقند ناشئا فى ابي ورد (١٣٦) وقوم يرون انه مصرى (١٣٧) وفريق جعله بخارى الاصل (١٣٨) وآخرون يعتبرونه من الكوفة (١٣٩) بل لقد رأوه عربيا تيميا (١٤٠) ولكنهم متفقون على انه مات بمكة سنة ١٨٧/٨٠٣ • وقصة

-
- (١٣٢ ، ١٣٣) صفة الصفوة ٣/٧٤ •
 - (١٣٤) تذكرة الاولياء ١/١٢ •
 - (١٣٥) طبقات الشعرائى ١/٥٨ •
 - (١٣٦) الرسالة القشيرية ٩ •
 - (١٣٧) الفهرست ٥٠٠ •
 - (١٣٨) نفحات الانس ٣٨ •
 - (١٣٩) نفحات الانس ٣٨ •
 - (١٤٠) صفة الصفوة ٢/١٥٤ •

توبته هي التي تفضح اصله وهي اسطورية من جنس القصص التي تروى عن توبة الخراسانيين التي يبدأ بعدها زهدهم • والتوبة جديدة على الزهد الكوفي بل لم نجدتها في الكوفة ولم يشر اليها احد ، وانما هو الزهد طول الحياة لان الجو مشبع بروحه ولم يكن عملا فرديا يقوم على مطالب الحياة المادية او الجنسية كما تعكس لنا قصة توبة الفضيل التي تروى انه « كان يعشق جارية ، فيينا هو يرتقى الجدار اليها سمع تاليا يتلو القرآن : ألم يأن للذين آمنوا ان تخضع قلوبهم لذكر الله (١٤١) ؟ ، فقال : يارب قد آن فرجع » (١٤٢) وصلة الفضيل بالكوفة آتية من انه نزلها في تجوله فسمع الحديث وانتقل الى مكة ومات بها سنة ١٨٧/٨٠٣ (١٤٣) وكان في الفضيل مظهر آخر لم يكن للكوفيين به عهد وذلك انه كان يغشى عليه عندما يسمع صفة النار (١٤٤) فان ذلك لم يصادفنا في الكوفة ، ولذلك فالفضيل زاهد خراساني يحمل صفات الزهد الخراساني ولكنه نزل الكوفة وتأثر بزهدنا وصدر عن روح كوفية ممزوجة بهذه الروح الخراسانية المبالغة في الحساسية العاطفية حين قال : « لو خيرت ان اعيش كلبا ولا ارى يوم القيامة لاخترت ان اعيش كلبا وأموت كلبا ولا ارى يوم القيامة » (١٤٥) • وقد كان في الفضيل ولاية ظاهرة قرنهما بحمل القرآن وتطلب من حامله الا « يكون له الى الخلق حاجة : لا الى الخلفاء فمن دونهم ، وينبغي ان تكون حوائج الخلق اليه » (١٤٦) وتلك ولاية تقرب من الامامة ، ولعله قد استفادها من الكوفة الشيعية • وهو

-
- (١٤١) الحديد ١٦ •
(١٤٢) الرسالة القشيرية ٩ •
(١٤٣) صفة الصفوة ٢/١٣٤ •
(١٥٤) راجع المشتبه في اسماء الرجال ، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٢ •
(١٤٤) صفة الصفوة ٢/١٣٥ •
(١٤٥) حلية الاولياء ٨/٨٤ •
(١٤٦) حلية الاولياء ٨/٩٢ •

الذي روى احاديث «أزرى فيها على عثمان» (١٤٧) . وقد اعتذر البغدادي عنه بأنه « روى ما سمع ، فكان ماذا؟ » (١٤٨) .

وتبين - بعد - هذا الفرق الظاهر بين الزهد الكوفي والخراساني معا رأينا طرفا منه عند الفضيل الذي بدا زهده مختلفا اختلافا ظاهرا عن زهد الكوفيين .

فرقد السبخي :

قبل ان ندخل في تفاصيل زهد فرقد يهمننا ان نصحح خطأ طالما وقع فيه الباحثون ذلك انهم يلقبونه بالسبخي (بالنون والجيم) والواقع انه السبخي (بالباء والحاء) نسبة الى سبخة البصرة التي سكنها كما يخبرنا السمعاني (١٤٩) والفيروزبادي (١٥٠) وكما يضبطه ابن الجوزي (١٥١) والمنساوي (١٥٢) وابن العماد (١٥٣) . اما البغدادي والذهبي فينسبانه الى سبخة الكوفة (١٥٤) يمثل فرقد ناحية اخرى من اصالة الزهد في الكوفة فان نزوحه في فجر زهده الى البصرة قد اثر في زهده بحيث صبغه بالهجنة التي جاءته من بيئة البصرة المقلدة فقد انفرد فرقد من بين الكوفيين جميعا بتبنيه الاسرائيليات في الزهد فكان يسرف في رواية نصوص عن التوراة او عن بنى اسرائيل وربما تطرق الى ذكر المسيح ، وكان ذلك امرا عجيبا حقا . وكان حتى في كلماته ونفسه غريبا ، فانه لم يعبر الا عن تفضيل الجوع اما باقي موضوعات الزهد فكان يسندها بالنصوص المستخرجة من الكتب المقدسة القديمة . والمشهور

(١٤٨ ، ١٤٧) ميزان الاعتدال للذهبي ٣٣٤/٢ .

(١٤٩) الانساب (ظهر الورقة ٢٨٨) .

(١٥٠) القاموس المحيط ١/٢٦١ .

(١٥١) صفة الصفوة ٣/١٩٥ .

(١٥٢) الكواكب الدرية ١/١٤٧ .

(١٥٣) شذرات الذهب ١/١٨١ .

عندنا ان النبي (ص) قد قال : الجوع كافر ، اما فرقد السبخي فقد كان يقول :
 الشبع ابو الكفر^(١٥٥) فكان بذلك يعبر عن زهد صادر عن نسبة الفساد
 وخراب الذم الى الغنى والشبع للذين يورثان البطرو والكبر ، ويتضح من ذلك
 ان فرقدا لم يكن ذا صلة بالاحداث السياسية ، او لعله نظر اليها نظرة الى
 مورد للمال الحرام ولعل ذلك صحيح ولكن لم يبد من اقواله ما يشير الى اتصال
 زهده بالاحداث الحربية والعذاب الروحي للذين كانوا يستغرقان الكوفة . وذلك يعنى
 انه امضى معظم حياته فى البصرة مع كونه كوفي الاصل برواية الشعراني
 والمناوى^(١٥٦) ، بل يبدو ان فرقدا كان يتحرز من التعبير الذاتى المباشر
 اما لخوف او لشك فى قدرته على التعبير وفضل التعبير غير المباشر ، فاستشهد لكل
 حالة امضته بنص من النصوص المقدسة القديمة . وذلك يدل على ان من
 المحتمل انه كان لا عربيا ولا فارسيا ولعله كان من انباط العراق بل ان السمعاني
 يخبرنا مصيبا كما يبدو ، بانه كان من اهل ارمينية^(١٥٧) . وقد مر بنا انه استشهد
 بنص روى عن النبي وعلى بن ابي طالب وزعمانه وارد فى التوراة وذلك هو : من
 اصبح حزينا على الدنيا اصبح ساخطا على ربه عز وجل ، ومن جالس غنيا
 فتضع له ذهب ثلثا دينه ، ومن اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانه يشكو
 ربه^(١٥٨) ، وقد روى عن المسيح عليه السلام انه قال : « طوبى للناطق فى
 آذان قوم يسمعون كلامه . ماتصدق رجل بصدقة اعظم اجرا من موعظة قوم
 يصيرون بها الى الجنة »^(١٥٩) فكانه هنا يشكو اعراض الناس عن سماع
 حديثه . ويخبرنا المناوى الى ذلك انه قد « شغله التعب عن حفظ
 الحديث »^(١٦٠) ولكنه لم يشغل عن حفظ احاديث السيد المسيح وقراءة

-
- (١٥٥) الكواكب الدرية ١/١٤٧
 - (١٥٦) طبقات الشعراني ١/٣٢
 - (١٥٧) الانساب : ظهر الورقة ٢٨٨
 - (١٥٨) صفة الصفوة ٣/١٩٦
 - (١٥٩) الكواكب الدرية ١/١٤٧
 - (١٦٠) حلية الاولياء ١/١٤٧

التوراة والاقْتباس منها فكان من نتيجة ذلك ان «اعرض النقلة عن نقل حديثه» (١٦١) . وقد صنف فرقد الخطايا لامن نفسه ولكن من التوراة ايضا فقال : « في التوراة امهات الخطايا ثلاث : الكبر والحسد والحرص ، فنشأ من الثلاث ست فصارت تسعا : الشبع والنوم والراحة وحب المال وحب الجماع وحب الرياسة» (١٦٢) بل لقد كانت مواعظه لاخوانه البصريين منعكسة عن رؤى اسرائيلية يراها في المنام ، فقد كان يلوم البصريين ويقول لهم : « يا اشباه اليهود كونوا على حياء من الله ، فانكم لم تشكروا اذ اعطاكم ولم تصبروا حين بلاكم » (١٦٣) . وهكذا يضرب لنا فرقد السبخى مثلاً واضحاً في دخول الثقافة الى الزهد وطبعه بطابعها الخاص بحيث رأيناه ينشغل عن رواية الحديث الذي كان شغل معاصريه الشاغل وينصرف الى رواية احاديث المسيح ونصوص التوراة . والغريب ان فرقدا صار من القلائل النادرين الذين اعتبروا عند المتصوفة من اصول التصوف ودخلوا في سلسله . ويبقى بعد ذلك ان نذكر انه توفي بالبصرة سنة ٧٤٨/١٣١-٤٩ وقد اخبرنا ذكره لنبين كيف كانت اصالة الكوفة تابعة من بيئتها ذات الطابع الخاص وكيف تبدد هذه الاصالة اذا تحول زاهد منها الى بيئة اخرى تغلب عليها الهجئة والتقليد .

الفتوة الكوفية :

لقد كان من اثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التي سادت الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية جوهرياً النضحية المقرونة بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المادي والانصراف الى الزهد والفقر . وقد ظهرت بوادر الخلق الذي ينسب الى الفتوة من سعيد ابن جبير الذي قتله الحجاج سنة ٧١٢/٩٤ ، وكان سعيد يقول : «لدغتنى

(١٦١-١٦٣) الكواكب الدرية ١/١٤٧ .

عقرب فأقسمت على امي ان استرقى فاعطيت الراقي يدي التي لم تلدغ وكرهت ان احثها» (١٦٤) • وسعيد بن جبير في ذلك يعكس التوكل والرضى على اوضح صورهما ويضرب لنا مثلا واضحا - وان يكن بسيطا - على بذور الفتوة التي انشأتها ظروف الكوفة الحربية واساليب القمع التي انتشرت فيها • وظهر في الكوفة مثل آخر على الفتوة التي ابتتها بيئتها ، وذلك ان ابراهيم التيمي الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على انه ابراهيم النخعي فحبس من اجل ذلك (١٦٥) ولم يقتصر الامر على امثلة تصيدها من اخبار الزهاد وانما يخبرنا ابن الجوزي بان اصحاب الفتوة قد كان لهم لباس مخصوص كما كان للقراء لباسهم ، ومن ذلك ان ابراهيم بن يزيد النخعي - الذي يضيفه ابن رسته الى قائمة الشيعة - (١٦٦) كان «يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالصفرة وكان من يراه لا يدري امن القراء هو ام من الفتيان» (١٦٧) وبذلك يتضح ان الفتوة كانت مبدأ جماعة محدودة في الكوفة لها طابعها الخاص ولباسها التميز ولا بد ان كان لها نظمها ومثلها وان تكن ساذجة بسيطة • ولعلنا - بهذا الخبر الوارد عن ابن الجوزي - تقدم اقدم نص يشير الى الفتوة الاسلامية بحسب ماسيكون لها من اتصال بالتصوف ، وليس ذلك على الكوفة بغريب • ولمعترض ان يلفت ذهننا الى ان موطن الفتوة خراسان لا الكوفة ، فالواقع ان ظروف الكوفة - على ما يبدو - هي المسؤولة عن ذلك • يضاف الى هذا أن امتزاجا تاما قد حصل بين سكان الكوفة وخراسان ، فكما كان بالكوفة حميرار الفرس كان في خراسان كثير من العرب وهذا البلاذري يحدثنا بان معاوية ارسل عددا كبيرا من عائلات الكوفة والبصرة الى خراسان واسكنهم فيها (١٦٨) ويخبرنا ابن عبد ربه الاندلسي

(١٦٤) صفة الصفوة ٤٢/٣ •

(١٦٥) المصدر نفسه ٤٧/٣ •

(١٦٦) الاعلان النفيسة ٢١٩ •

(١٦٧) صفة الصفوة ٤ / ٣ •

(١٦٨) فتوح البلدان ٤١٠ •

ان الحجاج قد شنت الكوفيين فى البعث والمغازى وكان يرى ان ذلك ادوى دواء لدائهم^(١٦٩) ، ويورد الشيخ اليراقى ان الاشعريين هاجروا من الكوفة وتوطنوا قم بعد ان قتل الحجاج رئيسهم محمد بن السائب الاشعري^(١٧٠) ، ويزيد ولها وزن الامر وضوحا بان خراسان - ويعنى بهامرو - كانت موجهة من الكوفة^(١٧١) بالنسبة للدعاة الشيعة (يعنى العباسيين) وانه بعد عام ١٠٠/٧١٨-١٩ بزم طويل ما فتىء الدعاة فى خراسان كوفيين فقط وهم تجار غرباء ، ويذكر ان العرب فى خراسان ذابوا فى المجتمع الخراسانى فلم يعودوا واضحين من بين الخراسانيين^(١٧٢) . ولكى ندلل على ما كان للكوفيين من أثر فى غيرهم من المسلمين نذكر ان قبائل برمتها قد هاجرت الى الشام احتجاجا على شتم عثمان ، ولكن معاوية - برغم ذلك - لم يدعهم فى الشام بل عزلهم فى الجزيرة مخافة افساد اهل الشام^(١٧٣) ، بل لقد اخرج الامويون كل عراقى وجدوه فى الحجاز وحذروا الحجازيين مسن ايوائهم^(١٧٤) ، وبذلك يتضح ان نشوء الفتوة فى الكوفة ، وان كان تأثر بما كان فى خراسان منها ، كان للظروف السائدة فيها أثرها الكبير ايضا فى اخراجها الى حيز الوجود .

وبذلك نختم البحث فى الزهد الكوفى الذى خدم فكرة التصوف بظهور مبدأ التفكير فيه ، وكان الصوف الذى اشتق منه التصوف من ثمرات الزهد الكوفى ، وقد رأينا فكرة الولاية الكوفية التى نبعت من الامامة اولا

(١٦٩) العقد الفريد ١٧٩/٥ .

(١٧٠) تاريخ الكوفة ١٨٣ .

(١٧١) الدولة العربية وسقوطها ٤٠٦ .

(١٧٢) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ .

(١٣) حركات الشيعة المتطرفين ٥١ .

(١٧٤) تاريخ اليعقوبى ٣٤/٣ .

وحرركات الغلاة ثانيا آتية من الكوفة ، بل لقد كانت فكرة الشيخ والمريد نابعة من البيئة الكوفية عن طريق داود الطائي ، ورأينا أخيرا ان الفتوة نشأت في الكوفة متأثرة بالظروف وبسبق الخراسانيين الذين خالطوا الكوفيين اليها . لقد نبع كل ذلك من اللون الشيعي الذي كان يصبغ الكوفة ومن العاطفة الدينية التي كانت تستغرق الكوفيين . ويحسن بنا ان نختم فصل الزهد الكوفي بان « الزهري (محمد بن مسلم المتوفى سنة ١٢٤/٧٤١-٤٢) قارف ذنبا فاستوحش من الناس وهام على وجهه فقال له زيد بن علي : يا زهري ، لقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أشد عليك من ذنبك . فقال الزهري : الله اعلم حيث يجعل رسالته ، ورجع الى هله وماله واصحابه (١٧٥) .

الفصل الثاني الزهد في البصرة

تمصير البصرة وبيئتها :

من النادر جدا ان يكون بين بلدين متقاربين في المكان والعصر والزمان ما كان بين البصرة والكوفة من اختلاف يكاد يكون تضادا . فقد مصرت البصرة والكوفة سنة ٦٣٨/١٧ بعد ان كانتا معسكرين للجيوش التي فتحت فارس ، وكما انشئت الكوفة على انقاض بابل والحيرة بنيت البصرة بالقرب من ميناء الابله القديم ^(١) ولكي نعرف مدى تأثر الابله - التي ورثتها البصرة - بالثقافات الاجنبية فعلينا ان نرجع الى معجم البلدان لنجد انها كانت تسمى بارض الهند ^(٢) . وكانت البصرة - من الناحية الادارية - مركز حكومة خراسان ايام الامويين ^(٣) ، وذلك يعنى ان الفرس كثيرا ما كانوا ينزلونها لقضاء شؤونهم التي تتصل بالسلطان ، والعاصمة - على كل حال - مرجع دائم ومستمر لقاطني البلدان التابعة لها ، ولعل هذه الحقيقة توضح لنا سببا قد يكون خافيا لتأثر البصرة بالثقافات والمثل الفارسية . وقد نقل الينا الجاحظ هذه الحقيقة على لسان ابي عمرو بن العلاء البصرى حين قال : «لنا دهاء الفرس واحلامهم» ^(٤) . وكانت البصرة الى ذلك تضم من العرب قبائل مضر بينما سكنت حمير الكوفة ^(٥) وهذا يعنى انه قد كان في البصرة اغلبية مضرية من عرب الشمال اما الكوفة فكانت اغليتها من اليمن كما رأينا . وهذا

(١) معجم البلدان ٢٠١/٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٩٦/٢ .

(٣) تاريخ العرب ٣٠٩/٢ .

(٤) البيان والتبيين ٨٩/٢ .

(٥) امير على : مختصر تاريخ الاسلام ٦٦ .

يشرح لنا لماذا اصبحت الكوفة بالاصالة العربية والبصرة بالاختلاط والهجرة ، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة اتاح لهم ان يتغلبوا على الانار الواردة الى الكوفة من الحضارات الاجنبية وان يهضموها ، اما العنصر العربي الذي نزل البصرة فقد كان ضعيف الحضارة فغلبت عليه الثقافة الاجنبية التي قابلته في بيئته الجديدة . ويجب الا يفوتنا ان كون البصرة ميناء يستقبل كثيرا من الزوار والمتقنين والتجار قد اسهم في ذلك ، ولا بد ان يكون لهؤلاء دور واثر في بيئة البصرة لتقبل كل جديد . ومما يزيد هذا وضوحا ان الاتجاه القبلي الجاهلي كان قانون القبائل النازلة في الكوفة والبصرة وان اتباع كل شيخ قبيلة كانوا يطيعونه في الحرب والسلم طاعة عمياء كما يرى الاستاذ احمد امين^(٦) . واذا اضفنا الى هذه الحقيقة ان القبائل الكوفية قد اتجهت وجهة عاطفية شيعية وان نصرة هذا المذهب قد استغرقها وأن البصرة لم تكن مبالاة الى تبني المذاهب العاطفية والافكار الدينية عرفنا لماذا كانت الكوفة اصيلة والبصرة جامعة للاختلاط والاشتات . وقد اسهم كل ما ذكرناه في شيء آخر اصاب البصرة خيره وشح على الكوفة ، فان الاخيرة قد تأخرت في التحضير عن البصرة التي « بنيت دورها ومسكنها باللبن والآجر قبل الكوفة بزمن ، وكانت دساكرها السبع القديمة مأهولة وذات منازل ثابتة من قبل »^(٧) وبناء على هذا ونظرا لان البصرة قد قامت على تخوم فارس ، فقد « نشأت فيها دراسات اللغة العربية ومنها اصول الصرف والنحو ، وذلك - بالاكتر - لتعليم الاعاجم الداخلين في الاسلام . على ان بعض هؤلاء اصبح - فيما بعد - من مدرسي هذه العلوم وحملتها . وانما دفع الاعاجم الى العربية اولا رغبتهم في ان يدرسوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . . . واذن فليس صدفة ان يظهر في البصرة اول واضع للنحو العربي - على قول الرواة - وهو ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٤٩ هـ

(٦) فجر الاسلام ٢٢٩ .

(٧) خطط الكوفة ١٠ .

٦٨٨م» (٨) . ويؤيد ذلك ان موسى بن سيار الاسوارى « كان اذا جلس مجلسه لتفسير القرآن فسر للعرب بالعربية وللذين من دماء فارسية بالفارسية» (٩) . ويخبرنا دى بور ان « سبق اهل البصرة بالانتفاع بالمنطق لم يكن محض صدفة لان تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها ، وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين افسحوا السبيل للحكمة الاجنبية لكى تؤثر في مذاهبهم الكلامية » (١٠) وبهذا صارت البصرة كأنها « عجوز شمطاء ذفراء اوتيت من كل حلى » (١١) كما وصفها الحجاج من قديم بينما كانت الكوفة «شابة حسناء جميلة لاحلى عليها ولا زينة» (١٢) ، ومن الانصاف ان نذكر لها انها ما زالت كذلك حتى الان بالنسبة للعلوم العربية والاتجاه العربى بالرغم من كثرة من يتعلم فيها من الفرس ويعلم .

ويجدر بنا قبل الخوض فى زهد البصرة ان نبين تهافت الزعم القائل بان البصرة كانت عثمانية معادية للشيعة على اطلاقها ، وقد رأينا الاحنف بن عيسى المتوفى فى ولاية مصعب بن الزبير فى الكوفة يعتزل فى معركة الجمل مع عشرة آلاف مقاتل حتى هزم على بن ابي طالب البصريين ثم دخل فى بيعته (١٣) . بل لقد كان الجيش البصرى ثلاث فرق : فرقة مع طلحة والزبير وفرقة مع على ، وفرقة لاترى القتال مع أحد الفريقين (١٤) ، وكانت قبيلة عبد القيس فى البصرة شيعية (١٥) . وقد رأينا ان ابراهيم بن عبدالله

(٨) تاريخ العرب ٣٠٩/٢ .

(٩) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ .

(١٠) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٣٩ .

(١١) (١٢) مروج الذهب ١٤٨/٢ .

(١٣) تاريخ الطبرى ١٩٧/٥ .

(١٤) المصدر نفسه ٢٠١/٥ .

(١٥) خطط الكوفة ٣٨ .

ابن الحسن قد ثار في البصرة وهو من الائمة الزيديين ويدهشنا ابو الفرج
 الاصفهاني بروايته ان ديوان ابراهيم قد احصى من اهل البصرة مائة الف
 رجل (١٦) • ويخبرنا الجاحظ ان بشار (بن برد) « كان يدين بالرجعة » (١٧)
 وهي من مبادئ الشيعة كما مر بنا • ولكن لا يستطيع احد ان ينكر عثمانية
 البصرة وسنتها الغالبة من ان اهلها « كانوا ينكرون بكل جرأة ووقاحة الخلاف
 بين الصحابة » (١٨) كما قول ماسينيون ولكنها « انقلبت شيعية منذ القرن
 الخامس الهجري » (١٨) • •

اسس الزهد في البصرة :

لقد كانت الحياة في البصرة رحية سهلة ، قال فتى من اهل المدينة دخل
 البصرة في وصفها لاصحابه : « خير البلاد للجائع والغريب والمفلس » وراجع
 تفصيل ذلك في معجم البلدان (١٩) ، وكانت التجارة فيها مجزية رابحة كما
 اتفق عليه سائر المؤرخين ولعل هذا هو السبب في فخر البصريين « بانهم
 اكثر اموالا واولادا واطوع للسلطان » (٢٠) فقد كانت البصرة هادئة اذا
 فيست بالكوفة وود رأيناها تشارك في قتال على ثم سكنت حتى نصرت حفيدا
 له من بعد ثم رأينا حوادث الخوارج تخرج منها شأن باقي اجزاء العالم
 الاسلامي • وقد ظهر الزهد في البصرة قويا نشيطا ، والنظرة الفاحصة اليه
 ترجعه الى نوع من يقظة الضمير على تخلفها عن المشاركة في احقاق الحق
 وازهاق الباطل وانصرافها الى الربح والتجارة واللهو ، وتلك علة الخوف
 البصري كما سنرى كما كان علة الخوف الكوفي الذي كمن في امتلاء القلب

-
- (١٦) مقاتل الطالبين وكذلك ابن الاثير ٢١١/٥ (مصر ١٣٠٣) •
 (١٧) الاغانى ٣/٢٤ •
 (١٨) خطط الكوفة ١٤ •
 (١٩) معجم البلدان ٢/٢٠٢ •
 (٢٠) ضحى الاسلام ٢/٧٨ •

بالإيمان بمثل تفصر اليد عن تحقيقها ، فظاهرة الخوف املتتها مؤثرات شيعية ولا ريب • ثم ادى هذا الرخاء وضعف العقيدة الدينية او تمييعها على الاقل الى الانحلال الخلقى الذى اوضحه زياد فى خطبته بقوله : « ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر » (٢١) ، و اشار الحسن البصرى ايضا الى الشذوذ الجنسى الذى كان منتشرا فى البصرة (٢٢) • وقد اشار زياد كذلك الى حدث احدثته البصرة فى الاسلام وذلك تركهم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله (٢٣) وسبب ذلك « ان السلطان فى البصرة كان بيد القبائل لا بيد الحكومة وبما ان هذه القبائل لم تكن موحدة وكانت دوما منهمكة بالا يفوتها نفع فانا نستطيع ان نتصور نتائج ذلك » (٢٤) • ومما زاد الامر صعوبة انه لم يكن لدى البصريين الا مثل فردية تتركز فى الطمع الشخصى دون سند من عقيدة دينية او مثل اعلى لا كما كان الامر فى الكوفة ، ومن المعلوم ان العرب كانوا يأنفون من الحرف والصناعات والزراعة وكان الغنى بالنسبة اليهم يعنى الغارات وما يجنونه من الحروب • وهكذا صار رخاء البصرة بلائ نبه الناس الى الشقاء الذى يعانونه بالاضافة الى الكسل الدينى الذى كان سائدا فيها • وبينما وجدنا فى الكوفة فتوة وفتيانا من الزهاد يضحون بانفسهم فى سبيل المنسل العليا ولهم لباس خاص ، فاننا نقابل فى البصرة طبقة مقابلة للفتيان - لم يلتفت اليها الباحثون - هى طبقة السفهاء الذين اسهموا فى اذكاء القتال فى حرب الجمل وكان انصار على يوحون اليه ان جيش البصرة هين لأن مادته السفهاء (٢٥) • وقد اكد لنا زياد فى خطبته هذه الحقيقة فاشار

(٢١) البيان والتبيين ٤٨/٢ •

(٢٢) حلية الاولياء ١٨٦/٦ •

(٢٣) البيان والتبيين ٤٨/٢ •

(٢٤) الدولة العربية وسقوطها ٩٢ •

(٢٥) تاريخ الطبرى ٢٢١/٦ •

الى هؤلاء في ثلاثة مواضع من خطبته (٢٦) ويبدو ان هؤلاء هم خلف الفتوة الجاهلية كما سيتبين لنا جوهرها في فصل مقبل . وقد وصف على البصرة لعبدالله بن عباس بقوله : « اعلم ان البصرة مهبط ابليس ومغرس الفتن فحدث اهلها بالاحسان اليهم واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم » (٢٧) . وبذلك يتضح اساس من اساس الزهد البصرى آت من ظروفها الاقتصادية والاجتماعية واستعلاء المثل القبلية فيها . ومن المهم ان نستعين برأى الزهاد انفسهم في هذا المجال فننقل تعلييل احدهم ذلك بقوله : « ضعف الناس والذنوب والشيطان » (٢٨) وقول ابراهيم بن ادهم : « عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به وادعيتم حب رسول الله (ص) وتركتم سنته وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه وقتلتم : نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وقتلتم : نخاف النار ورهنتم انفسكم بها . . . » (٢٩) ويضيف ابو طالب المكي الى ذلك سببا آخر هو البلبلة العقلية وانتشار المذاهب الكلامية وتشعبها في البصرة فادى ذلك الى الزهد فهرب الناس « من الافن والاغترار » (٣٠) .

ويأتي اساس اخر للزهد من العنصر الثانى الذى كان ينزلها ، اولئك هم الفرس الذين كان بعض سراهم يحتفظون بتقاليدهم الفارسية فى الترف الذى نعاه عليهم الحسن البصرى (٣١) وليس هذا - فى حد ذاته - مدعاة للزهد ، ولكن الذى يورث هذا الامر هو ان الزهد كان معروفا فى فارس قبل ذلك وكان منتشر الى حد ان المسعودى يذكر - فى معرض بطولة ابي محجن

(٢٦) البيان والتبيين ٢/٤٧-٨

(٢٧) نهج البلاغة ٣/٢٠ .

(٢٨) حلية الاولياء ٦/٣١٠ .

(٢٩) المصدر نفسه ٦/١٦ .

(٣٠) قوت القلوب ٢/١٥٤ .

(٣١) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ .

الثقفي في القادسية انه «قتل رجالا كبيرا من نساكهم» (٣٢) • وهاتان الحقيقتان تؤلفان مقدمة ونتيجة متصلان بالزهد الفارسي الذي انتقل الى البصرة بعلمه وبعنصره كليهما ولم يكن بسيطا كالزهد الكوفي وانما كانت له اصول ومثل تبدو للدارس الذي لايلم بالبصرة وظروفها مفاجئة ليس لها داع كفكرة الحب والامتناع عن دخول الحمام واطالة الشعر مما لايناسب تقاليد الاسلام التي كان الزهاد القدماء احرص عليها من سائر المسلمين في الكوفة وسنرى ذلك في هذا الفصل •

وكما كان في الكوفة طرازان من الزهد احدهما ينبع من الاسلام والاخر ينبثق من الظروف المحيطة بالمصر ، كذلك كان في البصرة زهدان اسلامي ومجلى وستتطرق الى كل منهما فيما يلي :

الزهد الاسلامي :

لقد مر بنا ان الاسلام في جوهره انما هو تغليب لمظهر مادته من الفقراء والمستضعفين وانه انما التزم ذلك بالحفاظ على مثله من ان تبيد بفعل اصحاب الاموال والجاه والسلطان ممن جاء الاسلام للقضاء عليهم ، فكان من ذلك بساطة اللباس وخشونة الطعام ورقة العاطفة والاندفاع الى الدفاع عن مبادئ الاسلام بكل حمية وشجاعة واخلاص • فلما غلبت على البصرة مثل غير اسلامية استشعر المشربون بروح الاسلام الانجاة لهم الا بالاصرار على السلبية والاندفاع الى التطرف في الزهد والبكاء وتعذيب النفس جزاء عجزها عن تغيير ماجد من اخطار تكاد تطيح بالاسلام ، فوجدنا قوما من جنس سعد بن ابي وقاص وعبدالله بن عمر وزملائهما في مكة ومثل الربيع بن خثيم في الكوفة ، ذلك هو الاحنف بن قيس الذي اعتزل جيش البصرة في

(٣٢) مروج الذهب ١/٤٢٣ •

الجمال^(٣٣) ، وكنا الاخف «يجي» الى المنصباح فيضع اصبعه فيه ثم يقول :
 حس^(٣٤) . وتلك بداية بصرية للمجاهدة وصلتها بالشعور بالاثم والخوف من عذاب
 الآخرة واضحة . وكان عامر بن عبدالله بن (عبد قيس) من بنى تميم
 صاحب مجاهدة ايضا وكان يقول لنفسه : « قومي يا مأوى كل سوء ، فوعزة
 ربك لازحفن بك زحوف البعير ، لئن استطعت الا يمس الارض من زهمتك
 لافعلن . ثم يتلوى كما تتلوى الحبة على المقل ، ثم يقوم فينادي : اللهم ان
 النار قد منعتني من النوم فاغفر لي »^(٣٥) . ولم يكتف عامر بذلك بل حاول
 ان ينحو منحى الرهبان من الامتناع عن ملامسة النساء ولكنه لم يجعل ذلك له
 منهجا وانما قصر رغبته على دعوته لله ان «ينزع شهوة النساء عن قلبه»^(٣٦) .
 وكان عامر يعبر عن حيرة البصريين تعبيرا بديعا بقوله : « اللهم في الدنيا الهموم
 والاحزان وفي الآخرة العذاب والحساب ، فإين الروح والفرح »^(٣٧) فكان
 بذلك يفصح عن العذاب الذي كان يعانيه في دنياه البصرية من ظلم وفساد
 وضعف عقيدة وبعد عن المثل الاسلامية وتغليب للمصلحة الشخصية وعبث
 بمال الغير وعرضه ، فكان يدفع الهموم والاحزان عن نفسه بآيات
 يطيل ترديدها يكمن فيها جوهر الزهد البصري ، وكان تأثيرها فيه انه - اذا
 ذكرهن - « لم يبال علام اصبح او امسى »^(٣٨) والآيات : « ما يفتح الله للناس
 من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده »^(٣٩) ، و :
 « ان يمسك الله بصر فلا كاشف له الا هو »^(٤٠) و : « سيجعل الله بعد عسر

-
- (٣٣) تاريخ الطبري ١٩٧/٥
 (٣٤) صفة الصفوة ١٢٤/٣
 (٣٥) صفة الصفوة ١٢٦/٣
 (٣٦) المصدر نفسه ١٣١/٣
 (٣٧) المصدر نفسه ١٢٦/٣
 (٣٨) صفة الصفوة ١٣١/٣
 (٣٩) فاطر : ٢
 (٤٠) الانعام : ١٧

يسرا» (٤١) و : « وما من دابة الا على الله رزقها » (٤٢) وهذه آيات تمثل التوكل والرضى باجلى مظاهرها مما سيكون لهما شأن فى تكوين العقيدة الصوفية • وهذا يعنى ان اليأس قد ادى بعامر الى التسليم المطلق لقدر الله و ارادته وتصرفه فى هذه الامة التى طفتح بها كيل الذنوب فكان انه « صلى يوما فدخلت حية من ذيله وخرجت من جيبه فقيل له : لم لاتنجيها ؟ قال : والله ما اعلم بها حين تدخل ولا حين تخرج ، واني لأستحيى من الله ان اخاف غيره » (٤٣) فجمع - بذلك - الى التوكل والرضى المجاهدة الشديدة والاتجاه المطلق الى الله وحده • ونظرة الى سيرة عامر تجعله شبيها بالشيعة الاوائل ولعله كان واحدا منهم ، فقد نفاه عثمان من البصرة الى الشام لانه « كان شديدا فى الامر بالمعروف » (٤٤) فيكون عامر صنو أبى ذر فى العمل والجزاء ولعله كان شبيها له فى الروح • وقد يعترض معترض بان معارضة عثمان لاتعنى التشيع ، ولكن الواقع ان البصرة فى الاغلب الاعم عثمانية اى رأى من يطبع دون مناقشة وان كان فى الطاعة اهدار للمثل الاسلامية ، فاعتراض عامر على عثمان - وروى ابن قتيبة ما يفيد معارضته له - (٤٥) يضيفه الى زملائه ممن اصابتهم نعمته كأبى ذر وعمار بن ياسر اللذين كانا من اوائل الشيعة وبذلك يمكن اضافة عامر الى التشيع ولو باتفاق الميل والمشرب • وكان عامر الى ذلك اول من قال بالحب وسنرى ذلك فى الشطر الثانى من زهد البصرة التابع من بيتها •

الحسن البصرى :

وكان الحسن البصرى الذى يعتبره جولد تسيهر مؤسسا لمدرسة البصرة

(٤١) الطلاق : ٧

(٤٢) هود : ٦ •

(٤٣) الكواكب الدرية ١/ ١٢٨ •

(٤٤) الكواكب الدرية ١/ ١٢٩ •

(٤٥) عيون الاخبار ٢/ ٢٧٠ •

في الزهد والتصوف^(٤٦) زاهدا آخر صدر عن روح الاسلام كما فعل عامر، ولم يختلط زهده بالزيادات التي حتمتها الظروف الا بالقدر الذي لامندوحة عن التأثير به . وقد كان الحسن البصرى من مواليد المدينة سنة ٢٢/٦٤٢-٤٣ وكان ابوه من سبى ميسان^(٤٧) وهى بليدة باسفل البصرة^(٤٨) وكانت امه مولاة لام سلمة زوج النبي (ص)^(٤٩) ، ويقال انه ولد على الرق^(٥٠) . والمهم في ذلك كله ان الحسن قد نشأ في المدينة ولم يقصد اليها من فارس كغيره من الزهاد الموالى في البصرة ، فزهده نابع من الاسلام ومن بيت الرسول وهذا هو ملاك ما يرد اليه زهده وهو الذي اسبغ عليه - عند الشيعة - أهمية قصوى . يضاف الى ذلك انه عاصر الخمسة الاولين من أئمة الامامية ومات سنة ١١٠/٧٢٨-٢٩ أى في حياة الامام الخامس محمد الباقر . وقد ذكر فيه فليب حتى انه «قد تغذت الصوفية طوال الاجيال بآثار زهده وتقاه ، اما اهل السنة فيتناقلون عنه الحكم والاقوال الرشيدة كما ان المعتزلة تحسبه منها»^(٥١) ، ويرى ابو طالب المكي ان كلامه « يشبه كلام رسول الله »^(٥٢) وقد نظر ابو طالب الى صدور الحسن البصرى عن مثل الاسلام الاول في زهده وعلل ذلك بمخالطته للصحابة^(٥٣) . والواقع ان الشبه قائم بين الحسن البصرى وعلى بن ابي طالب لا النبي (ص) لانه (ص) لم يكن زاهدا بالمعنى الذى صدر عن الحسن والصحابة ، ووجه الشبه بين الحسن البصرى وعلى انهما كانا غاية في الزهد وان الحسن كان يندمج على علم الباطن اخذا

(٤٦) في التصوف الاسلامى ٤٦ .

(٤٧) الفهرست ٣٥٤ .

(٤٨) روضات الجنات ٢٠٨ .

(٤٩) ابن سعد ٧ : ١١٤/١ ولم يؤكد ابن سعد الخبر وانما قال : «يقال» .

(٥٠) الفهرست ٣٥٤ .

(٥١) تاريخ العرب ٢/٣١١ .

(٥٢ ، ٥٣) قوت القلوب ٢/٢٢ .

عن حذيفة صاحب سر الرسول^(٥٤) ، بل ان فريد الدين العطار يروى ان الحسن « شرب في طفولته من جرة النبي في بيت ام سلمة ، فقال الرسول عليه السلام : من شرب هذا الماء ؟ قيل : الحسن . فقال : سيسرى اليه من علمي بقدر ما شرب من الماء »^(٥٥) وقد التفت العطار الى هذه الصلة التي لاحظناها بين الحسن وعلي فقال : « وكانت ارادته مرتبطة بعلي واخذ العلوم والطريقة عنه »^(٥٦) وبذلك يتبين ان الحسن يشبه عليا في العلم لانه قد تعلمه وانما اخذه عن النبي كما يتلقاه اي امام شيعي من جده بالوراثة الروحية وذلك أمر يصل الحسن البصري بالامامة الشيعية التي لم يكن للبصريين بها عهد . وينبغي ان نلاحظ ان حذيفة الذي سرى منه العلم الى الحسن قد كان متصلا بعلي بن ابي طالب وان العلم السري كان خاصا بعلي نفسه اما حذيفة فقد كان علمه محدودا يختص بمعرفة المنافقين فقط . ويتبين وصل الصوفية للحسن بعلي - وهذا هو الهدف الذي سنيته - من انه نقل عنه قوله في علي : « لقد فقدوه سهما من مرامز طيب »^(٥٧) ولما سئل عما رمى به من لومه عليا على الخروج قال : « كلمة باطل حققت بها دما وعدد لمعاوية اربع صفات موبقات »^(٥٨) وورد عنه عطفه - على الاقل - على العلويين في قوله : « لو كنت ممن رضى بقتل الحسين رضى الله عنه ، وعرضت علي الجنة ما قبلتها حياء من المصطفى (ص) »^(٥٩) .

وبعد هذا كله يجب علينا ان نصرح بان شخصية الحسن البصري قد نسجت - عند المتصوفة - على مثال شخصية علي فنسبوا اليه نشأته في بيت النبوة وتلك صفة علي ، ونسبوا اليه الاطلاع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ،

(٥٤) التعرف ٥٩ .

(٥٥) ٥٦ ، ٥٥) تذكرة الاولياء ٢٢/١ ترجمة .

(٥٧) حلية الاولياء ٨٤/١ .

(٥٨) ابن الاثير ١٩٣/٣ .

(٥٩) الكواكب الدرية ٩٧/١ .

وتلك صفة اخرى لعلي وكان الحسن البصرى يعبر عن زهده تعبيراً فيه حكمة وجمال وعمق كما كان يفعل علي - ولعل هذا هو الاصل في هذا التشابه - وقد سمي الحسن بسيد الفتيان (٦٠) وقد قيل في علي : « لافتي الاعلى » (٦١) ، بل لقد نسبوا الى الحسن ان عرض رنده كان شبرا (٦٢) ليحققه بعلى حتى في التكوين الجسمي .

اما بعد فيحسن بنا ان نذكر انه قد عز علي الحسن البصرى شىء واحد هو النسب العربي الذي احس كل اصحاب الكتب التي عرضت لسيرة الحسن البصرى باثره في الاقلال من السمو الذي ارتفع اليه هذا الزاهد فكلهم نسبه الى نفسه فقالوا الحسن بن ابي الحسن مع ان اياه هو يسار (٦٣)

وقد كان الحسن ذا عاطفة وحساسية نابعتين من تعمق في الصدور عن الاسلام فكان زهده اسلامياً صادراً عن جوهر المثل الاسلامية دون خروج بالزهد الى نمط جديد يختلف عما عكسه المسلمون الاوائل ، وكل ماجد فيه هو المبالغة في الحزن والعبادة تجاوباً مع الظروف الجديدة فكان - في حزنه - « اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكأنه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق الا له » (٦٤) . ومن هنا قال « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فان وافقه حمد الله وسأله الزيادة من فضله ، وان خالفه اعب واناب » (٦٥) ، وكان يقول : « طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح » (٦٦) وعلل حزنه بان المؤمن

(٦٠) المصدر نفسه ١/٩٩ .

(٦١) محاضرة الاوائل ٣٧ .

(٦٢) وفيات الاعيان ١/٣٥٤ .

(٦٣) ابن سعد ٧ : ١/١١٤ ، مروج الذهب ٢/١٦٣ ، امالي المرتضى ١/١٠٦ .

(٦٤) البيان والتبيين ٣/١٥٤ .

(٦٥) المصدر نفسه ٣/١٢٠ .

(٦٦) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢ .

« لا يسمعه غير ذلك لانه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه وبين اجل قد بقى لا يدري ما يصيب فيه من المهالك » (٦٧) وانه « لا يؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والانصب والاذاب والاتعب » (٦٨) . وقد كان الحسن يصدر عن نفس اسلامية اصيلة حين اجاب على سؤال من استفهم عن سبب بكائه : « اخاف ان يطرحنى غدا فى النار ولا يبالى » (٦٩) فخرج بذلك عن الاختيار والجبر ونفى ان يتحكم احدهما دون الاخر فعل أئمة الشيعة .

وقد كان الحسن - الى ذلك - يلبس الصوف (٧٠) فعل الكوفيين وقد رأيناه يصدر عن روحهم ، فيتضح بذلك انه كان نسخة بصرية فارسية من الامام علي ولم يختلف عنه الا فى شىء واحد هو ايثار السلم ولعل ذلك لا يدخل فى باب الاختلاف ايضا لان عليا كان يؤثر السلم ايام كانت المقاليد بيد غيره فكان ينصح للخلفاء ويطيعهم ، فلما تقيد بالخلافة ورأى ان لا سبيل الى الاصلاح الا بما فعل الرسول (ص) مع المكيين ، عندئذ سل سيفه ، وسنرى ان الصوفية قد جعلوا سيفه شيئا روحانيا الهيا ينبعث منه الحق والعدل . اما الخلاف الاخر فهو كون الحسن فارسيا ، وقد حاول كل الذين رووا سيرته سواء اكانوا عامدين ام غافلين ان ينفوا عنه ما يشير الى الفارسية فلم ينسبوه الى ابيه يسار بل نسبوه الى نفسه فقالوا دائما : الحسن كما مر بنا . وهذه المكانة السامية التى احتلها الحسن هى التى وصلته بعلى حتى رأيناه يوصل بسلسلة معروف فى اسناد الخرقه ، « وقد اخذها معروف عن داود الطائى - وهو كوفى كما رأينا - وهذا عن حبيب العجمى - الذى سيرد ذكره - وهذا عن

(٦٧ ، ٦٨) حلية الاولياء ١٣٢/٢ .

(٦٩) صفة الصفوة ١٧٥/٣ .

(٧٠) الكواكب الدرية ٩٩/١ .

سيد التابعين الحسن البصرى عن علي عليه السلام عن رسول الله (ص)» (٧١)
وقد عزز الحاج معصوم على ذلك بايراده - فى السلسلة الكميلية الصوفية - ان
نسبة الخرقه متصله بالنبي « البسها عليا فالبسها الحسن البصرى وكميل
ابن زياده» (٧٢) وهكذا نجد الاصول الشيعية فى الزهد البصرى كما
وجدناها فى الزهد الكوفى • ويجب ان نلتفت هنا اننا سنقابل التصوف فى
بعض اصوله موازيا للتشيع لا متصلا به مباشرة كما مر بنا من موازاة شخصية
الحسن البصرى لشخصية الامام علي وكما اتبناها الى الشبه القائم بين عمر
ابن عبدالعزيز وعلي ايضا • •

وما دنا بصدد الخوف ومدرسته فيجب ان نشير الى ان بصريا آخر كان
يصدر عن نفس اسلامية اصيلة فى الخوف الزهدى وقد قال ذلك البصرى
وهو هرم بن حيان - الذى كان عاملا لعمر بن الخطاب - : «لوددت انى
شجرة من هذه الشجر اكلتني هذه الراحلة ثم قذفتني بعسرا ولم اكايد
الحساب» (٧٣) وذلك يذكرنا بقول النبي (ص) الذى ينسب - على
الصحيح - الى ابي ذر : «لوددت اننى شجرة تعصد» (٧٤) • ثم وجدنا الخوف
يتطور والتجاوب له ينطور ايضا الى احد ان بهز بن حكيم - من طبقة
الحسن البصرى - خرميتا لما سمع الاية : فاذا نقر فى الناقور (٧٥) • ثم بدأ
البكاء يفصل عن سماع ايات القرآن وصار مجاهدة ملازمة للزهاد فرأينا
عطاء السليمى الذى بروى عنه ابراهيم بن ادهم انه كان «يمس جسده بالليل خوفا

(٧١) طبقات الاطباء، ٢٥٠ •

(٧٢) طرائق الحقائق ٣٩/٢ •

(٧٣) صفة الصفوة ١٣٧/٣ •

(٧٤) للمع ٣٧٨ •

(٧٥) صفة الصفوة ١٥٢/٣ ، المدثر : ٨ •

من ذنوبه مخافة ان يكون مسخ « (٧٦) ولقينا هشام بن أبي عبدالله (وهو الاسم الاسلامى الذى اختاره لنفسه سنبر الدستوائى المتوفى سنة ١٥٣) قد اظلم بصره لطول البكاء » (٧٧) وشعبة بن الحجاج « قد جف جلده على عظمه ليس بينهما لحم » (٧٨) ثم اذا بلغنا نهاية القرن الثانى صادفنا رياح بن عمرو القيسى المتوفى سنة ١٩٨/٨١٣-١٤ الذى « كان له غل من حديد قد اتخذه ، وكان اذا جنه الليل وضعه فى عنقه وجعل يبكى ويتضرع حتى يصبح » (٧٩) بل لقد بلغ من اندفاع بعض زهاد البصرة الى المجاهدة ان رأينا مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣١/٧٤٨-٤٩ يتمنى لو استطاع ان يصطنع المجاهدة حتى بعد موته وذلك بان يغل بالحديد بعد وفاته « فادفع الى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الابقى الى مولاه » (٨٠) . وهكذا تنتهى الى ان البصرة قد كانت موطناً للشعور بفساد الارض فكان الزهاد - احساساً منهم بهذه الظروف السيئة التى حاقت بالمجتمع الاسلامى وعجزاً عن تداركها واصلاحها - قد انزوى كثير منهم فى عقر داره أو فى سرداب يخلو فيه (٨١) كما فعل عبدالعزيز الراسبى معاصر رابعة العدوية . ويحسن بنا فى ختام بحثنا للزهد التقليدى فى البصرة ان نذكر بان الزهاد فى البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة علامة لهم تعكسها مدرسة لها رئيس هو الحسن البصرى ، ومما يذكر ايضا ان المجتمع البصرى الذى كان مليئاً بالخطايا والذنوب هو الاساس البارز لهذا المشرب فيها .

مظاهر الزهد البصرى الجديدة :

لقد استطاعت البصرة ان تشكل زهداً تابعاً من انعكاسات المجتمع على الزهاد باشكال تختلف باختلاف النفسية والاستجابة ، وقد رأينا البكاء

-
- (٧٦ ، ٧٧) صفة الصفوة ٢٤٦/٣ ، ٢٦٢/٣ .
 - (٧٨) صفة الصفوة ٢٦٣/٣ .
 - (٧٩) صفة الصفوة ٢٦٣/٣ .
 - (٧٩) صفة الصفوة ٢٨٠/٣ .
 - (٨٠) طبقات الشعراء ٣٢/١ .
 - (٨١) حلية الاولياء ٢٤٥/٦ .

والخوف فى الصفحات الماضية بحسبانها صادرين من جوهر المثل
الاسلامية التى اهدرت فى البصرة ، وسرى فى هذا الفصل شكلا اخر من
الزهد يتمثل فى الحب المضاد للبكاء والخوف ، ونعقب على ذلك بالتعرض
للمواعظ الذين احترقوا الابكاء .

الحب :

من الملاحظ ان البصرة وحدها هى التى استطاعت تطوير الخوف الى
الحب ، والسبب فى ذلك ان جوها لم يكن كجو الكوفة مليئا بغيار الممارك
التى ادت الى عكس ما كان الكوفيون يتطلعون اليه ، فلم يستطع الكوفيون
الخروج الى الحب لانهم كانوا يحسون بنقل الاثم الذى يعانونه ، بل لقد
رأوا شدة النزاع دليلا على الرحمة . اما البصريون فقد كانت ذنوبهم فردية
لاتصل بخيانة المبادئ او بالكبائر المتصلة بالمثل العليا ولهذا استطاع بعضهم
ان يقطع المسافة بين الخوف والحب فى مدة يسيرة قضيت فى التكفير السريع
عن السيئات التى بدت - اذا ما قيست بمثيلاتها فى الكوفة - هينة . يضاف الى
ذلك ان الكوفيين - فى تشيعهم - كانوا يصدرون عن حب عميق لاهل البيت
فلم يستطيعوا ان يفسلوه عنهم ويرتفعوا به الى الله على عكس البصريين
الذين لم يكن لهم ارتباط بامام يفترض فى اتباعه ان يكونوا له الحب الخالص
باعباره جزء لا يتجزأ من صلب العقيدة .

المحبون :

وكان عامر بن عبدالله بن عبد قيس هو اول زاهد استطاع ان يتخلص من احزانه
وهومومه بالاتجاه الى الله بالحب فقد كان يقول : « احببت الله جبا سهل على كل
مصيبة ورضائي بكل قضية ، فما ابالى - مع جبي اياه - ما اصبحت عليه » (٨٢)
وبذلك خرج الزهد من حدوده الضيقة التى حاصرها البكاء والحزن الى عالم

(٨٢ ، ٨٣) الكواكب الدرية ١/ ١٢٩ .

الرحب وابعث على التفاؤل وادعى الى التأسيس والتطور • ويجب ان نبين ان عامرا قد توفي في بيت المقدس ايام معاوية اى قبل سنة ٦٠ لان هذا التاريخ هو بداية ظهور فكرة الحب في البصرة وقد كان عامر قد تخلص عندئذ من الحقد والضغينة وامتألت نفسه بالحب لله والناس معا فكان يدعو لمن وشى به قائلاً : « اللهم ••• فاكثر ماله وولده واصح جسمه واطل عمره » (٨٣) •

وما دنا بصدد الحب فان من المهم ان نذكر زاهدا اخر من قبيلة شيعة في البصرة صدر عن المشرب نفسه ذلك هو خلود بن عبيدالله العصرى (عصر بطن من عبد قيس الشيعية) فقد كان يقول : « يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقي حبيبه؟ الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما » (٨٤) • وكان كهمس بن الحسن القيسى المتوفى سنة ١٤٩ / ٧٦٦ وارثا للمحبة معبرا عنها ايضا وكان يقول في جوف الليل : « اراك (لعلها اترك) » معذبي وانت قرة عيني يا حبيب قلباه » (٨٥) •

وجاء من بعده عتبة الغلام المعاصر لعبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧ / ٧٩٣-٩٤) وكان عتبة اكثر اندفاعا في الحب وافصح في التعبير عنه فقد كان يقول : « ان تعذبني فاني لك محب وان ترحمني فاني لك محب » (٨٦) • ولم يكتف عتبة بان يسأل الله ان ينزع شهوة النساء عن قلبه كما فعل عامر بن عبد قيس بل قرن المحبة بالانقطاع الى الله دون ان يشاركه في حبه احد فقال : « العرس في الدار الآخرة » (٨٧) ثم نواجه فارسيا تطور بالحب من الثقة التي استشعرها عتبة الى التبسط والاطمئنان فقد كان يقول : « وعزتك

-
- (٨٣) الكواكب الدرية ١ / ١٢٩ •
 (٨٤) صفة الصفوة ٣ / ١٥٤
 (٨٥) حلية الاولياء ٦ / ٢١٢ •
 (٨٧ ، ٨٦) صفة الصفوة ٣ / ٣٨١ •

انك لتعلم انى احبك» (٨٨) وهكذا رأينا الحب يتطور من صدوره عن الحزن عند عامر ثم التجائه الى الله ليذهب عنه الهموم والاحزان التى يعانىها فأحب الله جبا سهل عليه كل مصيبة لانه كان يؤمن به ايمانا لا شائبة فيه الى حد انه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » (٨٩) ولكى نعرف ما تعنيه هذه العبارة فان علينا ان نلاحظ انها قد نسبت بنصها الى على بن ابي طالب كما مر بنا وهكذا يصدر المحب الاول فى البصرة عن روح علوية تابعة من الرضى واطمئنان القلب بالايمان كانا طابع أئمة الشيعة كلهم • اما خلود فانه نصح بسلوك هذا الطريق لاعتقاده بانه طريق الخلاص الوحيد ، ثم جاء كهمس فصرف الى الحب نفسه وجهده الى حد تساهل معه عن امكان تعذيب الله له ثم قفى على آثار هؤلاء عتبة الغلام الذى صار الحب عنده طريقة ومذهبا ، ولم يكن يقصد بالحب ان يستجلب ثوابا او يدفع عقابا • ثم اذا بنا نشم رائحة القرب يعكسه لنا حبيب الفارسى بتأكده من حب الله له •

رابعة العدوية :

ويحسن بنا ان نذكر رابعة بين المحبين ، فيبدو - قبل كل شىء - انها متأخرة عن هؤلاء جميعا فقد لقيت سفيان الثورى وناقشته وافحمته وانته على كذبه فى حزنه (٩٠) • ويذكر المناوى انها ماتت سنة ١٨٠ و يروى ماسينيون انها ماتت سنة ١٩٥/٨١٠-١١ ، ويتوسط الدكتور قاسم غنى بينهما فيختار سنة ١٨٥ لوفاتها ، ولكن ابن خلكان يحدد موتها بسنة ١٣٥ ، وكذلك ابن العماد فى الشذرات وذكر ايضا احتمال موتها سنة ١٨٥/٨٠١ (٩١) ولكنه لم

(٨٨) صفة الصفوة ٣/٢٣٩ •

هو أبو محمد حبيب بن عيسى العجمي ، وقد ذكر السمعاني شهرته الواسعة فى التعشق والعبادة الى الحد الذى كان يفنى معه عن الذكر (الانساب ورقة ١٣٨٥) •

(٨٩) اللمع ٧١ •

(٩٠) الكواكب الدرية ١/١٠٨ •

(٩١) شذرات الذهب ١/١٩٣

يؤيد هذا الاحتمال . . والراجح انها توفيت بعد سنة ١٥٥ اى بعد نزول سفيان الثورى البصرة (٩٢) . ومهما يكن من امر تحديد وفاتها فانها اشهر من اعتنق عقيدة الحب هذه ولعل جوهر المسألة يكمن فى كونها امرأة .

واول واشهر ماينسب اليها قولها فى وصف حقيقة ايمانها : « ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته فاكون كالاجير السوء : عبدته حبا له وشوقا اليه » (٩٣) . وقد رأينا التداخل بين معنى هذا الكلام وبين عبادة الاحرار التى اصطبغ بها ايمان علي بن ابي طالب او حفيده زين العابدين . ثم هناك الابيات المشهورة التى اسندها ابو نعيم الى مجهولة :

احبك حين : حب الهوى وحبا لانك اهل لذاكا
فاما الذى هو حب الهوى فذكر شغلت به عن سواكا
واما الذى انت اهل له فكشفك للحجب حتى اراكا
فما الحمد فى ذا وفى ذاك لى ونكن لك الحمد فى ذا وذاكا (٩٤)

ويبدو من هذه الابيات التأخر اولا ، وضعفها باد فى التعبير وفى السبك وعليها مسحة الشعر التعليمى الذى يقصد به ضغط تفاصيل العلوم فى أبيات تحفظ عن ظهر قلب ، ونحله - لذلك - بين وان يكن الاتصال بين عبارة عامر : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » وبين عبارة : « فكشفك للحجب حتى اراكا » ظاهرا واضحا (٩٥) . وينسب الى رابعة بيتان يحتمل صدورهما عنها وهما :

-
- (٩٢) طبقات الشعرائى ٤٠/١ .
(٩٣) الكواكب الدرية ١٠٩/١ .
(٩٤) حلية الاولياء ٣٤٨/٩ .
(٩٥) مما يوضح هذا النحل خبر ينسب الى الكندى الفيلسوف (١٨٥) -
٢٥٢ حين عرض عليه شعر شبيه بهذا الذى نسب الى رابعة ، فقد
سمع انسانا ينشد ويقول : <

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وابحت جسمى من اراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد ايسى (٩٦)

وذلك يعنى انها فتحت باب الحضور الدائم فى القلب وان حب الله كان الشاغل الوحيد لها • ويستقيم مع هذا الميل الى الحب الالهى قولها لعبدالواحد ابن زيد حين خطبها : « يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك » (٩٧) ووثق العطار هذا الاتجاه بخبر اورده فى عرضه لرابعة يشتم منه ارتفاع الفروق الجنسية بين الرجال والنساء فى الزهد ، وذلك امر يدخل تحت الرهينة المسيحية ولكن التطور الذى مرت به فكرة الحب يجعل وصول الامر الى هذا الحد منطقيا ، اورد فريد الدين العطار « ان المرأة فى سبيل الله رجل وليس فى الاستطاعة ان تسمى امرأة » (٩٨) واسند ذلك بخبر رواه عن زاهدة اخرى قالت : « ينادى فى عرصات القيامة : يا رجال ، فتكون مريم اول من يتقدم من الناس » (٩٩) • وقد سارت رابعة فى القرب الى آخر الشووط وبلغت الولاية فيها اقصاها حتى سوغت لنفسها وهى واقعة تحت هذا الشعور ان تسخف الاتصال الجنسي حتى فى الجنة (١٠٠) فانارت عليها نائرة الناس

• وفى اربع منى حلت منك اربع فما انا ادرى أيها حاج لى كربى :
خيالك فى عينى ؟ ام الذكر فى فمى ؟ ام النطق فى سمعى ؟ ام الحب فى قلبى ؟
فقال : والله لقد قسمتها تقسيما فلسفيا (سرح العيون ص ١٥٨) •
وإذا كان هذا التعداد الجميل يدخل فى باب التقسيم الفلسفى فما
اخلق ابيات رابعة - والمفروض انها سابقة عليه ان تدخل المدخل نفسه
فتنقطع الصلة بين الابيات وبين زاهدتنا العاشقة التى لم تخطر لها المنطقة
والترتيب على بال •

(٩٦) الكواكب الدرية ١/١٠٩ •

(٩٧) مجموعة نصوص ٧ •

(٩٨ ، ٩٩) تذكرة الاولياء ١/٥٧ ترجمة •

(١٠٠) الكواكب الدرية ١/١١٠ •

حتى الصوفية انفسهم كل ذلك لترتفع المادية عن الحب ولو كان فى الجنة ويخلو لها وجه ربها الحبيب الفرد للعالمين جميعا • وهى - لذلك - كانت تريد ان تزيل الحائل الذى يمنع صفاء حب الله حبا مجردا من الغرض ، فقد رؤيت تحمل باحدى يديها ماء وبالاخرى نارا لتطفىء نار جهنم وتشعل الجنة فلا يبقى عند الناس من هدف الا الله « فيتجه عباد الله الى الله دون غرض من رجاء او خوف » (١٠١) •

أما بعد فان الحب قد عجز عن التغلب على الخوف بل لقد اقترن به وبالمجاهدة ، فقد كان عامر بن عبدالله المحب الاول « فرض على نفسه فى كل يوم الف ركعة وكان اذا صلى العصر جلس وقد انتفخت ساقيه من طول القيام » (١٠٢) ، وكان خلود العصرى « يقوم الليل ويصوم النهار » (١٠٣) وكان كهمس يصلى الف ركعة فى اليوم واللييلة ، فاذا ملّ قال لنفسه : « قومى يا مأوى كل سوء فوالله مارضيتك لله ساعة قط » (١٠٤) اما حبيب الفارسى فقد كان من اكثر الناس بكاء (١٠٥) وكذلك كانت رابعة التى « كان كفنها لم يزل عندها ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء » (١٠٦) وهكذا يتبين لنا ان الحب - وان تطور عن البكاء والخوف والمجاهدة فانه مازال فى البصرة مقترنا باصوله التى تفرع منها •

الوعظ والوعاظ فى البصرة :

لقد ظهر فى وضوح ان زهاد البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة طابعا

- (١٠١) مجموعة من النصوص تتعلق بتاريخ التصوف ص ٧ (ترجمة) •
- (١٠٢) صفة الصفوة ٣/ ١٢٦ •
- (١٠٣) الكواكب الدرية ١/ ١٠٢ •
- (١٠٤) حلية الاولياء ٦/ ٢١١ •
- (١٠٥) صفة الصفوة ٣/ ٣٣٧ •
- (١٠٦) الكواكب الدرية ١/ ٧٨ •

لهم وان المجتمع البصرى الذى امتلأ بالخطايا والذنوب قد كان فى حاجة الى قوم يذكرونه بأخطائه ويخوفونه ويحذرونه فظهرت طائفة الوعاظ والقصاص التى تأخرت عن ظهور الزهد كما يقضى المنطق بذلك • وكان صالح المري المتوفى سنة ١٧٢/٧٨٨-٩ من ابلغ الوعاظ واشدهم تأثيرا ، فقد قال فيه سفيان الثورى : « ليس هذا بقاص ، هذا نذير قوم » (١٠٧) والوعظ يذكرنا بما كان الامام علي يفعله فى الكوفة من التذكير بالعذاب والآخرة ومن قرنه حال الكوفة بحال مكة يوم بعث فيها النبي ، ولكن ما يلفت الذهن حقا ان اكثر الوعاظ كانوا فى البصرة وحتى فى الكوفة من الموالى كابن السماك الذى كان مولى لبني عجل وهذا صالح المري الذى كان مملوكا فاعتق (١٠٨) • ويجب ان نذكر هنا ان القصاص الذين كانوا يؤثرون فى عواطف الناس فيكونهم قد كان لهم اثر فعال فى بعث الناس الى الزهد واستمالتهم اليه وقد كانت تلك القدرة واضحة فى الفرس وهى مازالت حتى الان ظاهرة فيهم فى المساجد الشيعية فى العراق وايران ، فان قدرة الفارسى على استدرار الدمع تفوق قدرة العربى كما يستطيع ان يلمس ذلك كل من له اتصال بهذه البيئة • وقد كان صالح المري يجمع بين البلاغة والايمان بالزهد وضرورة البكاء وكان له مجلس فى البصرة يؤمه الناس « فكان - اذا اخذ فى قصصه - كأنه رجل مذعور يذعرك امره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى » (١٠٩) •

عبدالواحد بن زيد :

وكان عبدالواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣-٤ - وقد اعتبره ابن تيمية الصوفى الاول (١١٠) - مؤثرا فى مواعظه الى حد ان رجلا قد مات فى مجلس وعظه مرة (١١١) ، ومات اربعة فى مرة

(١٠٧، ١٠٨) صفة الصفوة ٣/٢٦٥ •

(١٠٩) حلية الاولياء ٦/١٦٩ •

(١١٠) الاسلام والحضارة العربية ٢/٢٨ •

(١١١) حلية الاولياء ٦/١٥٩-٦٠ •

اخرى^(١١٢) ، وكان هو نفسه محزوناً الى حد انه قيل فيه : « لو قسم بث عبدالواحد بن زيد على اهل البصرة لوسعهم »^(١١٣) وكانت مواعظ عبدالواحد تنصب على التخويف من النار بتجسيمها وتحض على الزهد وترك الدنيا وكانت مواعظه من طراز : « يا اخوتاه ، الا تبكون شوقاً الى الله عز وجل ؟ الا انه من بكى شوقاً الى سيده لم يحرمه النظر اليه • يا اخوتاه ، الا تبكون خوفاً من النار ؟ الا انه من بكى خوفاً من النار اعاده الله منها • يا اخوتاه ، الا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا اخوتاه الا تبكون ؟ فابكوا على الماء البارد ايام الدنيا لعله يستقيكموه في حظائر العرش مع خير الندماء والاصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا »^(١١٤) • وتذكرنا هذه الموعظة بعبارات علي بن ابي طالب ، وعلى ابن الحسين في ادعيته ، وفي هذه الموعظة نفسها عبارة تذكر برؤية الله القلبية التي صدرت عن علي الا وهى قوله : الا انه من بكى شوقاً الى سيده لم يحرمه النظر اليه •

مالك بن دينار :

ثم يخرج مالك بن دينار عن وعظ الناس فى مجتمعاتهم فيرتقى الى التوجيه السياسى الذى هرب منه اسلافه الزهاد فيعلن - بذلك - بدء حركة جديدة فى الزهد هى استقلاله الاجتماعى وظهور الزهاد بمظهر طبقة قائمة بذاتها ، وذلك ارهاص بانتهاء عهد العزلة وبدء عهد التجمع ، فقد كان يقول : « قرأت فى بعض الكتب : يجرأ براعى السوء يوم القيامة فيقال له : يا راعى السوء شربت اللبن واكلت اللحم ولم تؤوى الضال ولم تجبر الكسير ، لم ترعها

(١١٢) صفة الصفوة ٣/٢٤١ •

(١١٣) حلية الاولياء ٦/١٦١ •

(١١٤) صفة الصفوة ٣/٢٤٢ •

حق رعايتها ، اليوم انتقم منك « (١١٥) وكان مالك بن دينار يقول للناس :
 « اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا » (١١٦) وذلك صدى
 لتحذيرات على بن ابي طالب من الدنيا وقوله : « يا دنيا اليك عنى غرى
 غبرى » (١١٧) . وكان مالك الى ذلك - تجاوبا مع طبقة من الوعاظ - يرى
 البكاء والحزن ضروريين للقلب لانه « اذا لم يحزن حزبا كما ان البيت اذا
 لم يسكن خرب » (١١٨) .

وما دنا اشرنا الى ان اكثر الوعاظ البصريين كانوا من الموالي فلا بد لنا
 ان نشير الى ان شيوخ الزهد الحقيقيين فى البصرة كانوا من الموالي ايضا وان
 هذا التطور السريع فى الزهد البصرى حدث لانها تأثرت بالثقافات وبحاملها
 فيها وكانوا من الموالي على الاغلب لما رأيناه من انصراف العرب الى المثل القبلية .
 ويكفى ان يكون الحسن البصرى فارسيا ليكون للفارس الاثر الكبير فى زهد
 البصرة . ولا بد من الاشارة الى الموالي الاخرين لتتجلى هذه الحقيقة ، فقد كان
 ميمون بن سياه مولى وايوب السخيتانى مولى لعنزة وكان الحسن البصرى
 يسميه « سيد شباب اهل البصرة » (١١٩) . وكان عبدالله بن عون المتوفى
 سنة ٧٤٨/١٣١ مولى وكذلك حبيب الفارسى الذى يسميه الشعرائى
 « العجمى » ، وكان سنبر الدستوائى مولى لبنى سدوس (١٢٠) وقد توفى
 سنة ٧٦٩/١٥٣ موصالغ المرى وحماد ابن سلمة كذلك .
خاتمة :

ويجب علينا فى ختام عرضنا للزهد فى البصرة ان نلخص ما عرضنا له
 لنجمع خيوطه فى ايدينا فتبين من الزهد جوهره ومثله وما اثر فيه . لقد كان

-
- حلية الاولياء (١١٦ ، ١١٥)
 - حلية الاولياء ٢٨٧/٦ (١١٦)
 - صفة الصفوة ١/١٢٢٠ (١١٧)
 - حلية الاولياء ٢٨٧/٦ (١١٨)
 - صفة الصفوة ٣/٢٠٩ (١١٩)
 - المصدر نفسه ٣/٢٦٢ (١٢٠)

في البصرة زهد اسلامي مثله لنا الحسن البصري او زهد متأثر قليلا بالاحداث الحربية كالزهد الصادر عن الاحنف بن قيس الذي فتح باب المجاهدة حتى رأينا رياح بن عمرو القيسي يغل عنقه بالحديد • ثم رأينا البكاء التابع من الحزن والخوف من الذنوب ثم اذا بهما يتطوران الى الحب ويندمجان فيه • وادى الحب الى التبتل مبالغه في الانقطاع الى الله كما مثل لنا ذلك عتبه الغلام ثم رابعة العدوية ، ثم استقل التبتل عن الحب عند بعض المتصوفة فيما بعد • ثم رأينا في البصرة اتجاها جديدا هو اظهار شيوخ الزهاد على مثال الائمة على نحو ما رأينا من وصل شخصية الحسن البصري بشخصية علي بن ابي طالب • وكانت البصرة سبابة الى جمع الزهاد في طبقة اجتماعية كان رئيسها الحسن البصري وفاتنا ان نشير الى ان هذه الطبقة كانت تعيش من الصدقات او من تبرعات الزهاد الاغنياء كما فعل حبيب الفارسي وغيره (١٢١) الذين خرجوا من اموالهم لاثبات زهدهم الحقيقي • وظهر في البصرة اول انحراف عن طريق الزهد الرسمي مما رأيناه من مالك بن دينار الذي خرج من عزلة الزهد الى وعظ الحكام وتوجيه السلطان مما سيكون له اثره البالغ في مركز المتصوفة فيما بعد •

ومن الاهمية بمكان ان نجتمع في ختام عرضنا للزهد البصري النقاط التي اتصل منها الزهد بالتشيع فالول ما نشير اليه ان الزهد عموما قد شاع في الاسلام على صورته الجديدة لان اهل بيت النبي قد قتلوا وشردوا وسالت دماء الناس انهارا في سبيل نصرتهم ، ورأينا شخصية الحسن البصري نسخة ثانية من شخصية الامام علي مما يقطع باثره في الزهد البصري وهو على كل حال ازهد الصحابة كما رأينا ، ثم مر بنا تداخل كلام الحسن البصري مع كلام الامام علي ولم نشر الى ان هارون بن رثاب كان يلبس الصوف تحت

(١٢١) صفة الصفوة ٣/١٧٦ ، ٢٧٦ وحلية الاولياء ٦/١٤٩ •

نيابه (١٢٢) صنع جعفر الصادق • وكان الحسن البصرى يطلق على مرديه
 من الزهاد القابا اطلقت على الائمة فسمى ايوب السخيتاني سيد شباب اهل
 البصرة (١٢٣) كما سمي النبي الحسن والحسين سيدى شباب اهل الجنة كما
 هو مشهور • وكان عبدالله بن اربطبان يكتم غضبه ويقابل الاساءة
 بالاحسان (١٢٤) فعل على بن الحسين • وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على
 في خطابه للدينا: قد طلقك ثلاثا لارجعة لى عليك « فى قوله: « طلقت الدينا
 ثلاثا لا رجعة لى فيها حتى القاك» (١٢٥) (الخطاب لحوورية من الجنة كانت
 تنتظره فيها) • وقد رأينا البصريين يثورون مع ابراهيم بن عبدالله بن الحسن
 واحصى ديوانه منهم مائة الف رجل (١٢٦) ورأينا الزهاد ينصرونه •

-
- صفة الصفوة ٢٠٩/٣ (١٢٢)
 - صفة الصفوة ٢٠٩/٣ (١٢٣)
 - المصدر نفسه ٢٢٩/٣ (١٢٤)
 - الكواكب الدرية ١٣٧/١ (١٢٥)
 - مقاتل الطالبين ٣٨٨ (١٢٦)

الفصل الرابع

الزهد في الشام

البيئة الشامية :

كانت الشام عثمانية اموية حكمها معاوية ابتداء من سنة ٦٣٨/١٧ أيام عمر^(١) ثلاثا واربعين سنة وكانت له فيها رسالة طبقها ، كان يريد ان تكون مملكة له وحده كما كان ابوه يحكم مكة . وقد كان اكثر اهل الشام بحكم اعتيادهم الحكم الروماني واليوناني من قبل مطيعين لينين ولم يكونوا كأهل الكوفة والبصرة قبائل قريبة الخروج من الصحراء ، وهذا هو رأى ولها وزن الذي يضيف الى ذلك انهم « ما كانوا يعصون حكامهم حتى ولو كان هؤلاء الحكام من بنى امية »^(٢) . وكان أهل الشام بعد صفين مدللين وكان القتال كله ملقى على عاتق الكوفيين والبصريين كما مر بنا فعاشت الشام فى رخاء لم يذقه العراقيون ولم يحلموا به فى نومهم . وقد كان معاوية من الصحابة يفرض فيه ان يطبق مثل الاسلام الزهدية كما فعل ابو بكر وعمر وعلى ولكنه آثر ان يكون ابن ابى سفيان وحكم الشام كما يحكمها اى ملك روماني . وقد اورد لنا المسعودى^(٣) منهجه اليومى فرسم لنا صورة ملك دنيوى لا صلة له بعمر الذى ولاه الشام ولا بعلى الذى حاربه وكان يأكل الاطياب ويلبس النواعم ويجلس على الكرسي . بل لقد استطاع معاوية ان يبدأ سب على الذى حاربه من قبل فى بدر وغيرها وجعله سنة ينشأ عليها

(١) الطبرى ٢٠٣/٣ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها ٤٨-٤٩ .

(٣) مروج الذهب ٣٩/٣ .

الصغير ويهلك عليها الكبير واستمر السب من بعد موته اربعين سنة اخرى حين قيض للشام حاكم يصدر عن جوهر الاسلام فأعتبره سفيان الثوري الخليفة الخامس^(٤) - اى بديل معاوية - ذلك هو عمر بن عبدالعزيز الذي كان يفرض ان تكون سيرة معاوية سيرته • وبينما كان الزهاد في الكوفة والمدينة والبصرة يشتغلون برواية الحديث ويتحرون الصدق فيه وكانت الرواية صفة لازمة لاكثر الزهاد كان معاوية يلقى الاحاديث والتأويلات في ذم علي ويدفع مئات الالوف من الدراهم لنشرها بين الناس^(٥) وكان معاوية الى ذلك غنيا وقد تسرع بنصف امواله لبيت المال كأنه اراد ان يطيب له الباقي^(٦) • ومن الغريب ان مسلما مخلصا يعكس المثل الاسلامية على حقيقتها لم يستطع ان يحيا في دمشق أيام معاوية ، ولم يطلقه معاوية لانه ينه الناس الى حقائق هم عنها غافلون : ذلك هو ابو ذر الغفاري الذي رأيناه من رواد التشيع الاول • وقد سار على هذه السياسة جميع من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى أمية ، فهم « لا يكادون يرون في الشام رجلا لسنا منطقيا يحاول تنبيه الناس حتى يعدوه عنها »^(٧) •

وهكذا تبين الشام دولة مدنية قدمت الحياة على العقيدة - على عكس باقى الامصار - وكانت في عزلة فكرية اذا قيست بالكوفة والبصرة ، وكان نشاطها مقصورا على بعض « مناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء »^(٨) • وقد وصف صعصعة بن صوحان الشاميين بانهم « اطوع الناس لمخلوق »^(٩) والواقع ان الاطلاع على المثل الاسلامية الحقيقية لم يتح

(٤) صفة الصفوة ٦٣/٢ •

(٥) شرح نهج البلاغة ١/٣٦٢ •

(٦) الطبرى ٦/١٨٢ •

(٧) وعاظ السلاطين ٢١٥ •

(٨) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٩ •

(٩) مروج الذهب ٢/٧٨ •

للشاميين ، وقد كان الصحابة الذين انتقلوا الى بلاط معاوية هاربين من زهد على وتشدده الاسلامى مندفعين الى دنيا معاوية التى تكسو وتشبع ، وكان من هؤلاء عقيل اخو علي بن ابي طالب نفسه . وقد افصح مخلد بن يزيد عن جوهر اهل الشام حين دخل على عمر بن عبدالعزيز فى ثياب الزهاد - وكان عمر يتهمه - فقال له : « اتمم الائمة اذا اسبتم اسبلنا واذا شمتم شمنا » (١٠) وقد بلغ من انزال الشاميين عن اسسط المعلومات الاسلامية - وذلك هو هدف معاوية الذى تحقق - ان «اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة حلفوا لابي العباس السفاح انهم ما علموا للرسول قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بنى امية » (١١) ، وكانوا ايام معاوية يعتقدون ان « ابا تراب لص من لصوص الفتن وان عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر ، وكان منهم قوم يظنون معاوية ابا فاطمة امرأة النبي بنت عائشة اخت معاوية وان عليا قتل فى غزاة حين » (١٢) ، بل يروى الجاحظ ان حاجا من اهل الشام كان يعتقد ان احدا سوف يكلمه من الكعبة وكان يجهل محمدا ويظنه ربا » (١٣) .

هذه هى سداجة الشاميين ايام معاوية وبعدها ، وقد اجتمع الرخاء والسداجة فناموا ملء جفونهم ايام كان الكوفيون والبصريون ينفرون من الوساد خوفا من الاشباح والرؤى المزعجة . لهذا كله ضعف الزهد فى الشام وكاد يمتنع .

الزهد والزهاد :

لقد كان الامراء الامويون الحساسون هم السابقين الى الزهد كعثمان بن عتبة بن ابي سفيان الذى رفض الخلافة لانه امر السلم فكان منه ان تزهد ودخل مكة فى حملة ابن الزبير » (١٤) ، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٥ من هذا الفريق الحساس ايضا وقد كان فى نزعه يقول « اتفوز بنو امية بحلاوتها وابوء انا بوزرها ومنعها اهلها (يعنى العلويين) كلا

(١٠) تاريخ البعقوبى ٤٥/٣ .

(١١-١٣) مروج الذهب ٧٢/٢ .

(١٤) مروج الذهب ١٣/٢ .

انى لبرىء منها» (١٥) وقد نسب بنو امية المحافظون هذه الحساسية الى البدع
وعلل عمر القوصى معلم معاوية الثانى هذا التصرف منه بانه « مجبول ومطبوع
على حب على بن ابى طالب » (١٦) . وهكذا تبدو الحقائق من وراء الاستار
ويبدو على قدوة للأمويين المنصفين الصادرين عن جوهر الاسلام . وكان
حول الخلفاء نفر من الطامعين الجشعين يستغلون لهو الخلفاء الامويين عن
الرعية اشنع استغلال ويزينون لهم حياة الترف ، ومن ذلك ان يزيد بن
عبد الملك الذى نشر الخبز حاول فى بداية حكمه ان يطبق سياسة عمر بن
عبد العزيز ، فانبرى له هؤلاء الحاشية : « فأتوه باربعين شيخا شهدوا له ان
الخلفاء لاحساب عليهم ولا عذاب ، فأقبل على الظلم واتلاف المال والشرب
والانهماك على سماع الغناء والخلوة بالقيان » (١٧) . وقد كان فى الامويين
ناهون عن المتكر من امثال يزيد بن الوليد الذى ثار على الوليد بن يزيد لما
ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره سنة ١٢٦/٧٤٣-٤ (١٨) وليس لنا ان
نسى عمر بن عبد العزيز الذى سنعرض له فى اثناء بحثنا للزهد الشامى .

وليس معنى هذا كله خلو الشام من الزهاد ، فاننا سنجد زهادا يصدرون
عن روح الاسلام الزهدية وسنجدهم من الصحابة ولكن ذلك يجبرنا الى
ظهور الزهد فيها على نطاق واسع بعد ان ملأتها الحروب منذ بداية القرن
الثانى الى ان زالت الدولة الاموية ، وصارت الشام كوفة اخرى ايام العباسيين
وصارت الجزيرة ماثبة للخروج (١٩) .

وبذلك يتبين لنا جوهر الزهد الاتى من الظروف السياسية والاجتماعية

-
- (١٥) الطبرى ٨٢/٣ .
(١٦) اخبار الدول ١٣١ .
(١٧) شذرات الذهب ١/١٢٨ .
(١٨) مروج الذهب ٢/١٩٣ .
(١٩) تاريخ اليعقوبى ٣/١٤٢ .

والنفسية التي تدفع قوما الى القتال وفريقا الى الانزواء والتعلق بالزهد ، وسنجد الزهد الخراساني المتأثر بالاحداث الشيعية فيها ينزل الشام ليستقر فيها . وقد كان في الشام قوم من زهاد الصحابة كأبي الدرداء^(٢٠) الذي اصطبغ زهده بالهرب من الحروب كما رأينا من تركه جيش معاوية في صفين وانقطاعه الى العبادة . وقد كان ابو الدرداء صديقا لسلمان^(٢١) ، ويبدو ان زهده لم يعجب الشاميين شأنهم مع ابي ذر فقد كان ابو الدرداء يشكو من ان اهل الشام يمنونه مودتهم^(٢٢) ، ولعل ذلك كان لقوله : « يا اخي ، لاتفترن بصحابة رسول الله (ص) فانا عشت بعده دهرا طويلا ، والله اعلم بالذي اصبنا بعده »^(٢٣) . ويبدو ان معاوية اول من اتبه الى دور الزهد في شيط العزائم وايهان القوى والهرب من القتال ، فقد اسبغ معاوية على يزيد بن الاسود شيئا من القدسية فاستسقى به بعد قحط وكذلك كان الامر مع ابن قيس الفهري^(٢٤) .

وكما كان الخوف ركن الزهد في الكوفة والبصرة وجدناه كذلك في الشام ايضا ، وقد عكسه لنا يزيد بن مرثد الهمداني^(٢٥) على نحو مبالغ فيه وكذلك ابو بكر الغساني وامية الشامي في القرن الثاني^(٢٦) ، وكما كان الظلم باعنا للناس في الكوفة والبصرة على الزهد صار في الشام كذلك بحيث اصبح موت عبد الملك بن مروان من بعد عظمتها العسكرية وحروبه وتقتيله الناس عبرة حدث بصديقه عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية الى الزهد

(٢٠) ذكر ابن سعد انه توفي سنة ٣١ أو ٣٢ بالشام في خلافة عثمان

(الطبقات ٧ : ١١٧/٢)

(٢٣-٢١) صفة الصفوة ١/٢٥٩

(٢٤) صفة الصفوة ٤/١٧٣

(٢٥) المصدر ٤/١٧٥

(٢٦) المصدر نفسه ٤/١٨٧

« فاجتهد في العبادة حتى صار كأنه شيء بال » (٢٧) . وكان الناس حائرين بين ما يبدو من امرائهم الحساسين من تجاوب مع الاحداث وبين ما يرويه لهم شيوخهم واولياء خلفائهم من ان الحق معهم ، ففاه عبدالله بن عبدالاعلى المعاصر لعبدالمك بن مروان بمقالة هي ملاك جوهر الناس ومظهر لنفوسهم وعقولهم وارواحهم قال - يعنى الدنيا - : « دخلتها جاهلا واقمت فيها حائرا واخرجت منها كارها » (٢٨) وقد كانت هذه الحيرة وهذا الجهل حافزين قوين للناس على الزهد فى الشام كما مر بنا مما اراده الامويون لاهل الشام من جهل وبعد عن النظر الصحيح وحرية التفكير ، وصارت المجاهدة - لهذا السبب - من مناهج الزهاد فى الشام ايضا على نحو ما كان يفعل ابو مسلم الخولاني المتوفى سنة ٦٥ من قوله : « انا اولى من الدواب بالسوط ، فاذا دخلته فترة مشق ساقه سوطا » (٢٩) .

وقد برز زهد الشام فى أمر جديد هو الجوع وكان يقابل الصوف الذى كان شعار الزهد فى الكوفة والحب والبكاء الذين وجدناهما من ابرز اوصاف الزهد فى البصرة ، ولهذا فان الزهاد فى الشام يسمون جوعيين كما اخبرنا الكلاباذى من قبل . وقد يبدو الجوع غريبا من حيث انه نقطة تجمع المثل الزهدية فى الشام ، ولكن هذه الغرابة تبدد بمعرفتنا ان الشام كانت ريفا (٣٠) لايجوع فيه انسان فكان الشبع أمرا يورث اللامبالاة فيها وينسأى بالنفس عن ادراك ما يحيط بها من مظالم فيقوم الشبع سدا يمنع الناس من التفكير فى غيره . وقد كان عمر بن الاسود السكونى الزاهد القديم « يدع كثيرا من الشبع مخافة الاشر » (٣١) وقد مثل لنا ابو سليمان الداراني الزاهد

(٢٧) صفة الصفوة ٤/ ١٨٧ .

(٢٨) البيان والتبيين ٣/ ١٤٨ .

(٢٩) صفة الصفوة ٤/ ١٨٧ .

(٣٠) ضحى الاسلام ٢/ ٨٤ .

(٣١) صفة الصفوة ٤/ ١٧٣ .

الشامي المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ اثر الشيع في النفس بانه رأى طائرين
« يلتقطان الحب ، فلما شبا اراد الذكر الانثى . فقال : لما شبا دعتة بطنه الى
ما ترى » (٣٢) وفي هذا القول اشارة الى تأثير المثل المسيحية في الزهد الشامي
وذلك اتنا قد لاحظنا ان ابا سليمان يقرن بين الشيع واللذة الجنسية التي
اعتبرها قاذحة في الزهد وذلك تقليد مسيحي واضح .

وقد كانت الشام اول بلد اسلامي يقام فيه رباط صوفي على نحو ما رأينا
من انشاء ابي هاشم الكوفي له .

اما بعد فليس من موضوع هذه الرسالة تفصيل القول في خصائص كل
بلد في الزهد ، ولكن هذه مقدمة لا بد منها للتعرف الى الزهد الشامي وقد
نبذوا الشام بعد بيئة يمكن ان تتأثر بالتشيع .

عمر بن عبدالعزيز :

واول ما يجب ان ننبه اليه ان عمر بن
عبدالعزيز (الذي حكم من سنة ٩٩/٧١٧ الى سنة ١٠١/٧٢٠ بعد
سليمان بن عبدالملك الذي اشاع الخبز) لم يحكم على مثال عمر بن الخطاب
ولم يصدر عن مثل زهده كما هو مشهور بين الباحثين وانما كان صورة من على
ابن ابي طالب شأن معاصره الحسن البصري الذي مر بنا في زهد البصرة .
لقد كان عمر بن عبدالعزيز رجلا دين لاسياسة
كما كان على ، وكان عمر بن الخطاب يجمع بين
الدين والسياسة وقد وجدنا عمر بن عبدالعزيز موضع سخرية دوزي (٣٣)
من حيث هو سياسي ، ولو كان على مثال عمر بن الخطاب ما سخر منه
ولا انتقده . وكان عمر بن عبدالعزيز يطفىء الشمعة اذا انتهى من نظر امور
المسلمين لانها سمعتهم (٣٤) وذلك يذكر بعلي بن ابي طالب الذي قسم رغيفا
سبعة اسهم ، ومن الملاحظ انه اول خليفة اموي يبطل سب على المنابر .

(٣٢) حنية الاولياء ٢٦٨/٩ .

(٣٣) الدولة العربية وسقوطها ٢٤٥ .

(٣٤) صفة الصفوة ٦٧/٢ .

وقد جمع اصحاب كتب التصوف بينه وبين الخضر (٣٥) كما فعلوا مع علي بن ابي طالب . وكان من المعروف ان التقابل بين الحق والباطل يستغرق الامويين والعلويين فقط ، فكان عمر بن عبدالعزيز يسمى اعمال اهل بيته : مظالم (٣٦) . وكان يردد دائما : اوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء (٣٧) وتلك لازمة على بن ابي طالب التي ترد في اقواله كثيرا . وكان عمر بن عبدالعزيز يقول : « الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين . في كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا الى الله عز وجل ، قد قضى نحبه وانقضى اجله حتى تغيبوه في صدع من الارض في بطن صدع ثم تدعونه غير مههد ولا موسد » (٣٨) ، وتلك معاني علي بن ابي طالب التي مرت بنا فيما مضى . وقد كان عمر كتب الى عامله في العراق ان يكف اذاه عن اهل الكوفة « الذين اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء » (٣٩) وقد كان عمر الى ذلك يقتضى سياسة علي بن ابي طالب كما اقتضى اثر افعاله واقواله ، فقد احتاجت مدينة الى مرمة ، فكتب عامله يخبره بذلك ، فقيل له : ان بعض عمال علي بن ابي طالب كتب بمثل هذا وكتب اليه : اما بعد فحسبنا بالعدل ونق طريقها من الجور . فكتب بذلك الى عامله « (٤٠) . وقد كان عمر يرتدى اطمارا غليظة حين ولي الخلافة كما كان علي وعمر بن الخطاب يفعلان ، ولم يترك عمر بن عبدالعزيز الا اربعمائة دينار ، وقد كانت غلته لما ولي الخلافة اربعين الف دينار ، وذلك يذكرنا بعلي ايضا « (٤١) . وقد كانت نهاية عمر القتل بالسم لان الامويين خافوا ان يخرج ما بأيديهم من

-
- (٣٥) الكواكب الدرية ١٤٣/١
 - (٣٦) تاريخ اليعقوبي ٤٨/٣
 - (٣٧) صفة الصفوة ٦٤/٢
 - (٣٨) المصدر نفسه ٧٠/٢
 - (٣٩) ابن الاثير ٢٣/٥
 - (٤٠) تاريخ اليعقوبي ٤٩/٣
 - (٤١) حلية الاولياء ٢٥٧/٥

أموال وان يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد (٤٢) . وقد كان يقال في عمر : « الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد . انما الزاهد عمر بن عبدالعزيز » (٤٣) . وقد كان الحسن البصرى وكذلك وهب بن منبه يقولان : « ان كان في هذه الامة مهدي فهو عمر بن عبدالعزيز » (٤٤) . بل لقد اورد السيوطى أخبارا عن ابى عساكر والترمذى وابن سعد رواية عن عمر وابن عمر انه كذلك (٤٥) . ومما لاشك فيه ان زهد عمر بن عبدالعزيز اسلامى خالص يمثل جوهر الدعوة الاسلامية وملاك ما يورده الاسلام ويتطلبه من من خليفة المسلمين .

ابو سليمان الداراني :

وقد كان فى الشام زاهد آخر من طراز عمر بن عبدالعزيز هو ابو سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ وكان عراقى الاصل من واسط التى بناها الحجاج لتكون فى منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة . وقد عرضنا لابي سليمان - على تأخره - لانه ذو أثر كبير فى زهد الشام وفى تاريخ التصوف ، فقد كان اول من اسس للتوكل عقيدة مستقلة . والتوكل فى حقيقته البعد عن مناقشة ما اوجبه الله والتسليم المطلق للإرادة الالهية . والنظرة العميقة ترى انه جوهر الاسلام وليس تبعا لخيط من خيوطه المشابكة . فليس التوكل جريا وراء التفويض ولا وراء الجبر وانما هو تسليم بواقع الاسلام الذى يجمع كل هذه المعانى ، وتلك خطة تذكرنا بما اختاره الائمة لانفسهم من اتباع الاسلام كله لا اختيار فكرة يتضمن القرآن كثيرا غيرها فيكونون كانوا رضوا جزءا من الاسلام وتركوا منه اجزاء . وقد كان ابو سليمان يصدر عن هذه الفكرة لقوله : « من رضى بكل شئ فقد بلغ حد

(٤٢) الطبرى ١٨/٥ .

(٤٣) حلية الاولياء ٢٥٥/٥ .

(٤٤) حلية الاولياء ٢٥٧/٩ .

(٤٥) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

الرضى ، ومن تورع في كل شيء فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد في كل شيء فقد بلغ حد الزهد» (٤٦) . ويجب ان يفهم الرضى والتوكل فى التصوف على هذا الاساس الشيعى لاعلى انه نوع من الجبر . ومن هذا التسليم المطلق الذى توحى به الثقة تصدى ابو سليمان لزهاد الكوفة الضعفاء الخائرين الذين كانت الوسواس والرؤى تملأ احلامهم فقال : « انما يجىء الوسواس وكثرة الرؤيا الى كل ضعيف » (٤٧) . وكان هذا الاخلاص من ابى سليمان يدعوه الى القول : « لو شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى » (٤٨) وتلك مقالة علي بعينها : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيننا ، وقوله : وان معى لبصيرتى ما لبست على نفسى ولبس على » (٤٩) . وقد ورد النور - الذى وجدناه عند الغلاة وقد عنوا به الله - فى اقوال ابى سليمان الدارانى من عراقيته وقربه من الكوفة ، فقد كان يقول : « لا يزهد فى شهوات الدنيا الا من وضع الله فى قلبه نورا يشغله دائما بامور الآخرة » (٥٠) . وكان ابو سليمان الدارانى كالمختار وغلاة الشيعة « يرى الملائكة يكلمونه » (٥١) . لقد وردت فى اقوال ابى سليمان العصمة الشيعية التى جمع الادلة لها هشام بن الحكم كما مر بنا من قبل ، وابو سليمان هو القائل : « انما عصى الله من عصاه لهُوانهم عليه ، ولو كرموا عليه لحجزهم عن معاصيه » (٥٢) وهكذا وصل ابو سليمان الحب بالولاية وجعل منها شيئا واحدا يودى بالولى الى مقام الامام الشيعى المعصوم ، وتلك صلة بارزة بين التشيع والتصوف سيكون لها اثرها فيما بعد فى تطوير فكرة التصوف الى فكرة الحلول والاتحاد . ويجب أن لا نفهم

-
- (٤٦) حلية الاولياء ٢٦٠/٩ .
 - (٤٧) المصدر نفسه ٢٦٠/٩ .
 - (٤٨) المصدر نفسه ٢٥٦/٩ .
 - (٤٩) نهج البلاغة ٣٨/١ .
 - (٥٠) تذكرة الاولياء ٢٣٢/١ .
 - (٥١) البداية والنهاية ٢٥٩/١٠ .
 - (٥٢) صفة الصفوة ١٩٨/٤ .

من أقوال أبي سليمان انه كون هذه الافكار في الشام ونحتها من
بيئتها لانه يعترف بكونه زاهدا عاملا منذ كان في العراق ولكنه يبين انه
اشتهر في الشام^(٥٣) . وبذلك تبدو لنا جذور زهده الذي انصب فيه زهد
الشام حتى وصل الى بغداد لتسلمه مدرستها فمزجه بالافكار التي وصلتها من
الكوفة والبصرة ومصر وخراسان فتكون مدرسة التصوف البغدادية التي
سارت بالافكار الصوفية شوطا بعيدا .

كعب الاحبار :

ويحسن بنا ان نذكر بان زاهدا قديما قد
عبر عن العصمة في الشام ، ذلك هو كعب الاحبار - اليهودي السابق - المتوفى
سنة ٣٢ الذي كان يقول : « مؤمن عالم اشد على ابليس وجنوده من مائة الف
مؤمن عابد لان الله يعصمهم به من الحرام^(٥٤) . ولا بد ان نشير الى ان
كعب الاحبار هذا قد كان سابقا الى البكاء ونعله نقل عن دينه القديم قوله :
« لان ابكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي ، احب الي من ان
اتصدق بوزني ذهبا . والذي نفس كعب بيده ما بكأ عبد من خشية الله حتى
تقع قطرة من دموعه على الارض فتمسه النار ابدا^(٥٥) ، وقصة ايوب تحتل
ركنا مهما من الادب الاسرائيلي القديم وهي سنين من البكاء المر ولعل تشابه
الظروف يورث ردود فعل متشابهة .

خاتمة :

بقي ان نقول كلمة اخرى في بيئة الشام ، ذلك انها قد دخلت فيها
الآراء الشيعة الغالبة ايضا ولكن على صورة جديدة لاتصل بامام علوي

(٥٣) صفة الصفوة ٤/١٩٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ٤/١٧٦ .

(٥٥) المصدر نفسه ٤/١٧٦ .

كما فعل الشيعة في الكوفة ، وانما هي فكرة فردية مائة كالحلمانية اتباع ابي
حلمان الدمشقي الفارسي الاصل الذين كانوا يقولون : « كل شخص حسن
فروح الاله حال فيه » (٥٦) « فاذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها » ، وكان ابو
حلمان يقول : « من كان اعتقاده مثل اعتقادي فلا تكليف عليه ، وكل ما يشتهي
فهو حلال » (٥٧) وتلك افكار واضحة الصلة بافكار الكوفة الغالية بكل
دقائقها . ومن ذلك نخرج بان الشام - وان كانت اموية الجذور - قد تأثرت
بالزهد الكوفي النابع من عقيدتها الشيعية الى حد ان افكار الغلاة التي تكون
اعلى ما وصل اليه التناقض بين الشام والكوفة قد وجدت لها منفذا الى الشام على
هذه الصورة التي عكسها لنا ابو سليمان الداراني وابو حلمان الدمشقي
بالاضافة الى ما رأيناه من أثر على : خصم الامويين الاكبر في أمرائهم وبعض
• خلفائهم •

(٥٦ ، ٥٧) البتصير في الدين ٧٧ •

الفصل الخامس

الزهد في خراسان

البيئة الخراسانية :

قبل ان نخوض في الزهد الخراساني يحسن ان نقرر ان خراسان التي نعنيها هي المنطقة التي تستغرق مجموع مدن بلخ ونيسابور وسرو السروز وبيروود و نسا وغيرها (١) وتقع هذه المنطقة في الشمال الشرقي من ايران الحالية . ويجب ان نقرر اولا ان خراسان لم تعاصر احدا من الخلفاء الراشدين وهي مسلمة كالبلدان الاسلامية الاخرى ، لانها فتحت صلحا سنة ٣٠/٦٥٠-٥١ أيام عثمان وظلت ثائرة عاصية الى مقتل علي بن ابي طالب سنة ٤٠ (٢) . وقد ارسل اليها معاوية زهاء خمسين الفا من البصريين والكوفيين بعيالاتهم (٣) ليحاول ان يكسر حدة ثورتها القومية . وكانت خراسان - من الناحية الادارية - مرتبطة بالبصرة ايام الامويين (٤) ، ولكن يبدو انه لم يستطيعوا تحقيق غرضهم لاننا وجدناها ثائرة على الدوام . ويخبرنا البلاذري ان هشام بن عبد الملك ارسل اليها عشرين الفا من اهل البصرة والكوفة لمحاربة الترك فيها (٥) ، وقبل ذلك كتب عاملها الى عمر بن عبدالعزيز يخبره « بان اهلها لا يصلحهم الا السيف والعصا » (٦) ، ولكن عمر بن عبدالعزيز الذي يعلم كيف عوملت خراسان وكيف استعجل الخراسانيون التخلص من الجزية بالدخول في الاسلام بدون ايمان صادق به وخيب الحجاج املهم باصراره على أخذ الجزية منهم - كتب الى عامله : « بل كذبت ، بل يصلحهم العدل

(١) تاريخ اليعقوبي ٤٠/٣ .

(٢) فتوح البلدان ٣٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ٤٠٠ .

(٤) تاريخ العرب ٣٩/٢ .

(٥) فتوح البلدان ٤١٨ .

(٦) الكواكب الدرية ١٤٣/١ .

والحق فابسطه فيهم» (٧) وهكذا تكون في قلوب الخراسانيين اول رد فعل ضد الاسلام وكانت معاملة الحجاج لهم اول مأخذ لهم على العرب الذين كانوا يدعون الى الاسلام او الجزية او القتل فلم ينجبهم الاسلام من الجزية ولا من القتل وقد ادرك عمر بن عبدالعزيز عيب السياسة الاموية لخراسان فكتب لعامله ما كتب .

لقد كانت خراسان معقلا من معافل القومية الفارسية لم يستطع الناقلة الكوفيون والبصريون ان ينالوا من شدة تعلقها بجنسها وقوميتها الى حد انه قد اشير على هشام بن عبدالملك بانه « انما يقوى على خراسان من كانت له بها عشيرة من جنودها» (٨) والى حد ان بيئة خراسان قد اذابت الجنس العربي في تقاليدها وعرفها فكانوا يرون انفسهم خراسانيين (٩) . وعلينا ان نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا ونقرر من الان ان خراسان قد كانت فارسية اصيلة لم يؤثر الاسلام ولا تقاليد ولا سيوف الفاتحين ولا منطق اصحاب الفرق في قوميتهم او تقاليدهم . بل يخبرنا ولها وزن ان لغة السوق في البصرة والكوفة هي - على ما يقال - فارسية وعربية بمقدار واحد (١٠) ، وذلك يدل على قوة الشعور بالقومية الفارسية وعزتها فيها . وقد عربت المدن الفارسية القريبة من العراق فاستقرت عربيتها وكانت شيعية الهوى في الاكثر : فكانت المدائن شيعية اصيلة (١١) وكذلك قم التي مصرت سنة ٧٢٢/٨٣ (١٢) ونزلها الاشعريون الذين قتل الحجاج قائدهم محمد بن السائب فصارت شيعية (١٣) وصارت مركز الاسحاقية الغالية فيما بعد (١٤) . وكانت المدن الفارسية

(٧) الكواكب الدرية ١/١٤٣ .

(٨) الاخبار الطوال ٢٩٢ .

(٩) ، ١٠ . الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ (عن الطبرى) .

(١١) شخصيات قلقة في الاسلام ٢٣ .

(١٢) معجم البلدان ٧/١٦٠ .

(١٣) تاريخ الكوفة ١٨٣ .

(١٤) الحضارة العربية في القرن الرابع ٨٠ .

القريبة من العراق كالمدائن على هذه الشاكلة وشاركت العالم الاسلامي في صدوره عن الاسلام مشاركة ايجابية الا خراسان المتطرفة البعيدة عن التسلط العربي وتأثيره . وقد حملت لواء المقاومة بالسلاح اولاً ثم بالعقيدة ثانياً وبالزهد الذي سنراه في هذا الفصل اخيراً . ولعل خير ما نوردته للتدليل على هذه الروح ان ولها وزن يذكرنا بان سقوط الدولة العربية (الاموية) لم يحصل من اهل ما وراء النهر الذين ظلوا ايرانيين مناوئين للعرب بل من الخراسانيين الذين اسلموا^(١٥) ، وتلك اشارة الى الخطة التي اختطتها خراسان في مقاومة الفتح العربي وهي التي تسلمت امانة الدفاع عن الوطن الفارسي وحمائته . وقد رأينا في بحث التشيع كيف اسهم الموالي في الثورة التي قادها المختار على أمل المشاركة مع العرب على قدم المساواة في الافادة من خيرات بلاد الاسلام ومثله وكيف نكل بهم مصعب بن الزبير شر تنكيل وكانوا منذ البداية دون العرب حتى في الحرب فانهم كانوا يباشرون الحرب راجلين^(١٦) . لهذا كله وجدناهم يناصرون العباسيين الذين آلت اليهم الدعوة من ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ضد الامويين لانه كان يعتمد على نصرهم^(١٧) ، ولم يعتمد عليهم جعفر الصادق لانه لم يكن يرى المعارضة الايجابية او يطمح الى قلب نظام الحكم وهذا هو الذي يفسر لنا الثورة التي كانت تأجج في صدور الخراسانيين الذين اضمروا الغيظ للدولة العربية التي استعبدتهم فلم تعاملهم بما يليق بهم بل اذلتهم واحتقرتهم . وكان الخراسانيون لب الفرس وفيهم جوهر روحهم النائرة ، فكان ان حملوا لواء المعارضة واستطاعوا ان يحققوا كثيراً من اغراضهم . ويؤيدنا فيما نذهب اليه باحث فارسي حديث هو الدكتور قاسم غني الذي يقول : « وكان الفرس الذين يعتبرون انفسهم ابناء الاحرار - وكانوا ينتقصون

(١٥) الدولة العربية وسقوطها ٢٩٤ .

(١٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٣ .

(١٧) تاريخ اليعقوبي ٤٠/٣ .

العرب في زمن الساسانيين - قد وصلوا الى درجة من الذل والهوان بحيث اطلق عليهم اسم الموالي وصاروا في عداد العبيد وابناء الاسرى . وبلغت بهم الحال ان مصعب بن الزبير ضرب اعناق اربعة الاف رجل منهم في يوم واحد وذلك بعد تغلبه على المختار ، (١٨) ، وهو يرى - مع براون - ان التشيع والتصوف كانا من الاسلحة التي حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم (١٩) . وهو رأى سبقهما اليه ابن حزم (٢٠) . وهذا باحث ايراني اخر يخبرنا بانه « قد ظهر التصوف في ايران في عصر تسلط على وطننا فيه عدو قوى ، فلما لم يجد الايرانيون في انفسهم قدرة على مخالفة الاعداء ومبارزتهم سلكوا سبيل الهزيمة واتخذوا القوى الغيبية معتقدا لهم ، والقوا سلاحهم في ميدان تنازع البقاء وعلى هذا فقد كان التصوف حينئذ ضرورة من الضرورات ،

(١٨) تاريخ تصوف در اسلام ٢١ ترجمة .

(١٩) تاريخ تصوف در اسلام ٣-٤ .

(٢٠) لقد اشتهر براون بهذا الرأي وأقر له بأصالته سائر الباحثين المحدثين . وقد عرض ابن حزم للفكرة نفسها وعبر عنها بعبان وكلمات تكاد تطابق ما اوردناه هنا ، فقد ذكر ، في معرض تناوله الغلو الشيعي ، ان « الاصل في اكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الاسلام ان الفرس كانوا يسمون انفسهم الاحرار والابناء (ابناء الاحرار) وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب أقل الامم عند الفرس - تعاطمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة في أوقات شتى ، ففي كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق فظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا اهل التشيع باظهار محبة اهل بيت رسول الله -ص- واستشناع ظلم على - رضي الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الاسلام » (الفصل ٢/١١٥) . هذا ما يتعلق بالتشيع الغالي . واما التصوف فقد قال فيه ابن حزم : « واعلموا ان كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة - ممن ينتمى الى الاسلام - فانما عنصرهم الشيعة والصوفية : فان من الصوفية من يقول : من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى » (الفصل ٤/١٨٨) . وقد استشهد ابن حزم لتأييد ذلك بما كان يفعله ابو سعيد ابو الخير (كذا) المعاصر له في نيسابور (١٨٨/٢) وذكر الحلاج ايضا واتهمه بالتهمة ذاتها (١١٤/٢) .

وليس اليوم كالامس» (٢١) . وقد رد الدكتور قاسم غنى على ما قد يرد من اعتراض المعترضين من الفرس بقوله : « ويجب ان نوضح - في هذا المقام - ان ردى الفعل هذين : التصوف والتشيع ، لم يأتي عن اختيار وعمد واردة على خطة مرسومة يراد بها الانتقام بل كان اكثر ذلك متأيا بحكم الانفعال النفسى وبتأثير العواطف والاحاسيس الخفية على صورة يعرفها علم النفس اى ان ذلك قد حدث غالبا دون ان يجد له الناس علة واقعية ودون ان يحلوه ، ولكن ذهنهم كان مسوقا الى هذا العمل بهذه الطرق» (٢٢) .

الزهد والزهاد :

وعلى هذا فقد كان الزهد الذى خرج من خراسان طليعة هذه المقاومة السلبية ، وقد بدأ بخروج عبدالله بن المبارك و ابراهيم بن ادهم مع جماعة عدتهم ستون ، وكان الغرض الظاهرى - كما قال عبدالله بن المبارك - « نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيرى» (٢٣) . ويجب ان نشير هنا الى ان خراسان كانت مركزا من مراكز التشيع غير المتعين . فقد شجعت خراسان ابا هاشم المتوفى سنة ٩٧ كما نصرت زيدا النائر بالكوفة سنة ١٢١/٧٣٩ وآوت ابنه ، ثم دخلت فى دعوة عبدالله بن معاوية الذى كان يحمى من العباسيين من صاروا خلفاء من بعده ورأينا مولد فكرة النور الذى هو الله فى ذلك الوقت وكان يتاسخ فى الائمة . وقد اله الرزامية بعد ذلك ابا مسلم الخراسانى سياقة للامامة اليه من ابراهيم الامام (٢٤) ، وقال الخرمية بذلك فكان ان قتل المنصور منهم ستين الفا (كذا) سنة ١٣٦/٧٥٣-٤ بعد ان ثاروا عليه (٢٥) وبددهم فى الارض سنة ١٤٥/٧٦٢-٣ (٢٦) وكان الرزامية يقولون فى ابى مسلم مقالة ابن الحارث فى عبدالله بن معاوية من ان روح الاله حلت فيه ، ويرى

- (٢١) تصوف : مقدمة المترجم ، ترجمة .
 (٢٢) تاريخ تصوف در اسلام ٢١ ترجمة .
 (٢٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٩ .
 (٢٤) الملل والنحل ١/٢٤٧ .
 (٢٥) مروج الذهب ٢/٢٣٧ .
 (٢٦) الاخبار الطوال ٣٢٤ .

الدكتور عبدالعزيز الدورى ان حركة الخيرية لم تكن الا مزدكية مقنعة وان ابا مسلم لم يكن الا المنقذ الذى بشر به زرادشت (٢٧) . لقد كانت خراسان كما مر بنا موطناً لكثير جدا من الكوفيين والبصريين بل لقد رأينا الربيع بن خثيم يهجر الكوفة الى فارس ليشارك في الفتوح وكان يمثل الزهد الاسلامى الخالص . ولا بد ان افكار الزهد الكوفى الدائرة حول المجاهدة والخوف وافكار الزهد البصرى التى تتمثل فى الحب والبكاء قد انصبت فى خراسان بلد الظلم والحركات السرية والعقيدة الغالية . ثم اننا قد رأينا الجيش الفارسى الذى انهزم امام الجيش العربى الفاتح فى القادسية يضم زهادا من الفرس ، وذلك يعنى قدم الزهد فيها وسبقه على الاسلام ، وهذا هو تفسير عودة اصحاب ابراهيم بن ادهم من الشام الى مدينة بلخ الخراسانية (٢٨) ، ذلك انهم ارادوا ان يلائموا بين زهدهم القديم والزهد الاسلامى الجديد ليؤسسوه فى خراسان وينظموه ويحققوا منه هدفهم .

وكان للفرس « نزعة صوفية من مختلف المذاهب تحاول التوفيق بين الاديان وتمزج الدين بالفلسفة » (٢٩) كما يقول دى بور الذى يضيف الى ذلك ان « انوشروان (٥٣١-٥٧٩) اسس فى جنديسابور معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ، وكان معظم اساتذته من المسيحيين النسطوريين » (٣٠) « وآوى سبعة من فلاسفة المذهب الافلاطونى الحديث ، جاء بهم من ائتنا » (٣١) ، ومن المعلوم ان فى الاسماعيلية والتصوف تلك الاصول من الفلسفة الافلاطونية الحديثة . ومهما يكن من شىء فقد اغفل مؤرخو الزهد والتصوف التطرق الى ذكر الزهاد الاقدمين فى فارس وخراسان ، وكان عطاء ابو مسلم اقدم من

-
- (٢٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٨٩
 - (٢٨) الملامتية والصوفية واحل الفتوة ٣١
 - (٢٩) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٢
 - (٣٠ ، ٣١) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٨

ارخوا له وقد توفي سنة ١٣٥/٧٥٢-٥٣^(٣٢) وكان من بلخ • وبذلك يتبين لنا ان الزهد في فارس وخراسان قد تأخر ظهوره الى بداية القرن الثاني على الأقل ، وهذا يعني ان خراسان قد عكست لنا الزهد الصوفي قبل ان تتطور بالزهد الاسلامي البسيط الذي لم يذقه الفرس ولم يدركوا كنهه وفلسفته التي ذكرناها لمناسبة الزهد الاسلامي • ولهذا فاننا نجد بداية الزهد في خراسان وفارس على صورة تختلف عن طراز الزهد الاسلامي ويتجلى ذلك صورة في زهد ابراهيم بن ادهم الذي نبهته في السطور التالية :

ابراهيم بن ادهم :

لقد تزهد ابراهيم بن ادهم - وكان ابوه من ملوك خراسان - لا لانه مسلم يطبق مثل الاسلام التي تملى على المسلم ان يتواضع في مأكله وملبسه وخلقه بل وجدناه يتزهد لانه سمع نداء الهيا من قبروس سرجه يقول : « والله ما لهذا خلقت ولا بهذا امرت »^(٣٣) ، وتلك قصة تذكرنا بنبو موسى حين حدثه الله من الشجرة وان كان الباحثون يصلون بين ابراهيم وبوذا • ورأينا شقيقا البلخي يتوب عن التجارة بعد ان بين له تركي في بيت الاصنام تهافت حجته في طلب الربح من التجارة مع ادعائه ان له خالقا قادرا على كل شيء^(٣٤) • ورأينا الفضيل بن عياض - وهو خراساني كما مر بنا - يتوب ايضا لدى سماعه قرآنا وهو يصعد الى جاريه كان يعشقها • ثم اتنا نلاحظ ان شيوخ الزهد الصوفي الخراساني وهم ابراهيم بن ادهم وعبدالله بن المبارك وشقيق البلخي كانوا من الأغنياء وابناء الامراء ولعل ذلك يعكس لنا ما نزل بالفرس من هوان ويوضح ان الزعامة الزهدية لم تكن لمجرد التلبس بالفقر وانما اقترنت به امور لها مدخل الى السياسة والمقاومة ، وآية ذلك ما نطق به ابراهيم بن ادهم حين مد رجله مستريحا

(٣٢) صفة الصفوة ٤/١٢٥ •

(٣٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٨ •

(٣٤) صفة الصفوة ٤/١٣٣ •

فى نهر الاردن : « لو علم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدوناه عليه بالسيوف » (٣٥) . ومع هذه البدايات الغربية للزهد الخراسانى فاننا نجد ابراهيم بن ادهم ينزل البصرة والاسكندرية ومكة ويعيش فى الشام (٣٦) فىكون بذلك قد صدر عن سياحة كانت معروفة حينئذ فى الكوفة عند سفبان الثورى الذى كان من شيوخ ابراهيم بن ادهم كما مر بنا . وقد تأثر ابراهيم بن ادهم بالزهد البصرى كذلك فكان اساتذته كلهم - فى رأى الدكتور ابو العلا عفيفى - من رجال البصرة (٣٧) ، وبدا اتصال الزهد الخراسانى بالتشيع الكوفى حين وجدنا عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٩/٨٠٨ يترك خراسان حيث غناه ومنزلته الى الكوفة الشيعية لينقطع الى الله فى بيته (٣٨) ، ولعله ليس من السذاجة ان نسمعه يصف الزهاد بانهم الملوك (٣٩) . وقد صدر الزهاد الخراسانيون عن ولاية واضحة حين قال قائلهم : « ان كنت تحب ان تكون وليا فذع الدنيا والاخرة ولا ترغبن فيهما ... » (٤٠) وذلك قول يعكس الحب البصرى وولاية سفبان الثورى التى رأيناها منبثقة من التقليد الزيدى فى اطلاق الامتياز الروحى للمسلمين جميعا دون قصره على صفة ممتازة هم ابناء على الارشدين . ثم اننا نجد ابراهيم بن ادهم يقول حين اجاب البصريين عن علة عدم استجابة الله لدعائهم بانهم « يعرفون الله ولا يطيعونه » (٤١) . الخ ، وتلك مقالة تذكرنا بقول جعفر الصادق فى اجابته على السؤال نفسه لانكم تدعون من لاتعرفونه » (٤٢) وكان ابراهيم بن ادهم يلبس الصوف أو العباء (٤٣) وذلك شعار زهاد الكوفة

-
- (٣٥) المصدر نفسه ١٢٤/٤ .
(٣٦) طبقات الصوفية ٣٠ .
(٣٧) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ .
(٣٩) صفة الصفة ٤/١٠٩ .
(٤٠) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢٢ .
(٤١) تذكرة الاولياء ١/٨٦ .
(٤٢) الرسالة القشيرية ٦٨ .
(٤٣) كشف المحجوب ص ٥١ ، صفة الصفة ٤/١٢٧ .

الصادرين عن التشيع ، وليس من الغريب ان يصدر ابراهيم بن ادهم عن تلك
 المثل وهو الذى نشأ فى بيئة شيعية فيها الاسرار والمثل الروحية • ويؤكد
 الخوانسارى هذا الاتجاه فيروى نقلا عن كتاب مجالس المؤمنين ان ابراهيم
 « انتهى فى ايام سياحته الى خدمة مولانا الباقر (ع) بمكة المشرفة واخذ عن
 بركات انفاسه ما اخذ» (٤٤) وينقل كذلك عن عدة الداعى لابن فهد الحلبي
 (المتصوف الشيعي المتوفى سنة ١٤٣٧/٨٤١-٣٨) « انه لقي جعفر الصادق
 عليه السلام فى الكوفة » (٤٥) • بل ان ابا نعيم يدعى دعوى غريبة مستحيلة
 التحقق وهى ان ابراهيم بن ادهم رأى على بن ابي طالب كرم الله وجهه (٤٦)
 ويذكر انه كان من العرب من بنى عجل (٤٧) وتلك محاولة اخرى للربط
 بين التشيع وبين زهد ابراهيم بن ادهم لانه قد مر بنا ان قبيلة بنى عجل
 كانت مشهورة بالغلو فى التشيع وانها قد اتخذت ذلك حرفة ووسيلة للملك
 ومن اخطر ما يصل زهد ابراهيم بن ادهم بالتشيع انه كان يرى نفسه
 معصوما كائمة الشيعة الذين عاصروهم وقد بدا شئ من ذلك فى قصة تزهد
 التى بدت كأنها تكليف من الله بذلك ، وقد قال ابراهيم بنفسه فى قصة توبته
 التى يوردها ابو نعيم : جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لاعصيت الله بعد
 يومى ذا ما عصمنى ربي» (٤٨) وذلك تصريح ظاهر التعبير عن العصمة
 الشيعية • ومما يزيد هذه الصلة وثوقا ان ابن ادهم قد عاصر جعفر الصادق
 الذى دارت حوله العصمة واوجبهها له هشام بن الحكم كما مر بنا فى عرضنا

(٤٤ ، ٤٥) روضات الجنات • ٤٠

(٤٦) حلية الاولياء ٨/٤١ •

(٤٧) المصدر نفسه ٧/٣٧٣ •

نقلا عن ابي قتيبة (عيون الاخبار ٢/٣٣٠) • واورد الخوانسارى

نسبه فى بنى عجل على الوجه التالى :

ابراهيم بن ادهم بن منصور بن ثعلبة بن سعد بن حلام بن عزية

بن اسامة بن ربيعة بن ضبيعة بن عجل بن لجيم (روضات الجنات ص ٣٩) •

(٤٨) حلية الاولياء ٧/٣٦٨ •

للإمام جعفر الصادق وعصمته • وقد لاحظ الدكتور أبو العلا عفيفي أفاضة إبراهيم بن أدهم في الكلام عن التوكل الصوفي والرجوع إلى الله في كل شيء^(٤٩) وتلك خطة الشيعة في جوهرها لأن التوكل كما مر بنا إنما هو تسليم لله وأوامره كلها بكل ما فيها من تنوع كالجبر والشفويض مثلا • وقد رأينا الشيعة يتحامون أن يختاروا وجهة معينة وإنما بقيت في عقيدتهم كل مثل الإسلاميه مجتمعة وهذا هو التوكل الحقيقي المجرد • ومما يؤيد هذا الرأي أن أبا طالب المكي قد استشهد للإيمان الذي هو التسليم في رأيه بقولين للإمام جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر^(٥٠) •

شقيق البلخي :

وكان شقيق البلخي المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-١٠ من أفضل تلامذة إبراهيم بن أدهم^(٥١) ، وقد تاب وترك التجارة كما تاب استاذه وترك الامارة والجاه ، ولكن شقيقا تاب مرة اخرى حين ذكره عبدالعزيز بن ابي رواد المتوفى سنة ١٥٩/٧٧٥-٧٦ بانه « ليس الشأن في اكل الشعير ولا لباس الصوف والشعر • الشأن في المعرفة وان تعبد الله ولا تشرك به »^(٥٢) وفسر ذلك بان « يكون جميع ما عمله خالصا لله »^(٥٣) وبذلك سار شقيق بالزهد شوطا الى التصوف بتركة الظاهر واتخاذ الزهد الباطن فنقل الزهد من الجوع الشامي والصوف الكوفي والبكاء البصري الى أمر قلبي باطن ، فكان ان زاد لصوق زهد شقيق بالتوكل فرأيناه في اجلى صورته عند تلميذه حاتم الاصم الذي كان يقول : « فما هو الا ان تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه مالم تروا من الالباء والامهات »^(٥٤) ولهذا فليس من الغريب ان يظننه السلمى اول من تكلم في علوم الاحوال بكور خراسان^(٥٥) • وقد ظهرت

(٤٩) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ •

(٥٠) قوت القلوب ٣/٢ •

(٥١) في كشف المحجوب ١٣٨ بنسبه الهجویری الى الازد •

(٥٢ ، ٥٣) صفة الصفوة ٤/١٣٣ •

(٥٤) صفة الصفوة ٤/١٣٦ •

(٥٥) طبقات طبقات الصوفية ٦١ •

الولاية واضحة فيه بحيث وجدناه قد سافر مرة وفي صحبته ثلاثمائة فقير من العباد والزهاد (٥٦) ، بل لقد توسل المأمون اليه بنفسه حتى اجتمع به (٥٧) .

وقد ظهرت الان رسالة المتصوفة موازية لرسالة العلماء ، فوجدنا شقيقا البلخي يقول : « الرعاة في كل عصر العلماء والصوفية » (٥٨) . وبينما يرى الجامي انه كان سنيا صادقا من طلاب الامام زفر (٥٩) يورد الخوانساري انه كان « من تلامذة الامام الهمام موسى بن جعفر وله الرواية عنه ايضا ، وانه استشهد في بلاد ما وراء النهر بتهمة الرفض (٦٠) ولكن الخوانساري ليس واثقا من نقوله (٦١) غير ان ملاك الامر في الفكرة التي يحملها شقيق وهي فكرة التوكل الذي هو الاستقلال الروحي عن المطالب المادية وقد رأيناه مستمدا من الاستقلال الشيعي في العقيدة وتحامي تبني فكرة معينة من الاسلام - مما ورد في القرآن - دون فكرة اخرى . وقد كان شقيق - على عادة الصوفية - يرى خصوصية على بالعلم المخصوص وتلك فكرة متصلة بالتشيع في جذورها وقد تمنى شقيق للمأمون في وعظه له بلوغ هذا المقام ودعا له بقوله : « واحلك محل على كرم الله وجهه ويطلب (كذا) منك العلم والعدل كما كان » (٦٢) .

(٥٨-٥٦) الكواكب الدرية ١/١٢١ .

(٥٩) نفحات الانس ٥١ .

(٦٠) روضات الجنات ٣٢٨ .

(٦١) ينقل الخوانساري هذا الخبر عن مجالس المؤمنين (طبع طهران ١٢٦٨ ، ص ٢٥٣) مع انه طعن في اخبار مؤلفة (روضات الجنات ١٨١/٣) . وقد ذكر القشيري اشتراك شقيق البلخي في حرب الترك (الرسالة القشيرية ، مصر ١٣١٨ ، ص ١٦) وذكر الجامي استشهاده في ولاية ختلان (نفحات الانس ص ٥٠) ومن هنا أخذ صاحب مجالس المؤمنين الاشارة فحوورها الى الرفض . ولكن ابن العماد ذكر في حوادث سنة ١٩٤ انه استشهد في غزوة وهذا هو المعقول (شذرات الذهب ٣٤٠/١) .

(٦٢) الكواكب الدرية ١/١٢٢ .

اما بعد فقد كان الزهاد لا يرتضون خراسان سكنا - على ما خرج فيها من زهاد ومتصوفة - ويذكر لنا الكلاباذي « ان الشيوخ كانوا يهجرون الفقير لثلاث : اذا حج عن غيره بمال ، واذا اتى خراسان واذا دخل اليمن . وقالوا : من اتى الى خراسان لم يأتها الا للرفق ليس بها مباح فيطيب مطعمه » (٦٣) ، وكان سفیان الثوري لا ينزلها لان فيها « مذاهب مختلفة وآراء فاسدة » (٦٤) ، وبذلك يصدر زهد خراسان عن بيئتها الفاسدة كما صدر زهد الكوفة والبصرة على الخصوص . ولهذا وجدنا ابراهيم بن ادهم وابن المبارك والزهاد الستين يتركونها ، وقصد ابراهيم بن ادهم الى الشام طلبا للحلال (٦٥) . ويجب ان نقرر في ختام عرضنا للزهد في خراسان باننا لم نستقصه لانه متأخر وقريب من التصوف ، وسنبحث كثيرا من اموره حين نبلغ مرحلة المقارنة بين المثل الصوفية والشيعة في الفصول القادمة . ويهمننا هنا ان نبين ان الزهد في خراسان قد صدر عن رواسب قديمة فارسية وغير فارسية مزجت مزجا خفيفا بالزهد الاسلامي المتأخر ، وهذا هو السبب في انه اسرع الى التطور الى التصوف وفي ان متصوفة خراسان او الفرس على العموم هم الذين بلغوا بالتصوف مداه . وقد وجدنا في هذا الفصل ان التوكل والولاية قد تطورا هنا بفعل المثل الشيعة التي ملأت خراسان ايام الكفاح ضد الفتح العربي الذي لم يتم الا مؤخرا على يد الامويين ممن لم يرعوا لله حرمة في الخراسانيين فكان ان احسوا برد فعل ادى بهم الى تبني التشيع والتصوف لحماية كيانهم ورد الفاتحين على الاعقاب .

(٦٣) التعرف ١١٣ .

(٦٤) قوت القلوب ٣/ ١٨٠ .

(٦٥) قوت القلوب ٢/ ١٩٧ .

الفصل السادس

الزهد في مصر

مقدمة :

ليس غرضنا من كتابة هذا الفصل استقصاء ما كان للزهد من منازع ومشارب في مصر وانما دفعنا الى ذلك التزام التسلسل في عرضه والبحث عن الآثار الشيعية في زهد مصر . فمن المعروف ان المصريين كانوا من زعماء الثائرين على عثمان ، وقد اخبرنا المسعودي انه قد قتل عثمان رجلان منهم هما : كنانة بن بشر التجيبي وسودان بن حمران المرادي (٦٦) ، ومن المتفق عليه ان هدف الثوار على عثمان كان المحافظة على المثل الاسلامية التي تمثلت في خلافة ابي بكر وعمر ومحاربة الارستقراطية القرشية القديمة التي ارادت ان تميل بالاسلام الى الملكية الطبقية بعد المساواة والديمقراطية ، فكانت مصر - شأن العالم الاسلامي - منذ البداية تريد الاسلام خالصا ومثلا مطبقة لا أقوالا ليس تحتها عمل . وهذا كله يعني ان مصر قد تحسست الاسلام على حقيقته وارادته ان يكون كذلك ومن هنا يفترض ان يظهر الزهد في مصر على صورته الاسلامية التي رأينا حدودها في الفصول السابقة (٦٧) .

(٦٦) مروج الذهب ٤٤٢/١ .

(٦٧) ومما ينبغي ان نذكره ان عبدالرحمن بن ملجم - قاتل علي - كان مصريا ايضا (ابن الاثير ، اوربا ، ٣/٣٢٦) وهو يبين حساسية المصريين الشديدة تجاه ما كانوا يرونه الطريق السوي الى تطبيق مثل الاسلام ، فكان منهم الثائرون على عثمان ثم كان منهم اوائل متطرفي الخوارج فيما بعد .

وقد ذكرت ام الهيثم بنت الاسود النخعية - التي احرقت جثة ابن ملجم بعد قتله - حقيقة سبق المصريين الى الزهد وعكوفهم على العبادة في رثائها لعلی فقالت :

لعمري لقد اصحاب مصر
وعزونا بانهم عكوف
على طول الصحابة أوجعونا
وليس كذاك فعل العاكفين
(مقاتل الطالبين ص ٤١) .

الزهاد :

لقد اهتمل المؤرخون واصحاب السير الاشارة الى زهاد مصر الاوائل وقصروا همهم على اخبار اخوانهم في الكوفة والبصرة فشحت الاخبار وتقلصت النصوص التي تحدد ملامح الزهد المصري في القرن الاول . وقد روى ابن الجوزى سيرة زاهد من قبيلة قاتل عثمان وكان دعاء من البكائين وكان ضيق الحال جدا ، ذلك هو حيوة بن شريح التجيبي (٦٨) . وروى ابن الجوزى ان زاهدا آخر - هو الفضل بن فضالة - كان مجاب الدعوة وكان مع ضعفه طويل القيام (٦٩) وكان - الى ذلك - قاضيا .

الليث بن سعد :

وكان في مصر زاهد من طراز جديد هو الليث بن سعد مولى قيس الذي استقل بالفتوى والكرم (وقد توفي سنة ١٧٥/٧٩١-٩٢) وكان رقيق العاطفة ، سمع وعظ منصور بن عمار فتأثر به وقال له : « كأنك فتت عضوا من اعضائي » (٧٠) . ويستتج من سيرة الليث انه استقل بالفتوة مع الفتوى لان الاخبار التي دارت حوله تبين كلها فتوته التي اقترنت بالسخاء والمروءة ، وقد اوضح لنا هذا طلب مالك بن انس من الليث ان يرسل اليه شيئا من العصفر (٧١) وهو المادة التي تصبغ بها الثياب وكان من علامات لباس القراء والفتيان في الكوفة قبل ذلك (٧٢) .

لقد روى عن الليث اتصاله بجعفر الصادق وقد صورت هذه الصلة على شكل قصة يرويها هو ويتبين منها مدى ما كان للصادق من مقام عند الزهاد في سائر الاقطار الاسلامية في القرن الثاني الهجري خاصة حتى ليبدو الصادق من اولياء الله اصحاب الكرامات وهو هنا بدل من الابدال قال الليث بن سعد : حججت سنة ١١٣/٩٣١ فانتيت مكة ، فلما صليت العصر رقيت أبا قيس واذا

(٦٨) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ .

(٦٩) صفة الصفوة ٣/٤٧ .

(٧٢-٦٠) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ .

انا برجل جالس وهو يدعو ، فقال : يارب يارب ، حتى انقطع نفسه ، ثم قال :
 الله حتى انقطع نفسه . . . ، ثم قال : اللهم انى اشتهى من هذا العنب
 فاطعمينه اللهم وان بردى قد اخلقا . قال الليث : فوالله ما استتم كلامه حتى
 نظرت الى سلة مملوءة عبا - وليس على الارض يومئذ عنب - وبردتين
 جديدتين موضوعين ، فاراد ان يأكل ، فقلت : انا شريكك ، فقال لى : ولم ؟
 قلت : لانك كنت تدعو وانا أو من فقال لى : تقدم فكل ، واذا هو عنب لاعجم له
 فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص ، ثم قال لى : خذ احب البردين اليك فقلت
 اما البردان فانا غنى عنهما فقال لى : نوار حتى اليسهما فتواريت فاتزر بالواحد
 وارتدى بالآخر ، ثم اخذ البردين اللذين كانا عليه فجعلهما على يده ونزل
 فاتبعته حتى اذا كان بالمسعى اذ لقيه رجل فقال : اكسنى كسالك الله ، فدفعهما
 اليه فلحقت بالرجل فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا جعفر بن محمد . قال
 الليث : فطلبته لاسمع منه فلم اجده (٧٣) .

الحسن بن خليل :

وكان الحسن بن خليل - المعاصر لليث بن سعد - كثير البكاء مصفر
 اللون وكان مستغرقا فى العبادة حتى شغلته عن رواية الحديث ، وكان
 اذا قرأ القرآن غشى عليه (٧٤) ، وقد نسب الى الحسن هذا انه كان يندمج على
 قوة روحية استطاع بها ان « يمر على مكة فى كل ليلة » (٧٥) ولعل ذلك
 كان مما يشارك فيه زهاد مصر عندئذ . وقد شارك الحسن فى رفته عبدالله بن
 وهب المتوفى سنة ١٩٧/١١٢-١٣ ، وقد روى عنه انه قرىء عليه كتاب احوال
 القيامة « فخر مغشيا عليه ، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بايام » (٧٦) .

الصلوات بين الكوفة ومصر :

وكانت الكوفة ذات تأثير كبير فى زهد مصر وكانت مثل الزهد فيها هي

(٧٣) مطالب السؤول فى مناقب آل الرسول ٣٣٦ .

(٧٤ ، ٧٥) صفة الصفوة ٤/٢٩٣ .

(٧٦) حلية الاولياء ٨/٣١٩ .

مثل الكوفة كما يتضح ذلك من الامثلة التي اوردناها • يضاف الى هذا انه قد كان في مصر قوم ينتحلون صناعة الكيمياء كما كان الامر في الكوفة ، بل لقد اخبرنا ابن النديم ان عثمان بن سويد الاخيمي كان من تلامذة جابر بن حيان الكيماوى الكوفى (٧٧) وتلميذ جعفر الصادق ، واخبرنا ابن النديم انه « كان مقدما في صناعة الكيمياء ورأسا فيها » (٧٨) واورد ان له كتاب «صرف التوهم عن ذى النون المصرى» (٧٩) فدل على اتصاله به وبخاصة انهما كانا من مدينة واحدة هي اخميم (٨٠) • واذا وصلنا بذلك ما يرويه القفطى من ان « ذا النون من طبقة جابر بن حيان فى اتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم » (٨١) ، وان حاجى خليفة قد ذكر ان لذى النون قصيدة فى الكيمياء شرحها ايدمر بن على الجلدكى (٨٢) ، تبين لنا الى اى حد اتصل الزهد المصرى بالكوفى واخذ عنه • ومن امارات الصلة بين الزهدين ان كلمة « صوفى » ظهرت فى الكوفة اولا ولم تطلق على أحد فى الاقطار الاسلامية - فيما عدا الكوفة - الا فى مصر حيث دارت حول ابي عبدالله الصوفى الذى شارك صحبه الاندلسيون فى الثورة الهادفة الى الامر بالمعروف وكان ذلك فى الاسكندرية سنة ١٩٨/٨١٣-١٤ (٨٣) • ويبدو ان عبدالله قد خيب ظن اصحابه فيه وفى زهده وعدله لانه « كان يسفك الدماء ويقتل المسلمين » (٨٤) فاضطروا الى عزله • وهكذا اقترن لفظ صوفى بالزاهد المصلح الداعى الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك مبدأ كان قديما فى مصر ولعل اندفاعهم الى الثورة على عثمان يتصل بذلك •

وقد يتساءل متسائل : ما العلاقة بين الكوفة ومصر ولم يكن للاخيرة

-
- (٧٧-٧٩) الفهرست ٥٠٠
 - (٨٠) المصدر نفسه ٥٠٥
 - (٨١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٢٧
 - (٨٢) كشف الظنون ٥٣٨/٤
 - (٨٣ ، ٨٤) تاريخ يعقوبى ١٧٤/٣

اتصال بعلى ولا بأحد من ابنائه طوال الحكم الاموى ؟ لقد ظهر من روايات الكليني انه قد كان فى مصر شيعة امامية فى بداية القرن الثالث الهجرى ولعلمهم وجدوا قبل ذلك ، فقد روى لنا ان على بن اسباط - وهو شيعى مصرى ولعله اخو يوسف بن اسباط. الزاهد الذى يروى عن سفيان الثورى - قد ذهب الى مقر الامام محمد الجواد الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٧ وقد اوتى الامامة وله من العمر سبع سنين ، وقال : « خرج على فنظرت الى رأسه ورجليه لاصف قامته لاصحابنا بمصر » (٨٥) وابن اسباط يروى ذلك فى سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ أى ايام المأمون . وروى المسعودى ان مصر - لقربها من الحجاز - كانت ملجأ ومقصدا للثوار العلويين وحدثنا فى اخبار سنة ٢٥٢/٨٦٦ انه « قدم الى سامراء عيسى بن الشيخ الشيبانى من مصر ومعه مال كثير وستة واربعون رجلا من سائر ولد ابى طالب من ولد على وجعفر وعقيل كانوا خرجوا من الحجاز خوف الفتنة والجهد النازل بهم بالحجاز الى مصر فحملوا منها ، فامر المعتز بتكفيهم والتخلى عنهم لما وقف من امرهم » (٨٦) . وقد تار ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن على بن ابى طالب المعروف بابن الصوفى بصعيد مصر وملك مدينة اسنا كما يروى ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٥٦/٨٧٠ (٨٧) اى بعد تسليم الشيبانى للعلويين باربع سنين والملاحظ. فى نسب ابن الصوفى انه من نسل ابن الحنفية وهذا يعنى ان حركته لم تكن زيديية ولا امامية ولا اسماعيلية لان هذه الفرق تقصر الامامة على نسل على من فاطمة ، فلا بد - بناء على ذلك - ان يكون انصار ابن الصوفى من الغلاة خلف انصار ابى هاشم الاسبقين وتلك ناحية اخرى لها اتصال بالكوفة وافكارها . والمهم فى امر ابن الصوفى ان جيشه التقى بجيش احمد بن طولون

(٨٥) اصول الكافى ١٣٢ .

(٨٦) مروج الذهب ٤٢٨/٢ .

(٨٧) تاريخ الكامل ابن الاثير ٩٥/٧ .

في نواحي اخميم^(٨٧) بلد ابن سويد وذى النون مما يوضح ما اشرنا اليه من وجود البذرة الشيعية والانصار في مصر قبل ذلك ويفضح اتصال الكوفة بها منذ زمن ، ولعل في انتقال الشافعي من الكوفة الى مصر دليلا آخر على هذا الارتباط والتبادل بين المصريين^(٨٨) وروى لنا الخوانساري عن رجال من فقهاء الامامية كانوا يسكنون مصر واردين من الكوفة من امثال ابي الفضل الصابوني الذي كان زيديا وعاد اماميا وكان له منزلة بمصر^(٨٩) ومحمد بن محمد بن الاشعث الكوفي الساكن بمصر * وكان من اعظم فقهاء الامامية منصوصا على امامته ووثاقته في رجال النجاشي * * * وله من المؤلفات كتاب الجعفریات الذي تضمن الف حديث بالاسناد المتصل كلها عن مولانا الصادق في كثير من ابواب الفقه * * * *^(٩٠) ولعل على بن اسباط قد كان كوفيا ايضا فانقل الى مصر .

اما بعد فقد كتبنا هذا الفصل الصغير للتدليل على الاتصال بين مصر والكوفة وتأثر مصر بالتشيع وصدورها عن منزع الكوفة الزهدي قبل نزول الفاطميين فيها وتأسيس دولتهم * ولم نتطرق الى ذكر ذى النون وما في تصوفه من آثار شيعية لانه معدود في المتصوفة لافي الزهاد فان ذكره سيرد في باب التصوف في موضعه المناسب .

(٨٨) وقد كان الشعراني نفسه من نسل محمد بن الحنفية (الكواكب الدرية ، مخطوط محفوظ في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم Add. 2369) ولعله كان من احفاد الثائرين الصوفيين بمصر .

(٨٩) روضات الجنات ٥٥٤ .

(٩٠) روضات الجنات ٥٥٤ .

ثبت الجزء

أ - ب	تصدير
٥ - ٣	تمهيد
(٢٥٢ - ٧)	الباب الاول : التشيع

(٨٤ - ٨)	الفصل الاول : مقدمات في التشيع
٨	التشيع لفظا واصطلاحا
١١	متى ظهر التشيع
١٨	الشيعة الاولون
٢٠	سلمان الفارسي
٢٨	ابو ذر الغفاري
٣٣	عمار بن ياسر
٤٢	حذيفة بن اليمان
٤٨	المقداد بن اسود
٤٩	الشيعة الاخرون
٥٣	الامام علي

(١٢٥ - ٨٥)	الفصل الثاني : تميز التشيع وتطوره
٨٥	الشيعة بعد علي
٩٣	الحسين وحركته
١٠١	الشيعة بعد الحسين
١٠٧	محمد بن الحنفية
١١٥	الرجعة
١٢٠	الكيسانية
١٢٢	ابو هاشم بن محمد بن الحنفية

الفصل الثالث : الغلو والغلاة

(١٢٦ - ١٥٢)

١٢٦

مقدمة

١٢٨

بيان بن سمعان النهدي

١٣٠

المغيرة بن سعيد العجلي

١٣٤

ابو منصور العجلي

١٣٠

عبدالله بن معاوية

١٤١

ابو الخطاب الاسدي

١٤٦

هشام بن الحكم

١٥٠

النصيرية

(١٥٣ - ٢٠٥)

الفصل الرابع : عودة الى تطور التشيع

١٥٣

علي بن الحسين

١٦٩

محمد الباقر

١٧٧

زيد والزيدية

١٨٧

جعفر الصادق

(٢٠٦ - ٢٥٢)

الفصل الخامس : تشعب التشيع التقليدي واستقراره

٢٠٦

الاسماعيلية

٢٢٧

الامامية وائمتهم

٢٤٢

المهدي

(٢٥٤ - ٣٦٢)

الباب الثاني : الزهد

(٢٥٥ - ٢٦٧)

الفصل الاول : الزهد عموما

٢٥٥

مقدمة في الزهد العام والزهد الاسلامي

(٢٦٨ - ٣٠٦)

الفصل الثاني : الزهد في الكوفة

٢٦٨

تمصير الكوفة وعناصرها

٢٧٦	الزهد الاسلامى فى الكوفة
٢٨٠	الصوف
٢٨٦	اول من تسمى صوفيا
٢٨٦	جابر بن حيان
٢٨٩	ابو هاشم الكوفى
٢٩٢	عبدك الصوفى
٢٩٣	انتظام الزهد فى الكوفة
٢٩٣	سفيان الثورى
٢٩٧	داود الطائى
٢٩٩	الفضيل بن عياض
٣٠١	فرقد السبخى
٣٠٣	الفتوة الكوفية
(٣٠٧ - ٣٣٢)	الفصل الثالث : الزهد فى البصرة
٣٠٧	تمصير البصرة وبيتها
٣١٠	اسس الزهد فى البصرة
	الزهد الاسلامى : الاحف بن قيس وعامر بن
٣١٣	عبدالله بن عبد قيس
٣١٥	الحسن البصرى
٣٢١	مظاهر الزهد البصرى الجديدة
٣٢٢	الحب
٣٢٢	المحبون
٣٢٤	رابعة العدوية
٣٢٧	الوعظ والوعاظ فى البصرة
٣٢٨	عبدالواحد بن زيد
٣٢٩	مالك بن دينار
٣٣٠	خاتمة

الفصل الرابع : الزهد في الشام

اليئة الشامية

الزهد والزهاد

عمر بن عبدالعزيز

ابو سليمان الداراني

كعب الاحبار

خاتمة

الفصل الخامس : الزهد في خراسان

اليئة الخراسانية

الزهد والزهاد

ابراهيم بن ادهم

شقيق البلخي

خاتمة

الفصل السادس : الزهد في مصر

مقدمة

الزهاد

الليث بن سعد

الحسن بن خليل

الصلوات بين الكوفة ومصر

(٣٣٣ - ٣٤٤)

٣٣٣

٣٣٥

٣٣٩

٣٤١

٣٤٣

٣٣٤

(٣٤٥ - ٣٥٦)

٣٤٥

٣٤٩

٣٥١

٣٥٤

٣٥٦

(٣٥٧ - ٣٦٢)

٣٥٧

٣٥٨

٣٥٨

٣٥٩

٣٥٩

تصويبات

لم يكن في الوسع تجنب كثير من الاخطاء المتصلة باثبات همزة ابن وحذفها وليست القاعدة بخافية على القارىء . وقد اختل في بعض الاحيان توزيع النقاط على الحروف وذلك مما لا يخفى على القارىء اللبيب ايضا . ولكثرة ما وقع من هنات مطبعية اولا ولقدرة القارىء على تلافيها ثانيا سنقتصر في هذا الجدول على الضرورى منها .

أ - يضاف العنوان « ابو هاشم بن محمد بن الحنفية » على ما قبل الفقرة الثانية في ص ١٢٢ ، ويضاف العنوان « موسى بن جعفر الكاظم » الى ما قبل الفقرة الثانية من ص ٢٣٠ ، والعنوان « على بن موسى الرضا » الى ما قبل الفقرة الثالثة من ص ٢٣٣ .

ب - تصوب الاخطاء المطبعية التالية .

الصفحة	السطر	الخطا	صوابه
١٠	١٦	صادر من	صادر عن
١٥	١٤	الصدف	المصادفات
٢٢	١٠	للزهد	الزهد
٢٦	٨	ويעות	ويموت
٢٣	١٢	الربذة	بالربذة
٢٨	٧	فقاله	فقال له
٣٩	٤ (هامش)	من طريق	من طريق
٤٥	٢٠	يرويه	يرويه
٥٢	١	بالناس	الناس
٥٦	٤	فاذا ابصرته ابصرتنى	فاذا ابصرتنى ابصرته
٥٦	٤	واذا ابصرتنى ابصرتنا	واذا ابصرتنا ابصرتنا
٦٣	٩	تتلمذه على النبى	تلمذته للنبى
٦٧	١٠	الصدفة	المصادفة
٨١	١٤	بلاء	بلاد
٨١	٤ (هامش)	المخطوط	المخطوط r. 364 فى
٩١	١٧	عمر	عمرو
٩٢	١٤	اقطار	افكار
١٠٤	٢	عمر بن قيس	عمرو بن قيس
١١٢	٣ (اسفل)	فرقة قالت بها اولا	(تحذف)
١١٤	١١	حديث	حديثا
١٢٤	١٤	أما ان	اما ابن

صوابه	الخطأ	السطر	الصفحة
صورة انسان	صور انسان	١٩	١٣٤
٢١٨	٣١٨	٧	١٤٤
آخرهم	آخرها	٢١	١٤٥
الزائدة على	الزائدة عن	٢١	١٤٩
لعلي	يعلي	١٣	١٥٠
فكان	فكانه	٢٦	١٥١
ولا يأمركم ان تتخذوا	ولا يأمركم الله ان تتخذوا	٨	١٥٢
ايأمركم بالكفر بعد اذ	ايأمركم الله بالكفر اذ	٩	١٥٢
فلم	فيم	١	١٦٩
٦٨	١٨	٢٣	١٧٤
ابى خالد الاحمر	ابن خالد الاحمر	١٥	١٨٤
ويفسر الصادق يسن	ويفسر الصادق ذلك	١٨	٢٠٢
لقوله (ص)	بقوله (ص)	١٩	٢٠٢
وكذا مقالات الاسلاميين		٢٢	٢٠٧
٢٧/١	الساعات	٢١	٢١٢
السبعات	ونفس هو كل	١٦	٢١٤
ونفس كل	خطط المقريزي ٢/٢٣٣	٢٢	٢١٨
خطط المقريزي ٢/٢٣١			
٢٣٣	مقمصاة	٩	٢٢٦
مقمصاة	اعادة الشيعة	١١	٢٢٧
اعاد الشيعة	وبعد انتهاء الوكالة التي	١٣	٢٢٩
وبعد انتهاء دور الوكلاء الذين	٩٣٨/١	١٥	٢٣٣
٣٨/١	ثم لما على ولي ولي عبدالله	١٩	٢٣٣
ثم لما ولي ولي عبدالله	وصفة للصورة	٢٤	٢٣٤
وصفه للصورة	منحولة عليها	٩	٢٣٧
منحولة عليهما	بيان السعادة	٢٢	٢٣٨
بيان السعادة : ١٩	مخالفونها	١٦	٢٤٠
مخالفونا	سنة ٢٥٦	١٠	٢٤٢
سنة ٢٥٦/٨٧٠	ولا يجوز ولا ولد	١٥	٢٤٤
ولا يجوز ان يموت ولا ولد	الامام الثاني	١٥	٢٤٧
الامام الثامن	ذكر	٧	٢٤٨
ذكره	الاعلاق النفسية	٢٥	٢٥٧
الاعلاق النفسية	مسامرة الاوائل	٢٦	٢٥٧
مسامرة الاوائل : ٧٠	تظاهرا ثم	١	٢٦٠
تظاهرا ثم	يقول سعد	١٩	٢٦٦
يقول بقول سعد	العائد	١٢	٢٦٧
العائد			

THE RELATION BETWEEN SŪFISM AND SHĪ'ISM.

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)



Al- Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ۱۹/۸/۱۹۶۳

THE RELATION BETWEEN SŪFISM AND SHĪ'ISM

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

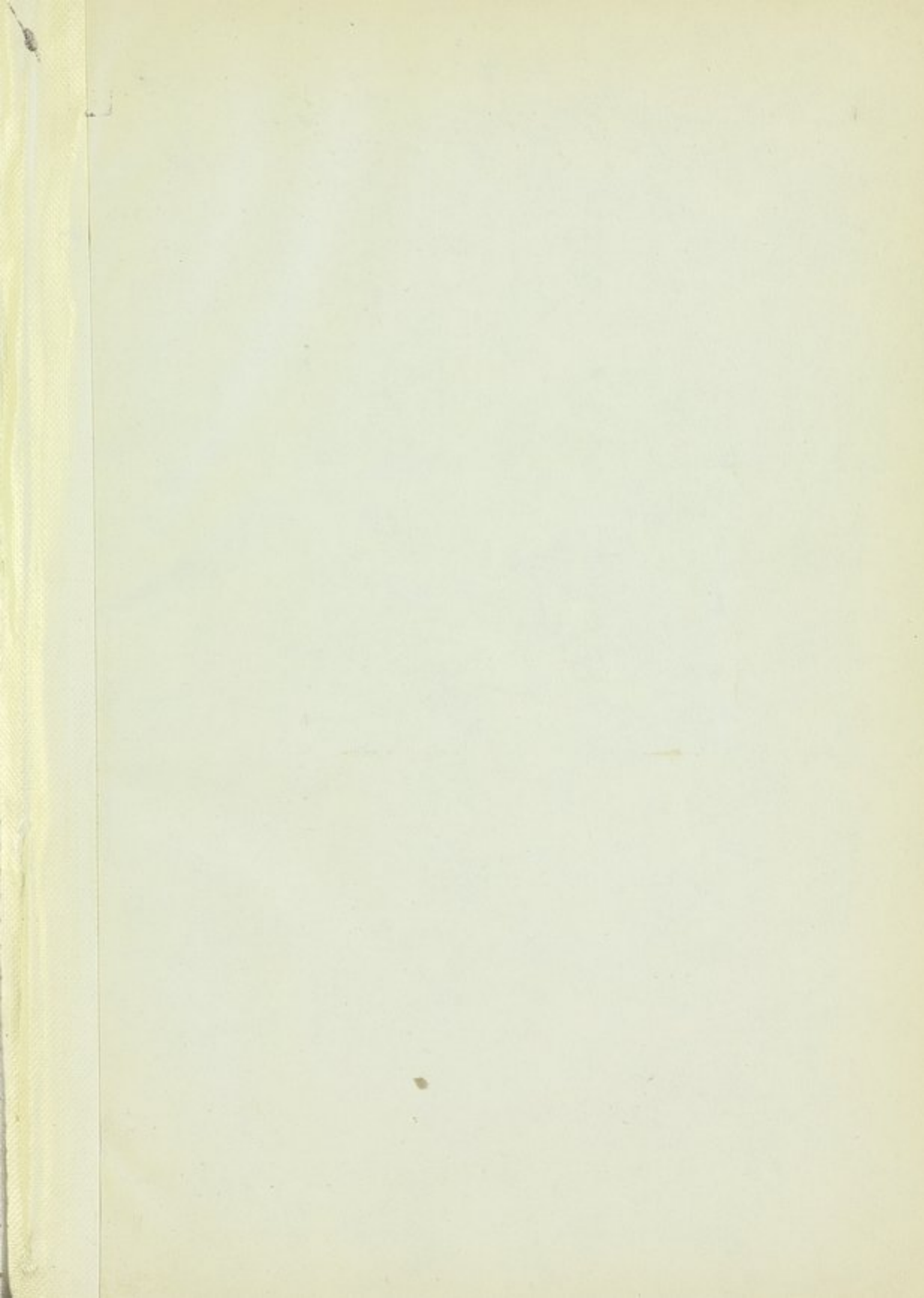
B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)

Al-Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ۱۹/۸/۱۹۶۳

الثمن : نصف دينار



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

